اتين دينيه

سليمان بن إبراهيم

محمد رسول الله

ترجمة

الإمام الأكبر
دكتور عبد الحليم محمود
شيخ الإسلام رضي الله عنه

دكتور محمد عبد الحليم
السفير السابق
بوزارة الخارجية

تمهيد

حياة ناصر الدين دينية وآراؤه

(١)
ناصر الدين والإسلام

نظرته الفنية والدينية

ولد الفونس إيتين دينيه[1] في باريس سنة ١٨٦١ وعاش رحمه الله فنانا بطبعه: كان مرهف الحس رقيق الشعور جياش العاطفة.

---

(١) ألفت السيرة بين الأستاذ الأديب راشد رستم والمغفور له ناصر الدين، وقد كان الأستاذ راشد أول من عرف المصريين به، فقد ترجم رسالته أشعة خاصة بنور الإسلام إلى اللغة العربية ونشرها في صورة جميلة، وحينما توفي ناصر الدين سنة ١٩٢٩ كتب الأستاذ راشد عنه مقالا في جريدة الأهرام وقد استأذنّاه في الانتفاع بالترجمة العربية لرسالة أشعة خاصة بنور الإسلام عند المناسبات التي تعرض خلال عملنا هذا وكذلك في نشر مقاله الذي كتب فيه بجريدة الأهرام فأذن بذلك راضياً مغتبطاً ولا يسعنا إلا أن نسجل له الشكر الجزيل راجين من الله أن يجزيه أحسن الجزاء وإليها يلي المقال المذكور: مات هذا المستشرق النابه وقد احتشد حوله لتوديعه الوداع الأخير العدد العديد من كبار قومه الرسميين ومن أصدقائه وعارفي فضله من أهله ومن غير أهله من ممثلي الشعوب الشرقية التي أحبها وخدمها وقد وجب علينا وإن كنا لم نقف هنالك في باريس مع الواقفين خاشعين أن نبعث إلى روحه تحيات السلام والاعتراف بالجميل.

أحب المسيو دينيه حياة العرب وهو ذلك الفنان الكبير فاتخذ له بينهم مقاما محمودا في بلاد الجزائر في تلك الواحة الهادئة الجميلة بوسعادة يتنقل إليه ويسكنه نصف العام كاملاً يرتاح للعرب وعوائدهم ويروح عن نفسه بينهم ويعجب بما في حياتهم من جلال تلك المناقب المأثورة عنهم وتلك المكارم المعروفة بهم والتي لا يصل إليها إلا عشاق الخيال السامي ولا ينشدها إلا أهل الفضائل العالية وقد وضع في حياة العرب كتابا جميلا جليلا ملأه باللوحات البديعة من ريشته القادرة ذات البلاغة في تصويرها والبيان في صنعتها.

والمسيو دينيه يبلغ من العمر سبعين عاما وهو من كبار أهل الفن ورجال التصوير وصاحب اللوحات الكبيرة النفيسة القيمة تزدان بها جدران المعارض الفنية وتحتفظ بها المتاحف الفرنسية الكبيرة وغيرها من متاحف العالم وله في متحف (لوكسمبورج) وهو متحف كبار المصورين المعاصرين بباريس عدة صور منها الصورة الشهيرة المعروفة باسم (هلال رمضان) وكذلك له صور في متحف (بو) وكذلك في متحف (سدني) باستراليا وغير ذلك كثير.

وجميع صوره تدل على القدرة الفنية الكبيرة في رسم الصحراء كما تدل على دقة التعبير عن الحالات النفسية المختلفة وهو ذو مركز خاص مشهود به بين إخوانه المصورين وامتاز عنهم بتخصصه في تصوير الحياة الإسلامية وبالأخص ما كان منها في بلاد الجزائر ،وقد درس الروح العربية وفهمها الفهم الصحيح حتى قيل عنه: إنه المصور الفريد بين إخوانه الذي يستطيع تمثيلها بالريشة والألوان والأصباغ أحسن تمثيل وهم يقولون عنه إنه المصور العربي.

وقد جمعت ترجمة المسيو دينيه وأعماله في معجم لاروس الكبير وفي مجلة هاشيت للفنون الجميلة وله عدة مؤلفات منها: كتاب حياة العرب الذي ذكرناه، ومنها كتاب السراب وكتاب حياة الصحراء وكتاب ربيع القلوب وكتاب الشرق كما يراه الغرب وكلها تشير إلى ما في طبيعته من الخلق الطيب وما يحمله في قلبه من الحب والتقدير للشرق والشرقيين.

ومن أهم كتبه ما جعله تاريخا لحياة الرسول سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وهو السيرة النبوية في مجلد =

وكان صاحب طبيعة متدينة أيضاً: كان كثير التفكير جم التأمل يسرح بخياله في ملكوت السموات والأرض يريد أن يخترق حجبه ويكشف عن مساتيره ويصل..... إلى الله.

كان فناناً يتملكه شعور ديني وكان دينيا بعمره ويسيطر عليه شعور فني وأمتزج فيه

---

* كتيب جليل وضعه باللغة الفرنسية وزينه بالصور الملونة البديعة الكثيرة المحتشدة من ريشته الخاصة يمثل فيها المناظر الإسلامية ومشاهد الدين ومعالمه وطبعه طبعا غاية في الإتقان والعناية وحتى أنه ليعد تحفة من تحف الطباعة.

كل ذلك كان تقديرا منه لموضوعه ثم أنه قدمه لأرواح الجنود الإسلامية التي استشهدت في الحرب الكبرى وهي تحارب في صفوف الفرنسيين ونشره كذلك باللغة الإنجليزية بنفس الحجم الكبير والإتقان التام والكتاب في طبعته قد تحلي بمختلف أنواع اللوحات الزخرفية الملونة ذات الأشكال العربية غاية في الدقة والإبداع وهي الزخرفات التي قام بعملها خاصة لهذا الكتاب السيد: محمد راسم الجزائري أشهر رجال الزخرفة العربية والذي أشار إليه المسيو الأزار الأستاذ بجامعة الجزائر ومدير متحفها وذلك في المحاضرة التي ألقاها بنادي الفرنسي بالقاهرة في شهر مارس ١٩٢٩ ويبلغ ثمن النسخة الواحدة من هذا الكتاب خمسة جنيهات مصرية.

وما نظن أن العالم العربي قد قرأ للمسيو دينيه شيئا بالعربية قبل تلك الرسالة التي عرضناها له: (أشعة خاصة بنور الإسلام) والتي نشرت بمصر هذا العام وهي التي جعلها بحثا عصريا في مبادىء الدين الإسلامي وأراد إظهار هذه المبادىء واضحة جلية وأنها تكمل مبادىء المدنيات المعاصرة ولعل هذه الرسالة هي آخر ما كتب اللهم إلا إذا كان قد فرغ من (رحلة الحج) التي كان قد ذكر لنا أنه يشتغل بتدوينها بهمة ونشاط رحلته عقب عودته من بلاد الحجاز هذا العام بعد أن أدى فريضة الحج وإنا سمعت لنا الحقيقة أن نقرر شيئا فإنه ذكر لنا في كتابه إلينا أنه لاقي من التعب والمشاق الشيء الكثير رغم ما لاقاه من التكريم والعناية الخاصة ورغم تمهيته المشقة في سبيل الله وهو يدعو إلى إصلاح وسائل النقل والصحة وتنظيم الحياة لأولئك الألوف من الحجاج الذين يأتون رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق.

والمسيو دينيه كاتب رقيق العبارة واسع الإطلاع لذلك فهو صحيح العمة ناصع البرهان ثم هو شديد الجهور شديد الدفاع ذلك لأنه غيور على مهمته التي لم يتخذها إلا بعد بحث وتفكير وقد أعلن إسلامه رسميا بالجامع الجديد بمدينة الجزائر في إجتماع حافل عام ١٩٢٧ ويحب أن يدفن في قبره مسلما حنيفا وهو القبر الذي شيده لنفسه في بلدة (بو سعادة) بالجزائر وقد ذكرت الأهرام في تلغرافاتها الخصوصية أمس أنه سينقل إليها من فرنسا وفق وصيته ويقول إنه لم يسلم لمطمع أو مغنم (والرجل على موسر العمال) وإنما أسلم إرضاء لنفسه وضميره وأنه ناقش الناصرين والطاعنين فخرج من دينه إلى ناصر الدين.

وله في بيان فضائل الشرقيين عامة والدفاع عنهم مرات قلبية ولوحات تصويرية تشهد له بإخلاصه في حب الشرق وتقوم دليلا على حبه للحق والإنصاف وقد استفاد بعضهم على أمر الشرق والغرب فكتب يقول: إن الغرب يخطيء النظر إلى الشرق مع أن الشرق على الغرب أفضالا متأصلة في مدنيته متمكنة في حياته ذلك من أثر الديانات التي هو مدين فيها الشرق ومن أثر المعاملات والاقتصاديات التي منشؤها البيوتية الشرقية ومن أثر الحياة الشريفة والهمة القعساء التي منشؤها الحكمة الفروسية العربية ومن أثر علم الجبر وعلم السماء وعلم الأبدان وعلم الكيمياء التي ابتدعت أصولها العقول الشرقية.

ويقول إن الشرق لم يضمر للغرب الإساءة وأن الغرب يخطيء إذ يظن أن الشرق لا يستحق العناية مع أن الشرق قد عرف كل دخائل الغرب وأنه مع ذلك لا يحمل له إلا السلامة.

وهكذا يقوم السيد ناصر الدين دينيه رسولا للسلام بين الشرق والغرب وهو المثل الطيب لكل فرنسي يحب بلاده الأصيلة ويحب الشرق الجميل النبيل ومع أنه قد اعتنق الإسلام وعاش مسلما ومات مسلما فإن ذلك لم يمنعه من أن يكون مقيما على العهد والإخلاص لبلاده المحبوبة وأن يجتمع حول نعشه رجال فرنسا الرسميون من زملائه يذكرون حسناته ويؤبنونه أحسن التأبين ذلك لنبالة قصده ومثالة إنسانيته. (راجع رسالتي: الأهرام في ١٩٢٩/١٢/١٩).

الدين فكان مثالا واضحا للمخلصين منهم.

نشأ من أبوين مسيحيين وشب على طبيعة المال العقائد المسيحية نظرياً ومارسها عملياً وذهب مع أبواه ككل مسيحي إلى التعميد وإلى الكنيسة فشب وترعرع على عقيدة التثليث والصلب والفداء والغفران.

وعلى مر الزمان أخذت تنمو فيه طبيعته الفنية وأخذ يستولى عليه شعور بالقلق والحيرة من الناحية الدينية إذ كان يتصور الخلود في دقة لا تتأتى لغير ذوى الشعور الفنى ويتمنى الخلود ويريده ويعمل جاهداً لتكتب لوحاته في سجل الخلود فتسمو على الزمن وترتفع عن حدود ما يفنى.

وأصحاب الطبائع الدينية يفكرون في الخلود ويتمنونه ويريدونه ويعملون جاهدين لكشف المعمى فيما يتعلق بمصيرهم الأبدى.

وكان دينيه يفكر في لوحاته ويفكر في مصيره ويعمل جاهدا ليبلغ الذروة في الفن ويعمل جاهدا لإزالة الظلمة المتكاثفة في دائرة اللانهاية.

وكانت هناك وسائل للصقل- للصقل لا للإيجاد- الطبيعة الفنية والاتجاه بها نحو الكمال وفى ذلك ما يطمئن نوعا ما وفى ذلك علاج بعض العلاج للقلق فيما يتعلق بالفن وقد جد دينيه في استكمال وسائل الصقل النظرية منها والعملية واتخذ لذلك الأسباب وأحس من هذه الجهة ببعض الطمأنينة.

ولكن ما العلاج لطبيعته الدينية القلقة ؟ ليس لذلك من علاج سوى البحث والتأمل وإطالة التفكير في الكون وفى النصوص المقدسة وفى العقائد التي يدين بها الوسط المباشر والبيئة المحيطة... وفكر دينيه في المسيحية وفى الكنيسة وفى البابا المعصوم وفى عقيدة التثليث والصلب والفداء والغفران.

المسيح ابن الله !!... وقد صلب ليطهر بنى البشر من اللعنة التي حلت بهم بسبب خطيئة آدم...!! إنه صلب ليفتدى الشر ثم هو ابن الله وهو الله... وهو بشر وهو إله...!! ويدور رأس دينيه فلا يكاد يرى بارقة من أمل في أن يهتدى إلى الحق في كل ذلك... وهو في ذلك من حق ؟! .. وهل في الظلمة من نور..؟!

الأناجيل الحالية غير صحيحة:

ومع ذلك فلم ييأس بل أعاد قراءة الأناجيل من جديد محاولا جهده أن يراها تتسم بسمة الحق فيؤمن بابن الله وبالكاثوليكية. ولكنه رأى فيها ما يتنافى مع الصورة المثلى للإنسان الكامل فضلا عن الصورة التي تريد المسيحية أن توحى بها: فمن أقوال المسيح التي فيها حطة واحتقار لأمه العذراء ما صدر منه في عرس قانا: وفى اليوم الثالث كان عروس في قانا الجليل وكانت أم يسوع هناك ودعا أيضا يسوع تلاميذه إلى العرس ولما

... الخمر قالت أم يسوع له: ليس لهم خمر، قال يسوع: مالي ومالك يا إمرأة.[١]

... من أقواله التي تحمل في طياتها اللعنة على شجرة تين لم تحمل ثمرها لأنه لم يكن ... تين «فنظر شجرة تين من بعيد عليها ورق وجاء لعله يجد فيها شيئا فلما جاء إليها ... يجد شيئا إلا ورقا لأنه لم يكن وقت التين فتعجب يسوع وقال لها: لا يأكل أحد منك ... بعد إلى الأبد، وكان تلاميذه يسمعون[٢]

... من أقواله الدالة على كره الغريب: ...... وإذا امرأة كنعانية خارجة من تلك ... صرخت إليه قائلة: ارحمني يا سيد يا ابن داوود إبنتي مجنونة جدا فلم يجبها ... فتقدم تلاميذه وطلبوا إليه قائلين: إصرفها لأنها تصيح وراءنا فأجاب وقال: لم ... إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة.[٣]

... أقواله التي توجب كراهية الأقرباء: إن كان أحد يأتي إلي ولا يبغض أباه وأمه ... وأولاده وأخوته وأخواته حتى نفسه أيضا فلا يقدر أن يكون لي تلميذا[٤]

... أقواله التي فيها إعتراف بالجهل: .... وأما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعلم بها ... الملائكة الذين في السماء ولا الأبن إلا الأب[٥]

هذه النصوص تبعث في النفس الشك في صحة الأناجيل التي بين أيدينا[٦]

صحة الأناجيل:

... ذلك إلى البحث في صحة الأناجيل وفي قيمتها من الناحية التاريخية وكانت ... بحثه: إنه لا شك إن الله قد أوحى الإنجيل إلى عيسى بلغته ولغة قومه ولا شك ... هذا الإنجيل قد ضاع وأندثر ولم يبق له أثر أو أنه باد أو أنه قد أبيد.[٢]

... قد جعلوا مكانه توليفات أربعا مشكوكا في صحتها وفي نسبتها التاريخية كما ... بالغة اليونانية وهي لغة لا تتفق طبيعتها مع لغة عيسى الأصلية التي هي ... لذلك كانت صلة السماء بهذه الأناجيل اليونانية أضعف بكثير من صلتها

(١) إنجيل يوحنا الإصحاح الثاني عشر هذا ما يقوله الإنجيل فيما يتعلق بصلة المسيح بأمه. أما القرآن فإنه ... إليه قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبيا * قال إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيا * وجعلني مباركا أين ما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيا * وبرا بوالدتي ولم يجعلني جبارا شقيا * والسلام علي يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا

(١) إنجيل مرقس: الحادي عشر.

(٢) إنجيل متى: الإصحاح الخامس عشر.

(٣) إنجيل لوقا: الإصحاح الرابع عشر.

(٤) إنجيل مرقص: الإصحاح الثالث عشر.

(٥) عن أشعة خاصة بنور الإسلام

(٦) عن أشعة خاصة بنور الإسلام

بتوراة اليهود[١]

ورأى في النهاية في وضوح: إن الديانة الكاثوليكية لا تتحمل البحث والمناقشة، فقد أظهرت الأدلة العديدة سواء أكانت أخلاقية أم تاريخية أم علمية أم لغوية أم بسيكولوجية أم دينية أن الكاثوليكية ملأى بالأغلاط الواضحة، ولم يمكنه أن يقول ما قاله القديس أوغسطين مما يعتبر شعار كل مسيحي: إنني أؤمن بذلك: لأن ذلك غير معقول.[٢]

وثار شعوره الديني على أوضاع مبهمة وألفاظ غامضة ومشاكل لا تحل وانتهى به المطاف بعد بحث وجدل ومناظرات وتأملات إلى رفض المسيحية وبلغت حيرته حينئذ أشدها ولكن اليأس لم يتطرق إلى نفسه قط وإذا لم يجد الهداية في المسيحية فليس معنى ذلك أنه لن يجدها مطلقا إن الحقيقة عزيزة المنال ولكنها موجودة والسبيل إليها: البحث.

الإتجاه إلى العقل:

ورأى دينيه أن يتجه إلى العقل يستمد منه الهداية إلى الطريق المستقيم ولكنه إنتهى إلى أن العقل عاجز في ميدان ما وراء الطبيعة وفي الواقع: يسعى كثير من ذوي العقول المستنيرة بعد أن أفاقوا من غفلتهم وبعد أن رأوا إخفاق مذهب استقلال العقل بالمعرفة لتعرف طريق الهداية وأن مذهب الحدس الذي يتهافتون عليه خلف حامل لوائه الشهير برجسون الشهير هو عبارة عن رد فعل واضح لمذهب استقلال العقل بالمعرفة أو هو – وهو الأصح – رد فعل لعجز هذا المذهب.

فقد جدد هذا المفكر في قلوب الناس النهمين إلى الإيمان آمالا كان يظهر أنها ضاعت ضياعا نهائيا فهو يأذن لهم بأن يأملوا في خلود الروح ويقول لهم: إن الدنيا ليست مشتبكا عظيما لقوى عمياء وأن العقل ليس هو الطريقة الوحيدة للمعرفة[٣]

أخفقت المسيحية في إرضاء ضميره الديني وأخفق العقل في قيادته إلى النور إلام يتجه إذن؟

المسيحيون الذين أسلموا:

وتلفت حوله وتظر: ماذا فعل أمثاله ممن شكوا في المسيحية وشكوا في العقل ؟ ...

فرأى: أن نفرا من النصارى في مختلف الأقطار الأوربية دانوا بالإسلام في الأعوام

(١) عن أشعة خاصة بنور الإسلام....

(٢) لا شك أن دينيه إطلع على مؤلفات رينان الذي كتب عن المسيح عليه السلام كتابا يثبت فيه: أن المسيح لم يكن إلها ولا ابن إله وإنما هو إنسان يمتاز بالخلق السامي والروح الكريمة، ورينان لم يكن متطرفا في حكمه فقد أثبت على كل حال وجود المسيح وجودا تاريخيا حقيقيا. ولكن آخرين أخذوا ينقبون في بطون الكتب ويتتبعون الروايات فانتهوا إلى عدم الاطمئنان لوجود المسيح تاريخيا ومن هؤلاء أبيه أستاذ علم الاجتماع بجامعة السوربون الذي أشترك مع زميلين له في تأليف كتاب يهدف إلى إثبات أن المسيح أسطورة وإن انتشار المسيحية لم يكن إلا لأسباب سياسية بحتة أما الأستاذ جينيير أستاذ تاريخ الأديان بالسوربون إلى عهد قريب فقد أثبت في عدة مؤلفات ذات شهرة عالمية أثبت بما لا يدع مجالا للشك إن المسيحية الحالية ليست هي مسيحية المسيح بل لا تمت إلى مسيحية المسيح بصلة اللهم إلا الصلة الاسمية.

(٣) ناصر الدين: محمد

الأخيرة.. ويتزايد عددهم على مر الأيام. وفي لندن وليفربول جماعات إسلامية ذات شان حقيقي. منهم فريق من أعيان الإنجليز(١)

ورأى أن الذين يعتنقون الإسلام في وقتنا هذا من المسيحيين وغيرهم ,إنما هم من الخاصة سواء كانوا في الهيئات الاجتماعية الأوروبية أو الأمريكية كما أن إخلاصهم في ذلك لا شك فيه لأنهم أبعد ما يكونون عن الأغراض المادية(٢)

وتبين له أنه يوجد في جميع أنحاء أوروبا وأمريكا من إعتنقوا الإسلام وإذا كان هذا الأمر لا يزال قليل الأهمية إذا نظرنا إلى قلة عدد المعتنقين وإن كان عددهم لا بأس به فإنه ذو أهمية كبرى نظراً لمركز هؤلاء المعتنقين الذين ينتمون إلى الطبقات الراقية المتعلمة ونذكر منهم على سبيل المثال اللورد هيدلي الإنجليزي وصديقنا المأسوف عليه المرحوم كريستيان شرفيس أحد تلاميذ أغست كومت وأديبا من أدباء فرنسا المعدودين وفيلسوفا من فلاسفتها المشهورين(٣)

ومما لا ريب فيه أن هناك مفكرين منصفين لا غربيين فحسب بل عالميين أيضاً درسوا الإسلام دراسة عميقة فأحبه البعض وناصره وآمن به البعض الآخر وأعلن إسلامه وصدق فيه ويقول أحدهم(٤) :

إنني أعتقد أن هناك آلافاً من الرجال والنساء أيضاً مسلمون قلبا ولكن خوف الانتقاد والرغبة في الإبتعاد عن التعب الناشيء عن التغيير تآمرا على منعهم من إظهار معتقداتهم .

ونحب أن نعرض فيما يلي لأمثلة من هؤلاء المفكرين المنصفين الذين لا شك أنهم قد قرأوا دينه وتتبعوا آراءهم.

الكونت هنري دي كاستري:

وقصة تفكيره في دراسته للإسلام قصة طريفة:

كان من كبار المسئولين بالجزائر رغم سنه المبكرة وكان يسير ممتطيا صهوة جواده ويسير خلفه ثلاثون من فرسان العرب الأقوياء فخور بمركزه وكان يملؤه الغرور للمدح الذي يزجيه إليه الذين تحت أمرته.

وفجأة وجدهم يقولون له في شيء من الخشونة وفي كثير من الاعتداد بالنفس:

«لقد حان موعد صلاة العصر».

ودون أن يستأذنوه في الوقوف ترجلوا واصطفوا للصلاة متجهين إلى القبلة ودوت في أرجاء الصحراء كلمة الإسلام الخالدة: الله اكبر...

(١) ناصر الدين: الشرق في نظر الغرب.

(٢) أشعة خاصة بنور الإسلام.

(٣) الحج إلى بيت الله الحرام لناصر الدين ترجمة م. توفيق أحمد.

(٤) (اللورد هيدلي).

شعر الكونت في هذه اللحظة بشيء من المهانة في نفسه وبكثير من الإكبار والإعجاب بهؤلاء الذين لا يبالون به، ذلك لأنهم اتجهوا إلى الله وحده بكل كيانهم، وبدأ يتساءل:

ما الإسلام ؟ أهو ذلك الدين الذي تصوره الكنيسة في صورة بشعة تنفر منها النفس ولا يطمئن لها الوجدان.. ؟

وبدأ يدرس الإسلام وتغيرت فكرته عنه ,ورأى من واجبه أن يعلن ما اهتدى إليه فكان كتاب: الإسلام: خواطر وسوانح (١)

وفي هذا الكتاب الطريف تحدث عن كثير من جوانب الإسلام سواء أكان ذلك فيما يتعلق بالرسول أم فيما يتعلق بالتعاليم الإسلامية ,وقد تحدث فضلاً عن ذلك عن آراء مواطنيه وخصوصا القدماء منهم في صورة من السخرية، والتهكم:

وذهبوا إلى أن محمدا وضع دينه بإدعائه الألوهية.

ومن المستغرب قولهم: إن محمدا الذي هو عدو الأصنام ومبيد الأوثان كان يدعو الناس لعبادته في صورة وثن من ذهب.

بل لقد أغرق خيالهم في الضلال، فذهبوا إلى أبعد من ذلك.

وذهبوا إلى إن صورة «ماهوم»(٢) كانت تصنع من أنفس الأحجار والمعادن بأحكم صنع وأدق إتقان .

وبعد أن ذكر الكثير من آرائهم قال:

ولقد أطلنا القول في تلك الأضاليل، لأن تاريخ إسكندر(٣)

ولكن ما سر هذه الحملة الشعواء الضالة التي تهزءا بالحق والضمير، التي لا يقرها دين أيا كان ؟

ولو سأل سائل: هل كان أولئك المفسرون يعتقدون صحة ما يقولون؟ لأجبناه: لا، ونعم إذ من المحقق أن الاختلاط بين المسيحيين والمسلمين سهل للمتشددين معرفة الدين المحمدي على حقيقته ولكنهم ما كانوا يقصدون الحقائق التاريخية في أناشيدهم: بل حفظ روح البغضاء في نفوس قومهم .

هل هذه الروح التي كانت سائدة عند المسيحيين تجاه الإسلام اقتصرت على العصور الوسطى؟ كلا...

(١) ونحن نعتمد على هذا الكتاب على الخصوص في هذا المقال.

(٢) (المقصود محمد صلى الله عليه وسلم)

(٣) (ألف القسيس: اسكندر دروس، كتاباً عام ١٢٥٨ م عن محمد، وكان الناس يعدونه تاريخا صحيحاً للرسول مع أنه ليس كذلك) المذكور لم يزلها ولأنها تركت أثراً في الأذهان وصل إلى أهل هذه الأيام وشحنت به أفكارهم في النبي وكتابه.

فلم يزل هذا الروح سائدا عند المسيحيين حتى أن المستشرق بريدو الإنجليزى ألف
سنة ١٧٢٣ م كتابا فى سيرة النبى عنوانه: حياة ذى البدع محمد وترجمه بعضهم إلى
لغتنا وجعل له مقدمة بين فيها مقصد المؤلف فقال.... إن غرضنا واضع هذا الكتاب هو
خدمة المقصد المسيحى الحكيم

ثم يعقب الكونت على ذلك بهذه الكلمات الحكيمة:
أولئك كتاب ما قصدوا التاريخ ولكنهم أرادوا خدمة المقصد المسيحى الحكيم كما
يقولون وكان سلاحهم الوحيد فى تأييد سواقط حججهم أن يشبعوا خصمهم سباً وشتماً وأن
يحرفوا فى النقل ما استطاعوا .

ثم يأخذ الكونت فى الرد على الإفتراءات ومن أولى هذه الإفتراءات: أن الرسول
صلوات الله عليه كان يقرأ ويكتب فقرأ التوراة وقرأ الإنجيل وأخذ تعاليمه منهما.
وقد رد الإسلام على هذه الفرية فقال: (وما كانت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه
بيمينك. إذا لارتاب المبطلون ...)
ويقول الكونت فى هذا المعنى:
ما كان يقرأ ولا يكتب، بل كان كما وصف نفسه مراراً- نبياً أمياً- وهو وصف لم
يعارضه فيه أحد من معاصريه ولا شك أنه يستحيل على رجل فى الشرق أن يتلقى العلم
بحيث لا يعلمه الناس لأن حياة الشرقيين كلها ظاهرة للعيان على أن القراءة والكتابة
كانت معدومة فى ذلك الحين من تلك الأقطار ولم يكن بمكة قارئ أو كاتب سوى رجل
واحد ذكره جارسين دى تاسى فى كتابه الذى طبعه سنة ١٨٧٤ م، كذلك من الخطأ
مع معرفة أخلاق الشرقيين أن يستدل على معرفة النبى للقراءة والكتابة باختيار السيدة
خديجة رضى الله عنها إياه لمتاجرها فى الشام، ولم تكن لتعهد إليه أعمالها أن كان
جاهلا غير متعلم فإنا نشاهد بين تجار كل قوم غير العرب وكلاء لا يقرأون ولا يكتبون
وهم فى الغالب أكثرهم أمانة وصدقاً.

أما فكرة التوحيد: فيستحيل أن يكون هذا الاعتقاد وصل إلى النبى صلى الله عليه
وسلم من مطالعته التوراة والإنجيل إذ لو قرأ تلك الكتب لردها لاحتوائها على مذهب
التثليث وهو مناقض لفطرته مخالف لوجدانه منذ خلقه فظهور هذا الاعتقاد بواسطته
دفعة واحدة هو أعظم مظهر فى حياته وهو بذاته أكبر دليل على صدقه فى رسالته
وأمانته فى نبوته .

أما صدق الرسول وسمو رسالته فقد أخذ كثير من رجال الكنيسة ومن رجال الاستعمار
يشككون فيهما ورغم الوضوح الواضح فى صدق الرسول وفى سمو الرسالة الإسلامية فإن
رجال الدين من المسيحيين ورجال الاستعمار لا يزالون يبدأون ويعيدون فى ترداد
التشكيك إلى هؤلاء وأولئك يقول الكونت:

والعقل يحار كيف يتأتى أن تصدر تلك الآيات عن رجل أمى وقد إعترف الشرق
قاطبة بأنها آيات يعجز فكر بنى الإنسان عن الإتيان بمثلها لفظا ومعنى، آيات لما سمعها
عقبة بن ربيعة حار فى جمالها وكفى رفيع عباراتها لإقناع عمر بن الخطاب فآمن برب

قائلها وفاضت عين نجاشى الحبشة بالدموع لما تلا عليه جعفر بن أبى طالب سورة مريم وما جاء بها فى ولادة يحيى

فلما كان اليوم الثانى طلب النجاشى جعفر وأشار إليه بتلاوة ما فى القرآن عن المسيح ففعل واستغرب الملك لما سمع أن المسيح عبد لله ورسوله وروح منه ونزل فى أمه مريم وأعجب أشد العجاب بهذه المعانى وحمى المسلمين ولم يسلمهم إلى رسل قريش ولم ينفهم من بلاده .

أما هؤلاء الذين بلغ بهم التعسف مداه فظنوا أن هذه الفترات التى يغيب فيها الرسول عن هذا العالم ليكون بكليته مستغرقاً فى الملأ الأعلى إنما هى فترات مرضية أو هى الصرع ورغم تكذيب الطب لمزاعمهم مستندا إلى الإختلاف الكلى بين أعراض الصرع وأعراض الوحى فقد أعماهم التعصب عن رؤية الحقيقة .

وإليهم يقول الكونت:

ومن ذلك الحين- أى البعثة- أخذت شفتاه تنطلق بألفاظ بعضها أشد قوة وأبعد مرمى من بعض والأفكار تتدفق من فمه على الدوام إلى أن يقف لسانه ولا يطيعه الصوت ولا يجد من الألفاظ ما يعبر به عن فكر قد ارتفع عن مدارك الإنسان وسما عن أن يترجمه قلم أو لسان وكانت تلك الإنفعالات تظهر على وجهه بادية فظن بعضهم أن به جنة وهو رأى باطل لأنه بدأ رسالته بعد الأربعين ولم يشاهد عليه قبل ذلك أى إعتلال فى الجسم أو اضطراب فى القوة العاقلة ليس من الناس من عرف الناس جميعاً أحواله فى حياته كلها مثل النبى صلى الله عليه وسلم فقد وصل المحدثون عنه إلى أنهم كانوا يعدون الشعر الأبيض من لحيته ولو أنه كان مريضاً لما أخفى مرضه لأن المرض فى مثل تلك الأحوال يعتبر أمرا سماوياً عند الشرقيين.

وليست حالة محمد صلى الله عليه وسلم فى إنفعالاته وتأثيراته بحالة ذى جنة ،بل كانت مثل التى قال نبى بنى إسرائيل فى وصفها: لقد شعرت بأن قلبى إنكسر بين أضلعى وارتعشت منى العظام فصرت كالنشوان لما قام بى من الشعور عند سماع صوت الله وأقواله المقدسة .

نختم الحديث عن أراء الكونت بهذا الوصف الرائع لتلك الساعة الأليمة، التى فارق بها الرسول عالمنا الدنيوى ليلحق برفيقه الأعلى ولينعم برضوان الله إذ يقول:

ولما أحس بقرب الأجل ذكر الفقراء فإنه لم يرغب طول حياته في المال بل كان كلما جمع إليه منه شيئاً أنفقه في الصدقات وكان قد أعطى عائشة يسيرا لتحفظه فلما حضره المرض أمر بإنفاقه على المعوذين لساعته وغاب في سنة ولما أفاق سألها إن كانت نفذت أمره فأجابته: كلا فأمر بالنقود وأشار إلى العائلات المعوذات فوزع عليهم، وقال:

الآن إستراح قلبي، فإنني كنت أخشى أن ألاقي ربي وأنا أملك هذا المال...

وكان في مرضه يخرج كل يوم ليصلي الظهر بالناس وآخر يوم خرج فيه هو الثامن من شهر يونيه سنة ٦٣٢ م وكانت مشيته مضطربة فتوكأ على الفضل بن العباس وعلى بن أبي طالب ،وقصد منبر الخطبة الذي كان يعظ الناس عليه قبل الصلاة وحمد الله واثنى عليه ثم خطب في المسلمين بصوت رفيع سمعه من خارج المسجد فقال ما معناه:

أيها الذين تسمعون قولي إن كنت ضربت أحدكم على ظهره فدونه ظهري فليضربه وإن كنت أسأت سمعة أحد فلينتقم من سمعتي وإن كنت سلبت أحدا ماله فإليه مالي يقتص منه وهو في حل من غضبي فإن الغل بعيد عن قلبي ؟

ثم نزل من على المنبر وصلى بالجماعة ولما أراد الإنصراف تمسك به رجل من أزاره وطلب منه ثلاثة دراهم دينا عليه. فأداها على الفور قائلا:

لخزي الدنيا أهون من خزي الآخرة.

ثم دعا لمن حارب معه في أحد وسأل الله لهم الرحمة والغفران.

وكان مشهد النبي بين المؤمنين في ذلك اليوم مشهد جلال ووقار ، والناس يلمحون على وجهه تأثير السم الذي شربه من يد يهودية خيبر وقلوبهم متفطرة من الوجد عليه ، ذلك أنه لما كان في واقعة خيبر قدمت إليه يهودية إسمها زينب شاة مشوية أضافت إليها سما فأخذ منها النبي صلى الله عليه وسلم قطعة واحدة بين شفتيه وأحس بأنها مسمومة فالقاها. ثم حضرته الوفاة بعد حين كان يقول: ما زالت تعاودني أكلة خيبر.

وكان أبو بكر نفسه يبكي ويقول للرسول: هلا إفتدينا روحك بأرواحنا ؟

ثم أوصله الصحابة إلى بيت عائشة وإضطجع تعبا مهزولا وصار المرض يشتد عليه فتخلف عن الصلاة بالمسلمين ، وقيل له : لقد جاء وقت الظهر فأشار إلى أبو بكر ليصلي بالناس . فكان من وراء هذه الإشارة خلافة أبي بكر بعد النبي.

وأخبرت عائشة رضي الله عنها عن حالة الإحتضار فقالت: كان رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم مسندا إلى صدري ويقربه قدر ماء وكان يقوم ليضع فيها يده ويمسح جبينه، ويقول: رب أعني على تحمل سكرات الموت،أدن مني يا جبريل، رب أغفر لي وأجمع بين أصدقائي في السماء . ثم ثقلت رأسه ومال ثانية إلى صدري.

كارلايل :

وكارلايل أحد كبار كتاب الإنجليز شعرى النزعة والفطرة متحرر من الرياء والخبث يتتبع البطولة فيكتب عنها ويمتدحها ويحبب الناس في السمو يقفهم إلى منازل الإبطال

أو على الأقل إلى التشبه بهم وقد أثار كتابه «الإبطال» أعجابا في [illegible] الفكر العالمي وترجم إلى كل اللغات الحية وحينما ترجمه المرحوم محمد السباعي إلى اللغة العربية أثار الكثير من الإعجاب وقد كان لأسلوب الأستاذ السباعي البارع أثر في تقدير الكتاب ومن لم يقرأه لمعانيه قرأه لأسلوبه وفي هذا الكتاب فصل مستفيض عن حياة الرسول صلوات الله عليه، نقتطف منه ما يلي:

من العار أن يصغى أي إنسان متمدين من أبناء هذا الجيل إلى وهم القائلين: إن دين الاسلام كذب وإن محمدا لم يكن على حق.

لقد آن لنا أن نحارب هذه الإدعاءات السخيفة المخجلة فالرسالة التي دعا إليها هذا النبي، ظلت سراجا منيرا أربعة عشر قرنا من الزمان لملايين كثير من الناس فهل من المعقول أن تكون هذه الرسالة التي عاشت عليها هذه الملايين، وماتت أكذوبة كاذب أو خديعة مخادع ؟ ولو أن الكذب والتضليل يروجان عند الخلق هذا الرواج الكبير لأصبحت الحياة سخفا وعبثا وكان الأجدر بها إلا توجد.

هل رأيتم رجلا كاذبا يستطيع أن يخلق دينا ويتعهده بالنشر بهذه الصورة ؟ إن الرجل الكاذب لا يستطيع أن يبني بيتا من الطوب لجهله بخصائص مواد البناء، وإذا بناه فما ذلك الذي يبنيه الا كومة من أخلاط هذه المواد فما بالك بالذي يبني بيتا دعائمه هذه القرون العديدة وتسكنه هذه الملايين الكثيرة من الناس ؟!

وعلى ذلك فمن الخطأ أن نعد محمدا رجلا كاذبا متصنعا، متذرعا بالحيل والوسائل لغاية أو مطمع.... وما الرسالة التي أداها إلا الصدق والحق.

وما كلمته إلا صوت حق صادق صادر من العالم المجهول.... وما هو إلا شهاب أضاء العالم اجمع ذلك أمر الله... وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

أحب محمدا لبراءة طبعه من الرياء والتصنع ولقد كان ابن الصحراء مستقل الرأي لا يعتمد إلا على نفسه ولا يدعي ما ليس فيه ولم يكن متكبرا ولا ذليلا فهو قائم في ثوبه المرقع كما أوجده الله يخاطب بقوله الحر المبين أكاسرة العجم وقياصرة الروم يرشدهم إلى ما يجب عليهم لهذه الحياة والحياة الأخرة.

وما كان محمد بعابث قط ولا شاب قوله شائبة لعب ولهو كانت المسائل عنده مسألة فناء وبقاء أما التلاعب بالأقوال والعبث بالحقائق فما كان من عادته قط.

ويزعم المتعصبون أن محمد لم يكن يريد بدعوته غير الشهرة الشخصية والحياة والسلطان.. كلا وأيم الله لقد إنطلقت من فؤاد ذلك الرجل الكبير النفس المملوء رحمة وبرا وحنانا وخيرا ونورا وحكمة، أفكار غير الطمع الدنيوي، وأهداف سامية غير طلب الجاه والسلطان.

ويزعم الكاذبون أن الطمع وحب لدنيا هو الذي أقام محمد وأثاره حمق وسخافة وهوس وأن رأينا رأيهم. أية فائدة لرجل على هذه الصورة في جميع بلاد العرب، وفي تاج قيصر وصولجان كسرى جميع ما بالأرض من تيجان...!

لم يكن كغيره ، يرضى بالأوضاع الكاذبة، ويسير تبعا للإعتبارات الباطلة ، ولم يقبل أن يتشح بالأكاذيب والأباطيل.

لقد كان متفردا بنفسه العظيمة ، وبحقائق الكون والكائنات لقد كان سر الوجود يسطع أمام عينيه بأهواله ومحاسنه ومخاوفه.

لقد جاء صوت هذا الرجل منبعثا من قلب الطبيعة ذاتها ... لهذا وجدنا الآذان إليه صاغية والقلوب لما يقوله واعية.

لقد كان زاهدا متقشفا في مسكنه ومأكله ومشربه وملبسه وسائر أموره وأحواله فكان طعامه عادة الخبز والماء وكثيرا ما تتابعت الشهور ولم توقد بداره نار.

فهل من ذلك مكرمة ومفخرة؟ فحبذا محمد من رجل متقشف خشن الملبس والمأكل مجتهد في الله دائب في نشر دين الله غير طامع إلى ما يطمع إليه غيره من رتبة أو دولة أو سلطان.

ولو كان غير ذلك لما إستطاع أن يلاقي من العرب الغلاظ إحتراما وإجلالا وإكبارا ولما إستطاع أن يقودهم ويعاشرهم معظم وقته ثلاثا وعشرين حجة وهم ملتفون حوله يقاتلون بين يديه ويجاهدون معه ... لقد كان في قلوب العرب جفاء وغلظة وكان من الصعب قيادتهم وتوجيههم . لهذا كان من يقدر على ترويضهم وتذليلهم بطلا وايم الله.

ولولا ما وجدوا فيه من آيات النبل والفضل لما خضعوا لإرادته ولما إنقادوا لمشيئته.

وفي ظني إنه لو وضع قيصر بتاجه وصولجانه وسط هؤلاء القوم بدل هذا النبي لما إستطاع قيصر أن يجبرهم على طاعته كما إستطاع هذا النبي في ثوبه المرقع ...!

هكذا تكون العظمة ... !

وهكذا تكون البطولة ... !

وهكذا تكون العبقرية ...!

تولستوي :

ولعلنا لسنا بحاجة إلى الحديث عن تولستوي أديب وكاتب روسيا الأعظم لقد كان من هؤلاء الذين سمت نفوسهم إلى درجة لا نكاد نجد لها مثيلا في التاريخ إلا نادرا. كانت سعادة الإنسانية همه الملازم في كل أوانه . كان باستمرار يفكر في تخفيف ويلات بني الإنسانية في معالجة مرضاهم، في تسلية بائسهم، في إطعام جائعهم، في التخفيف عن منكوبيهم ... وككل العباقرة الذين تسمو بهم عبقريتهم عن المستوى العادي صادف في حياته العقبات والآلام وبغض الحاقدين وكراهية الذين لا يعون الحق.

ومن مآثره الكريمة : أنه حينما رأى الحملة الظالمة على الإسلام وعلى رسول الإسلام كتب رأيه في هذا الدين الذي أعجب به وتحدث عن رسوله الذي نال إكباره وكان جزاؤه على ذلك أي على كلمة الحق التي يدين بها : أن حرمه البابا من رحمة الله فكان كما يقول الشيخ محمد عبده مخاطبا الأديب الكبير : فليس ما حصل لك من رؤساء

الدين سوى إعتراف منهم أعلنوه للناس : إنك لست من القوم الضالين .

ونحن ننشر هنا كلمة صغيرة جدا من رأيه ثم ننشر خطاب الشيخ محمد عبده الذي وجهه اليه :

يقول تولستوي :

لا ريب أن هذا النبي من كبار الرجال المصلحين الذين خدموا الهيئة الاجتماعية خدمة جليلة ويكفيه فخرا : انه هدى امة برمتها إلى نور الحق وجعلها تجنح للسلام وتكف عن سفك الدماء وتقديم الضحايا ...

ويكفيه فخرا : انه فتح طريق الرقي والتقدم ، وهذا عمل عظيم لا يفوز به الاشخص اوتي قوة وحكمة وعلما ، ورجل مثله جدير بالاحترام والاجلال ...

اما خطاب الشيخ محمد عبده فهو التالي[1]

« ايها الحكيم الجليل المسيو تولستوي ».

لم نحظ بمعرفة شخصك ، ولكنا لم نحرم التعارف مع روحك . سطع علينا نور من افكارك ، واشرقت في افاقنا شموس من ارائك الفت بين نفوس العقلاء ونفسك ، هداك الله إلى معرفة سر الفطرة التي فطر الناس عليها ، ووفقك إلى الغاية التي هدى البشر اليها، فادركت ان الانسان جاء هذا الوجود لينبت بالعلم ، ويثمر بالعمل ولان تكون ثمرته تعبا ترتاح به نفسه ، وسعيا يبقى ويربى جنسه ، وشعرت بالشقاء الذي نزل بالناس ، لما انحرفوا عن سنة الفطرة ، وبما استعملوا قواهم التي لم يمنحوها الا ليسعدوا بها فيما كدر راحتهم ، وزعزع طمأنينتهم ...

ونظرت نظرة في الدين مزقت حجب التقاليد ، ووصلت بها إلى حقيقة التوحيد ورفعت صوتك تدعو الناس إلى ما هداك الله اليه، وتقدمت امامهم بالعمل لتحمل نفوسهم عليه ، فكما كنت بقولك هاديا للعقول ، كنت بعملك حاثا للعزائم والهمم. وكما كانت اراؤك ضياء يهتدى به الضالون كان مثالك في العمل إماماً يقتدى به المسترشدون.

وكما كان وجودك توبيخا من الله للاغنياء ، كان مددا من عنايته للضعفاء والفقراء ، وان ارفع مجد بلغته ، واكبر جزاء نلته على متاعبك في النصح والارشاد، هو هذا الذي سماه الغافلون بالحرمان والابعاد ، فليس ما حصل لك من رؤساء الدين سوى اعتراف منهم اعلنوه للناس انك لست من القوم الضالين . فاحمد الله على ان فارقوك في اقوالهم ... كما كنت فارقتهم في عقائدهم.

هذا وان نفوسنا لشيقة إلى ما يتجدد من اثار قلمك . فيما تستقبل من ايام عمرك .

وانا نسأل الله ان يمد في حياتك ، ويحفظ عليك قوتك . ويفتح ابواب القلوب لفهم قولك ، ويسوق النفوس إلى التاسي بك في عملك . والسلام ...

---

(1) وقد نشره الشيخ رشيد رضا في كتابه عن الشيخ محمد عبده .

اللورد هيدلى :

كان لإسلام اللورد هيدلى ضجة كبيرة، لمركزه ولما يعلمه فيه عارفوه من نضج فى التفكير وترو فى الامور .

كيف اسلم اللورد هيدلى ؟

ما هي العوامل التى دعته إلى اعتناق الاسلام ؟!

اننا فى الصفحات التالية سنذكر جملة من النصوص ترشد القارىء إلى سبب رفضه المسيحية والى سبب اسلامه . والى تصويره لكثير من وجهات النظر الاسلامية .

وهو يقول :

عندما كنت اقضى – انا نفسى – الزمن الطويل من حياتى الاولى فى جو المسيحية والبروتستانت ..! كنت اشعر دائما ان الدين الاسلامى به الحسن والسهولة ، وانه خلو من عقائد الرومان

وثبتنى فى هذا الاعتقاد زيارتى للشرق التى اعقبت ذلك ودراستى القرآن المجيد ...

له الله ... لكم تألم وقاسى فى سبيل الوصول إلى الحق .. استمع اليه يقول : فكرت وصليت اربعين سنة ، كى اصل إلى حل صحيح .

ويجب على ان اعترف ايضا ان زيارتى للشرق ملأتنى احتراما للدين المحمدى السلس الذى يجعل الانسان يعبد الله حقيقة طول مدة الحياة لا فى ايام الاحاد فقط .

ويرى ان الاسلام هو الدين العالمى حقا :

ايمكن اذن ان يوجد دين يمكن العالم الانسانى من ان يجمع امره على عبادة الله الواحد الحقيقى الذى هو فوق الجميع وأمام الجميع بطريقة سهلة خالية من الحشو؟...

، فكر لحظة – وذلك تفكير لازم لكمال البشر فى الحقيقة – انه لو اصبح كل فرد فى الامبراطورية الانجليزية محمديا حقيقيا بقلبه وروحه لاصبحت ادارة الاحكام اسهل من ذلك لان الناس سيعملون بدين حقيقى .

وها هو ذا يعبر عن الشكر حينما هداه الله :

روح الشكر هى خلاصة الدين الاسلامى ، والابتهال اصل فى طلب القيادة والارشاد من الله .

انه وان كان شكرى لله على كرمه وعنايته كان متأصلا فى من صغرى وايام حداثتى ، الا اننى لا استطيع ان اشاهد ذلك من خلال السنين القليلة الماضية التى قرع فيها الدين الاسلامى لبى حقا وتملك رشدى واقتضى نقاؤه ، واصبح حقيقة راسخة فى عقلى وفؤادى الا التقيت بسعادة وطمأنينة ما رأيتهما قط من قبل ، كما أستنشق هواء البحر الخالص النقى ... وبتحققى من سلامة وضياء وعظمة الاسلام ومجده اصبحت كرجل فر من سرداب مظلم إلى فسيح من الارض تضيئه شمس النهار .

ومما يذكر من تعاليم الاسلام مشيدا به :

ليس هناك فى الإسلام الا إله واحد نعبده ونتبعه ، انه امام الجميع وفوق الجميع، وليس هناك قديس لغير نشركه معه ، انه لمن المدهش حقا ان تكون المخلوقات البشرية ذوات العقول والالباب على هذا القدر من الغباوة فيسمحون للمعتقدات والميل الكهنوتية ان تحجب عنم نظرهم رؤية السماء ، رؤية أبيهم القهار المتصل دوما بكل مخلوقاته ، سواء كانوا عاديين ام اولياء مقدسين .

مفتاح السماء موجود دائما فى مكانه ، ويمكن ادارته لأذل وأقل المخلوقات دون اية مساعدة من نبى او كاهن او ملك . انه كالهواء الذى نستنشقه مجانا لكل خلق الله .

أما هؤلاء الذين يجعلون الناس يفهمون غير ذلك فما دعاهم إلى هذا العمل الا حب الفائدة .

ليس غرضى الرئيسى ان اهاجم اى فرع معين من فروع الديانة ، لابين جلال وسلاسة الديانة الاسلامية ، التى هى خالية فى نظر الكاتب المنصف من العوائق الظاهرة جليا فى كثير من الديانات الاخرى ....

ولقد افترى كثيرا على الاسلام وها هو ذا يرد على افتراءاتهم .

ليس فى وسع الانسان ، فى الحقيقة ، الا ان يعتقد ان مدبجى وناسجى هذه الافتراءات ، لم يتعلموا ، حتى ولا أول مبادىء دينهم . والا لما استطاعوا ان ينشروا فى جميع انحاء العالم ، تقارير معروفا لديهم انها محض كذب واختلاق .

إن تعاليم القرآن الكريم قد نفذت ومورست فى خلال حياة محمد الذى –سواء فى ايام تحمله الالم والاضطهاد او فى زمن انتصاره ونجاحه– اظهر اشرف الصفات الخلقية التى لا يتسنى لمخلوق اخر اظهارها .

فكل صفات الصبر والثبات فى عصره كانت ترى اثناء الثلاث عشرة سنة التى تألمها فى مجاهداته الأولى بمكة . ولم يشعر فى كل زمن هذا الجهاد باى تزعزع فى الثقة بالله ، واتم كل واجباته بشمم وحمية .

كان ، صلى الله عليه وسلم ، مثابرا ولا يخشى أعداءه لانه كان يعلم أنه مكلف بهذه المأمورية من قبل الله . ومن كلفه بهذا العمل لن يتخلى عنه .

وقد اثارت تلك الشجاعة التى لا تعرف الجفول – تلك الشجاعة التى كانت حقا احدى مميزاته واوصافه العظيمة – اعجاب واحترام الكافرين واولئك الذين كانوا يشتهون قتله ... ومع ذلك فقد انتهت مشاعرنا ، وازداد اعجابنا به بعد ذلك فى حياته الاخيرة ، ايام انتصاره بالمدينة ، عندما كانت له القوة والقدرة على الانتقام ، واستطاعته الاخذ بالثار ولم يفعل ، بل عفا عن كل اعدائه .

العفو والاحسان والشجاعة ، ومثل هاتيك الصفات ، كانت ترى منه فى كل تلك المدة ، حتى ان عددا من عظيما من الكافرين اهتدوا إلى الاسلام عند رؤية ذلك .

عفا بدون قيد ولا شرط عن كل هؤلاء الذين اضطهدوه وعذبوه ، آوى اليه كل الذين كانوا قد نفوه من مكة ، واغنى فقراءهم وعفا عن ألد أعدائه ، عندما كانت حياتهم في قبضة يده تحت رحمته ...!

تلك الأخلاق الربانية التي اظهرها النبي الكريم ، اقنعت العرب بأن حائزها يجب أن لا يكون إلا من عند الله ، وأن يكون رجلا على الصراط المستقيم حقا . وكراهيتهم المتأصلة في نفوسهم ، حولتها تلك الاخلاق الشريفة إلى محبة وصداقة متينة.

محمد المثل الكامل ...

نحن نعتبر أن نبي بلاد العرب الكريم ، ذو اخلاق متينة ، وشخصية حقيقية ، وزنت واختبرت في كل خطوة من خطا حياته ، ولم ير فيها اقل نقص قط.

وبما اننا في احتياج إلى نموذج كامل يفي بحاجاتنا في خطرات الحياة فحياة النبي المقدس تسد تلك الحاجة.

حياة محمد كمرآة امامنا تعكس علينا التعقل الراقي والسخاء والكرم ، والشجاعة والاقدام ، والصبر والحلم ، والوداعة والعفو ، وباقي الاخلاق الجوهرية ، التي تكون الانسانية.

ونرى ذلك فيها بالوان وضاءة .. خذ اى وجه من وجوه الآداب وانت تتأكد بانك تجده موضحا في احدى حوادث حياته.

ومحمد وصل اعظم قوة واتى اليه مقاوموه وجدوا منه شفقة لا تجارى ، وكان ذلك سببا في هدايتهم ...!

رحم الله اللورد هيدلي وجزاه عن الاسلام خير الجزاء .

الشيخ عبد الواحد يحيى

ولعل دينيه قد اتصل في اواخر حياته بمفكر اخر من اعلام المفكرين ، هو العالم الفيلسوف الحكيم ، الصوفي رينيه جينو الذى يدوى اسمه في اوربا قاطبة وفي امريكا والذى يعرفه كل هؤلاء الذين يتصلون بالدراسات الفلسفية والدينية . وقد كان اسلامه ثورة كبرى هزت ضمائر الكثيرين من ذوى البصائر الطاهرة فاقتدوا به ، واعتنقوا الاسلام ، وكونوا جماعات مؤمنة مخلصة ، تعبد الله على يقين في معاقل الكاثوليكية في الغرب.

وكان سبب إسلامه بسيطا منطقيا في آن واحد:

لقد أراد أن يعتصم بنص مقدس ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فلم يجد - بعد دراسة عميقة سوى القرآن ، فهو الكتاب التوحيد الذى لم ينله التحريف ولا التبديل ، لأن الله تكفل بحفظه ، وحفظه حقيقة : «إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون» .

لم يجد سوى القرآن نصا مقدسا صحيحا ، فاعتصم به ، وسار تحت لوائه يغمره الأمن النفساني في رحاب الفرقان.

ومؤلفاته كثيرة مشهورة ، من بينها كتاب «أزمة العالم الحديث» بين فيه الانحراف الذى تسير فيه أوروبا الآن ، والضلال المبين الذى أعمى الغرب عن سواء السبيل.

أما كتابه : «الشرق والغرب» فهو من الكتب الخالدة ، التي تجعل كل شرقي يفخر بشرقيته ، وقد رد فيه إلى الشرق اعتباره ، مبينا أصالته في الحضارة ، وسموه في التفكير ، وإنسانيته التي لا تقاس بها مادية الغرب وفساده وامتصاصه للدماء ، وعدوانه الذى لا يقف عند حد ، وظلمه المؤسس على المادية والاستغلال ، ومظهرا في كل صفحة من صفحاته نبل الشرقيين وعمقهم ، وفهمهم للأمور فهما يتفق مع الفضيلة ومع أسمى المبادئ الإنسانية ..

وقد كتبنا عنه تقريرا لإحدى جامعاتنا المصرية للتعريف به ننشره فيما يلي : **رينيه جينو** : من الشخصيات التي أخذت مكانها في التاريخ ، يضعه المسلمون بجوار الإمام الغزالي وأمثاله ، ويضعه غير المسلمين بجوار «أفلوطين» ، صاحب الأفلاطونية الحديثة ، وأمثاله .

وإذا كان الشخص ، في بيئتنا الحالية ، لا يقدر التقدير الذى يستحقه إلا بعد وفاته ، فقد كان من حسن حظ «رينيه جينو» أنه قدر أثناء حياته ، وقدر بعد وفاته ، أما في أثناء حياته ، فكان أول تقدير له : أن حرمت الكنيسة قراءة كتبه ، والكنيسة لا تفعل هذا إلا مع كبار المفكرين الذين تخشى خطرهم ، وقد وضعته بذلك بجوار عباقرة الفكر الذين اتخذت تجاههم نفس المسالك ، ولكنها رأت في رينيه جينو خطرا يكبر كل خطر سابق ، فحرمت حتى الحديث عنه .

وإذا كان هذا تقديرا سلبيا له قيمته ، فهناك التقدير الإيجابي ، الذى لا يقل في أهميته عن التقدير السلبي ، فهناك هؤلاء الذين استجابوا لدعوة رينيه جينو فألفوا جمعيات في جميع العواصم الكبرى في العالم ، وعلى الخصوص في سويسرا وفي فرنسا ، والمكونون لهذه الجمعيات احتذوا حذو رينيه جينو ، فاتخذوا الإسلام دينا ، والطهارة والإخلاص وطاعة الله ، شعارا ودينا ، ويكونون وسط هذه المادية السابقة ، وهذه الشهوات المتغلبة ، واحات جميلة يلجأ إليها كل من أراد الطهر والطمأنينة .

ومن التقدير الإيجابي أيضا ، أن كتبه ، رغم تحريم الكنيسة لقراءتها ، قد انتشرت في جميع أرجاء العالم ، وطبعت المرة بعد الأخرى ، وترجم الكثير منها إلى جميع اللغات الحية الناهضة ، ما عدا العربية ، للأسف الشديد .

ومن الطريف أن بعض الكتب ترجم إلى لغة الهند الصينية ، ووضعت كشرح للوصية الأخيرة من وصايا «الدالاي لاما» ، ولم يكن يوجد في الغرب شخص متخصص في تاريخ الأديان إلا وهو على علم بآراء رينيه جينو .

كل هذا التقدير كان في حياته .

أما بعد مماته ، فقد زاد هذا التقدير : لقد كتبت عنه جميع صحف العالم ومنها بعض الصحف المصرية العربية .

وقد خصصت مجلة «فرنسا - آسيا» ، وهي مجلة محترمة ، عددا ضخما ، كتب فيه

كبير الكتب الشرقيين والغربيين، واعتكافه بتفسير كتب فرنسا الأكبر «أندريه جيد» وقوله عن صراحته لا لبس فيها: إن آراء رينيه جينو لا تنقض.

وخصصت مجلة «ليتودرا دوسيوديل»، وهي المجلة التي تكبر في الغرب كله لسان مصوف الصحيح، عددا ضخما من أعدادها، كتب فيه أيضا كبار الكتاب الشرقيين والغربيين.

وخصص له الكاتب الصحفي الشهير ... كتابا ضخما تحدث فيه عن ... وصفه كما وصفه الآخرون حين كتبوا عنه في المكان اللائق به، بجوار الإمام الغزالي أو الحكيم أفلوطين.

نشأ رينيه جينو في فرنسا من أسرة كاثوليكية، ... مرهف الحس مرهف الشعور، مرهف الوجدان، متجها بطبيعته، إلى التفكير العميق والأبحاث الدقيقة في الحقيقة، حينما نضج تفكيره، ما عليه قومه من ضلال، فأخذ يبحث، في جد عن الحقيقة، ولكن أين هي؟ أفي الشرق أم الغرب؟ وهل هي في السماء أو في الأرض؟.

أين الحقيقة؟ سؤال وجهه «رينيه جينو» إلى نفسه، كما وجهه من قبل إلى نفسه الإمام المحاسبي، والإمام الغزالي، والإمام محيي الدين بن عربي، وكما وجهه من قبلهم عشرات من المفكرين الذين أبوا أن يستقيموا للتقليد الأعمى ... في فترة شك والحيرة والألم الممض، ثم بات عون الله، وكان عون الله ... أشعة الإسلام الخالدة، وعمره ... فأسلم ... الشيخ عبد الواحد يحيى، وأصبح جنديا من جنوده يدافع عنه ويدعو إليه.

ومن أمثلة ذلك ما كتبه في كتابه «رمزية الصليب» ... «الإسلام انتشر بالسيف»، ومن أمثلة ذلك أيضا ما كتبه في مجلة ... في عددها الخاص بالإسلام والغرب دفاعا عن الروحية ... في روحانية الإسلام أو قللوا من شأنها وأشادوا بروحانية المسيحية وكبروا من شأنها، ووضعوا التصوف المسيحي في أسمى مكانة وقللوا من شأن التصوف الإسلامي، فكتب الشيخ عبد الواحد يحيى، مبينا سمو التصوف الإسلامي وروعته ... بالتصوف المسيحي، أو «المستيسزم» وانتهى بأن هذا التصوف ... لا يمكن أن يبلغ، ولا عن بعد، ما بلغه التصوف الإسلامي من سمو ومن جلال.

على أن الشيخ عبد الواحد يحيى لم يشد بالإسلام فحسب ... في جميع كتبه، وفي مواضع لا يأتي عليها الحصر، بالشرق.

لقد دأب الاستعمار على أن يغرس في نفوس الشرقيين ... إنسانية من الغربيين ... وأتى الشيخ عبد الواحد ... للشرقيين ... النور والهداية ...

الدكتور جرينيه.

قال الرحالة السيد محمود سالم، في مقال له، نشر في مجلة ... مجلد ١٤ ص

٥١٨: قصدت، في سياحاتي، مدينة «بونتارليه» لمقابلة الدكتور «جرينيه» المسلم البرلماني الشهير، الذي كان في السابق عضوا في مجلس النواب، قابلته لأجل أن أسأله عن سبب إسلامه. فقال: إني تتبعت كل الآيات القرآنية التي لها ارتباط بالعلوم الطبية والصحية والطبيعية، والتي درستها من صغري، وأعلمها جيدا، فوجدت هذه الآيات منطبقة كل الانطباق على معارفنا الحديثة، فأسلمت لأني تيقنت أن محمدا، صلى الله عليه وسلم، أتى بالحق الصراح من قبل ألف سنة، من قبل أن يكون معلم أو مدرس من البشر، ولو أن كل صاحب فن من الفنون أو علم من العلوم، قارن كل الآيات القرآنية المرتبطة بما تعلم جيدا كما قارنت أنا... لأسلم بلا شك، وإن كان عاقلا خاليا من الأغراض.

لماذا أسلم دينيه؟

ولنعد إلى دينيه، فنتساءل. كيف ولماذا أسلم؟ وما الميزات والخصائص التي جعلته يمنح الإسلام من الثقة ما لم يمنحه للمسيحية؟

لقد كانت الشكوك الكثيرة تدور في نفسه، عندما وقعت في يده نسخة من مجلة إنجليزية، فإذا به يجد فيها جوابا عن أسئلة إذ قرأ بها:

لماذا صار بعض الإنجليز وغيرهم من الأوروبيين مسلمين؟

ذلك لأنهم كانوا يلتمسون عقيدة سهلة معقولة، عملية في جوهرها لأننا معاشر الإنجليز نتبجح بأننا أكثر أهل الأرض تشبثا بالعمل، عقيدة تكون ملائمة لأحوال جميع الشعوب وعاداتهم وأعمالهم، عقيدة دينية صحيحة يقف بها المخلوق أمام الخالق بدون أن يكون بينهما وسيط.

أحق هذا؟

إن «دينيه» لا يأخذ الأشياء قضية مسلمة، وإذا كان العقل يعجز عن اختراق الحجب ليصل إلى ما وراء الطبيعة، فإنه مع ذلك الأداة التي ترشدنا إلى وجه الحق فيما يعرض لنا من أمور فأخذ يزن الأمور وأخذ يبحث

أحق أن الإسلام «هو العقيدة الدينية الصحيحة»؟

صلاحية العقيدة الإسلامية لكل زمان ومكان

وكان من التوفيق أن سافر «دينيه» إذ ذاك إلى الجزائر ... في بلاد المغرب، وخالط المسلمين وعاشرهم، ودرس عاداتهم وشاهد ... كما يذكر في رسالته «أشعة خاصة بنور الإسلام»:

إن العقيدة المحمدية لا تقف عقبة في سبيل التفكير، ... صحيح الإسلام، وفي الوقت نفسه حر التفكير.

وكما أن الإسلام قد صلح –منذ نشأته– لجميع الشعوب والأجناس، فهو صالح كذلك لكل أنواع العقليات وجميع درجات المدنيات، وأن تعاليمه محترمة، ذات القرابة المستترة والصلة الخفية بعالم الصوفية، تجد مكانا رحبا وقبولا حسنا ورضاء سهلا، سواء عند العالم الأوربي، أو عند الزنجي الإفريقي وهو الذي يصعب على المرء تخليصه من معتقداته الخرافية ومن معبوداته وأصنامه.

وبينما تجد الإسلام يهيج من نفس الرجل العملي في أسواق لندن، حيث مبدأ القوم «الوقت من ذهب» إذ هو بأحد يقف ذلك الفيلسوف الروماني.

«وكما يتقبله –عن رضا– ذلك الشرقي ذو التأملات ورب الخيال، إذ يهواه ذلك العربي الذي أغناه الفن وملكه الشعر»(١)

لقد وقرت هذه الفكرة في نفس «دينيه» حتى إنه ليرددها في كثير من كتبه فيما بعد يقول في آخر كتبه «الحج إلى بيت الله الحرام»: لو كان الإسلام الحقيقي معروفا في أوربا لكان من المحتمل أن ينال –أكثر من أي دين آخر– من العطف والتأييد من جراء روح التدين التي نجمت عن الحروب الكبرى، فإنه –والحق يقال– يلائم جميع ميول معتنقيه على اختلاف مشاربهم، فهو ببساطته المتناهية –كما يذهب إليه المعتزلة– وباشتماله على روح التصوف كما يذهب إليه الصوفية يهدي علماء أوروبا وأسبق إلى الطريق المستقيم، ويجدون فيه تعزية وسلوى من غير أن يحول بينهم وبين حريتهم التامة في آرائهم وأفكارهم.

كما أنه تعزية وهدى لزنوج السودان الذين ينتزعهم من أحضان أوهامهم الوثنية.

«ويرقى بروح ذلك التاجر الإنجليزي، رجل العمل الذي يعتبر الوقت من ذهب، كما يرقى بروح الفيلسوف المتدين، ويسمو بنفس الغربي الشغوف بالفن والشعر، بل هو يسحر لب الطبيب العصري بما قرره من الوضوء المتكرر كل يوم، وبما في الصلاة من حركات منتظمة تفيد الجسم والروح معا وفي وسع حر الفكر –وهو ليس ملحدا حتما– أن يعتبر الوحي الإسلامي عملا من أعمال تلك القوة الخفية التي تسمى «الإلهام»، وأن يحتفي به من غير أية صعوبة بما أنه لا يحتوي على أسرار خفية لا يستسيغها العقل»(٢).

ويردد الفكرة نفسها في كتابه عن حياة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم لقد رسخت هذه الفكرة في نفسه من أول وهلة واستمرت معه إلى نهاية حياته: لقد وقر في ذهنه أن الإسلام دين عام خالد.

الموازنة بين الإسلام والمسيحية:

ولكنه لأجل أن يتبين في وضوح الفروق الجوهرية بين الإسلام والمسيحية، ولأجل أن يصل إلى الحد الأسمى فيما يتعلق بالإخلاص لضميره –عبر هذا يوازن موازنة قيمة بين الإسلام والمسيحية فرأى

---

(١) من أشعة خاصة بنور الإسلام

(٢) من كتاب الحج إلى بيت الله الحرام

«أ» فيما يتعلق بالإله:

«الدين الإسلامي هو الدين الوحيد الذي لم يتخذ فيه الإله شكلا بشريا، أو ما إلى ذلك من الأشكال أما في المسيحية فإن لفظ «الله» تحيطها تلك الصورة الآدمية لرجل شيخ طاعن في السن قد بدت عليه جميع دلائل الكبر والشيخوخة والانحلال، فمن بعيد بالوجه عائرة، إلى لحية بيضاء مرسلة مهملة تثير في النفس ذكرى الموت والفناء، وتسمع القوم يصيحون «ليحيا الله» فلا نرى للرواية محلا، ولا نعجب لصيحتهم وهم ينظرون إلى رمز الأبدية الدائمة وقد تمثل أمامهم شيخا هرما قد بلغ أرذل العمر، فكيف لا يخشون عليه من الهلاك والفناء؟ وكيف لا يطلبون له الحياة؟!!

كذلك «يا هو» الذي يمتزج به طهارة التوحيد اليهودي، فهم يجعلونه في مثل تلك المظاهر المتهالكة، وكذلك نراه في متحف «الفاتيكان» وفي نسخ الأناجيل المصورة القديمة.

أما «الله» في دين الإسلام الذي تحدث عنه القرآن، لم يجرؤ مصور أو نحات أن يجري به ريشته، أو ينحته بإزميله، ذلك لأن «الله» لم يخلق الخلق على صورته، وتعالى سبحانه فلم تكن له صورة، ولا حدود محصورة، وهو الواحد الأحد الفرد الصمد، لم يكن له كفوا أحد»(١)

«ب» فيما يتعلق بالصلاة والنظافة:

«إن الحركات والإشارات في الصلاة الإسلامية هي ذات بساطة ولطافة ونبالة لم يسبق لها مثيل من نوعها في صلاة غيرها.

كما أنها لا تدعو الوجوه بالتظاهر والتكلف، ولا العيون بالشخوص إلى السماء واستنزال الدموع الذي تذكرنا بالدموع الجليسرينية التي يصطنعها ممثلو «السينما» في عصرنا الحاضر حقا إن الصورة الإسلامية خالية من تلك الأمور الشائنة التي خصها المسيحيون بالصلاة المسيحية، مما جعلها في غير جمال ولا جلال ولا وقار.

والأقوال والحركات التي في الصلاة الإسلامية هي ذات دلالة على الرزانة والهدوء والاطمئنان، وهي خالية من مبالغات الورع وتكلفات الخشوع، والتظاهر بذلك مما هو غريب في العبادات، لأن الله سبحانه وتعالى عليم بما في الصدور وهو الغني الحميد.

ثم إن من الأمور الغريبة تخصيص وجود الإله في السماء عند دعوته، وهذه الحال تحمل في طياتها الحادا، إذ تجعل السماء منفى الإله، وتنفي بذلك عنه صفة الوجود في كل مكان

وحركات الصلاة الإسلامية، فوق تعبيرها التام عما تحمل نفوس المؤمنين من العاطفة النبيلة نحو المولى الكريم، تقوم للجسم بأعظم مزايا الحركات الرياضية، فهي مفروضة الأداء خمس مرات في اليوم الواحد، وكم من شيخ كبير ربحين سمين،

---

(١) أشعة خاصة بنور الإسلام

يستطيع كلاهما السجود والركوع والوقوف دون كبير عناء ولا مشقة، مما لا يستطيعه المسيحي في مثل هذه السن، أو في مثل هذا الحال ما لم يكن قد روض على ذلك من قبل أضف إلى ذلك حكمة الوضوء الذي يسبق كل صلاة، فعنها للبدن انتعاش وصحة ونظافة، والنظافة من الإيمان.[١]

«جـ» في التسامح:

يقول القس «مشون» في كتابه «سياحة دينية في الشرق»: إنه من المحزن أن يتلقى المسيحيون عن المسلمين روح التسامح وفضائل حسن المعاملة، وهما أقدس قواعد الرحمة والإحسان عند الشعوب والأمم.

«د» في العلم

رفع النبي محمد قدر العلم إلى أعظم الدرجات وأعلى المراتب[٢] وجعله من أول واجبات المسلم وفي ذلك يقول: «اطلبوا العلم ولو بالصين»، «يوزن يوم القيامة مداد العلماء بدم الشهداء»، «شرار العلماء الذين يأتون الأمراء، وخيار الأمراء الذين يأتون العلماء»، «فضل العلم خير من فضل العبادة».[٣]

(١) أشعة خاصة بنور الإسلام

(٢) يقول فضيلة الشيخ محمد الخضر حسين: نهض الإسلام بالعقول من وهدة الخمول، وأذن لها أن تبحث في كل علم، وتذهب في البحث كل مذهب، فوجدت الأمم من العرب وغير العرب في هذه السماحة ما أثار نشاطهم للبحث في كل ناحية من نواحي العلم، فلم يلبثوا أن جمعوا القرآن الكريم في مصحف، ودونوا الحديث النبوي بعد أن كان محفوظًا في الصدور، وكتبوا في تفسير القرآن، وشرح السنة النبوية، وعمقوا النظر في تقرير أصول الدين وأصول الفقه، وحرروا وجوه استنباط الأحكام العملية، ووضعوا قواعد العلوم العربية، من النحو، والصرف، والبيان، وفقه اللغة، ودرسوا العلوم النظرية المعربة عن الكتب اليونانية وغيرها، فأصبحت بلاد الإسلام - ولا سيما عواصم الممالك كبغداد، وقرطبة، ومصر، ودمشق، وتونس، مورد العلوم الإسلامية والأدبية والفكرية، ومن هذه الموارد استمدت الأمم الأوروبية معارفها وعلومها، وقد اعترف بهذه كثير من علماء أوروبا المنصفين، قال الأستاذ «بريفولت» الإنجليزي في كتابه «تكوين الإنسانية»: في القرن التاسع تعلم كثير من المسيحيين عند علماء الإسلام وقال إن راهب دير كونتي يأسف على أنه رأى أثناء إقامته بالأندلس الطلبة من فرنسا والمجتمع وإنجلترا يردون أفواجًا أفواجًا إلى المراكز العلمية العربية وقال فالعلم هبة عظيمة الشأن جادت بها الحضارة العربية على العالم المعاصر

ولم يكن فضل الإسلام على أوروبا من ناحية العلم فقط، بل كان له الفضل في نهضتها المدنية، قال الأستاذ بريفولت في الكتاب المذكور: لم تكن إيطاليا مهدًا لنهضة أوروبا الجديدة بل إسبانيا (الأندلس) لأن أوروبا كانت بلغت أشد أعماق الجهل والفساد ظلمة، بينما العالم العربي، بغداد، والقاهرة، وقرطبة، وطليطلة كانت مراكز الحضارة والنشاط العقلي ومن ثم ظهرت الحياة الجديدة التي نمت في شكل ارتقاء إنساني جديد

وخلاصة القول [illegible] خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم قد أنقذ العالم بما [illegible] من الإصلاح لم [illegible] دعوة [illegible] يوجد في العالم من هداية صادقة [illegible] علوم نافعة [illegible] مدنية فاضلة، فيرجع الفضل فيه [illegible]

فالرسول [illegible] رأيته محتجًا بحق رفع الإنسانية من حضيض الجهل إلى أوج العلم، وفتحا سبل السعادة المادية والمدنية [illegible] ومن أحسن قولًا ممن دعا إلى الله وعمل صالحًا وقال إنني من المسلمين» من (رسالة عن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم)

(٣) الجزء الأول من كتاب الإحياء للغزالي

وقد نظر المسيو «كارانوف» أحد كبار أساتذة الكوليج دي فرنس بباريس في هذه الكلمات العاليات، ولكن بقولها أحد أصحاب الديانات، فعلق على ذلك بقوله: «يعتقد الكثيرون منا أن المسلمين لا يستطيعون تمثل آرائنا وهضم أفكارنا..

يعتقدون ذلك وينسون أن نبي الإسلام هو القائل بأن فضل العلم خير من فضل العبادة! فأي رئيس ديني كبير، وأي قس من القساوسة العظام كانت له الجرأة أن يقول مثل هذا القول القوي الفصيح المتين؟ هذا القول الذي هو نفسه عنوان حياتنا الفكرية المعاصرة، نعم إن هذا هو مبدؤنا اليوم، ولكن أليس العهد بقريب يوم كانت الكافة عندنا من أهل العقول تنظر إلى مثل هذا الشعار كأنه رمز العار ومجلبة الشنار؟!.

كما أنه سوف يقال إن أوضح مبادئ الحرية الفكرية قد كسبت أمثال «لوثير» و«كلفين» وعاد الفضل فيها إلى رجل عربي من رجال القرن السابع، ذلك هو صاحب شريعة الإسلام.[١]

«هـ» في الفروسية:

ينظر المسيحيون إلى «سان لويس» وكأنه النموذج الأعلى للثمرة المسيحية الناضجة. غير أن الوثائق التاريخية تثبت في وضوح وسهولة أن خصمه صلاح الدين الأيوبي كان أرفع منه قدرًا في الحضارة وفي الشجاعة وفي معاملة الخصوم.

والفروسية ونبالة قصدها، لم يكن يعرفها الأقدمون من اليونان والرومان، ولكنها كانت معروفة عند العرب أيام جاهليتهم، ثم هذبها الإسلام وطهرها تطهيرًا.

وعلى إثره نقلت أوروبا ووصلت إلينا نحن الغربيين ولم يبق أحد اليوم ينكر نسبها إلى العرب.

وقد ذكر العالم المسيحي المتدين «بارتلمي سان هيلار» في سياق حديثه عن القرآن إن العرب هم الذين يرجع إليهم الفضل على سادات أوروبا، وفرسانها، في القرون الوسطى، في تعديل عاداتهم الخشنة وتلطيفها، ثم تعليمهم رقة العاطفة، وتهذيب نفوسهم، والرفعة بها إلى حيث الإنسانية والنبالة، وكل ذلك دون أن يصيبهم ضعف يفقد من فروسيتهم وشجاعتهم شيئًا.

ويخطئ من يظن أن هذا راجع إلى المسيحية وحدها رغم ما بها من الغرائب والفضائل، وقد حفظ لنا التاريخ في سجلاته عن فروسية العرب وروحها العالية جميع أدلة العظمة المرشاة بالرقة والتهذيب، وقد ذكر منها الكثير وصف بطرس غالي في كتابه «فروسية العرب»:

كان محمد يحب النساء ويفهمهن، وقد عمل جهد طاقته لتحريرهن وربما كان ذلك بالقدرة الحسنة التي أسنتها وبالقواعد والتعاليم التي وضعها وهو يعد بحق من أكبر أنصار

(١) من أشعة خاصة بنور الإسلام

المرأة الصليبين إن لم يكن أولهم فقد كان بهن رحيما وعليهن حليما وكان لين الجانب كثير العطف عليهن، عظيم الاحترام والتكريم لهن، لم يكن ذلك خاصا منه بزوجاته، بل ذلك كان شأنه مع جميع النساء على السواء.

«و» في العبقريات العلمية:

ثم إنهم يفخرون بالعالم «باستور» الفرنسي ويجعلونه درة في تاج العبقريات الحديثة، ولكن عندهم «ابن جبير» و«الرازي»، لا يقلان عنه في مرتبة العلماء والمفكرين، فهما الفارسان العبقريان لعلم «الكيمياء» بفضل ما كشفاه من طرق التقطير ومن الكحول ومن «حمض سلفريك» و«حمض الكبريتيك».(١)

إســـــــلامه:

واستمر صاحبنا في الموازنة والمقارنة والتأمل والتفكير، وأطال النقاش ثم أراد الله له أن يسلم.

أسلم «إتيين دينيه»، واختار اسم «ناصر الدين»، وإن هذا الاختيار لهو الذي يحدد منهجه بعد ذلك خير تحديد... ناصر الدين إنه حقا خصص حياته لنصرة الدين الإسلامي، ورأى أن نصرته إنما تكون عن طريقين:

«أ» نصرته سياسيا.

«ب» نصرته دينيا.

أعداء الإسلام:

... عنصرين من عناصر الشر يتألبان على الإسلام ويهاجمانه في عرينه، وهما ... السياسة الاستعماريين، ورجال الدين المتعصبين، ولا بد لكي نصرة الإسلام ... منه من أن يتجه الدفاع نحو الهدفين ويطلع ناصر الدين نحو الهدف الذي يريد أن يسعى ... فهاله الأمر، وكتب معبرا عن الواقع يقول: إن أهل السوء من أهل الكتاب لا يفكون ... أصحوبنا نحن المسلمين بالأباطيل ويحاربوننا بالمفتريات وإنا نحن شئنا أن نحصي ... تهم علينا كانت فيها صفحة هي أسود الصفحات في سجل التعصب، يشترك في ... أعداء الإسلام قديمهم وحديثهم، سواء منهم العلماء والقواد، والقساوسة، ورجال ... الحكومات، والكتاب، أمثال بيرون وبلجراف وجلادستون، ومرجليوس، والقسيس ... مريري، والأب لامنس، والكاتب لوي برتران سرقبيه... وغيرهم.(٢)

---

(١) المصدر السابق

(٢) عن «أشعة خاصة بنور الإسلام».

الانتصار للإسلام سياسيا.

أما والأمر كذلك، فلا بد من التشمير عن ساعد الجد والنهوض حقيقة في وجه عوامل هدم الإسلام هذه ولكن كيف السبيل؟

أما من جهة السياسة فإن ناصر الدين ليس من الساسة المحترفين ولذلك كانت مهمته في هذه الناحية التحدث إلى كل من يجد فيه روح الإنصاف من الغربيين ذوي النفوذ، والعمل على إذاعة كل ما يمكنه إذاعته من آراء المنصفين منهم، ويبين قضية الشرق المظلوم.

ومن أمثلة ما كان يذيعه مثلا، ما يلي:

نشر أخيرا المسيو أوجين يونج وكيل حكومة التونكين الفرنسية سابقا كتابا عنوانه «استعباد الإسلام الحرب – الصليبية الجديدة» وهذا الكاتب معروف بأنه من الكاثوليك المتمسكين بمذهبهم، ولكنه معروف كذلك بأنه فرنسي من خيرة الفرنسيين، وقد أنكر في كتابه هذا، في كثير شجاعة وصراحة، تلك الحروب الصليبية الجديدة التي يقوم بها اليوم «الفاتيكان» ذلك المركز الرئيسي المقدس، حيث البابا الحبر الأعظم للمسيحية، وقد أظهر أنهم يقومون بذلك دون أن يبعث في عصدهم مثل او كنث، وأن يعنف منهم أي ... أو كس، وإنما يقومون به من وراء ستار المذهبة وفي ثوب من الرياء يشف عما تحته.

ومما جاء في كتاب المسيو «يونج» قوله: «إننا نهيئ من اليوم مقدمات حروب دينية شديدة الفزع والهول».

ثم ... أن مصالح فرنسا الحيوية إنما هي في التفاهم والاتفاق الودي مع الإسلام، وإننا لنرجو أن يكون لكلام هذا الفرنسي الكبير صدى بعيد وأثر محمود في مصلحة فرنسا والإسلام على السواء.(١)

ومن جهة أخرى أخذ ينشر ما يصحح فكرة الأوروبيين عن الشعوب الإسلامية ويبين أنها شعوب بعيدة كل البعد عن الهمجية والتوحش، وأنها تمتاز بالوفاء وعرفان الجميل والكرم والشجاعة والفضائل المحمودة، ويبين أن ماضيها المجيد خير نبراس يرسل أشعته على الفكرة الخاطئة الموجودة عند الغربيين، فيزيل ما غشى عليها من ظلمة.

ويلفت نظر الفرنسيين في قوة، إلى ما أداه لهم المسلمون من أياد جليلة في ميدان الحروب ضد أعداء فرنسا، ومن ... توجيهه للفرنسيين في ... ميدان ... كتبه في السيرة النبوية، إهداء لأرواح الجنود الإسلامية التي استشهدت في الحرب الكبرى وهي تحارب في صفوف الفرنسيين.

الانتصار للإسلام علميا:

ومع تلك فإن ميدانه الفسيح ... الدفاع عن الإسلام، ... عبارة ... بعد

---

(١) «أشعة خاصة بنور الإسلام».

تبحث في الدفاع عن عقيدته التي يؤمن بها في يقين حر مطلق ومما زاد من قيمة دفاعه هذه الموازنات الكثيرة البديعة بين الإسلام والمسيحية في كثير من الأصول وفي كثير من الفروع، لقد درس الإسلام في عمق، ودرس المسيحية في عمق، ورأى أن هجوم رجال الكنيسة لا يفتر وتربيبهم بالباطل لكل ميزة للإسلام لا ينقطع، فدافع واشتد في دفاعه، وهاجم وكان لا بد من الهجوم واشتد في هجومه، وتوالت ضرباته للمسيحية ممثلة في رجال الكنيسة.. ولكنه كان يعلن دائما كما هو الشأن في كل مسلم احترامه للمسيح: لأنه رسول الله، واحترامه للمسيحية الصحيحة التي يتحدث عنها القرآن، لا تلك التي ابتدعها رجال من بني البشر، كان يعلن دائما أن دين الله واحد، وأن الإسلام أتى مصدقا لما سبقه مصححا لما ناله من تحريف مهيمنا عليه، وقد وعد الله بحفظ كتابه المقدس: «إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون»، فالقرآن في العصر الحاضر هو الكتاب السماوي الوحيد الذي لم يبدل– ولن يناله تحريف أو تبديل.

يقول الأستاذ راشد رستم– بحق– عن ناصر الدين:

وإنك لتجد الكاتب واسع الاطلاع لذلك هو صحيح الحجة، ناصع البرهان. هو شديد الهجوم، شديد الدفاع: ذلك لأنه غيور على دينه الذي لم يتخذه إلا بعد أن بحث وفكر، وهكذا كان في عقيدته مكينا، وفي إسلامه كاملا.[٤]

كان يصحح الأخطاء، ويرد الهجوم، ويهاجم، ويوازن بين الإسلام والمسيحية، وكان قبل كل ذلك وبعد كل ذلك، يبين الإسلام ويوضحه ويشيد به.

وكانت وسيلته إلى ذلك المقالات والمحاضرات والرسائل والكتب فضلا عن الأحاديث الشفهية.

التعريف ببعض كتبه:

ومن كتبه في ذلك

١– الرسالة القيمة «أشعة خاصة بنور الإسلام» وقد ترجمها ترجمة أدبية ممتازة الأستاذ راشد رستم، وهي رد على الفكرة التي يذيعها القساوسة القائلة: إن الإسلام لم يأت بجديد، وقد انتفعنا بها انتفاعا عظيما وكانت لنا خير عون في عملنا الحالي.

٢– وآخر ما ألفه هو كتاب «الحج إلى بيت الله الحرام» وقد ترجمت خاتمته ونشرت في مجلة جمعية الشبان المسلمين، بقلم الأستاذ: م. توفيق أحمد، وقد نقلنا بعض من نصوصها في ثنايا الكتاب الحاضر.

٣– «الشرق كما يراه الغرب» وقد ترجمه الأستاذ عمر فاخوري، ونشر بدمشق مع رسائل أخرى تحت عنوان «آراء غربية في مسائل شرقية» وقد استفدنا منه كثيرا في البحث الراهن

(١) أشعة خاصة بنور الإسلام

٤– ومن أهم كتبه ما جعله تاريخ لحياة الرسول عليه السلام وهو السيرة النبوية في مجلد كبير جليل، وضعه باللغة الفرنسية مع صديقه الجزائري الحميم السيد الفاضل سليمان بن إبراهيم، وزينه بالصور الملونة البديعة الكثيرة المتعددة من ريشته الخاصة، يمثل فيها المناظر الإسلامية في بلاد الجزائر ومعالم الدين فيها، وطبعه طبعا غاية في الإتقان والعناية، وقدمه لأرواح الجنود الإسلامية التي استشهدت في الحرب الكبرى، وهي تحارب في صفوف الفرنسيين.[١]

ونشره كذلك باللغة الإنجليزية بنص الحجم الكبير والإتقان التام، والكتاب في طبعتيه، قد تحلى بمختلف أنواع اللوحات الزخرفية الملونة ذات الأشكال العربية، غاية في الدقة والإبداع، وهي اللوحات التي قام بعملها خاصة السيد محمد راسم الجزائري أشهر رجال الزخرفة العربية ببلاد الجزائر.[٢]

ويبلغ ثمن النسخة الواحدة من هذا الكتاب خمسة جنيهات مصرية وإنها لخدمة جليلة للإسلام والمسلمين وبنى الإسلام مشكورة مذكورة.[٣]

وفاته

استمر ناصر الدين طيلة حياته يناضل عن الإسلام كدين، ويناضل عن المسلمين كشعوب، ويضع روحه، وشعوره ووجدانه في هذا الدفاع المجيد حتى ليكاد الإخلاص يتجسد خلال ما يسطره من عبارات.

وفي سنة ١٩٢٨م قام السيد ناصر الدين بأداء فريضة الحج ووضع كتابه: «الحج إلى بيت الله الحرام»

وفي ديسمبر سنة ١٩٢٩م توفي بباريس، وصلي عليه بمسجدها الكبير بحضور كبار الشخصيات الإسلامية وغيرها، ووزير المعارف بالنيابة عن الحكومة الفرنسية ثم نقل جثمانه إلى بلاد الجزائر حيث دفن في المقبرة التي بناها لنفسه ببلدة «بو سعادة» تنفيذا لوصيته.[٤]

رحمه الله رحمة واسعة وجزاه عن الإسلام والمسلمين خيرا.

(١) ... على ذلك جزء ...

(٢) وقد أشار إلى ذلك السيد الأزرار بجامعة الجزائر ومدير متحف الجزائر، وذلك في المحاضرة التي ألقاها في النادي الفرنسي بالقاهرة يوم ١١ مارس سنة ١٩٢٩ وهي المحاضرة الخاصة بالنهضة الفنية الجزائرية

(٣) «أشعة خاصة بنور الإسلام»

(٤) راشد رستم في مقدمة كتاب «أشعة خاصة بنور الإسلام»

(٢)
ناصر الدين والمستشرقون

حينما ألف السيد ناصر الدين كتابه عن حياة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، ثارت ثورة النقد متجهة، على الخصوص إلى الشكل، لا إلى الجوهر. لقد زعموا أن الأبحاث العلمية الحديثة قد وضحت جوانب من سيرة الرسول، وأن المستشرقين في مختلف الأقطار قد كتبوا عن سيرة سيدنا محمد كتابة تعتمد على الأبحاث العلمية الدقيقة، ورأوا أن الأستاذ ناصر الدين لم يعبأ بشئ من ذلك، وأخذوا عليه أنه لم يقم وزنا لإنتاج المستشرقين في السيرة النبوية وأن اعتماده إنما كان على السيرة القديمة، كسيرة ابن هشام وابن سعد.

المستشرقون لا يفهمون السيرة النبوية:

والواقع أنه فعل ذلك، وفعله متعمدا، فقد كتب السيرة معتمدا على المنقول من الأخبار الإسلامية الصحيحة، ولكنه فعل ذلك بعد أن قرأ ما كتبه المستشرقون عن سيرة الرسول فوجد أنه لا يساوي شروى نقير، لقد رأى أنه من المتعذر، إن لم يكن من المستحيل، أن يتجرد المستشرقون من عواطفهم وبيئتهم، ونزعاتهم المختلفة، وأنه لذلك قد بلغ تحريفهم لسيرة النبي والصحابة مبلغا يخشى على صورتهم الحقيقية، من شدة التحريف فيها، ورغم ما يزعمون من اتباعهم لأساليب النقد الحديثة، ولقوانين البحث العلمي الجاد، فإنا نلمس من خلال كتاباتهم: محمد يتحدث بلهجة ألمانية، إن كان المؤلف ألمانيا.

ومحمد يتحدث بلهجة إيطالية، إذا كان الكاتب إيطاليا.

وهكذا تتغير صورة محمد بتغير جنسية الكاتب، وإذا بحثنا في هذه السير عن الصورة الصحيحة فإنا لا نكاد نجد لها من أثر!

إن المستشرقين يقدمون إلينا صورا خيالية، هي أبعد ما تكون عن الحقيقة!

إنها أبعد عن الحقيقة من أشخاص القصص التاريخية التي يؤلفها أمثال «والتر سكوت» و«إسكندر ديماس» وذلك أن هؤلاء يصورون أشخاصا من أبناء قومهم، فليس عليهم إلا أن يحسبوا حساب اختلاف الأزمنة، أما المستشرقون فلم يمكنهم أن يلبسوا الصورة الحقيقية لأشخاص السيرة، فصوروهم حسب منطقهم الغربي، وخيالهم العصري.

وإن الدكتور «سنوك هير غرونجه» ليقول بحق، في نهاية نقده لكتاب المستشرق «جريم»

إنا نرى أن الأستاذ «جريم» لو اقتصر على درس السير النبوية القديمة وبحثها في عمق لكان أفضل، وإن الثمار التي كان يمكن أن يجنيها من مثل هذا الدرس لهي أجدر ببلوغ الغاية التي توخاها، ولكنه ظن أن هذا عمل ليست له أهمية كبيرة، وأراد أن يطرف

الدرس بنبأ جديد، فتمثل في وضع السيرة النبوية التي حاول فيها أن يطبع محمدا بطابع الروح الاشتراكي، وفي جعل محمد اشتراكيا، وفي أن تعود الاشتراكية نفسها محمدا لأن يضع الدين الذي أتى به

إن الاشتراكية الإسلامية- لا الاشتراكية الحديثة، كما يتصورها «جريم» ثمرة من ثمار الرسالة الإسلامية، وليست الرسالة الإسلامية ثمرة الاشتراكية

تخبط المستشرقين:

ولنضرب الآن بعض الأمثلة،، للنتائج التي توصل إليها المستشرقون في أبحاثهم التي يزعمونها علمية صحيحة، وسنضرب بعضها ببعض لتنهار، ولو كانت علمية حقة لما تخالفت، ولما تعارضت، ولما كان مصيرها التلاشي.

١- كيف كان خلق محمد؟ وما هو السر في تأثيره العظيم على أبناء وطنه؟ عن هذا السؤال يجيب «دوزي»: لعل رسول الله- كما كان يلقب نفسه لم يكن أسمى من مواطنيه، ولكن من المؤكد لم يكن يشبههم.

كان صاحب خيال في حين أن العرب مجردون عن الخيال، وكان ذا طبيعة دينية ولم يكن العرب كذلك.(١)

ولا يرضي القسيس «لامانس» بهذا فيصرخ متأثرا بحقده الجارف ضد الإسلام ويقول:

كان محمد رغم صحابيه «معاذ الله»، يمثل البدوي الذي كان يرى ذاته في شخص نبي العربي، كما يدعوه القرآن وفي هذا التفاعل، أو في هذه المطابقة التامة بين محمد وبيئته، نجد أولا وقبل كل شئ السر في هذا السلطان الضخم الذي كان لمحمد على مواطنيه.(٢)

٢- سؤال آخر: ماذا كانت ميول محمد قبل البعثة؟ يرى «دوزي» أن محمداً كان سوداوي المزاج يلتزم الصمت، ويميل إلى التنزهات الطويلة فريدا، وإلى التأملات المستغرقة في شعاب مكة الموحشة.

ويرد القسيس «لامانس» ضاربا بكل حقيقة عرض الحائط: «كلا، ليس هناك ما يثبت اعتكاف محمد وعزلته، فذلك لا يتفق مع نفرة محمد من الوحدة وكراهيته المشهورة للنسك.»(٣)

٣- وسؤال ثالث: ما هي العوامل في بعثة محمد ورسالته؟

إنها نوبات الصرع كما يفترى «نلدكه».

---

(١) دوزي: مسلمو الأندلس ج١ ص٨
(٢) لامانس: مهد الإسلام، ص٤٨
(٣) لامانس: هل كان محمد صادقاً؟ ص١

وكيف تكون نوبات الصرع عاملا فى البعثة؟

سئوا عن ذلك «بلدكه».

ولكن المستشرق «دوغويه» يعتقد أن هذا بعيد الاحتمال، ويعلل ذلك بأن الحافظة فى المصروعين تكون معطلة، على حين أن حافظة محمد كانت غاية فى الجودة كلما هبط عليه الوحى

ولا يكاد يسمى من هدم «نوبات الصرع» حتى يؤكد «إشبرنجر» أنها نوبات هيستريا اشتهرت باسم شرتلاين.[٢]

ولكن «سنوك هرغرونيه» يرى أن هذه الأسس التى يراد أن تقام عليها البعثة أسس واهية، ويقول

(١) «دوغويه» مباحث شرقية ص ٩، ويقول الدكتور هيكل فى كتابه «حياة محمد» ص ٤٠ : «ويعود إلى مقصد النصف الأخير من رسالة ذلك المصرى المسلم، فهو يذكر أن مباحث المستشرقين دلتهم على أن النبى كان يصاب بالصرع وأن أعراضه كانت تبدو عليه، إذ كان يغيب عن صوابه، ويسيل منه العرق، وتعتريه التشنجات، ويخرج من فمه الرغوة، حتى إذا أفاق من نوبته تلا على المؤمنين به ما يقول إنه وحى الله إليه، فى حين أنه لم يكن هذا الوحى إلا أثرا من نوبات الصرع. وتصوير ما كان يبدو على محمد فى ساعات الوحى على هذا النحو خاطئ من الناحية العلمية أشد الخطأ، فنوبة الصرع لا تترك عند من تصيبه أى تذكر لما مر به أثناءها، بل هو ينسى هذه الفترة من حياته بعد إفاقته من نوبته نسيانا تاما، ولا يذكر شيئا مما صنع أو حل به خلالها، ذلك لأن حركة الشعور والتفكير تتعطل فيه تمام التعطل. هذه أعراض الصرع كما يثبتها العلم، ولم يكن ذلك ما يصيب النبى العربى أثناء الوحى، بل كانت تنتبه مداركه المدركة فى تلك الأثناء تنبها لا عهد للناس به، وكان يذكر بدقة غاية الدقة ما يتلقاه وما يتلوه بعد ذلك على أصحابه.

هذا ثم إن نزول الوحى لم يكن يعترى محمدا بالضرورة مصحوبة مع منحه الإدراك الروحى غاية التنبه، بل كان كثيرا ما يحدث والنبى فى تمام يقظته العادية، وحسبنا أن نشير إلى ما أوردنا فى هذا الكتاب عن نزول سورة الفتح عند قرب المسلمين من مكة إلى يثرب بعد عهد الحديبية.

وإلى العلم إذن أن الصرع كان يعترى محمدا، ولذلك لم يقل به إلا الأقلون من المستشرقين الذين افتروا على القرآن أنه محرف وهم لم يقولوا به حرصا على حقيقة بالتصديق، وإنما قالوا به ظنا منهم أنهم يحطون من قدر النبى فى نظر طائفة المسلمين

أم حسبوا أنهم يلقون بأقوالهم هذه ظلالا من الريبة على الوحى الذى نزل عليه، لأنه نزل عليه، فيما يزعمون أثناء هذه النوبات، لم يكن ذلك غير الخطأ الذى كما قدمنا وما ينكره العلم عليهم أشد الإنكار

ولو أن نزاهة القصد كانت رائد هؤلاء المستشرقين لما خطر لهم ما يذكرون. وهم إنما فطنوا لذلك ليخدعوا به أولئك الذين لا يهديهم علمهم إلى معرفة أعراض الصرع، والذين تستكين طمأنينتهم الساذجة إلى أقوال هؤلاء المستشرقين عن سؤال أهل العلم من رجال الطب، وعن الرجوع إلى كتبه، ولو أنهم فطنوا لما تعذر عليهم أن يكشفوا عن خطأ هؤلاء المستشرقين خطأ مقصودا أو غير مقصود، وليعلموا أن النشاط الروحى والتجلى للإنسان يختلف تمام الاختلاف أثناء نوبات الصرع، ويصير صاحبه فى حالة آلية محضة، يتحرك مثل حركته قبل نوبته، أو يثور إذا استثير به الثورة، فيصيب غيره بالأذى، وهو أثناء ذلك غائب عن صوابه، لا يدرك ما يصدر عنه ولا ما يمر به، شأنه شأن النائم الذى لا يشعر بحركاته أثناء نومه، فإذا انقضى ما به لم يتذكر منه شيئا، ويبقى أثناء النوبة نشاط روحى قوى قاهر يصل صاحبه بالملأ الأعلى عن شعور تام وإدراك يقينى، ليبلغ من بعد ما أوحى إليه

فالصرع يعطل الإدراك الإنسانى ويهبط بالإنسان إلى مرتبة آلية يعدم أثناءها الشعور والحس، أما الوحى فسمو روحى اختص الله به أنبياءه ليلقى إليهم بحقائق الكون اليقينية العليا، كى يبلغوها للناس

(٢) إشبرنجر «حياة محمد وتعاليمه» ج ١ ص ٢٠٧

«يجب أن نقر بأن قيمة محمد إنما هى ما يميزه عن سائر الهستيريين».

ويدلى المستشرق «جريم» بدلوه هو الآخر، فيرى أن الآراء الاشتراكية لا الآراء الدينية هى التى قادت محمداً إلى الرسالة.

أما مستنده فى ذلك: فهو تشديد محمد فى الزكاة التى يسميها «جريم» ضريبة، ولما كان القول بذلك فى مكة أسهل من التنفيذ فقد حاول النبى فيما يرى جريم – أن يؤثر على الممكنين بتخويفهم من يوم الحساب متخذا الإكراه الروحانى وسيلة للبذل والسخاء[١]

ولكن «سنوك هرغرنجه» يرد على «جريم»، ويرى أن رأى «جريم» واستشهاده، كل ذلك غريب، سواء نظرنا إلى المنقول فى السيرة، أو نظرنا إلى ظروف البيئة العربية إذ ذاك وينهار – تحت قلم «سنوك» الرأى القائل بأن الإسلام فى الأصل، أقرب إلى أن يكون اشتراكية نشأت عن بؤس ذلك الزمن وفقر بنيه من أن يكون دينا.

بيد أن «سنوك» يزعم ولا بد له من الزعم، لأنه لا بد له من التعليل أن الباعث على رسالة محمد إنما هو فزعه العظيم من يوم القيامة والحساب، وتفكيره المتواصل فى مصيره، وفى الجنة والنار.

وإرادة الإغراب فى المستشرقين قوية جامحة، وقد بلغ القمة فى الإغراب المستشرق «مرجليوث» لقد خطأ كل الآراء التى ذكرناها، وأراد أن يأتى ببدع من القول يتناسب مع القرن العشرين، فرأى أن الباعث على بعثة الرسول إنما هى أعمال الشعوذة[٢]، لقد عرف محمد خدع الحواة، وحيل الروحانيين، ومارسها فى دقة وفى لباقة، وقد كان يعقد فى دار الأرقم جلسات روحية وكان المحيطون به يؤلفون جمعية سرية، تشبه الماسونية، ولهم إشارات تعارف مثل «السلام عليكم»، وعلامات يتميزون بها كإرسال طرف العمامة بين الكتفين.

أرأيتم المدى الذى يصل إليه المستشرقون فى تخبطهم، واضطرابهم، وتعصبهم وإرادتهم الإغراب...؟

إن فيما مر ما يكفى لتصوير حالة المستشرقين، ومع ذلك سنتحدث عن آرائهم فى مسألة رابعة محددة أبعد ما تكون عن العروض والتخمينات:

٤ – ما هى الأسباب فى مرض الرسول وموته؟

يستصرخ القسيس «لامانس» خياله حتى يخرج برأى يشفى شيئا من غليله ضد الإسلام، ضاربا بالمعقول وبالتاريخ وبالحقيقة عرض الحائط، فيقول:

(١) جريم: محمد، ص ١٥

(٢) كتب المستشرق «مرجليوث» كتابا عن سيدنا محمد قال فيه بكل غريب وبكل باطل، وظهرت كراهيته للإسلام من خلال هذا الكتاب ظهورا بينا، ومن مراجعه المضحكة مثلا أن محمدا صلى الله عليه وسلم سافر إلى مصر لأن كلامه عن مصر يدل على معرفة تامة بها، ويرد عليه المستشرق «بولدكه»، فيقول إن محمدا لم يكن يعلم أن المطر قليل فى مصر قلة مطلقة ولو كان سافر إليها لعلم تلك الحقيقة التى لا تخفى على أحد

كان لمحمد شهوة قوية جيدة، وقد كثفت جسمه الملذات وخدرت أعصابه فأصبح مهددا بداء السكتة.

وعلى الضد من ذلك تماما يرى المستشرق «بيتيه سنطة»: أن رؤى محمد كانت في بعض الأحيان أثرا لضعفه الشديد من الجوع وقد كان يسمع أثناء صومه مايشبه مواء القطط أو أصوات الأرانب ولقد مات بحمى هاذية استمرت يومين.

ويعارض هذا وذاك المستشرق «كلميان هيار» فيرى أن قد ظهرت على محمد أعراض التهاب رئوى فخارت قواه بسرعة عظيمة، وتوفى فى الثالث عشر من شهر ربيع الأول سنة ١١ هجرية.[1]

أما القسيس «باردو» فإنه يرى أن محمدا مات مسموما بيد امرأة يهودية.[2]

هل نستطيع بعد أن رأينا ما سبق أن نعتمد على آراء المستشرقين مع أن ما ذكرناه من اختلافهم إنما هو قليل من كثير، ويهدم بعضه بعضا، ومن اليسير أن نحقق فيه المثل العربى «لا تكسر الجوزة إلا على جوزة» فيبطل تراث المستشرقين كله فى السيرة النبوية، ضاربين بعضه ببعض فإذا هو زاهق.

المنهج الذى يجب أن يتبع فى دراسة السيرة:

إن الصرح الذى شيده المستشرقون فى سيرة الرسول إنما هو صرح من الورق قد أقيم على شفا جرف هار، والسبب فى ذلك واضح، ذلك أن المستشرقين لم يتبعوا الخطة المثلى فيما ينبغى أن يعتمدوا عليه فى السيرة النبوية، إن كاتب السيرة النبوية يجب عليه أولا. أن يتجرد عن الشهوة والهوى والعصبية، ويبدأ فى دراسة الموضوع نافضا عن رأسه كل ما أوحته إليه الكنيسة من أباطيل عن الإسلام، وكل ما غرسته فى نفسه من ترهات خاصة بمؤسس الدين الإسلامى... وإذا لم يفعل ذلك فإن ما يكتبه سيكون لا محالة وهما وباطلا.

ويجب عليه ثانيا: أن يعتمد على الأخبار الصحيحة التى رواها المسلمون أول عهدهم بالتدوين، يجب عليه أن يعتمد على سيرة ابن هشام، وطبقات ابن سعد، وعلى البخارى ومسلم، وعلى تاريخ الطبرى، وقبل ذلك وبعده على القرآن.

ويجب عليه ثالثا: أن يدرس البيئة العربية فى مهدها الأصلى، مكة، والمدينة، والطائف، وغيرها حتى يتجلى له الغامض ويتضح له المبهم وتستقيم له الفكرة.

إن البيئة العربية الحالية تكاد تريننا رأى العين أشخاص الأخبار التى رويت فى سيرة ابن هشام وطبقات ابن سعد، بل إننا نكاد نتعرف فيها على هذه الشخصيات فى أصغر إشاراتها وأبسط أفكارها.

(١) كليمان هيار، تاريخ العرب، ج١، ص١٨١.

(٢) الأب باردو، علامات محمد: ماهى وما قيمتها، ص ١٧٦

أما إذا قرأنا عن هذه الشخصيات فى كتب المستشرقين، فإننا لا نكاد نعرفها لشدة التحريف فى تصويرها، وكثيرا ما نلقى -لولا الأسماء العربية- صعوبة فى فهم أن هؤلاء المسلمين الذين يتحدث عنهم المستشرقون رجال من العرب، وذلك لبعد العقلية التى نسبت إليهم عن العقلية التى كانوا عليها

وبعد، فإن «رينان» فى كتابه «حياة المسيح» يقول:

حقا إن لسير محمد العربية، مثل سيرة ابن هشـــــام، ميزة تاريخية أكبر من الأناجيل.[1]

وهذا يكفينا ردا على المستشرقين، الذين يبتعدون عن الصورة الواقعية التى رسمتها كتب السيرة القديمة.

(١) رينان، حياة المسيح، ط١٣، ص٩

(٣)
«القسيس لامانس»

والآن نريد أن نتخذ من أحد المستشرقين مثالا واضحا لموقفهم من الإسلام وذلك هو القسيس «لامانس»، ذلك أن تصنيفه من أضخم التصانيف، وقد كتب عن بدء الإسلام أكثر من عشرة مؤلفات، وتعمق في دراسة صدر الإسلام، لغرض في نفسه لا يخفى على أحد مهما كان ساذجا، ذلك الغرض هو هدم الإسلام، ولكن الله غالب على أمره، وهو يقول: «إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون».

إن «لامانس» قسيس يقطن لبنان، ومن هناك – وهو عدو متعصب غير عابئ بشعور المسلمين، ولا بحقوق الجوار، ولا بالأخوة الوطنية – يرسل نقده، ويقوم بهجومه في غير هوادة ولا ترفق.

لقد ضاق ذرعا برؤية الإسلام ينتشر شيئا فشيئا، ويبسط ظله يوما فيوما، على إفريقيا وآسيا، ويضيق صدر القسيس «لامانس»، فإذا به يسخط على القدر نفسه، ويقول: «ماذا جاء القرآن فجأة، ليقضي على التأثير اللطيف، الذي كان الإنجيل قد أخذ يحدثه في ابن البادية؟!»

والحق أن مثل «لامانس» في الاستشراق كمثل بطرس الناسك في الحروب الصليبية، وإنه ليقوم في الناحية العلمية بما كان يقوم به ذلك الناسك في ناحية الدعاية الحربية، وكالناسك يتخذ من الوسائل ما يؤديه إلى الهدف غير عابئ بعدالة الوسيلة، وإن نزعة كهذه لا يمكن أن تؤدي بمؤرخ إلى الإنصاف العلمي.

والحق أننا قد اخترنا هذا المستشرق بالذات، لأن شهرته العلمية قد خدعت الكثيرين، فأحسنوا الثقة به، مع أن إسناداته الكثيرة التي يثبتها في آخر كل صحيفة إنما هي من قبيل التمويه على القارئ، والحقيقة أنها لا قيمة لها.

واخترناه أيضا لأن هواه المتحكم واضح كل الوضوح، بيد أن غيره من العلماء ممن كان همهم إنما هو التدليل على أن محمدا إنما كان مصروعا أو هستيريا، أو اشتراكيا قادته الاشتراكية إلى الدين.. هؤلاء العلماء – هم أيضا – لا تدع لهم أهواؤهم سبيلا إلى الإنصاف، ولا إلى حرية لا تخضع إلا للوثائق التاريخية.

إن القسيس «لامانس» ذو هوى جامح عنيف ثائر، وغيره من المستشرقين ذو هوى أيضا يحاول إخفاءه مكرا ودهاء، فلا يكاد يستقيم لهم أمر.

ومنهج «لامانس» ساذج كل السذاجة: إنه منهج العكس، أتدرى ما منهج العكس؟

إنه ذلك المنهج الذي يأتي إلى أوثق الأخبار وأصدق الأنباء فيقلبها – متعمدا إلى عكسها، وكلما كان الخبر أوثق كلما نشطت قوته جامحة – الرغبة في البراعة من ذلك

الذي يتبع هذا المنهج، ولما كان ينبغي أن يستند إلى دعامة ما، فقد تبنى الفكرة التي تقول: «إن البشر يعملون غالبا على كتمان عيوبهم والظهور بنقيضها»، وهذه فكرة لا يمكن أن تتخذ كمبدأ عام، وإلا كنا مضطرين إلى كتابة التاريخ بأجمعه من جديد، وعكس صورته الطبيعية كلها عكسا تاما فإن جميع القديسين إذن أشرار، وجميع الأنبياء ملاحدة، وجميع الشجعان جبناء، وجميع الأديان تهريج، وقد شاع هذا المنهج عند بعض المتحذلقين حتى أصبح «موضة»، وقد أراد أحد الظرفاء أن يسخر من أتباعه، فألف رسالة دلل فيها، في براعة بارعة، على أن نابليون لم يوجد قط، وأن تاريخه أسطورة ملفقة ابتدعتها فرنسا، تريد بها التغطية على ما يشاع من ضعفها الحربي.

وقد ذكرت مختلف السير الإسلامية أنباء موثوقا بصحتها، إذا وزنا هذه الأنباء بميزان العقل الصحيح والمنطق المستقيم، وإذا ما نظرنا إليها على ضوء دراستنا للبيئة العربية الإسلامية لم يخالجنا شك في صحتها، ولكن «لامانس» لا يبالي – متبعا منهج العكس – فلا يقيم لهذه الأنباء وزنا ولا يقدر لها قيمة.

نتائج هذا المنهج صارخة بالخطأ:

١– وإننا لو نظرنا في الأناجيل من هذه الوجهة واتبعنا هذه السنة لوجب أن نتناول كل حسنة فيها ونعكسها... وإذن لما بقي جديرا بمودة القسيس واحترامه إلا «هيرود» و«يهوذا»، اللذان يجب أن يرفعا إلى مصاف القديسين الأبرار.

٢– إن مما لا شك فيه أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان شجاعا، لقد كان يقود الجيوش في الغزوات، ولم تطر نفسه شعاعا في أية واحدة منها، ولا يوم أحد – وقد ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا – ولم تهله كثرة الجيوش المعادية في غزوة الخندق يوم أن زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر، [1] ولم ترعه النبال كالمطر، يوم حنين... ومع ذلك، فإن «لامانس» يصفه بعدم الشجاعة، ثم يحاول أن يعمم الحكم على العرب قاطبة، يقول:

زعموا أن العربي يتسم بالشجاعة، بل لقد عللوا النجاح في الفتوح الإسلامية الأولى بما يمتاز به العربي من صفات ومزايا، ولكني أتردد كل التردد في قبول هذا الرأي المبالغ فيه كل المبالغة، إن شجاعة العرب إنما هي من نوع غير عام.

---

(١) قال علي كرم الله وجهه: «إنا كنا إذا حمي البأس، واحمرت الحدق، اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم، فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه».

ويعلق فضيلة الشيخ محمد الخضر حسين، شيخ الأزهر السابق، على هذه المقولة: «وكذلك الشأن في الدعاة، إذا سيم الجمهور بما يأباه عنه وينفيه، لا بد من أن يكون صاحب رابط الجأش، على قدر شدة المدعوين وصعوبة مراسهم، وعلى قدر عظم الحق ومخالفته لمللهم، وعاداتهم وأهوائهم، فإذا أودع الله تعالى قلب سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم شجاعة وسكينة في مواضع الحروب، فلا جرم أن يكون نصيبه من هذه المزية أعظم نصيب، إذ لا أشد من مراس الأمة التي ابتدأ بإنذارها، وهي الأمة العربية، وفي دعوة الإسلام قضاء على مللهم، وذم معبوداتهم، ونسخ كثير من عاداتهم، وصرف لهم عن أهوائهم».

والرد على القسيس اللبناني بسيط، ويكفي أن نسدي إليه النصيحة، وهي أن يقرأ آلاف الشهادات التي قالها من قيادة جيوش الحلفاء الجنود المسلمون الشجعان، الذين عبروا تعبيرا عما اعتقدوه حقا، فكانوا من عوامل النصر في الحروب الكبرى، لقد أثارت فرق الهجوم منهم إعجاب العالم أجمع، وإن هذه الشهادات في أسلوبها العسكري الموجز صرح شامخ مجيد، يسجل روح التضحية، والبطولة لدى العرب المغاوير.

وإن سهام النقد، مهما بلغت من العنف، لا يمكن أن تنال من هذا الكتاب الذهبي النفيس، ذلك أنه مكتوب بخط قواد منصفين، لا يمتون إلى الأمة العربية بصلة الجنس أو الدين.

٣- ومن المعروف أن الرسول كان يتحنث في غار حراء، يتفرد بنفسه يستجمع ذهنه وشعوره، منصرفا كل الانصراف عن هذا العالم المادي، مستغرقا في التفكير في الله، ولكن «لامانس» يؤكد أنه كان يكره الوحدة!!

٤- ومن المعروف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج من الدنيا ولم يشبع من خبز الشعير، وكان يأتي على آل محمد الشهر والشهران لا يوقد في بيت من بيوتهم نار، وكثيرا ما كان قوته التمر والماء وكان رسول الله عليه الصلاة والسلام، يعصب على بطنه الحجر من الجوع، ومع ذلك فإن «لامانس» يصفه بأنه أكول، قد كنفت جسمه البدانات، ولا يذكر شيئا عن صوم الرسول لشهر رمضان، وانه كان اكثر ما يصوم الاثنين والخميس، وكان يصوم حتى يظن أنه لا يفطر.

إن صوم المسيحيين يعد ملهاة بالنسبة لصوم المسلمين، وقد كان الرسول من أكثر المسلمين صوما، ولكن القسيس «لامانس» يثبت على عناده!.

٥- ويقول الله تعالى «إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك»، وقد نقلت الأخبار أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقوم الليل حتى تتورم قدماه، لطول وقوفه في الصلاة[1]، ومع ذلك فيعرف «لامانس» كان

(١) مختلف الروايات الصحيحة أنه كان صلى الله عليه وسلم مسلما وجهه إلى الله تعالى، مطهرة القلب بخشيته، وموصول الهمة بعبادته، فكان، عليه الصلاة والسلام، يقوم بالدعوة، ويصعب [illegible] في هذا العمل العظيم التقرب إلى الله، تعالى، بالذكر والصلاة والصيام وتلاوة القرآن.

وكان يتهجد بالليل على وفق قوله تعالى: «ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا»

[illegible] الإمام البخاري [illegible] صحيحه عن المغيرة [illegible] كان النبي صلى الله عليه وسلم يقوم فيصلي حتى ترم، أي تنتفخ قدماه، فيقال له، فيقول: «أفلا أكون عبدا شكورا»

وكان يخص رمضان من العبادة بما لا يخص غيره من الشهور، فيكثر فيه من تلاوة القرآن [illegible] والذكر والاعتكاف، وقد كان يخرج عنه شهر حتى يصوم منه، وربما صام أياما متتابعة [illegible] على العبادة وكان ينهى أصحابه عن الوصال، فيقال له: إنك تواصل، فيقول: «لست كهيئتكم، [illegible] يطعمني ويسقيني»، والمراد من يطعمني الله ويسقيه ما يمده به من المعارف، وما يفيضه على قلبه من لذة المناجاة. وورد في السيرة أنه كان لا يجلس ولا يقوم إلا على ذكر الله، وكان روح عبادته الإخلاص، يصلي في حجرته [illegible] كما يصلي في المسجد ويذكر الله خاليا كما يذكره في جماعة، ويعمل له في السر كما يعمل له في العلانية

(من رسالة عن سيدنا محمد، لفضيلة الشيخ محمد الخضر حسين)

محمد نزوما، وهو لا شك يجهل أو يتجاهل أن روح النقد عند العرب تبلغ حد الإفراط، وأن هؤلاء لو رأوا ما يكتب حبر القرآن من أن الرسول كان يقضي جزءا كبيرا من الليل في العبادة، لما استمروا على متابعته وتصديقه، ولما احتفظ هو بثقتهم.

٦- وانه لمن المعروف أن العالم لم ينجب من أمثال سيدنا عمر إلا أفرادا يعدون على الأصابع: إن عمر من أعظم الفاتحين المصلحين الذين عرفهم التاريخ، وإن عدالته الرحيمة الصارمة، وسياسته الحكيمة النافذة، وإدارته الدقيقة الساهرة، كل ذلك، يجعله من هؤلاء الذين لا يظفر التاريخ بأمثالهم إلا في دهور عديدة، وإلى حد لا نكاد نجد من يشابهه في التاريخ، اللهم إلا إذا كان الإسكندر الاكبر.

ومع ذلك فقد كان عمر في نظر القسيس جنديا مسكينا، أدنى مرتبة من الوسط، ولكنه في كراهيته البالغة للإسلام: ينسى أو يتناسى هذا الوصف حينما يريد أن ينقص- معاذ الله- من شأن الرسول صلى الله عليه وسلم، فيذكر أن عمر سيطر عليه هو وأبو بكر.

وليس عمر وحده هو الذي نال من قلم القسيس، فقد أخذ القسيس يحطم كعاصفة هوجاء كل أحبار المسلمين: الرسول، أبا بكر، عمر، عثمان، عليا، فاطمة، عائشة، حفصة، وغيرهم، وغيرهم

٧- أما إذا تحدث عن أعداء الإسلام كأبي جهل وأبي لهب ألد أعداء النبي، أما إذا تحدث عن المنافقين خونة الإسلام، أما إذا ما تحدث عن يزيد قاتل الحسين، أو عن بني أمية -على وجه العموم- فإنه ينشد ما شاء له هواه، ويمدح ما أمكنه المدح، ويطري كلما أتيح له الطراء، ويلبسهم من الفضيلة ثوبا لامعا خلابا.

ولقد بلغت به الحماسة في كتابه عن بني أمية، حدا أثار نفور المسيو «كرادوفا» الأستاذ في «كليج دي فرانس» فقال:

كانت نفسية الأمويين في مجموعها مركبة من الطمع في الغنى إلى حد الجشع، ومن حب المدح من أجل الذهب، ومن الحرص على السلطان من أجل التمتع بملذات الدنيا، لذلك يحق لنا أن نعجب أشد العجب من كاهن كاثوليكي مثل الأب «لامانس» يتطوع للدفاع عن أولئك الشاكين الطغاة، ساخرا من سذاجة «علي» الذي مكروا به وخدعوه.

وإنها لغريبة حقا هذه المباحث التي يبدي فيها هذا المؤلف- المطلع على تاريخ ذلك العصر اطلاعا حريا بالإعجاب- تشيعه للأمويين ضد بني هشام، والتي تتوالى فيها المراوغات الدفاعية، والاتهامات الادعائية، آخذا بعضها برقاب بعض.[1]

٧- أما المنافقون فهم أبطال الوطنية، عند القسيس، وإذا تساءلت: من هو هذا الدخيل

(١) كارمرفا «محمد وانتهاء العالم» ص٥٨

الذي لم تلده الجزيرة العربية، والذي يقف أمامه «أبطال الوطنية القومية»، فإنك لا تجد من القسيس إلا صمتاً!! أكان محمد «فارسيا» غازيا للجزيرة العربية؟ أم كان «روميا» يهاجمها؟ أم هو عربي يحب وطنه ويعمل على جمع شتاته في وحدة تكون قدوة ومثلا أعلى لكل من يشرئب بصره نحو الكمال؟

وإذا أردنا أن نعد أخطاء «لامانس» فإننا لا نقف عند حد: إنه مثلا يتعمد أن يعطي الألفاظ معنى آخر غير المعنى الذي تعطيه لغويا أو اصطلاحيا، وكأنه في ذلك موكل بقلب الحقائق.

إن «الردة» في نظره معناها «الانفصال»، و«المرتدون» هم «الانفصاليون» و«المنافقون» هم «المشككون»، وهم: أبطال الوطنية القومية، وإذا قرأت في القرآن الآية القرآنية الكريمة: «إن الله مع الصابرين» فسترى أن «لامانس» يشرحها شرحا أبعد ما يكون عن السمو وعن المكانة العليا التي هي لله في الإسلام إنه يفسرها بـ «إن الله مع الساكتين على سياسة محمد المتناقضة».

ويتحدث عن أبي بكر وعمر فقط، فيقول: الثالوث، إنه يقول «حكومة الثالوث: أبو بكر، عمر»، بل يطلق كلمة الثالوث على موجتين، فيقول: «حزب الثالوث المؤلف من عائشة، حفصة الدساستين المخوفتين»، ولا عجب بعد ذلك أن نرى هذا القسيس يأخذ على التوحيد الإسلامي أنه «ضيق»، لأنه لا يقول بأن الله ثالث ثلاثة وبأن الثلاثة واحد، ولا يقول بأن الأب غير الابن، ومع ذلك، الابن هو الأب!

إن توحيد الإسلام ضيق- في نظره- لأنه لا ينطوي على ما تنطوي عليه المسيحية من تلك المتناقضات، ويقول كتابه الكريم:

«قل هو الله أحد (١) الله الصمد (٢) لم يلد ولم يولد (٣) ولم يكن له كفوا أحد (٤)».

وهذا القسيس يفسد- متعمدا- الصور التاريخية إنه يحدثنا عن مكة والمدينة في عهد الرسول فيعطينا صورة أوربية حديثة، وكأنه يحدثنا عن باريس، ولندن، حينما يتحدث، في جزيرة العرب، عن العملة الصحافية، عن الماليين، بنك مكة، مليار النقابة القرشية، الضريبة على النحل، طبقة العمال، إبلاغ الرسالة إلى محل الإقامة، ديوان ذي الجلال، وزارة الله، إلى آخر هذه التعبيرات العجيبة التي تفسد الصورة ولا تصور الحقيقة. ومع ذلك فلامانس جريء، إنه جريء جرأة نادرة، وتتمثل هذه الجرأة في أنه إذا لم يعثر خلال أبحاثه الطويلة، على خبر واحد يؤيد به زعمه، وهواه، استغنى عن الخبر وثبت على مزاعمه الباطلة، التي يسوقها إلى القراء برشاقة بالغة، وأحيانا يقول: إن هذا أمر عنى حال الحديث والأخبار بكتمانه.[1]

وبينما يحترم المسلمون السيد المسيح ويجلونه، نجد «لامانس» يصف مؤسس الإسلام بكل ما يمكن أن يظهره الحقد والكراهية، حتى لكأننا نسمع أسلوب رهبان القرون

(١) لامانس «هل كان محمد صادقا».

الوسطى الذين لم يكن في جعبتهم إلا السباب والشتائم.

الافتتان بالمستشرقين لا أساس له:

إنه لمن الغريب -حقا- والأمر كذلك- أن يفتتن بعض الشبان المسلمين بالمستشرقين مع ما يرون من كراهيتهم للإسلام وتعصبهم ضده، وجهلهم أو تجاهلهم من أجل حاجات في أنفسهم، إنهم يشككون، ويخطئون جاهلين أو متجاهلين.

لقد وصل بهم الأمر إلى تجريد الرسول صلى الله عليه وسلم من اسمه، زاعمين أنه لم يدع محمدا قط وأن حقيقة اسمه ستظل من الألغاز التي لا حل لها وحجتهم: أن كلمة محمد نعت ذو معنى خاص، لذلك يؤكدون أنه لقب ليس إلا.[1]

كذلك يزعم بعض المستشرقين أن «الرحمن» اسم علم لله!! ويترجمون البسملة ترجمة تدل على هذا الرأي السقيم: بإسم الإله «الرحمن» الرحيم.

ولما كانت ثلاثة أرباع أسماء الأعلام العربية نعوتا، فأنت ترى ما في دراسة الأعلام من منابع غزيرة تصدر عنها سخافة المستشرقين[2].

أما أبو بكر- رضي الله عنه- فقد سمي «أبا بكر» لأنه أبو البنت البكر، والصعود معناها: السعيد كما في دائرة المعارف البريطانية.

ولعل في ما ذكرناه ما يخفف من غلواء الإعجاب الذي يبديه بعض متفرنجي الشبيبة الإسلامية نحو المستشرقين.

(٤)
نصائح للمستشرقين

ويختم ناصر الدين كتابه القيم «الشرق كما يراه الغرب» بهذه الآراء النفيسة التي نورد بعضا منها فيما يلي:

لقد أصاب الدكتور «سنوك هرغرونجه» في قوله إن سير محمد الحديثة تدل على أن البحوث التاريخية مقضي عليها بالعقم إذا سخرت لخدمة نظرية أو رأي سابق.

هذه حقيقة يجب بمستشرقي العصر جميعا أن يضعوها نصب أعينهم، فإنها تشفيهم من داء الأحكام السابقة التي تكلفهم من المجهود ما يجاوز حد الطاقة فيصلون إلى نتائج لا شك خاطئة.

فقد يحتاجون في تأييد رأي من الآراء إلى هدم بعض الأخبار، وليس هذا بالأمر الهين، ثم إلى بناء أخبار تقوم مقام ما هدموه، وهذا أمر لا ريب مستحيل.

«يحتاج العالم، في القرن العشرين، إلى معرفة كثير من العوامل الجوهرية، كالزمن،

(١) هوار، تاريخ العرب، ج١، ص ٩

(٢) الشرق في نظر الغرب، تعريب عمر فاخوري

والبيئة، والإقليم، والعادات، والحاجات، والمطامع، والميول والأحقاد... إلخ. ولا سيما إدراك تلك القوى الباطنة التي لا تقع تحت مقاييس المعقول، والتي يعمل بتأثيرها الأفراد والجماعات.

لنضرب مثلا عكسيا: ما رأى الأوروبيين في عالم من أقصى الصين يتناول المتناقضات التي تكثر عند مؤرخي الفرنسيين، ويمحصها بمنطقه الشرقي البعيد، ثم يهدم قصة الكردينال ريشليو كما نعرفها، ليعيد إلينا ريشليو آخر ذا عقلية كاهن من كهنة بكين وسماته وطباعه؟

إن مستشرقي العصر الحاضر قد انتهوا إلى مثل هذه النتيجة فيما يتعلق برسمهم الحديث لصورة الرسول، ويخيل إلينا أنا نسمع محمدا يتحدث في مؤلفاتهم: إما باللهجة الألمانية، وإما باللهجة البريطانية، وإما باللهجة الفرنسية، ولا نتمثله قط بهذه العقلية والطباع التي ألصقت به يتحدث عربيا باللغة العربية.

إن صورة نبينا الجليلة التي خلفها المنقول الإسلامي تبدو أجل وأسمى إذا قيست بهذه الصور المصطنعة الضئيلة التي صيغت في ظلال المكاتب بجهد جهيد، ونرجو أن يعرف العلماء ضلالهم، فيحولوا عن النيل من هذه الصروح المعجزة التي رفعها التاريخ إقرارا بفضل أنبياء العرب وبني إسرائيل والهنود على الإنسانية، فإن أسس هذه الصروح أصلب من أن تحدثه تلك المعاول.

وإذا شاء المستشرقون أن يكون جهودهم مثمرة فليقصروا عن إضاعتها في محاربة المنقول الذي هو أسمى من أن يوازيه شيء، إلى شرح هذا المنقول، وإحيائه بدرس نفسية العرب درسا عمليا غير سطحي.

كان أحرى بالاستشراق الذي يبني بحوثه على العبث– كما هو شأن طلاب الطب–في تلك القاعات التي تدعى مكاتب، أن يقتصر على مباحث التحقيق والعلم النقي الصافي، وهو في هذه الدائرة، دائرة الإخراج العلمي، قد أنجز عملا مجيدا، نحن على رأس المقرين بحسنه ونفعه، ولكن لم يبق له فيما يتعلق بشأن الإسلام إلا أن يخلي المجال، ولعله أدرك هذه الحقيقة فأخذ يتوسل بمختلف الوسائل إلى تجديد شبابه أخذا بأشد أساليب التاريخ الحديثة عقما، جادا في طلب غريب الآراء وأبعدها عن المعقول وغاية ما في الأمر أنه زاد وجهه تجعدات لم تكن من قبل فيه، ما أشبه نظرياته، رغم جدتها الظاهرة، بكتابات الطلاب في مباراة الشهادات، التي لا تكاد تولد حتى يمسها الكبر، لأنها غير قائمة على درس الحياة، وإذن غير جديرة بها.

عبد الحليم محمود
مارس سنة ١٩٦٥.

محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم

مقدمة

إن حدود هذا السفر لن تسمح لنا بأن نقدم جميع التفاصيل، وجميع النواحي، لحياة حافلة بالعظائم إلى هذا الحد، كما هو الشأن في حياة النبي محمد، صلى الله عليه وسلم، ولذا نجد لزاما علينا: أن نتخير للعرض أهم الحوادث لكي نعطيها العناية التي نراها ضرورية، وإذن فعملنا هذا إنما هو سلسلة من اللوحات التصويرية، وليس تاريخا كاملا نقدمه للقراء.

وقد اعتمدنا في استمداد عناصرها على أقدم المؤلفين كابن هشام، وابن سعد، وسواهما، ثم على مؤرخ من المحدثين هو «علي برهان الدين الحلبي» الذي حشد في كتابه المسمى «السيرة الحلبية» مختلف الروايات لأشهر المؤرخين.

وإن التوافق الكامل بين تلك النصوص التي يرجع بعضها إلى مستهل اثني عشر قرنا، وبين عوائد وميول ولهجات المسلمين من سكان الصحراء الذين نراهم في عصرنا هذا أقرب الناس شبها بعرب الحجاز الذين أكسبهم محمد رسالته بين ظهرانيهم، لهو دليل على مكانة تلك النصوص من الحق.

ولعل في هذه الملاحظة ما يلفت انتباه القراء إلى أنهم لن يجدوا بين دفتي هذا السفر شيئا من تلك المذاهب الغربية الخيالية، التي تعمل على هدم السنة، والتي شغف بها حبا أولئك المستشرقون المحدثون بما لهم من غرام وشهوة بكل ما هو بالغ من الرأي أو غريب.

على أن دراسة المبتدعات التي دخلت عن هذا الطريق في تاريخ النبي قد أتاحت لنا أن نكشف عن أنها كانت، أحيانا، وليدة كراهية شديدة[1] للإسلام بسبب التوفيق بينها وبين العلم، ولا تليق بعصرنا هذا، كما أنها، على العموم– مع ما فيها من إحاطة نظرية بحتة– تسجل على مؤلفيها جهلا عجيبا بعادات العرب، وإنه ليكفي في إظهار زيفها أن تقارن بعضها ببعض، لأنها على تناقض بحيث ينسخ بعضها بعضا[2]، وأخيرا فإن غلوها في الخيال– فيما يتعلق بالظواهر النفسية الشرقية– ليظهر بأجلى بيان، صدق تلك الآثار المأخوذ بها في العالم الإسلامي.

وتلك الآثار هي التي تهدي خطانا، وقد اقتصرنا على أن نختار من الروايات ما يبدو لنا أنها الأكثر دلالة، لكي نضعها في موضعها المناسب، مستعينين في ذلك بالأخبار التي جمعناها من محادثاتنا الطويلة مع الحجاج في أماكن الحجاز المقدسة، وبالنظر إليها

(١) كما هو الشأن في كل ما كتب «الأب لامانس» أو «الأب مرجليوث».

(٢) وقد عرض المؤلف بعضها ببعض في كتابه: «الشرق كما يراه الغرب» وكانت النتيجة أن تهافتت هذه الآراء وانهارت.

من خلال تجارب الحياة الإسلامية الصحراوية التي كان أحدنا حليفها منذ فجر حياته، والآخر يمارسها منذ أكثر من ثلاثين عاما.

ولقد آثرنا بالاتفاق مع نصوص القرآن- وهو الكتاب الوحيد الذي لم يمارس ولا يقبل المعارضة- وبالاتفاق مع علماء الإسلام الصدر الأول، ومع أصحاب الفكر الحر من المعاصرين كالشيخ محمد عبده الذائع الصيت، أن نضرب صفحا عن جميع الخوارق التي تنسب إلى النبي العربي بعد زمن طويل من وفاته، والتي يتوانَ في نسبتها إليه من يسلبه سماته الحقيقية.

والحق أنما نرى ، من بين جميع الأنبياء الذين أسسوا ديانات، أن محمدا هو الوحيد الذي استطاع أن يستغنى عن مدى الخوارق والمعجزات المادية، معتمدا فقط على بداهة رسالته ووضوحها، وعلى بلاغة القرآن الإلهية، وإن في استغناء محمد عن مدد الخوارق والمعجزات لأكبر معجزة على الإطلاق، وقد نسي «رينان» ذلك- بالنسبة للرسول- ووصفه بأنه ضرب من المحال، وقال في معرض حديثه عن المسيح: إن أعظم معجزاته أنه لم يأت بمعجزة، وإن قوانين التاريخ والقواعد المستمدة من نفسية الشعوب ما كانت لتشهد قط انتقاصا لها أعظم من هذا.(١)

ومع ذلك فقد التزمنا أن لا نطرح جانبا تلك القصص التي تحمل طابع الأساطير الخيالية، فالأساطير، وعلى الخصوص الشرقي منها، وسيلة من وسائل التعبير لا تضارع، إنها تصبغ الأشياء والحوادث بألوان قوية لا تمحى، وتضفى على الحديث حيوية شديدة

---

(١) لتوضيح هذه الفكرة ننقل النص الآتي من «لمحة خاصة بنور الإسلام» تأليف المؤلف وترجمة الأستاذ رشد رستم: «إن نبي الإسلام هو الوحيد من أصحاب الديانات الذي لم يعتمد في نشر رسالته على المعجزات، وليست عمدته الكبرى إلا بلاغة التنزيل الحكيم، وفي ذلك يقول تعالى: «وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون» ويقول «رينان» الكاتب الفرنسي الشهير في صدد كلامه عن عيسى ومعجزاته: «ولعل أكبر معجزات عيسى أنه لم يفعل منها شيئا» ثم هو يقول باستحالة أمثال هذه المعجزات لمخالفتها لقواعد التاريخ وأصول علم النفس

وقد نسي «رينان» أن محمدا صلى الله عليه وسلم مع عدم اعتماده على مثل هذه المعجزات التي ينكرها، قد جاء بأكبر المعجزات: مما هو مثلا في تاريخ الديانات كلها.

جاء بذلك الدين الحنيف الذي لم ينفك يزداد أنصارا كل يوم، منذ ثلاثة عشر قرنا، حتى بلغوا اليوم ثلاثمائة مليون من النفوس، دون أن يكون له دعاة ومبشرون

على أن المعجزات التي تنسب إلى محمد ليست من نصوص القرآن، وإنما قد نسبها إليه مؤرخو العصور المتأخرة تقليدا للمعجزات التي تنسب إلى المسيح، فهي ليست من الدين في شيء

وما تلك الخرافات، والمعتقدات الغريبة التي تشاهدها في بلدان الإسلام المختلفة، فهي غريبة عن العرب ودخيلة على الدين، ولا تتفق مع شيء مما عرف عن رسول الله ذاته صلى الله عليه وسلم، فقد جاء في الأثر أنه مات إبراهيم ابن النبي عليه محمد حزن عظيم، وحدث أن صادف يومه كسوف الشمس فقال الناس من حوله: إنها معجزة يا محمد، فقد شاركتك الشمس في حزنك على ولدك.

ومع أن النبي كان مأخوذا بالحزن الشديد، فقد أنب القائل، وقال: إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينخسفان لموت أحد ولا لحياته.

الفنانين والمؤرخ العصري لا يمكن أن يسمو بتحقيقاته الجافة، التي يقولون عنها إنها تزن كل شيء حق وزنه- إلى تلك الألوان وهذه الحيوية.

لذلك يجب على قرائنا، في المستقبل، أن يحترسوا كل الاحتراس من مقارفة الأغلاط الشنعة، التي اقترفتها الثقافات اليونانية، واللاتينية، والمدرسية، أثناء شروحها الحرفية لكتب الشرق المقدسة، وإذا ما عرضت لكم هنا أمثال رمزية تبدو، أحيانا، في شكل معجزات، فسيكون من السهل عليكم أن تدركوا ما فيها من الحقائق، التي- وإن كانت مفرغة في قالب شعري- ليست أصلا مما تناوله الخيال العربي بالتشويه.

وإن القرآن لهو أولى أن يفهم بهذه الكيفية، وقد جاء فيه: «ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون»

وأخيرا، ربما يبدو غريبا ألا توجد في كتابنا هذا، بين اللوحات المرفقة للنصوص، أية صورة للنبي، ولا أي رسم يعرض الحوادث التي كان هو بطلها.

وعلة ذلك أننا- كمسلمين مخلصين- لم نرد أن نتعدى مبادئ الإسلام الصحيحة، تلك المبادئ التي هي أقل عداوة مما يعتقد عادة لتصوير الوجه الإنساني، ولكنها تمنع صراحة أن تتخذ صورا للآلهة، لأن ذلك عمل فيه نوع من الوثنية المتنكرة، وتأبى أن ترسم صورا للأنبياء فتكون خرقا لقدسياتهم لابد أن ينتقصهم.

وفي الحقيقة ماذا تستطيع أن تهدي به لعيني مؤمن صورة جامدة لنبي مرسل من الله، مهما كان دقة رسمها، إذا ما قورنت بمثاله الرائع الذي يرسمه له خيال ذلك المؤمن في همها إيمانه؟ ... لقد فهم ذلك بعض الرسامين من الفرس الذين عرضوا لتصوير محمد في مختلف مراحل ليلة المعراج، فأخفوا تماما صورة وجهه لعجزهم عن تصويرها، ولعوقهم أن يشوهوا قسماته الشريفة المحوطة بالجلال وربما يزيد في توضيح غرضهم من هذا الإخفاء، ما نلمسه من عنايتهم البالغة، في نفس هذه الرسوم، بتصوير كل ملامح الوجوه الأخرى، كوجه البراق- وهي ركوبة النبي المجنحة ذات الوجه الإنساني، ووجوه الملائكة الذين يتألف منهم الموكب السماوي.

ولكي نضع بديلا لهذه الصورة الخيالية التي لا مفر فيها من الكذب، اخترنا طريقة للتصوير أقل مباشرة للصميم، ولكنا نأمل بوساطتها أن نستعيد بعض انعكاسات من لألاء تلك الشخصية السامية التي لمحت أول بارقة من نور الحياة في مكة

إن ملامحه المعروفة لنا من أوصاف مؤرخيه فقط، إنما تبدو لنا من خلال نقاب حفيف كضباب الحلم، ذلك النقاب الذي لن نسعى في أن نمزقه، إذ من وراء هذا النقاب الخفي يستمر [illegible] الأوصاف، في أسمى [illegible]، تبرهن به على أنها لم يصبها من التشويه ما أصاب سواها كثيرا، بسبب محاولات فاشلة لتكوين صور لا يمكن تحقيقها، مع سنته الغراء فإنها على الضد من ذلك، باقية إلى يومنا هذا، بجلالها أعظم إخلاص ديني

يلهج به نحو ثلاثمائة مليون من أتباع سنته منتشرين على سطح الكرة

إننا في الحقيقة، نجد الاهتمام الدائم من جميع المسلمين، مهما تباينت أجناسهم، لعدما يتجلى في أن يحذوا في كل صغيرة وكبيرة حذو نبيهم الذي توجد صورته منقوشة في قلوبهم، وهكذا لا نجد ما هو أعظم تميزا للمسلم من الطريقة التي يمارس بها طهاراته من غسل ووضوء: تلك الطهارات التي بها تستطيع أن تميز عربيا مسلما من عربي مسيحي.

إن في مرآى المؤمنين وفي أعمالهم لصورة نلمحها منعكسة من مآثر محمد، وإذا ماكانت بالطبع باهتة بالقياس إلى كمالاته العليا، فإنها: لا جدال في صحتها.

هذا، على حين أننا نجد قياصرة روما، مع دقة تماثيلهم، لا يطالعنا منهم سوى قناع مزيف لوجوههم الجامدة تحت صورة من الخيلاء، إن صورهم تظل ميتة يعجز خيالنا عن أن يلمح لها شيئا من الحياة... وإنه ليرضي هذه العقيدة المقررة أن قامت برءوسنا فكرة نشر لوحات في تاريخ محمد هذا، تمثل المآثر الدينية لأتباعه، بعض صور من حياة العرب، وبعض مدن الحجاز الذي هو موطنه.

الفصل الأول

بسم الله الرحمن الرحيم

الأذان:

لمع الآن شعاعا وردياً، يتدفق في الأفق، والنجوم يبهت لونها، ويطرق مسمعي لحن موسيقي، يتردد صداه في هداة الفجر «الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدا رسول الله، حي على الصلاة، حي على الفلاح»[١].

والألحان الأخيرة من هذا النداء الذي يردده المؤذن تنتشر من المنارات السامقة، فوق أعالي البيوت وذوائب نخيل الواحة، ذاهبة إلى حيث تذوب، في جنبات الصحراء اللانهائية... وعندئذ يهب المسلمون من أعقاب نومهم، مرملين في أرديتهم البيضاء «الشبيهة بأكفان الموتى، وقد عرتهم رجفة هذا النداء، فكأنما يهبون من رجفة يوم النشور، وهناك يتقاطرون نحو العيون[٢].

فيتطهرون أتم الطهارة، ثم على طهر من أجسامهم وأرواحهم- ينتظمون صفوفا طويلة، متحاذين بمرافقهم، متوجهين وجهة واحدة نحو كعبة مكة المقدسة.

أداء الصلاة:

هنالك يقرمون، وأجسامهم منتصبة، ورؤوسهم في انحناء يسير، وعيونهم خاسرة، مكتنين في تلافيف أرديتهم الطويلة، وكأنما تحولوا إلى حشد من التماثيل، وعلى قدوة بالإمام الواقف أمامهم بنفس الهيئة، ولنفس القصد، محلا كل وضع جديد من الصلاة بالتكبير «الله أكبر» يرفعون كذلك أيديهم مفتوحة حتى تحاذي أفوادهم، مظهرين بذلك روعتهم أمام القدرة اللانهائية لرب العالمين، ثم في حركة واحدة، يحنون جميعا ظهورهم، ويركعون أمام جلال الألوهية.

ولكن هذه الصورة لا تكفي لإظهار ما يحوي نفوسهم من خشوع، ولذا يخرون للأذقان سجدا، على سطح الأرض يلصقون جباههم وأنوفهم، ويسكنون لحظات على تلك الهيئة الضارعة، كأنما ينزوون تحت عبء السماء بكل ما فيها، وكأنما السماء معهم ساجدة. وأخيرا يرفعون صدورهم ثانية، ويبقون جالسين والركب على الأرض، والرءوس منه يوقر من حرارة الابتهال ثم التسليم بعد ذلك مصحوبا بالتفات الوجه مرة إلى اليمين، وأخرى إلى اليسار، مخاطبين فيهما الملكين اللذين يلازمان كل مؤمن، ويد

[١] [illegible] الكلام في الدعوة إلى الصلاة [illegible] الإنسان هو الذي يدعو إخوانه إلى تأدية هذه الفريضة [illegible] صوت الإنسان هو صوت طبيعي [illegible] على حمل العاطفة الإنسانية الصادرة من قلب المؤمن إلى إخوانه المؤمنين، للقيام بأهم فروض الإسلام، من آلة لا صناعية، ومن القلب إلى القلب وصول (أشعة خاصة بنور الإسلام)

[٢] يعطيه [illegible] صورة [illegible] عن الجزائريين في صلاتهم، وهذه الصورة- مع اختلاف بسيط في الزخرف [illegible] المسلمين في جميع بقاع العالم عندما يدعون في الفجر إلى الصلاة.

تنتهي الصلاة ومع ذلك، فالمسلمون عادة، وهم لا يسألون الله شيئا لأنفسهم، بل لا يسألونه حتى خبزهم اليومي، يبقون على هذه الصورة، بعد انتهاء الصلاة، فترة من الزمن وهم رافعون أكفهم إلى أعلى من صدورهم، وأيديهم مفتوحة أمام عيونهم كأنما يقرءون بها كتابا، ضارعين إلى الرحمة الإلهية من أجل الإسلام، ومن أجل أقاربهم، ومن أجل سعادتهم الأخروية إن بعض أعمال الصلاة هي وحدها التي يجهر بها الإمام كالتكبير، والفاتحة والتسليم الختامي، أما الحاضرون فإنهم لا يقرءون أثناء الصلاة إلا في قرارة أنفسهم، وبقرسهم لا تردد سوى التكبير، في همهمة لا تكاد تلج آذانهم.

إن تصف السكوت هذا ليزيد في عظمة هذه الحركات الجامعة بين البساطة وسمو الدلالة، والتي تتحد فيها الأهلية الكاملة بالتواضع، وبخلوها من الرياء تماما، تعطي مشهدا رائعا لعبادة تأثيرها أعظم من أن يتصوره خيال.

أوقات الصلاة:

في كل يوم، كلما غيرت الشمس من ألوان ضوئها: في فجرها الأرجواني، وفي ظهيرتها الملتهبة، وفي عصرها المذهب، وفي مغربها المخضوب بصفرة الحزن على فراقها، وفي تكفنها أخيرا بأوشحة من الشفق الأزرق القاتم في السماء، يرى المسلمون جميعا من المحتوم عليهم أن يتجردوا من أعمالهم وشواغلهم، بل من أفكارهم ، ليتفرغوا للصلاة يؤدونها ليس فقط في المساجد، بل أيضا في البيوت، وفي الشوارع، وفي المقاهي، وفي الأسواق، وفي الحقول، وفي الصحاري، وفي أي مكان يوجدون فيه، ولو بدون مؤذن أو إمام، لكي يسجدوا- على تلك الصورة- مفوض العير جل سناه.

ومنذ أكثر من ثلاثة عشر قرنا، من الشواطئ الأفريقية للمحيط الأطلنطي إلى الشواطئ الصينية للمحيط الهادي، يستدير أكثر من مائتي مليون من المسلمين خمس مرات في كل يوم إلى ناحية الكعبة المقدسة في مكة حيث تتجمع الملايين من صلواتهم متناسقة لتصعد إلى الملأ الأعلى، كي تشهد الله على ما للروح الإسلامية نحوه من ولاء لا يمكن أن يتحول.

وصف مكة:

ما هي إذن تلك المدينة العجيبة التي كانت- على التقريب- غير معروفة في العصور البعيدة القدم، والتي تهوى نحوها آمال خلائق يصل عددها إلى هذا الحد؟

أهي إحدى تلك المدن الجميلة الموقع التي أقام فيها أغنياء الملوك قصورا زاهرة، وجمعوا فيها كنوز الفن المبتكر؟

أهي إحدى تلك المدن الكبرى التجارية التي تشرف على طرق البر والبحر، وتتدفق عليها الحاصلات والثروات العالمية؟ أم هي عاصمة امبراطورية قوية تخضع جنودها الشجعان لها جميع الشعوب المجاورة؟ لا شيء من ذلك قط، إن مكة واقعة في أجدب بقاع العالم وأشدها حرمانا، وتجارتها قديما كانت مقصورة على قوافل الصحراء، إنها لم تكن ذات غنى ولا ذات قوة، ولكن كم عدد المدن التي تحسدها على مجدها الباهر باحتضانها الكعبة المقدسة، وبأنها شرفت، دون سواها، بمولد محمد سيد المرسلين.

وحتى في عصرنا هذا أيضا، بالرغم من الهدايا التي يحملها إليها من جميع نواحي الأرض آلاف الحجاج، يأتون كل عام للسجود في معبدها المقدس، فإن مكة أم القرى: لا تستطيع أن تباهي كبريات المدن في ترف قصورها، وفخامة مساجدها، أما في نظر المؤمنين فإن كنوزها تتألق بسناء لا يعادله سناء، بيد أن كنوزها تلك ليست قط من هذا العالم.

إن منظر مكة المكرمة لا يختلف عن غيرها من مدن الصحراء العربية إنها لتعرف جميعا بأنها تحوي من البيوت: ما هو أكثر عددا، وأرفع سمكا، وأبهى زينة، ومع كل هذا فإن منظر مكة العام لا يرى قط ذا ميزة خاصة.

من أعلى جبل أبي قبيس الذي يشرف عليها من الشرق: تكتشف العين عن شكلها المستطيل من الشمال إلى الجنوب في بطن واد ضيق، وعندما ينظر إليها المرء، لأول وهلة، فإنه لا يكاد يميزها عن الأديم الذي تقوم عليه، إن الجبال الجرداء الصخرية التي تكتنفها غير مفصولة عنها بأية واحة، وليس بينها وبين مكة أية بقعة خضراء، وإن سطوح منازلها لتختلط بمنهار الصخور التي تحدرت على سفوح تلك الجبال، أما بعد أن تروض العين شيئا فشيئا فإنها تميز البيوت والدور، وتكتشف المداخل الخفية، وتعوم المنارات الصاعدة في الفضاء صعدا، ويتنبه الإنسان بغتة لمنظر مفاجئ لمدينة كبيرة، لم يكن يظن وجودها في هذا المكان، فإن العين تراها تكبر دون حد حتى ليكاد الإنسان يعزو اتساعها المفاجئ إلى سحر ساحر، وتبدو الصخور بدورها وكأنها تحولت إلى منازل، وتبدو الأكام أشبه بصروح واسعة لا يدرك الطرف لها نهاية، لكن إذا ما كانت العين وسط هذا الخليط من أشكال محدبة الهمم، لا تكاد تميز المساكن الإنسانية من الصخور الوعرة، فإنها على العكس تعجبا مباشرة بمنظر ضخم من البناء، قائم وسط فناء مربع، للمراتب، يكسوه نسيج من حرير أسود، يحظى لمعانه الرائع على ما حوله من ألوان باهتة، كأن لحرارة الشمس القوية دخلا في شحوبها القاتم.

ذلك المكعب الأسود هو الكعبة المقدسة، إنها قلب الإسلام النابض.

وكما تحمل الشرايين إلى القلب الدم الذي تحيا به الأجسام، كذلك جميع صلوات الإسلام تتجه نحو هذا الهيكل، لتذكي في الأرواح الحياة والنشاط، وتلك هي الظاهرة الوحيدة في العالم كله، التي يستطيع المسلمون فيها أن يقف بعضهم أمام بعض وجها لوجه حينما يؤدون الصلاة.

الكعبة والحجر الأسود:

إن هذه الكعبة[1] ليست قبر النبي، ولا هي مقصودة بالعبادة- كما يتوهم بعض

(١) كل شيء علا وارتفع فهو كعبة ومن ثم قيل للكعبة كعبة

العربيين– إنها ليست إلا معبدا يحمل اسم بيت الله الحرام، وأصلها يرجع إلى أقدم العصور

إنها– حسب المأثور عند العرب– من بناء آدم أبي البشر، ولما اجتاحها الطوفان جدد بناءها النبي إبراهيم، على نفس الأساس الأول، بمساعدة ولده إسماعيل الذي هو أصل الأمة العربية، ومن ذلك الحين جددت مرات كثيرة على نفس القواعد، وعلى نفس الصورة وكانت– منذ ذلك العهد– غاية يقصد إليها العرب لعبادة الله الفرد الصمد، ويدورون حولها سبعة أشواط من العبادة، رسمها لهم جدهم الأعلى إبراهيم عليه السلام، تسمى «الطواف».

وعلى خطى الزمن الوثنية تحولت– في أذهان الحجاج– فكرة عبادة الله الواحد، فقربوا بها عبادة الأصنام، حتى لقد بلغ عدد هذه الأصنام ثلثمائة وستين صنما، عندما أرسل محمد للقضاء عليها

وفي الزاوية الشمالية الشرقية من بناء الكعبة، ثبت الحجر الأسود، موضوعا في دائرة من فضة، أنزل هذا الحجر من الجنة، مع جبريل، إلى إبراهيم وولده وقتما كانا يشيدان الكعبة، وبأيديهما وضع في مكانه الذي لا يزال فيه حتى اليوم، لكي يعين مبدأ أشواط الطواف، وقد كان هذا الحجر في الأصل، أبيض كاللبن، أما لونه الأسود الذي هو عليه الآن فإنه من تلوثه[1] بخطايا الحجاج الذين يلمسونه ويقبلونه، طالبين المغفرة من مولاهم الرحيم.

عين زمزم:

وعن كثب من الكعبة حفرت عين زمزم، ذات المياه العجيبة التي انبجست من الثرى، لتخليص إسماعيل من آلام العطش، عندما كان هو وأمه هاجر وحيدين في هذا القفر أشبه بمفقودين، وفي العصر الجاهلي طمست عين زمزم بالرمال بسبب إهمالها، ولكن عبد المطلب جدد حفرها قبل ولادة النبي بسنين قلائل.

ومنذ ذلك الحين صار ماء زمزم موضع التشريف من الحجاج الذين يتخذون منه للشرب والتطهير كي يطهروا بالعاطفة في جو من ذكرى جدهم.

وكانت سقاية الحاج وحجابة الكعبة من الوظائف المرغوب فيها، لما يتعلق بها من الشرف والكرامة، وكانتا– يومئذ– مجموعتين في يد عبد المطلب بن هاشم القرشي جد النبي الذي سيجيء به المستقبل

(١) يقول المؤلف إن الإسلام عند الجاهلية قد خف في محاربة الخرافات والبدع، وهذا هو ما يبدو به الحلم حتى يومنا المعاصر، ولكنه يرى أيضا أن الشرق يصور ما يريد من معان في أسلوب أسطوري يبين، في وضوح بين، ما يريد أن يوحي به من معنى، ولذلك لا يريد المؤلف أن يضرب صفحا عن هذه القصص التي صيغت في أسلوب الأساطير والقصة التي نحن بصددها الآن تريد أن تبين أن البشر يخطئون، وأن خطاياهم كثيرة، وأن معاصيهم الهائلة وصل بها الأمر أن أثرت في الحجر الجماد فغيرته من أبيض ناصع إلى أسود قاتم، وهذه القصة ترجه بذلك نظر الإنسان إلى الكثرة المروعة من المعاصي التي يرتكبها بنو البشر فعله يرعوي

زواج عبد الله أبي النبي:

كان عبد المطلب، سادن الكعبة، خارجا يوما ممسكا بيد ابنه عبد الله أحب أولاده إلى قلبه، وكان على باب الكعبة امرأة من بني أسد تسمى «قتيلة»، ما كانت ترى عبد الله حتى انتهضت من جلوسها مبدية شديد دهشة، ثم نظرت إليه بإلحاح عجيب– وقد بهرها النور السماوي الذي يرف على جبينه– تعلقت عيناها به وراحت تسأله:

– أين تذهب في ساعتك هذه؟

فقال لها: أذهب إلى حيث يقودني أبي.

فقالت له: قف واسمع! إني أعطيك مائة من الإبل وهي التي وجب على أبيك التضحية بها لإنقاذ حياتك، إذا أنت قبلت أن تكون لي في هذه اللحظة.

فأجابها عبد الله مبهورا لقلة حياء تبلغ هذا الحد، وعلى الخصوص في حضرة شخصية لها مقامها كعبد المطلب: إني في صحبة أبي الذي لا أستطيع له خلافا ولا معارضة.

وانصرف عبد الله وقد ملئ اضطرابا وبلبلة، ولحق بوالده عبد المطلب الذي قاده من فوره إلى بيت وهب بن عبد مناف، حيث الفتاة التي كان قد اعتزم أن يزوجه منها.

كان وهب سيدا من سادات بني زهرة، كما كان عبد المطلب [1] أميرا من أمراء قريش التي هي من أنبل قبائل العرب، وبين بيتين أصيلين في الشرف غير منازع، كان لا يدق على المصاهرة سهلا، ولما تم القران بين عبد الله بن عبد المطلب وآمنة بنت وهب فورا وقاد عبد الله زوجه إلى منزل أخيه أبي طالب لإتمام الزواج، وقضى بالمنزل ثلاثة أيام وثلاث ليال، ولما خرج من المنزل لقي «قتيلة» مرة أخرى، تلك المرأة التي كانت قد توسلت إليه في قليل من التحفظ، ودهش لما رآه عليها هذه المرة من عدم الاهتمام حين مر بها.

وكان عبد الله مشهورا بأنه أجمل شباب مكة، وكانت رجولته الرائعة قد حركت

(١) كان عبد المطلب ممن حرم الخمر على نفسه في الجاهلية
وكان مجاب الدعوة، وكان يقال له الفياض لجوده، ومطعم طير السماء، لأنه كان يرفع من مائدته للطير والوحوش في رءوس الجبال.
وكان من حكماء قريش وحلمائها.
وكان نديمه حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف والد أبي سفيان، وكان في جوار عبد المطلب يهودي، فأغلظ القول على حرب في سوق من أسواق تهامة، فأغرى عليه حرب من قتله، فلما علم بذلك عبد المطلب ترك منادمة حرب، ولم يفارقه حتى أخذ منه مائة ناقة، دفعها لابن عم اليهودي حفظا لجواره، وكان عبد المطلب يأمر أولاده بترك الظلم والبغي، ويحثهم على مكارم الأخلاق، وينهاهم عن دنيئات الأمور، وكان يقول لن يخرج من الدنيا ظلوم حتى ينتقم منه وتصيبه عقوبة، إلى أن هلك رجل ظلوم من أهل الشام لم تصبه عقوبة، فقيل لعبد المطلب في ذلك ففكر وقال: والله إن وراء هذه الدار دارا يجزى فيها المحسن بإحسانه ويعاقب المسيء بإساءته
ورفض في آخر عمره عبادة الأصنام، ووحد الله، سبحانه وتعالى، وتؤثر عنه سنن جاء القرآن بأكثرها وجاءت السنة بها، منها الوفاء بالنذر، والمنع من نكاح المحارم، وقطع يد السارق، والنهي عن قتل الموءودة، وتحريم الخمر والزنا، وأن لا يطوف بالبيت عريان (كذا في كلام سبط بن الجوزي)

نحوه هوى الكثير من فتيات مكة، إلى حد أنهن حين علمن خبر قرانه سقطن مريضات بفعل الحقد والغيرة.

أما «قتيلة»، فإنها لم تكن من النساء العابثات، إنها كانت أخت ورقة بن نوفل ذلك الحبر المشهور في كل جزيرة العرب لمعرفته التامة بالكتب المقدسة، وكانت تعرف -عن طريقه- أن نبيا سيولد في هذه الأرض، وأن والده يعرف بنور يتلألأ في جبينه بمثل لألاء الماس أو النجوم، وكانت قد أدركت هذه السمة في جبين عبد الله، فوقر في نفسها حلم طموح في أن تكون يوما أم هذا النبي المنتظر، ولقد كان جدها في هذا المطمح البعيد سببا في أنها لم تبد أية رغبة في عبد الله، مهما كان أمر جماله.

أما عبد الله الذي كان يجهل صراح الأمر ولبابه، فقد تأثر أمام برود قتيلة المفاجئ، بعد شغف ثائر كالذي كان منها، فقال لها:

-مالك لا تعرضين علي اليوم ماكنت عرضت بالأمس؟ فقالت له: من أنت؟

قال: أنا عبد الله بن عبد المطلب.

قالت: آه، ألست ذاك الذي كان جبينه يلوح لي تحت إكليل النور وقد اختفى الآن منه؟ ما الذي حدث بعد أن تلاقينا؟

فقص عليها عبد الله خبر زواجه، وأدركت هي أن النور الذي كان يحمله أبو نبي المستقبل قد مر من جبهة عبد الله إلى آمنة زوجته.

وقالت له: والله ما أخطأت فيما كان مني، لقد كشفت على جبينك نورا، ورغبت أن أمتلكه ولكنه الآن أصبح في حيازة امرأة أخرى وملك نفس العلائق، ولم يبق فيك الآن ما يجذبني نحوك.

هكذا حرم عبد الله من هذه المرأة ما كان من حمل زوجه، ومن أمر المستقبل المدخر لولده، ذلك الولد الذي كتب على عبد الله ألا يحظى برؤيته، إذ وافاه الأجل المحتوم في يثرب، قبل ولادة محمد بشهرين.

أما آمنة أم المصطفى فقد قالت:

منذ اليوم الذي حملت فيه ولدي حتى الساعة التي وضعته فيها لم أشعر بأقل ألم، وإني لم أشعر حتى بمجرد ثقله، بل ما شعرت أني قد حملت به حتى أتاني آت وأنا بين النائم واليقظان، فقال: هل شعرت أنك حملت؟ فكأني أقول: ما أدري، فقال: إنك قد حملت بسيد هذه الأمة ونبيها، اعلمي ذلك.

وفي نفس اللحظة خرج من أحشائي خيط من النور، وترامى ناحية الشرق حتى بلغ أرض الشام، وعندما دنا موعد ولادتي ظهر لي الملك من جديد، وأوصاني قائلا: عندما تضعين ولدك قولي «أعيذه بالواحد الصمد من شر الحاسدين» وسميه محمدا فهذا هو الاسم الذي بشر به في التوراة والإنجيل، ولأنه سوف يحمد من جميع سكان السماء والأرض.

وعندما مر كوكب المشتري، رأت آمنة هالة من النور تخرج منها مرة أخرى متجهة نحو الشام، حتى أضاءت قصور بصرى.

وظهر في نفس الزمن معجزات أخرى أدهشت العالم، إذ غاضت مياه بحيرة ساوى، واهتز قصر كسرى أنوشروان، فتصدعت أربعة عشر من أبراجه، وخمدت -رغم جهود عبادها- نار الفرس المقدسة، بعد أن ظلت مضطرمة أكثر من ألف عام وشوهدت الأصنام في جميع بقاع العالم منكسة الرءوس، ولقد فزعت هذه الظواهر جميع الذين رأوه، وبالرغم من تنبؤات الموبذان، خادم النار الكبير عند الفرس والذي كان قد رأى رؤى تدل على قيام انقلاب في العالم بسبب حادث يقع في جزيرة العرب، بالرغم من تنبؤاته مر الحدث دون أن يشعر به أحد. ذلك الحادث هو ميلاد طفل قرشي في مكة، تلك المدينة التائهة في وسط القفار، تلك المدينة المجهولة أو المحتقرة من أكابر الملوك والأمراء في الشرق والغرب.

الفصل الثاني

بسم الله الرحمن الرحيم

ألم نشرح لك صدرك ووضعنا عنك وزرك

مولد النبي:

ولد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم قبل شروق بهجة الصباح بلحظات يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأول [illegible] ٢٩ أغسطس سنة ٥٨٠م.

ولد نظيفاً مختوناً وقام جبريل بقطع سرته

كان هواء البلدة غير ملائم لصحة الأطفال الصغار، فكان من عادة أشراف قريش اتخاذ المراضع اللائي يقطن البادية. حيث [illegible] في جو [illegible] صافي.

وبعد مولد محمد بقليل، حضر إلى مكة عشر من نساء بني سعد يضربن لونهن إلى السمرة، ويلوح عليهن أثر إقليمهن [illegible]، حضرن يلتمسن الأطفال عند الأشراف، فنالت من بينهن حليمة شرف استرضاعه

طفولته في بادية بني سعد:

لنستمع الآن إلى حليمة تقص قصة الرضاع.

كانت سنة جدباء، لم يبق لنا شيء، فخرجت وزوجي في فقر مدقع، فعزمنا على الخروج إلى مكة في رفقة نسوة من بني سعد، نلتمس جميعا الرضعاء، ليساعدنا آباؤهم على الحياة وضرورياتها، كانت [illegible] من الهزال ومن الضعف الذي سببه عدم وجود القوت- بحيث خشينا أن نعجز في تحقيق غاية الحياة، ولم تنم ليلنا أجمع من صبينا الذي معنا، والذي يبكي لما يجده من [illegible] جوع ولم يكن في ثديي ولا في أخلاف الناقة التي يقودها زوجي، قطرة من لبن، [illegible] بها من جوعه، لقد استولى على أثناء الليل اليأس، وتساءلت كيف يمكن [illegible] الحالة، الزعم بأن في مقدوري القيام على تنشئة طفل؟

وصلنا أخيرا إلى مكة، وقد سبقت إليها النسوة، فأخذن الأطفال، ما عدا محمدا، كان والد محمد قد مات، وكانت أسرته في يسر قليل رغم مكانتها العليا بين سادة قريش، لذلك أبت النسوة احتضانه.

وامتنعت، أنا وزوجي، من أخذه [illegible] أعني اليتم، وعدم الثراء، غير أني في النهاية خجلت أن أرجع ولم آخذ رضيعا فذلك – فضلاً عن الفشل– موضع السخرية، ثم [illegible] شعرت بعطف متوقد نحو ذلك الطفل البارع الجمال، الذي سيؤذيه هواء البلدة الفاسد

ملأت العاطفة جوانحي، وشعرت– بالمعجزة– باللبن يعود إلى ثديي متحفزا لأن يسيل في فم محمد، فقلت لزوجي: والله إني لأجد رغبة ملتهبة في أن آخذ هذا اليتيم

مهما كان الأمل في الخير الذي [illegible] من أسرته [illegible]

لا عليك أن تفعلي، عسى الله [illegible] لنا فيه بركة [illegible]

لم أتمالك نفسي، فأسرعت [illegible] الطفل الوسيم، فوجدته [illegible] [illegible]

على صدره اللطيف، فابتسم، وفتح عينيه اللتين تشعان نورا، فقبلته بين [illegible]

ورجعت به إلى رحلي، ثم وضعته في حجري، وألقمته ثديي الأيمن ليتغذى [illegible] شاء

الله من تغذية، فوجد فيه– على [illegible] مني– ما يشبعه، ثم منحته ثديي الأيسر [illegible]

تاركا إياه لأخيه من الرضاعة، [illegible] نائما

ومما هو أعجب من ذلك: أن زوجي قام إلى الناقة ليهدئ ثائرة الجوع [illegible]

بين أحشائه، فإذا أخلافها حافلة [illegible] مع أنها ما كانت تمص بقطرة [illegible] منها،

وشرب، وشربت معه حتى انتهينا ريا وشبعا، فبتنا بخير ليلة، وما كنا [illegible]

وقال صاحبي، حين أصبحنا [illegible] والله يا حليمة، لقد أخذت [illegible] بركة، ثم

خرجنا، وركبت أتاني، وحملته عليها معي، فوالله لقطعت بالركب ما يقدر [illegible] من

حمرهم، حتى إن صواحبي ليقلن لي [illegible] كنت

يا ابنة أبي ذؤيب ويحك! اعطفي علينا بالرفق في السير، أليست هذه [illegible] هي

خرجت عليها، تحمصك طورا وتزدهك طورا [illegible] وأقول لهن بلى والله [illegible]

فيقلن والله إن لها لشأنا!

ثم قدمنا منازلنا من بلاد بني سعد، وما أعلم أرضا من أرض الله [illegible] منها،

فكانت غنمي تروح– على حين قدمنا به معنا– شباعا لبنا، فنحلب ونشرب، وما يحلب

إنسان قطرة لبن ولا يجدها في ضرع، حتى كان قومنا يقولون لرعيانهم [illegible] ويلكم أيها

الحمقى! اسرحوا حيث يسرح راعي بنت أبي ذؤيب، [illegible] ما تبض

كان الرعاة يطيعون [illegible] لكن أغنامهم كانت مع ذلك تروح [illegible]

بقطرة لبن، إذا كان الشبات [illegible] لمقدم أغنامي بذيل عقب مرور [illegible] مباشرة،

فلم نزل نتعرف من الله الزيادة [illegible] حتى مضت سنتاه وفطمته [illegible] ولهجة

كان يشب شبابا لا يشبهه [illegible] فلم يبلغ سبعة أشهر إلا وكان [illegible] قط، إلا إذا

يصلان إلى حبات القلوب [illegible] عن الأقذار، وكان لا يبكي، ولا

---

(١) كانت [illegible] مباركة في جميع مراحلها، [illegible] في سن [illegible] الذين [illegible]

الأربعين– البشارة الإلهية [illegible] البشر، في حياته قبل ذلك كانت [illegible] [illegible] ويحضى

اتصلوا به، وليس غريبا [illegible] الأمل والرجاء، فيتفاءل الإنسان، ويتطرق [illegible] جهد الذي [illegible]

[illegible] ويحصر [illegible] روحانية، ويعزز ذلك [illegible] إلى [illegible]

حياته الطفولة [illegible] [illegible] نظرنا إلى [illegible]

وتأثير الأشخاص، [illegible] في بيئاتهم وأوساطهم معروف لا ممارة [illegible]

روى المؤلف هنا [illegible] [illegible] ما يحملنا على التردد في قبوله.

تركه عريانا فتعرض لأنظار الآخرين، أما إذا قلق أثناء الليل ولم ينم فكانت أخرج به من الخيمة فلا يلبث أن ينظر في إعجاب إلى النجوم فيستولي عليه السرور، حتى إذا شبعت عيناه من هذا المنظر أغلقهما، وأخذ النوم بمعاقد أجفانه.

اضطرت حليمة بعد الفطام، أن تعود بمحمد إلى أمه التي أرادت أخذه غير أن حليمة- والحزن يلهب جوانحها- لم يمكنها أن تستسلم لهذا الاستئصال القاسي، فما إن رأت أمه، حتى ألقت بنفسها عند قدميها وأخذت في تقبيلهما وتضرعت مستعطفة: ألا ترين الأثر الناجع الذي تركه هواء البادية الصحي على ابنك؟ إن هذا الهواء سيكون أجدى عليه الآن وقد بدأ يمشي إن جو مكة وباء، وسترينه يذبل أمام عينيك، حين لا يجدي الندم.

رقت الأم لهذا الاستعطاف، ورأت أن الخير لصحة الطفل فيما قالت حليمة، فسقطت على عواطفها، وقبلت أن يعود محمد مع مرضعته إلى البادية، وحملته عند ذلك مرضعته الطيبة، وعادت به إلى الركب سعيدة بما نالها من توفيق.

عاد محمد إلى بادية بني سعد، وبدأ يطبع بقدميه على البسط المتموج من الرمال الطاهرة، وأخذ يتنشق ملء رئتيه الهواء المعطر برائحة النباتات التي تترعرع على الكثبان، وكان ينام تحت القبة الزرقاء المرصعة بالنجوم، يغمره نسيم الصحراء الليلي الصافي، فانفتح صدره واشتد وكان غذاء العربي الصحي المرتكز على الدعة له فضل كبير في تقوية الرسول، وهذا الغذاء يتكون من مختلف الألبان ومشتقاتها، ومن الأقراص التي أنضجت تحت الرماد، وأحيانا من لحم الجمال أو الأغنام الخالية من المسخ الخبيث الذي ينبعث من لحوم تلك التي ربيت في الحضر.

هذه الصحة الأخلاقية والجسمية التي يدين بها إلى البادية، ساعدته كثيرا على تحمل ما ابتلي به بعد من محن.

كان محمد يحب إعادة ذكريات تلك الفترة، وكثيرا ما كان يقول: إن من نعم الله علي التي لا تقدر، أني ولدت في قريش أشرف القبائل، وأني نشأت في بادية بني سعد، أصح المواطن بالحجاز.

وقد بقيت منطبعة في نفسه صور البادية التي كانت أول الأشياء تأثيرا في حسه عندما كان يسرح بها مع الرعاة فيتسلق شرفا ليلاحظ القطعان في مراعيها.

على أن استعداده للتأمل والوحدة لم يكن ينسجم مع أخلاق أقرانه الصاخبة، فكان يفضل اعتزالهم في ألعابهم، ليذهب وحيدا حيث الهدوء والسكون.

محمد والملكان:

خرج الرسول- كعادته- ذات صباح مع أخيه من الرضاع يقودان القطيع إلى المرعى، فلما انتصف النهار أتى أخوه يعدو، فزعا باكيا، ينادي: يا أمي يا أبت أدركا أخي

القرشي، فما ابتعد عنا كثيرا، فجاءه رجلان عليهما ثياب بيض [illegible] فأضجعاه فشقا صدره.

جن جنون حليمة، فعدت- بكل ما تملك من قوة- يتبعها زوجها [illegible] الاتجاه الذي أرشد إليه مصطفى، فوجدا محمدا جالسا على شرف، وكان خائفا، [illegible] وجهه كان ممتقعا، فقبلاه في رقة وعطف وأخذا يسألانه: ما حالك يا بني؟ [illegible]

فقال: بينما كنت ألاحظ الأغنام ترعى، إذا بصورتين تلاصقني [illegible] فحسبتهما أولا صورتين كبيرتين، ثم عرفت خطئي، وإذا بالصورتين ليستا إلا شخصين [illegible] يلبسان لباسا ناصع البياض، وقال أحدهما مشيرا إلي: أهذا هو؟ قال: نعم [illegible] صدري شبه جمدت من الفزع، وحملاني فأضجعاني وشقا صدري، والتمسا [illegible] سوداء فوجداه وأخرجاه وطرحاه بعيدا، ثم التأم ما شقاه، وحنيا كأنهما [illegible] عنك وزرك، [illegible]

سجل القرآن هذه الحادثة في قوله «ألم نشرح لك صدرك، ووضعنا [illegible] الذي أنقض ظهرك». هذه القصة ككل القصص التي من نوعها، [illegible] وجدها تعترى [illegible] أثناء قراءته بهذا الكتاب، بجب [illegible] تنزيل تنزيلا رمزيا، والقصة التي [illegible] فصدقتها يعني [illegible] الطفولة [illegible] أن الله شرح صدر محمد إلى الفرح بحقيقة التوحيد، إذ أزال عن [illegible] ترقية.

قلقت حليمة وزوجها وأهمهما ما حدث، فقال الرجل [illegible] إلا محمد من يا حليمة، إني أخشى أن يكون هذا الغلام قد أصيب، ومن [illegible] أصابه مس من جبرات، غيره منهم لما يرون من عظيم بركته علينا، وسواء أكان [illegible] مثل مجيد، فإن شيطان، فأوهمه ما حدث، أم كانت رؤية صحيحة وسببه [illegible] حرجي من مسئوليتك في كل الحالتين خطيرة، الحقيه بأمه قبل أن يظهر [illegible] ما بنا.

ورأت حليمة على مضض أن الحكمة فيما قال زوجها فأخذت [illegible] وانتجهت به إلى مكة.

[illegible] رقة بلغ من العمر أربع سنوات إلى جانبها، فلما [illegible] من البادية لتختلط بكثير من المسافرين في سبيل [illegible] السوق، أو إلى الحج [illegible] الليل قد ضرب بجرانه، فلم تشعر حليمة وسط الناس إلا وهي وحدها، ولم تسمح لها ظلمة الليل بالعثور عليه، ورغم بحثها بجد وبذلها العار المتكرر.

وأسرعت تعدو إلى عبد المطلب، فأمكنه، بما له من جاه، أن [illegible] في أثر محمد مهرة الباحثين، وامتطى هو صهوة جواده ليسوس البحث.

ولم يلبث أحد متعقبي الأثر أن وجد في وادي تهامة صبيا جالسا تحت شجرة يجذب غصنا من أغصانها.

ترك عريانا فتعرض لأنظار الآخرين، اما إذ قلق أثناء الليل ولم ينم فكنت أخرج به من الخيمة فلا يلبث أن ينظر في إعجاب إلى النجوم فيستولى عليه السرور، حتى إذا شبعت عيناه من هذا المنظر أطبقهما، وأخذ النوم بمعاقد أجفانه.

اضطرت حليمة بعد الفطام، أن تعود بمحمد إلى أمه التي أرادت أخذه غير أن حليمة- والحزن يلهب جوانحها- لم يمكنها أن تستسلم لهذا الانفصال القاسي، فما إن رأت أمه، حتى ألقت بنفسها عند قدميه وأخذت في تقبيلهما وانفجرت مستعطفة ألا ترين الأثر الناجع الذي تركه هواء البادية الصحي على ابنك؟ إن هذا الهواء سيكون أجدى عليه الآن وقد بدأ يمشي إن جو مكة رباء، وستريه يذبل أمام عينيك، حين لا يجدي الندم.

رقت الأم لهذا الإستعطاف، ورأت أن الخير لصحة الطفل فيما قالت حليمة، فضغطت على عواطفها، وقبلت أن يعود محمد مع مرضعته إلى البادية، وحملته عند ذلك مرضعته الطيبة، وعادت به إلى الركب سعيدة بما نالها من توفيق.

عاد محمد إلى بادية بني سعد، وبدأ يطبع بقدميه على البسط المتموج من الرمال الطاهرة، وأخذ يتنشق ملء رئتيه الهواء المعطر برائحة النباتات التي تترعرع على الكثبان، وكان ينام تحت القبة الزرقاء المرصعة بالنجوم، يغمره نسيم الصحراء الليلي الصافي، فتفتح صدره واشتد وكان غذاء العرب الصحي المرتكز على القناعة له فضل كبير في تقوية الرسول، وهذا الغذاء يتكون من مختلف الألبان ومنتجاتها، ومن الأقراص التي أنضجت تحت الرماد، وأحيانا من لحم الجمال أو الأغنام الفائية من النضج الخبيث الذي ينبعث من لحوم تلك التي ربيت في الحظائر.

هذه الصحة الأخلاقية والجسمية التي يدين بها إلى البادية، ساعدته كثيرا على تحمل ما ابتلى به بعد من محن.

كان محمد يحب إعادة ذكريات تلك الفترة، وكثيرا ما كان يقول: إن من نعم الله على التي لا تقدر، أني ولدت في قريش أشرف القبائل، وأني نشأت في بادية بني سعد، أصح المواطن بالحجاز.

وقد بقيت منطبعة في نفسه صور البادية التي كانت أول الأشياء تأثيرا في حسه عندما كان يسرح بها مع الرعاة فيتسلق مرقبا ليلاحظ القطعان في مراعيها.

على أن استعداده للتأمل والوحدة لم يكن ينسجم مع أخلاق أقرانه الصاخبة، فكان ينفصل اعتزالهم في ألعابهم، ليذهب وحيدا حيث الهدوء والسكون.

محمد والملكان

خرج الرسول- كعادته- ذات صباح مع أخيه من الرضاع يقودان القطيع إلى المرعى، فلما انتصف النهار أتى أخوه يعدو، فزعا باكيا، يناديهما: أيا أبت أدركا أخي

القرشي، فإنه ابتعد عنا كعادته، فأخذه رجلان عليهما ثياب بيض [illegible] فشقا صدره

جن جنون حليمة، فعدت- بكل ما تملك من قوة- يتبعها زوجها [illegible] المكان الذي أرشد إليه الصبي، فوجدا محمدا جالسا على شرف، وكان هادئا، غير [illegible] وجهه كان ممتقعا، فقبلاه في رقة وعطف وأخذا يسألانه: ما حالك يا بني؟ وما [illegible]

قال: بينما كنت ألاحظ الأغنام ترعى، إذا بصورتين ناصعتي البياض [illegible] حسبتهما أولا طائرين كبيرين، ثم عرفت خطئي، وإذا بالصورتين ليستا إلا شخصين يلبسان لباسا ناصع البياض، وقال أحدهما مشيرا إلي: هذا هو؟ قال: نعم.

جمدت من الفزع، وأحداني فصجعاني وشقا صدري، والتمسا [illegible] صدري شيئا أسود، فوجداه وأخذاه وطرحاه بعيدا، ثم التأم ما شقاه، واختفيا كأنهما [illegible]

سجل القرآن هذه الحادثة في قوله «ألم نشرح لك صدرك، ووضعنا عنك وزرك، الذي أنقض ظهرك». هذه القصة ككل القصص التي من نوعها، [illegible] يجدها القارئ أثناء قراءته لهذا الكتاب، يجب أن يؤول تأويلا رمزيا، والقصة التي [illegible] معناها يعني أن الله شرح صدر محمد إلى الفرح بحقيقة التوحيد إذ أزال عنه [illegible] الطفولة ورد الوثنية

قصت حليمة وزوجها وعمها ما حدث، فقال الرجل [illegible] لا أحدا من يا حليمة، إني أخشى أن يكون هذا الغلام قد أصيب، وما [illegible] أصابه مس من جيراننا، غيره منهم لما يرون من عظيم بركته علينا، وسواء أكا[ن] [illegible] عمل مجيد، فإن الشيطان، فأوهمه ما حدث، [illegible] كانت رؤيته صحيحة ومتخيلة [illegible] و خرجي من مسئوليتنا في كلتا الحالتين خطيرة، لنعيده بأهله قبل أن يظهر [illegible] أمانته.

ورأت حليمة على مضض أن الحكمة فيما قال زوجها فأخذت [illegible] واتجهت به إلى مكة.

سار الطفل وقد بلغ من العمر أربع سنوات إلى جانبها، فلما [illegible] من البلدة اختلطا بكثير من السائرين في طريق الذاهبين إلى السوق، [illegible] وكان الليل قد ضرب بجرانه، فلم تشعر حليمة وسط الناس إلا وهي وحدها، [illegible] لها طلعة الليل باحثين عنه، ورغم بحثها بجد ونداءها الحار المتكرر.

فأسرعت تعدو إلى عبد المطلب، فأمكنه، بما له من جاه، [illegible] بحث في أثر محمد مهرة الباحثين، وامتطى هو صهوة جواده ليرأس البحث.

وما لبث أحد متعقبي الأثر أن وجد في وادي تهامة صبيا جالسا تحت شجرة يجذب غصنا من غصونها

فقال له: من أنت يا غلام؟

قال: أنا محمد بن عبد المطلب.

فسر الرجل بالعثور على ضالته، وأخذ الغلام فوضعه بين يدي عبد المطلب الذي جاء على الأثر.

قبل عبد المطلب الغلام في حنان، ثم رجع إلى مكة ومحمد أمامه على قربوس فرسه، فنحر الشاء، وأطعم أهل مكة الفقراء، ثم حمل الغلام على كتفيه وطاف به الكعبة شاكرا لله فضله ونعمته ثم قاد محمد في رفقة حليمة ثانية إلى أمه آمنة، فقالت لحليمة بعد أن قبلته وعانقته: ما أقدمك به، وقد كنت حريصة عليه، وعلى مكثه عندك؟

قد بلغ الله بابني، وقضيت الذي علي، وتخوفت الأحداث فأديته إليك كما تحبين.

غير أن الاضطراب والخوف كانا يقرآن في وضوح على وجه المرضع، فلم تصدق آمنة حديثها وقالت:

إنك تحجبين عني الحقيقة، فأصدقيني الخبر.

ولم تدعها حتى أخبرتها، وعددت ما قال زوجها، [illegible] هذا الرأي الأم فعلت في شيء من العدة

أفتخوفت عليه الشيطان؟

نعم

كلا والله ما للشيطان عليه من سبيل، وإن لابني هذا لشأنا، ثم أخبرتها بما حدث من ظواهر عجيبة أثناء حمله ووضعه، ثم بعد أن شكرت حليمة المخلصة، وكافأتها على حسن صنيعها، احتفظت بابنها، وقد أصبحت صحته من القوة، بحيث لم تعد تخشى عليه هواء مكة الفاسد.

موت آمنة سنة ٥٧٦م:

ترعرع محمد تحت رعاية آمنة، أكثر الأمهات حبا وفي ظل عنايتها أخذ يزداد كل يوم جمالا وحكمة، غير أنه لم ينعم بالحنان الأموي الذي لا يعوض غير قليل، فقد ماتت أمه فجأة بالأبواء، عند عودتها من سفر إلى يثرب رافقها فيه محمد.

وكان لآمنة جارية حبشية تدعى أم أيمن، تحب محمدا، وتخلص له الإخلاص التام، اصطحبتها آمنة في السفر فعادت باليتيم الباكي إلى مكة، وكانت هي وخمس من الإبل كل ما له من ميراث.

فكفله جده عبد المطلب، الذي كان يحبه دائما، ويرى فيه [illegible] شبيهه لولده عبد الله كان يأخذ في [illegible] شيئا فشيئا، ولعل الحكاية الآتية تعطي فكرة عن عاطفة عبد المطلب التي لا تحد نحو محمد:

كانت مكة ككل مدن الصحراء ذات شوارع ضيقة كثيرة التعاريج، ولم يكن فيها مكان فسيح نوعا ما، إلا الميدان الذي يحيط بالكعبة، وفي هذا المكان كان يجتمع سكان المدينة في الصباح وفي المساء للراحة والحديث في شئونهم، ولأداء الشعائر والطقوس، وكان خدم عبد المطلب يضعون له فراشا في ظل الكعبة، يجلس حوله بنوه وأحفاده وسادة المدينة في انتظار قدومه، وكان احترام سادن بيت الله عبد المطلب عظيما إلى درجة لا يجرؤ أحد حتى على الاقتراب من طرف الفراش.

وفي ذات يوم، جلس محمد وسط هذا الفراش المحترم، فما كان من أعمامه – وقد ساءهم ذلك – إلا أن أبعدوه عنه غير أن عبد المطلب كان قادما، ورأى عن بعد ما حدث فصاح:

أرجعوا ابني إلى حيث كان يجلس، إنه قرة عيني في شيخوختي، وإن جرأته آتية من حدسه بما سيصير إليه، وسيبلغ مكانة لم يبلغها عربي قط.

ثم يجلسه معه ويمسح خديه وظهره بيده، ويسره ما يراه يصنع.

بيد أن القدر أراد أن يحرمه هذه العاطفة الحنون، فقد مات عبد المطلب بعد أن بلغ خمسة وثمانين عاما، وشعب تشيعه إلى مقره الأخير عبرات الناس أجمع

أما هذا اليتيم المسكين، فقد كفله عمه أبو طالب، كفله بناء على وصية عبد المطلب، لأنه من بين أعمامه شقيق والده الوحيد.

أول سفر إلى سوريا سنة ٥٨٢م:

كان أبو طالب يعول أسرة كبيرة، وكان قليل الثراء، رغم أنه ورث سدانة الكعبة، فاضطر إلى الاشتغال بالتجارة مع اليمن وسوريا.

ولم يلبث محمد غير قليل عند عمه، حتى أخذ أبو طالب في تنظيم قافلة تجارية لقريش، يقودها هو إلى سوريا، فلما تهيأ الركب للرحيل، وأجمع على المسير، أثار منظره في نفس محمد ذكريات البادية المحببة إلى قلبه، تمر بها القوافل الكثيرة الشبيهة بهذه التي توشك أن ترحل.

القافلة على أهبة الرحيل، ومحمد إذن على وشك الافتراق عن عمه الذي شغف به، وعلى وشك أن ينغمس في وحدة مريرة محزنة، كل هذا جعل من محمد بائسا، لا ينبس ببنت شفة، [illegible] عند الافتراق، فعدا نحو عمه وألقى بنفسه في حجره، وأحاطه بذراعيه الصغيرتين، ثم أخفى وجهه بين ثنايا ملابس أبي طالب حتى لا ترى عبراته، تلك التي امتزجت فيها الرغبة باليأس.

ورق أبو طالب لما أبداه محمد من حب غير متكلف، وأحس برغبة ابن أخيه العزيز في مرافقته، فقال:

«والله لأخرجن به معي ولا أفارقه ولا يفارقني أبدا».

فمسح محمد دموعه، واستولى عليه الفرح، ونشط في استكمال التأهب للسفر، ثم قفز خلف عمه على الناقة.

سار الركب وترك جو مكة الفاسد الذي كان يقبض صدر محمد فلما غمر القافلة هواء البادية النقي الصافي الذي ألفه محمد من قبل، تفتحت نفسه وأخذ يملأ منه رئتيه في لذة ومتعة، لقد ساعدته ألفته للحياة البدوية أثناء إقامته مع حليمة، على تحمله قسوة الحرمان وشدة التعب طيلة هذا السفر الشاق في صحروات الحجاز التي لا تكاد تحد.

رمال وصخور، ثم رمال وصخور.. تلك هي صحراوات الحجاز التي تتشابه إلى درجة أن السائر فيها لا يشعر بأنه يترك مكاناً ليحل في آخر، وإنما يشعر بأنه يدور عوداً على بدء بأنه يدور عوداً على بدء في مكان واحد تلك هي صحروات الحجاز الجافة، التي مكثت فيها القافلة شهراً كاملاً لا ترى أثر الحياة، اللهم إلا الشعور بوجود الأحد الخالد، الذي لا يخلو منه مكان، والذي يرى ولا يرى.

محمد والراهب:

وقف العالم الراهب «بحيرى» على مقدمة دير يعلو جبل «حوران» يسرح الطرف في ... إلى سهول سوريا الشاسعة المنبسطة نحو جزيرة العرب، وفجأة استرعى نظره قطعة من السحاب بيضاء مستطيلة، تعترض- على خلاف العادة- زرقة السماء الصافية، وكأن هذا السحاب الذي يشبه طائراً أبيض هائلاً يحلق فوق قافلة صغيرة تتجه نحو الشمال، يغمرها بظله الأزرق، ويسير معها أنى سارت.

وأناخت القافلة أسفل الدير بجانب شجرة ضخمة ترعرعت على حافة واد ذهبت نضرته، وما لبث السحاب أن ذاب في فضاء الله الواسع، بينما انحنت أغصان الشجرة- كما لو كانت متأثرة بالنسيم- ومالت نحو واحد من الركب لتظله من قيظ الشمس، فلما شهد ذلك «بحيرى» علم أن قد وصل في تلك القافلة من كان ينتظره منذ زمن بعيد، ذلك هو الرسول الذي بشرت به الكتب المقدسة(١).

ترك «بحيرى» في سعة، مقدمة الدير، وذهب يأمر بإعداد طعام كثير، ثم أرسل رسولاً إلى القافلة يدعوها- الشباب منها والشيوخ، والشرفاء فيها والعبيد- إلى تناول الطعام، فما جاء الرسول يرافقه المكيون إلى حيث كان ينتظرهم «بحيرى»، قال أحدهم: وحق اللات والعزى، إن لك يا بحيرى لشأناً اليوم، ما كنت تصنع هذا بنا وقد كنا نمر بك

(١) تلك سنة الله تعالى في تأييد الرسل بعضهم ببعض وتصديق بعضهم لبعض، فالسابق يمهد للاحق ويبشر به، واللاحق يؤيد السابق ويكمل ما جاء به، والمعاصر يؤيد معه وينصره ويدافع عنه والقرآن الكريم أفاض في هذا المعنى في آيات وسور كثيرة: ففي التأييد والتمهيد والتصديق والمناصرة، قال تعالى في سورة آل عمران في الآية ٨١: «وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين» ويقول ... في نهاية سورة البقرة: «آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله».

كثيراً، فما شأنك اليوم؟

صدقت، قد كان ما تقول، ولكن ... لأسباب أعلمها، ولكنكم اليوم ضيوف، وقد أحببت أن أكرمكم وأصنع لكم طعاماً، فتأكلون منه كلكم

وأخذ المدعوون في تناول الطعام بشهوة قوية، أما لا فرق أنه، ... فعرفهم الطويل من حرمان وأخذ بحيرى يفحص بعينيه واحداً فواحداً، ليميز من بينهم ذلك الذي تتفق صفاته مع ما أخبرت به الكتب المقدسة، غير أنهم جميعاً أخلفوا ظنه، إذ لم يجد فيهم طلبته، فقال في نفسه: إن ما رأيته من ظواهر خارقة للعادة لا يصدر إلا بوجود من اصطفاه الله من غير هؤلاء ثم سألهم: يا معشر قريش، هل تخلف منكم أحد في الرحال؟

نعم تخلف منا واحد فقط، تركناه لحداثة سنه.

لا تفعلوا، ادعوه، فليحضر هذا الطعام

فقال رجل من قريش مع القوم: واللات والعزى إن كان للؤم بنا أن يتخلف ابن عبد الله بن عبد المطلب عن طعام من بيننا

ثم قام إليه فأحضره وأجلسه مع القوم، فما رآه بحيرى جعل يلحظه لحظاً شديداً وينظر إلى أشياء من جسده، وقد كان يجدها عنده من صفته، حتى إذا فرغ القوم من طعامهم وتفرقوا، قام إليه بحيرى فقال: يا غلام، أسألك بحق اللات والعزى إلا ما أخبرتني عما أسألك عنه. ولم يرد «بحيرى» بقسمه عليه باللات والعزى- بعد أن سمع قوماً يحلفون بهما- إلا امتحانه فقال محمد: لا تسألني باللات والعزى شيئاً، فوالله ما أبغضت شيئاً قط بغضهما

فبالله إلا ما أخبرتني عما أسألك عنه

سلني عما بدا لك

وأخذ بحيرى في الاستفهام عن كل ما يهمه، عن حزنه، عن مكانته، عن أحلامه، إلى غير ذلك من أمور كثيرة وكانت الإجابة توافق ما عند بحيرى من صفته، وأخيراً نظر بحيرى بين كتفيه، فرأى خاتم النبوة على موضعه من صفته التي عنده، فزال من نفسه كل شك، وأيقن أن الواقف أمامه إنما هو الرسول الذي بشرت به الكتب المقدسة، فأقبل على أبي طالب وقال له: ما هذا الغلام منك؟

إنه ابني!

ما هو بابنك

صدقت، إنه ابن أخي

فما فعل أبوه؟

مات وأمه حامل به.

صدقت، فأصغ لما أقول: ارجع بابن أخيك إلى بلده، واحذر عليه يهود فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفت ليبغنه شرا فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم

وتأثر أبو طالب بهذه الوصايا الصادرة عن رجل ذاعت شهرته العلمية، فخرج بابن أخيه سريعا حتى أقدمه مكة حين فرغ من تجارته بالشام

شب محمد والله تعالى يكلؤه، وعناية أبي طالب تحوطه، حتى صار فتى مكتملا، ولقد كان حييا بالغ الحياء، ومما يروى في ذلك أن أبا طالب كان ذات مرة يقوم بإصلاح بئر زمزم، وكان غلمان قريش، ومن بينهم محمد، ينقلون له ما يلزمه من حجارة، ولتحاشي المشاق أخذ كل منهم إزاره، فجعله على رقبته يحمل عليه الحجارة حتى لا تضره خشونتها، فأبان ذلك عن عوراتهم، وما إن رأى محمد نفسه على ذلك الوضع وشعر بأنه معرض للأعين، حتى استولى عليه انقباض شديد في الصدر، وسال على جبهته العرق وأخذته رعشة الخجل، فسقط مغشيا عليه(١)

هذا الحياء وتلك الرعاية التامة يمنحهما الله لمن اصطفاهم، جعلاه بمعزل عما يتعرض له أحيانا من هم في دور المراهقة من حدة واندفاع، وكان بين أقرانه أحسنهم خلقا، وأكرمهم وأحسنهم جوارا وعشرة، وأصدقهم حديثا، وأبعدهم من الفحش والأخلاق التي تدنس الرجال، وأرعاهم لمقتضيات الصداقة، حتى لقد سمي بين قومه بالأمين.

الرحلة الثانية إلى سوريا سنة ٩٥٤م.

كانت حالة أغلب المكيين - كأبي طالب - تضطرهم إلى التجارة فإقليمهم من أشد الأقاليم جدبا، ولذلك لم يكن من الممكن لقاطنيه أن يعيشوا إلا بالتعامل مع اليمن وسوريا، اللذين تربط بينهما مكة، فكانت قوافلها تذهب إلى اليمن الذي أطلق عليه «الإقليم العربي السعيد» للبحث عن منتجاته والمنتجات التي تصل إليه عن طريق البحر،

(١) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (على ما يروي ابن هشام): «لقد رأيتني في غلمان قريش ننقل حجارة لبعض ما يلعب به الغلمان، كلنا قد تعرى وأخذ إزاره فجعله على رقبته، يحمل عليه الحجارة، فإني لأقبل معهم كذلك وأدبر، إذ لكمني لاكم ما أراه لكمة وجيعة، ثم قال: شد عليك إزارك، فأخذته وشددته علي، ثم جعلت أحمل الحجارة على رقبتي وإزاري علي من بين أصحابي» (عن سيرة ابن هشام)

قال السهيلي في التعليق على هذه القصة: وهذه القصة إنما وردت في الحديث الصحيح في حين بنيان الكعبة، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينقل الحجارة مع قومه إليها، وكانوا يجعلون أزرهم على عواتقهم لحمل الحجارة، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحملها على عاتقه وإزاره مشدود عليه، فقال له العباس رضي الله عنه: يا ابن أخي لو جعلت إزارك على عاتقك، ففعل، فسقط مغشيا عليه، ثم قال: إزاري إزاري، فشد عليه إزاره وقام يحمل الحجارة.

وفي حديث آخر أنه لما سقط ضمه العباس إلى نفسه وسأله عن شأنه، فأخبره أنه نودي من السماء أن اشدد عليك إزارك يا محمد، قال: وإنه لأول ما نودي.

وحديث ابن إسحاق، إن صح أنه كان ذلك في صغره إذ كان يلعب مع الغلمان، فمحمله على أن هذا الأمر كان مرتين: مرة في حال صغره، ومرة في أول اكتهاله عند بنيان الكعبة.

فيبتاعون مما تنتج الحبشة والهند والصين، من التوابل، والعطر، والبخور، والتبر، والحرير، وفي عودتهم إلى الحجاز يضيفون إلى ذلك تمر يثرب أو الطائف ثم يذهبون بعد ذلك إلى سوريا، ليستبدلوا ببضائعهم منتجاتها الزراعية.

كالقمح، والشعير، والأرز، والتين، والزبيب، ويضاف إليها ما يوجد في سوريا مما يصدره إليها اليونان والرومان.

ولم تكن النساء بمعزل عن هذا النوع من التجارة فقد كن يخترن من يخرج في مالهن للاتجار في مقابل جزء من الربح، هكذا كانت تفعل خديجة بنت خويلد ذات الثراء الواسع، والحسب النبيل، وفي ذات يوم أرسلت إلى محمد وقد كانت تسمع بما له من عقل متزن، وأمانة وإخلاص- فعرضت عليه أن يسير على رأس تجارتها إلى الشام، وأن تمنحه في مقابل ذلك ضعف ما كانت تمنح عادة لغيره.

قبل محمد العرض غير أن أبا طالب تذكر ما قاله الراهب «بحيرى» فأهمه الأمر، وأحس بالاضطراب حينما تأهبت القافلة للسفر، فجعل يوصي أهل القافلة كلا على انفراد بمحمد، وأوصى على الأخص ميسرة عبد خديجة الذي تثق به، والذي رافق محمدا في تلك الرحلة. كان ميسرة خادما أمينا، طيب القلب مخلصا لشد ما أثرت في نفسه وصية أبي طالب صاحب المكانة الاجتماعية العظيمة، على أن تأثير محمد الساحر فيمن حوله، وسموه عليهم أذهلاه حتى عن نفسه، فأخلص له الإخلاص كله، وجعله موضع التقديس، وكان ميسرة يرى في كل ما يحدث أثناء السفر معجزة تبرهن على أن طبيعة محمد ليست من هذا العالم، وكانت الحوادث على ما يبدو تؤيده، فهذا الطريق الذي سلكه غير مرة، والذي يعرف مشاقه، وأخطاره، هذا الطريق الذي لا يكاد ينتهي، والذي تلتهب فيه الشمس فتجفف الأسقية، وتوحي إلى سالكيه بأنه طريق جهنم، هذا الطريق الذي انتثرت على جانبيه عظام البشر والحيوانات التي أتى عليها الظمأ، هذا الطريق طواه ميسرة في دعة وسرور.

كل يوم حينما تعلو الشمس رءوس المسافرين، وتسدرهم بشعاعها الملتهب- يرى ميسرة في القبة الزرقاء سحابا خفيفا يشبه ريش الطائر عظيم يتألف شيئا فشيئا ويزداد ويتجمع، ثم يستطيل فيشبه جناحي طائر ينشرهما ليحتمي محمد بظلهما حتى إذا أخذت الشمس تميل نحو الأفق وتفقد قوة حرارتها المحيقة، أخذ الريش يتفرق، وتخمد فوحدة، [illegible] في ثنايا آخر شعاع ذهبي يقذفه الكوكب المتأجج قبل أن يختفي، وحينئذ يطوي الجناحين ويفسح المكان للنجوم التي لا تتلألأ في أي مكان، كما تتلألأ فوق الصحراء

أما إبل القافلة فقد عمها هي أيضا- فيما يبدو- نشوة من فرح: فاتسعت خطاها، وبدا الطريق من تحتها كأنه ينطوي من نفسه، ولم يصب واحد منها بسوء، تركه جثة هامدة بين العظام، ذات المنظر البشع، التي هي بقايا ما اندثر من القوافل السابقة.

سارت القافلة في سلام، غير أنه حدث ذات يوم أن تأخر جملان من جمال خديجة

عن القافلة، وبدت عليهما علامات التعب الشديد، ولم يصل ميسرة، رغم ما صبه عليهما من لعنات ولطمات، إلى إلحاقهما بالقافلة، فقد غمر العرق جسم الحيوانين البائسين، وتلك علامة مؤكدة على اقتراب أجلهما.

ووقع ميسرة– وهو الخادم المخلص الحريص على مصلحة سيدته– في بلبلة واضطراب، ولم تسمح نفسه بترك الجملين، وبينما هو كذلك تذكر ما قاله أبو طالب عن محمد، فعدا إلى رأس القافلة ليقص عليه الأمر، عاد محمد إلى الجملين، فوجدهما قد استلقيا على الأرض، فلما أحثهما على القيام أخرجا صوتا تتمثل فيه الشكوى والألم العميق، فانحنى عليهما، ولمس بيديه المباركتين أخفافهما التي قطعتها أحجار الطريق الحادة، فقاما بعد أن كانا لا يبديان حراكا، ونشطا في السير، حتى أدركا– في توثب الجذلان– مقدمة القافلة.

وصلت القافلة إلى بصرى من أعمال سوريا، واستمر التوفيق يرافق محمدا، فباع جميع ما أتى به من بضاعة بربح لم يكن منتظرا، واشترى جميع ما يريد من سلع بثمن زهيد، كل هذا بدون أن يلجأ إلى طرق المساومة التي لا تكاد تنتهي، والتي يستعملها، عادة، الشرقيون.

كان ظرفه الطبيعي وصراحته، وما يبدو عليه من نبل، وعلى الأخص هذه الإشعاعات التي فيها من المساتير ما فيها، والتي تنبثق دائما عن مصطفى الله، هذه الإشعات ترجمها المصورون– فيما مضى– بإكليل من ذهب.

ويصفها علماء اليوم– عاجزين عن شرح طبيعتها بالمغناطيسية، كل هذا كان يجعل الناس يقبلون عليه في مودة رثقة.

في هذا القطر الذي شغف بالمسائل الدينية، والذي تجد فيه على قمة كل شرف ديرا، وتوحي إليك كل صخرة فيه بذكريات رسول أو نبي، والذي تبدو الطبيعة نفسها فيه كأنها تنحني أمام محمد، في هذا القطر أثار المصطفى، في قوة، اهتمام كل الرهبان– حفظة الكتب المقدسة، وقد كانو ينتظرون رسولا جديدا من قبل الله، جاءوا جميعا إذن يسألون ميسرة الذي عرفه كثير منهم من قبل أثناء رحلاته السابقة، والذي يحدسون أنه موضع سر محمد، فلما أرضوا حب الاستطلاع، صرح أحدهم وهو راهب نسطوري، يسمى «جريج» إلى خادم محمد المخلص بمثل ما صرح به بحيرى لأبي طالب.

انتهى التعامل وتمت الصفقات، فأخذت القافلة طريق العودة، وأخذ السحاب الذي بدا كأنه ينتظر الركب مكانه فوق رأس محمد واستمر كذلك إلى نهاية السفر، فلما وصلت القافلة إلى بطن مر، بالقرب من مكة، أقنع ميسرة محمدا بأن يسبق القافلة ليحمل بشرى العودة إلى خديجه

كانت خديجة قد تعودت أن تصعد مع خادماتها إلى سطح المنزل، حيث ترى في وضوح طريق سوريا متجها بين الجبال إلى الشمال الغربي، ولم تكن بطبيعة الحال تفهم

على ثروتها، غير أن من … معها أمره، وإن كانت لم تتبين، أو لا تريد أن تتبين، ذلك بعد في وضوح … بعد لا شك فيه أن ما رأته في وجه محمد من نبل، وفي أخلاقه من طهارة، أثر في نفسها تأثيرا كبيرا، حتى لقد شق عليها غيابه، وبدا لها أن هذا السفر يوشك أن يستمر … إلى الأبد.

وفي ذات يوم صعدت خديجة إلى مرصدها المعتاد، وكانت الشمس إذ ذاك تلقي بشواظ من نار على البلدة، ونحي الفتيات من المجاورة بالخروج إلى الشارع أو الصعود إلى سطوح المنازل، ومكثت خديجة تنظر، وتنظر في أعماق الأفق الشاسع، عسها ترى القافلة التي لم تعد تبصر شيئا بعد، فلما يئست أغمضت عينيها الملتهبتين، وما لبثت أن شعرت فجأة بنسيم عليل … يحمل جنبات السرب، بينما سحابة رقيقة ضاربة إلى اللون البنفسجي قد خففت من حدة الضوء الذي تقذفه الشمس على السطوح، وعلى الصخور، في تلك الآونة … ودخل محمد بيت خديجة

حدث محمد، كوكيل دقيق يحرص عليها نتيجة رحلته، ويعرفها بما كان لها من ربح عظيم، فشكرته، وهنأته في حرارة، غير أنها لم تدهش من نجاحه، فقد بدأت تعتقد أنه من المصطفين الأخيار

ولاحظت خديجة السحاب ذا الظل المنعش، ساعة وصول محمد، فحدست ارتباطهما وصلة، وأرادت أن تتثبت … أين ميسرة؟ … به مع القافلة … عجل إليه ليعجل بالإقبال، … في أشد الشوق إلى التطلع برؤية صاحبه …

فعاد محمد، وفارق السحاب المنزل، وتابعه على طريق سوريا. لقد أصبح خديجة يقينا

ولم يلبث ميسرة أن وصل … على، مؤكد رأيها إن هذا السحاب الذي لا … لم يتخلف قط عن مرافقته منذ أن غادرنا مكة إلى أن عدنا إليها، ومنذ أن تركنا … ي، وقد عرفني رهبان حوران، المسيحيون، هو محمد وعرفت أن هذه السحاب … أجنحة ملكين مكلفين بوقاية سيدي من قيظ الشمس المهلك.

ثم قص ميسرة على … كل ما حدث أثناء الطريق من حوادث … منها على … محمدا شخص … فيه، وأمعنت خديجة في … سباه، وكتمت … خادمه استزادته

زواج محمد بخديجة سنة ٥٩٥م

ضاعفت السيدة خديجة … محمد ما كانت قد وعدته به من أجر، ولم يعد … إلا في حمله للشرف الأعلى … ثروتها، فرأت أن خير طريقة … هي أن تتزوج به،

حصوصا وأن عواطفها القلبية نحوه لم يكن من شأنها أن تصرفها عن الإقدام على مثل ذلك نعم ولكن ما العمل في مسألة اختلاف السن؟

لقد بدأ محمد عامه الخامس والعشرين في حين اقتربت هي من الأربعين: أيصبح ذلك عقبة؟ إن سن خديجة لم تمنعها من أن تكون محط أنظار الكثيرين، لا لأنها حسيبة نسيبة لأرب وهلة ثرية، فالتقاليد العربية تقضي بأن المهر يدفعه الرجل وليس له أي حق على ثروة زوجته، ولكن لما تحلت به من صفات شخصية، ومن سحر ومن وجاهة، ومن نسب، ثم لحسبها النبيل النسب هي بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب؟

كانت خديجة، لكل ذلك، محاطة بحاشية من الطامحين إلى زواجها، يطمع بعضهم في شرف حسبها، والبعض الآخر على ثروتها، بيد أنهم جميعا لم تجد له ما يبرره عندما رأت محمد، وعلمت عن تجربة الشيء الكثير مما يتحلى به من مكارم الأخلاق، فتغيرت اتجاه حياتها، وكان كل يوم يمر يزيدها ميلا على مر نحو محمد، فعزمت على أن تعرف ما انطوى عليه قلبه

قال ميسرة: أرسلتني سيدتي، بعد شهرين وعشرين يوما من عودتنا من الشام إلى محمد فقلت له:

يا محمد، ما يمنعك أن تتزوج؟

ما بيدي ما أتزوج به.

فإذا كان ما تملك، على قلته، يكفي، ودعيت إلى الجمال والمال والشرف والكفاءة، ألا تجيب؟

فمن هي؟

إنها خديجة

بلك بهازل، كيف أجرؤ على أن أتقدم لطلب يدها بما أملك من مهر؟

لا عليك، وإن نحن نتك المهمة كفيل.

كانت مهمة سيدي في حديثه كافية لمعرفة عواطفه نحو سيدتي، فأسرعت في العودة لأبشرها، فغمرها السرور، وأخذت في الاستعداد للزواج

وكان أول ما فكرت فيه أن تحصل على موافقة أبيها خويلد الذي كان يرفض دون رحمة كل الطامحين، إما لأنهم ليسوا من ناحية الشرف أكفاء، وإما لأن مع ينبغي لهم، استعملت ابنته للوصول إلى ما تريد طريقة لتخدير أبيه صنعت طعاما وشرابا ودعت أباها ونفر من سادة قريش ومحمدا، وكان خويلد يحب النبيذ حبا جما، فشرب منه حسب عادته، أكثر مما ينبغي، فلما تمكن من الخمر وقالت ابنته: إن محمد بن عبد الله طلبني للزواج وزوجك بموافقة على ذلك

كان خويلد تحت تأثير الخمر، بعد الحياة من جوانبها المسرورة، فقبل عرض ابنته وألبسته حلة نفيسة

وما إن حصلت على رضاء أبيها حتى ذهبت حسب عادتهم إلى خطير بيتها

وصحا خويلد من سكره، فسأل ابنته ما هذا؟

قالت: إنك يا أبت به عليم، فقد قبلت زواجي بمحمد بن عبد الله.

أنا؟! أزوجك اليتيم الذي كفله أبو طالب! كلا إن هذا لا يحدث مادمت على قيد الحياة

ألا تستحي، تريد أن تسفه نفسك عند قريش، تخبرهم أنك كنت سكران؟

وصبرت خديجة على تلك النغمة طويلا، حتى إن خويلدا لرتبك واضطر إلى القبول النهائي، وحينئذ قام أبو طالب وقال: الحمد الله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم، وزرع إسماعيل، وجعلنا حضنة بيته وسواس حرمه، وجعل لنا بيتا محجوجا، وحرما آمنا، وجعلنا سادة العرب، ثم إن ابن أخي هذا محمد بن عبد الله لا يوزن برجل إلا رجح به شرفا ونبلا وفضلا وعقلا، وإن كان في المال قل، فإن المال ظل زائل، وعرض حائل، وعارية مسترد، وقد خطب إليكم رغبة في كريمتكم خديجة ولها فيه مثل ذلك، وقد بذل لها من الصداق ما عاجله وآجله عشرون بكرة، وإني يا معشر قريش، أشهدكم على ذلك

تم الزواج، واحتفلت به خديجة، فأمرت الشابات الرشيقات من جواريها أن يرقصن ويضربن الدفوف أمام المدعوين الذين سروا لهذا الرباط بين عائلتين كريمتين شريفتين.

كانت خديجة أول زوجة بنى بها الرسول، وبقيت طيلة حياتها زوجه الوحيدة المحبوبة التي لا يجد غيرها إلى قلبه سبيلا، وقد أنجبت له سبعة أولاد، ثلاثة ذكور، هم القاسم والطاهر، والطيب، وأربع إناث رقية، وزينب، وأم كلثوم، وفاطمة، وبعد مولد القاسم الذي كان أول من أنجب الرسول من الذكور كني محمد بأبي القاسم لكم سعد محمد بأن منحه الله طفلا ذكرا! ولكم أعز محمد هذا الطفل وأحبه، ولكم حزن حين أصابته فيه المقادير، وهو ما يزال بعد في دور الطفولة!! وأراد الله أن يكون مصير الطاهر والطيب مصير القاسم، فمات الجميع قبل بعثة الرسول، أما البنات فقد عشن إلى ظهور الإسلام وكن من أوليات من أسلمن، وساعدن، وجاهدن، في سبيل الله ورسوله.

حديث بنيان الكعبة ووضع الحجر سنة ٦٠٥م:

تهدمت الكعبة في بعض أجزائها، بسبب حريق حدث بها، لم تصلح كما ينبغي وتصدع سقفها، فدخل اللصوص من هذه الفجوات، وسرقوا بعض كنوزها التي تكونت من هبات الحجيج كانت الحاجة ماسة إذن إلى إصلاحها من حينه، غير أن حيطانها كانت من أنصاب بحالة لا تحتمل أي ثقل عليها، فاستلزم الأمر هدمها، ولقد حدث هذا الهدم بعد كثير من التردد، فما من شك في أنه إذا كان إصلاح بيت مقدس كالكعبة لا يثير اعتراضا، فإن هدمها يخرج، دينيا، من الخطورة بمكان

وأخيرا، بعد أن بدت لأهل مكة علامات استدلوا منها على رضاء الله، أجمعوا أمرهم على هدمها وإقامتها على أساسها القديم، ذلك الأساس الذي كان مؤلفا من كتل من الأحجار، ترتكز في تماسكها على تداخل بعضها في البعض بطريقة في غاية في المهارة والإحكام، ثم جزأت قريش الكعبة، وخصص لكل عشيرة قسم تبنيه، بدأ القرشيون البناء، في تحمس يوجهه دائما التنافس، فأتموه بسرعة، حتى بلغ البنيان موضع الركن، حيث يوضع الحجر الأسود، من يضع الحجر الأسود؟ من الأجدر بنيل

هذا شرف الجميع؟ هنا ثار الخلاف وأخذت كل قبيلة تذكر شرفها الأصيل، أو جدارتها التي لا تنكر، واحتدم النزاع والحوار، وتحالفوا وأعدوا للقتال، وقرب بنو عبد الدار جفنة مملوءة دماً، ثم تعاقدوا هم وبنو عدي بن كعب على الموت وأدخلوا أيديهم في ذلك الدم، عازمين على وضع الحجر أو الموت

ومكثت قريش على ذلك أربعة أيام، يتهدد بعضهم، ويتوعد بعضهم الآخرين، وأخيراً، قال لهم أبو أمية – وكان عاقلاً أسن قريش – يا معشر قريش، اجعلوا بينكم، فيما تختلفون فيه، أول من يدخل من باب هذا المسجد، يقضي بينكم فيه.

رضي المتخاصمون في النهاية بهذا الرأي، وما لبثوا حتى رأوا شاباً في نحو الثلاثين قادماً، فلما عرفوه قالوا: هذا الأمين، رضينا، هذا محمد، فلما انتهى إليهم، وأخبروه الخبر، لم يأخذ في الإصغاء إلى حجة كل فريق، وإنما قال في بساطة «هلم إلي بثوب» فنشروه على الأرض، فلما أجابوه إلى ما طلب أخذ الحجر الأسود بين يديه فوضعه على الثوب، الذي يوجد تجاهه، ثم أخذوا بأطراف الثوب فقال لهم: ارفعوا جميعاً، ففعلوا حتى إذا بلغوا به موضعه، وضعه هو بيده، وزال الخلاف بفضل بديهية محمد الحاضرة، لقد أرضاهم جميعاً دون أن يفضل أحدهم على الآخر، ووفق – لأول مرة في تاريخ العرب – بين كبرياء رؤساء القبائل، فمنعهم من إسالة الدماء، واحتفظ لنفسه بجانب من شرف وضع الحجر الأسود، ولم ينازعه فيه منازع

انتهى البناء بعد وضع الحجر الأسود بسرعة، وكان البحر قد رمى بسفينة إلى جدة فتحطمت، فأخذوا خشبها وأعدوه لتسقيف الكعبة، ولما كمل الأمر عطروها بقماش من الكتان الدقيق الصنع قام بعمله المصريون

وفيما بعد كانت تغطى الكعبة بنسيج معلم، من صنع اليمن، ثم كساها الحجاج بن يوسف بالحرير الأسود الذي لا تزال تكسى به إلى الآن، والذي يجدد كل عام

(تروونا إياه خير الزاد الطوي)

بسم الله الرحمن الرحيم

إنّا أنزلناه في ليلة القدر

عزلة محمد :

كان القرشيون على استعداد لأن يمنحوا من لقبوه بالأمين من مراتب الشرف ، ما تطمح إليه النفوس وما تعتز به وأن يمكنوه من مركز اجتماعي سام . غير أن نفسه – وهي بمعزل عن العجب والطمع – كانت ترفض ، في ازدراء ، كل عرض من هذا النوع . لذلك كان تدخله العرضي فيما نشأ من خلاف بسبب وضع الحجر الأسود هو الحادثة الاجتماعية والوحيدة التي ساهم فيها طيلة الخمس عشر عاما التي تلت زواجه .

بم كان يشغل محمد نفسه إذن ؟ لقد غرس الله في قلبه حب الوحدة ثم انه كان شغوفا بفضاء الله الواسع يسبح فيه منفردا ، أنى شاء .

ما سبب ميله هذا ؟ لا شك أن تلك الوحدة الكالحة التي تحيط بمكة كانت تحيي فيه ذكريات طفولته السعيدة ، في أثناء اقامته بالبادية .نعم ، غير أن روحه التي اصطفاها الله كانت تجد متعة أسمى وأروع في الهروب من الانحلال الأخلاقي والضلال الديني اللذين سادا العرب إذ ذاك .

حقيقة أن العرب وصلوا من الاعتداد بالنفس ومن النبل والشجاعة والاستقلال إلى أعلى الدرجات ؛ وبلغ كرمهم إلى مرتبة ، هي من السمو بحيث لم يتأت للآخرين تخطيها ؛ وإن حاتما الطائي ليعتبر أمير الكرم بلا منازع.

حقيقة أن بلاغتهم وشعرهم لا يخشيان التخلف في مضمار السباق عما نتجه أعاظم الخطباء وفحول الشعراء المحدثين. وما من شك في أن الشعر الذي كان يمكنهم من الإشادة بمظاهر البطولة وآيات الكرم ومن التغني بنعيم الحب والاستغاثة من جحيمه كان بالنسبة إلى هؤلاء القوم ذوي العواطف الملتهبة ، شعيرة دينية تحيطها القداسة ، وتخدمها في انسجام أجمل اللغات نغما وموسيقى .

ولقد كان سوق عكاظ مسرحا لتباري الشعراء يصفق فيه الناس متحمسين مأخوذين للمنتصر ثم تكتب قصيدته بحروف من ذهب تعلق بالكعبة .

ولقد وصل الينا هذه القصائد سبع سميت بالمعلقات ، وهي ترى في وضوح إلى أي حد من السمو وصلت العبقرية العربية في الشعر.

أجل ، ولكن بجانب هذه الصفات المزدهرة الفطرية في العرب كم من ضلال يرثى له ؟ لقد نسوا نسيانا تاما دين التوحيد ، الذي نشره فيهم جدهم ابراهيم ، وإن كانوا قد استمروا في تقديس الكعبة التي بناها بيديه فقد اتخذوا لله شركاء يزعمهم من أصنام تحظى عنده بتفضيلهم وكان لكل قبيلة بل لكل أسرة صنم تؤثره عمن عداه ، وأصبحت الكعبة معبدا لثلاثمائة وستين صنما من خشب و من حجارة تعبد من دون الله

أنصاب وأزلام وميسر واستغناء بالسحر والرقى ... وكل هذا كان يهوى بعقلية هؤلاء القوم الذين وهبهم الله استعدادا فطريا رائعا . لقد تركوا لأنفسهم الحبل على الغارب

واسرفوا فى فهم الحرية فكان الرجل منهم يتزوج من النساء اكبر عدد يمكنه تعديله وكان من تقاليدهم: أن النساء تورث كما يورث العقار لقد كان الابن بعد موت ابيه يتصل اتصالا جنسيا بمن ورثهن من زوجات والده.

ذلك لا شك بشع مخجل بيد أن البشاعة قد بلغت أقصى مداها فى وأد البنات. لقد تعالى العرب واسرفوا فى كل ما يتصل بالشرف وذهب بهم [illegible] الاسراف إلى تخيل احتمال أن يؤذى شرفهم بسبب سوء سلوك فتاة او بسبب اغتصابها، وجسم الخيال ذلك لبعض [illegible] حتى افسدت المغالاة طبائعهم فتوهموا ثم ظنوا، وحسبوا ثم خالوا وخافوا فعملوا [illegible] على بناتهم قبل أن يلتمس العيب.(١)

ولقد كان ميل العرب إلى التباهى وحساسيتهم المرهفة فيما يمس الكرامة وكبريائهم من اكبر [illegible] التى تمنعهم من الخضوع لنظام. لذلك كان [illegible] ويقدم اى تنظيم اجتماعى [illegible] التحقيق وكان من الطبيعى أن تستمر الحرب [illegible] انقطاع وأن يحل الثأر الذى [illegible] هوادة فيه ولا رحمة محل التقاضى فتسيل الدماء فى كل بقاع الجزيرة العربية

ذلك هو الضلال الذى احزن محمد وأرقه، وجعله لا يستطيع الصبر على رؤيته، وهو [illegible] فى طوقه إزالته لانه متأصل عميق ولانه [illegible] وهو جالب لا محالة على [illegible] غضب السماء الرهيب [illegible] بهم كما [illegible] هم فيه من [illegible] بشع اليم. لهذا كان يلجأ إلى الاماكن [illegible] من بنى البشر، حتى لا يختلط بهم وحتى [illegible] من ذاكرته شبح ما

كان [illegible] لرغبة قوية عميقة تسيطر على نفسه، [illegible] به نحو الوحدة والعزلة. [illegible] فى الشعاب الرملية، [illegible] الوديان [illegible] الجبال [illegible] يجلس على قمتها ويترك [illegible] فى [illegible] الجدب القاحل الذى [illegible] ثم يسترسل، ويسترسل، حتى يختنق فى [illegible] الافق

[illegible] الشاسع المؤثر وهذ[illegible] الرهيب، [illegible] المثالى كان يجلس [illegible] كما لا حراك به، [illegible] عليه ساعات تلو الساعات [illegible] غارق فى تأمل وجدانى [illegible] صامت اجل لشد ما كان يروعه ويملأ نفسه [illegible] المنظر الرائع [illegible] عناصر الارض والسماء المتجسمة [illegible] محبة [illegible] هى اقوى من ان [illegible] ان تحدد واعلى من [illegible] وحده لا تحدد [illegible] سامية

[illegible] الضلال والصخور [illegible] الصباح الذكر [illegible] الحصى المنثور [illegible] تحصيره [illegible] جذره طبيعية [illegible] لاكفان البراقة [illegible] ساكنة مستسلمة [illegible] احياء فيه وها [illegible] عند غروبها [illegible] كانها تريد ان [illegible] القمر يشبه طوق الجمجمة تنسجم فيه الوان

(١) [illegible]

سطيف السحبة، ويتألق فى وسط القمر الذى يزهو بما يصدر عنه من شرر يتحول إلى الآلاف المؤلفة من النجوم والكواكب.

ها هى تلك الاعمدة المختالة تتلهى بالرمال، عند هدوء الجو، باقامتها رانية نحو القبة الزرقاء، حتى إذا ما ثارت الاعاصير بعثت بالأتربة من بطون الوديان قاذفة بها فى هجوم عنيف على الغيوم السوداء المفعمة بالبرق. وها هى ذى قوافل السحاب تشبه الحراب البيض، تطاردها الرياح حتى تبعدها عن قمم الجبال التى فوقها نشأت فتضطر إلى الهجرة دون أن تسيل عبراتها على مسقط رأسها. وها هى تلك العواصف الممطرة تنفجر شآبيبها الهطالة فتصب على الجبال العريانة انهارا من المياه، عنيفة جارية، لها دوى وبها زئير.

أمام هذه العناصر الهائلة العاتية التى لم تجرأ قط - رغم جبروتها - على عدم الخضوع، ولو شروى نقير، للقوانين التى تسير والتى فرضتها عليها القوة السامية العليا.. لشد ما بدا من محمد من ضعف الإنسانية وغرورها [illegible] اجل، وكم من سخرية فى أن تكون هذه الإنسانية [illegible] فيقدم لها السراب صورة براقة من موجات الأثير العابر ليشهدها على غرورها المطلق!

كانت الخلوة لمحمد اعظم مأرب فقد صفت قلبه من كل مشاغل هذا العالم، ولذلك اطلقت عليه الآثار صفاء الصفاء وتشربت روحه - رويدا رويدا - روح الصحراء التى لا تحد فبصرته بعظمة الله اللانهائية. وفى الصحراء اتصلت أسرار الطبيعة بأعماق نفسه، وغمرته فى قوة حتى لقد اوشكت أن تخرج من فمه تلك الحقائق الخالدة التى انتزعت من كارلايل المفكر الانجليزى المشهور صيحة الاعجاب التى يقول فيها:

حقا إن أحاديث هذا الرجل قد صدرت مباشرة عن قلب الطبيعة، ومن الطبيعى أن تجتذب أفئدة بنى البشر فيستمعوا اليها، ويجب ان يستمعوا اليها اكثر مما يستمعون إلى غيرها فكل ما عداه هباء إذا قورن بها (١)

محمد لم يؤلف القرآن:

حقا انه ليدهشنى أن يرى بعض المستشرقين: أن محمد قد انتهز فرصة الخلوة هذه فروى ورتب عمله المستحيل. بل ذهب بعضهم إلى ابعد من ذلك، فوسوس بأن محمدا الف فى تلك الفترة القرآن كله. أحقا لم يلاحظوا أن هذا الكتاب الالهى خال من اية سابقة على وجوده، مرسومة على نسق المنهج الإنسانية، وأن كل سورة منفصلة عن غيرها، خاصة بحادثة وقعت، بعد الرسالة، طيلة فترة تزيد على عشرين عاما، وانه كان من المستحيل على محمد أن يتوقع ذلك ويتنبأ به؟

ولكنهم فى جهلهم بالعقلية العربية لم يجدوا غير ذلك تعليلا لهذا التحنث الطويل.

سبحانك ربى! انهم لو اتيحت لهم الاقامة وسط البدو فى الصحراء فترة تكفى لأن يفهموا حالة التأمل التى يفنى فيها هؤلاء البدو، جاثين على قمة اكمة، تاركين نظرهم

(١) عن محمد المثل فى صورة رسول

يصل فى فضاء الله الواسع ، لعرفوا انها ليست هى حالة البلادة والبلاهه التى يصمها
محض السائحين الذين يطب عليهم طابع التسليه اكثر من طابع التفقه فى الملاحظه ؛ ولو
ابيح لهم على الاخص ان يتذوقوا بانفسهم سحر هذا الوجد الذى لا يوصف، والذى لا
يثيره حقا الا لا نهائيه الصحراء، وان يشاهدوا العوائد الروحية الرائعة التى يكتسبها
الإنسان من ذلك. لو ابيح لهم كل هذا لما وقعوا فى ذلك الضلال المبين.

ان هذا التأمل ليس الا بوتقة تنصهر فيها العواطف والافكار الناشئة لتخرج منها
صافية، انه مصنع تكتيل القوى الروحية، رغم انها خفية وأنها لا شعورية

هذه القوى الكامنة التى تتكتل بالمراقبة والتأمل . تمكث مستترة مجهوله، حتى من
هؤلاء الذين تنطوى عليها جوانحهم، ما مثلهم فى ذلك الا كمثل النار الكامنة فى اشجار
الغابات، فإذا ما اثارتها شرارة واحدة اشتعلت ملتهبة جارفه صاعدة إلى عنان السماء
فتبهر العالم.

لا شك ان محمد لم يدر بخلده أثناء تلك الفترة شيء مما يزعمه المستشرقون، ولم
يدرى فى نفسه اية خطه او منهج خفية انه فى خلوته، كان يتأمل، ولكنه لم يكن يقدرا
ولقد استمر كذلك إلى ان حان الموعد الذى حدده العناية الالهية لتتجلى عن طريق من
اختارته رسولا.

الرؤيا الصادقة:

اخذ محمد يرى الرؤيا الصادقة الوضاءة ويسمع النداء الذى لا يعلم له مصدرا
قال رسول الله: طيلة العشرة شهور التى سبقت الوحى، كان يتخلل نومى نور باهر
يشبه فلق الصبح، وكنت حينما ابتعد عن الديار اسمع اصوات تنادى: يا محمدا يا محمدا
فكنت انظر يمنه ويسرة ومن خلفى فلا أرى شجيرات وصخوراً، فاحدس القلق والحيرة
انني قد ابعصت شيئاً بغضى للكهان والسحرة، وقد خشيت ان اكون قد اصبحت - على
غير علم مني - واحداً منهم، فيكون الذى يناديني - خفياً مستوراً - تابعا من الجن الذين
يتحدثون إلى السحرة الكهان بخبر السماء، فيساعدونهم بذلك على القيام بمهمتهم
الاثمه.

الوحى (سنة ٦١١ م) :

يقع غار حراء فى جانب من جبل النور، ذلك الجبل الذى يقع على بعد ثلاثة أميال
تقريبا من مكة شمال طريق عرفة وقد اختار محمد هذا الغار الذى هيأته الطبيعة داخل
حجر الصوان الاحمر، ليتحنث فيه شهراً كل عام مراعيا، ليلاً ونهاراً، الخلوة التامة
وكان يحمل معه الزاد المكون فى جوهره من الكعك، وذلك لئلا يضطر إلى العودة لمكة
فإذا انفق وفرغ زاده فانه يضطر إلى العوده للبحث عن غيره، ثم يسرع فى الرجوع الى الغار،
اذ ان كل انقطاع عن التأمل العميق فى فترة التحنث هذه كان بالنسبة له عذابا اليما

(١) يقول الله تعالى فى الزجر عن ذلك فى نهاية سورة الشعراء فى الآية رقم (٢٢١) « هل أنبئكم على من تنزل الشياطين (٢٢١) تنزل على كل أفاك أثيم (٢٢٢) يلقون السمع وأكثرهم كاذبون ».

وبلغ محمد صلى الله عليه وسلم الأربعين من حياته الكريمة وكان خلال الخمس عشرة سنة الأخيرة يتحرى فى عبادته[١] حائراً قلقاً، استخلاص الدين الحنيف، دين التوحيد، دين جده إبراهيم، من بين الأباطيل التى أدخلها عليه مواطنوه.

وهنالك، فى غار حراء، فى اليوم الخامس والعشرين، أو السابع والعشرين، أو التاسع والعشرين من شهر رمضان (١٥-١٧-١٩- يناير سنة ٦١١ م) ، حدثت الحادثة الخالدة، إذ تجلت رأفة الرحمن بعباده فأنزل إليهم الوحي عن طريق الرسول، صلوات الله عليه وسلامه

قال الرسول : اتاني جبريل فى غار حراء وأنا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب، فقال: اقرأ فقلت: ما اقرأ. فغتني به[٢] حتى ظننت أنه الموت ، ثم أرسلني، فقال: اقرأ، قلت: ما اقرأ. فغتني حتى ظننت أنه الموت . ثم ارسلني، فقال: اقرأ، فقلت: ماذا اقرأ ؟ ما اقول ذلك إلا افتداء منه أن يعود لي بمثل ما صنع لي . فقال : (اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الاكرم الذي علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم ..) فقرأتها ، ثم انتهى فانصرف عني، وهببت من نومي فكأنما كتبت فى قلبي كتاباً، فخرجت حتى إذا كنت فى وسط الجبل سمعت صوتا من السماء يقول: يا محمد، أنت رسول الله وأنا جبريل .فوقفت انظر اليه فما اتقدم وما اتأخر، وجعلت اصرف وجهي عنه في آفاق السماء، فلا انظر فى ناحية منها إلا رأيته .ثم قال ثانية : يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل . وانصرف، فانصرفت راجعا إلى اهلي ..

ولم يكد الرسول يخطو داره حتى هرع إلى خديجة يضع رأسه فى حجرها وقال- وقد أخذته رعدة المحموم- : دثروني ، دثروني . فأسرع خدم اليه ويدثرونه حتى هدأ روعه . وسألته خديجة، وقد تملكها فزع عظيم :

يا أبا القاسم حدثني بالله، أين كنت، وماذا حدث لك ؟ لقد بعثت رسلي فى طلبك حتى بلغوا حراء ووصلوا إلى ضواحي مكة، ورجعوا إلى دون أن يلقوك

فحدثها بالذى رأى، ثم قال : خشيت والله من شدته ان أموت. فقالت خديجة، وقد رجع إليها إطمئنانها:

والله لا يحزنك الله ابدا، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدم، وتعين على نوائب الدهر .أبشر يابن عمي واثبت، فوالذى نفس خديجة بيده إني لأرجو ان تكون

(١) ويرى [illegible] كان محمد صلى الله عليه وسلم [illegible] [illegible] وقيل محمد صلى الله عليه وسلم كان بالذكر .. كان يتعبد قبل نبوته بشرع ابراهيم، وقيل بشريعة [illegible] غير ما صح نسخه، وهي شرعنا، وقيل بكل ما صح انه شريعة من قبله غير ما صح فى ذلك فى شرعنا [illegible] ، مطبعية، ج٤، ص ٢٢٧) ، ونميل للقرآن فى عمومه [illegible] إلى أنه صلى الله عليه وسلم كان على دين [illegible] قوله تعالى
إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا [illegible] الاتباع فى صيغة الماضي وعطفه على المتبعين اهتمام به وتخصيص له وبيان لقدره صلى الله عليه [illegible]

(٢) فغطني أو فغتني، بالتاء ونقل الثاء ، فحبسني بغطاء الغطا [illegible] عن نفسه وخنقه

نبي هذه الأمة .

فمنذ أن أبدت ميسرة العجيب لخديجة ملاحظاتها الشخصية بالنسبة لمحمد، وخديجة مقتنعة بأن مصيراً سامياً قد قدر له، ولذلك لم تدهش ما علمت من أمر الوحي بيد أنها أرادت أن ترى الأمر في وضوح فتهيأت للخروج وانطلقت مسرعة إلى ابن عمها ورقة بن نوفل، والقت إليه الخبر كما سمعته .

كان ورقة بن نوفل من هؤلاء الذين اعتنقوا النصرانية، وكان أعلم رجال مكة بالنصوص المقدسة . لقد عاش، مثلما عاش رهبان الشام، في انتظار الرسول العربي، فما أن سمع الخبر الذي ألقته إليه خديجة حتى انحدرت عبراته من الفرح وصاح : قدوس قدوس والذي نفس ورقة بيده لئن كنت صدقتني يا خديجة لقد جاءه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى وإنه لنبي هذه الأمة فقولي له فليثبت

وبينما الرسول يطوف بالكعبة- وقد كانت تلك عادته عقب كل فترة من فترات التحنث- إذ سارع إليه ورقة، رغم شيخوخته وضعفه، ورغم ما سببته له كثرة اطلاعه من كف البصر، وطلب منه أن يقص عليه قصته بنفسه

وقص الرسول عليه ما حدث وتبين ورقة صحة كلامه، فعاد على سمعه النبوءات التي أخبر بها خديجة من قبل وأضاف : يا ليتني حيا حين يخرجك قومك.

قال : أو مخرجي هم ؟

- نعم، لم يأت رجل بما أتيت به إلا عودي ولئن أدركني يومك لأنصرنك نصرا مؤزرا .

ولكن الموت لم يمهل ورقة حتى تتحقق أمنيته

نزل الوحي كجذوة وهاجة بددت من نفس محمد كل شك، وأشعلت فيها تلك الآمال اللاشعورية، وتلك القوى الكامنة التي كدستها في نفسه خمس عشرة سنة انقضت في التأمل والتحنث . لقد فتح الوحي عينيه على آفاق شاسعة، وبصره على ما يجب أن يقوم به من نحو تلك الرسالة من جهود جبارة خطرة .

لم يدر بخلد محمد يوما ما أنه سيحمل هذا العبء الهائل، ولئن كان بعض الرهبان قد تنبأ له بشيء منه، فإنه لم يعر تنبؤاتهم أي اهتمام، بل لقد سببت له اضطرابه وخوفه، حين فوجئ بالوحي، من أن يكون فريسة لتخيلات شيطانية، ليؤكدان له صحة ما يعرف

وهذا محمد الذي كان ينفر من الاختلاط حتى بجنسه، والذي كان يأبى أن ينصبه من منصب لوظائف العامة، والذي كان مواطنوه على استعداد لأن يمنحوه إياه، وقد أصبح منذ تبشير الوحي مستعدا لأن يواجه الحياة الصاخبة الحارقة، وقد امتلأ قلبه إيماناً برسالة وشعر بأنه إنسان . ولقد تأهب، في غير ما خوف أو إشفاق من تلك الامتحانات للقيام بالرسالة، بل تأهب للقيام بأعظم المهام التي لا مفر من أن يبتلى بها أمثاله من الهداة المرسلين

في تلك الليلة الخالدة، ليلة القدر، نزل القرآن كله من السماء العليا حيث كان محفوظاً إلى السماء الدنيا، والتي تنتشر مباشرة فوق الكرة الأرضية . وفي هذه السماء الدنيا وضع القرآن في بيت العزة، ذلك البيت الذي على سمت بيت الله الكعبة المقدسة .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ (٢) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ (٣) تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ (٤) سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ (٥) ﴾ [القدر ١ - ٥]

من هذه السماء الدنيا نزلت أولى الآيات الكريمة على محمد، كما نزلت التعاليم العامة للدين الإسلامي، وتوالى الوحي طيلة ثلاث وعشرين سنة، مرشدا وهاديا، وموجها للرسول في كل أعماله، توالى الوحي مثبتاً لقواعد الدين، ومبينا لقوانينه، وموضحا طريق انتصار الإسلام.

وإلى قصة الوحي هذه التي يرويها مؤرخو العرب، نضيف البيان الآتي الذي نحسبه مفيدا لقرائنا من الأوربيين:

إن الملك جبريل الذي رآه الرسول محمد صلى الله عليه وسلم في غار حراء إنما هو الملك جبريل الذي ظهر للنبي دنيال ولمريم أم عيسى عليه السلام، ولكنه عند المسلمين المتبعين للإسلام حقا لا يمت بصلة من شبه إلى الملاك الذي تصوره لنا رسوم الكنيسة الأوربية في شكل غلام بأجنحة مختلف ألوانها، ذي خدود وردية، وشعر ذهبي متموج. إن جبريل في نظر المسلمين هو الروح والناموس، وقد كان يأتي إلى الرسول في صور متعددة فأحياناً يأتيه في مثل صلصلة الجرس أو طنين النحل- وذلك أشد طرق الوحي على نفس الرسول فينفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقا، حتى في اليوم الشديد البرد ثم يهدأ روعه وقد زوعه وقد وعى ما أوحي إليه، وأحياناً يتمثل له في صورة رجل يشبه كل الشبه دحية الكلبي، أحد الصحابة فيكلمه فيعي عنه ما يقول .

أما الوحي - وهذا الملك هو الوسيط الرمزي له- فإنما هو التجلي الالهي، ويجب أن نعتبره أسمى درجة تصل إليها تلك القوة الخفية التي نسميها بالإلهام، وهي بالبداهة خارجة عن محيط الفرد، لأنها مستقلة عن إرادته تمام الاستقلال.

المسلمون الأول:

كانت الصلاة- والطهارة شرط يتقدمها- أول واجب تلقنه النبي من هو رسول السماء .

وحينما دعا إلى مهبط الوحي، ظهر له جبريل من جديد في صورة رجل، فقال :

يا محمد إن الله تعالى أمرني أن أقرأ عليك منه السلام، ويقول لك، أنت رسول الله إلى الجن والإنس، فادعهم إلى قول : لا إله إلا الله .

ثم أخذه في ناحية الوادي، حيث ضرب برجله الأرض فتفجرت عين من الماء، فتوضأ جبريل ورسول الله صلى الله عليه وسلم ينظر، ليريه كيف الطهور الذي يتقدم الصلاة، ثم قام جبريل فصلى بالنبي صلى الله عليه وسلم ركعتين، وكان النبي يقتدي

به في حركاته، من ركوع وسجود، وفيما يقوله أثناء ذلك .

شعر محمد براحة ونشاط عظيمين. شعر براحة في جسمه من اثر الطهور، وشعر براحة في نفسه من اثر الصلاة، فعاد - يملأ الإيمان عليه جميع أقطاره - إلى زوجه، فظهر له جبريل وقال له: اقرأ على خديجة السلام من ربها .

قال رسول الله صلى الله عليه: يا خديجة ،هذا جبريل يقرأ عليك السلام ،فقالت خديجة : الله السلام، ومنه السلام، وعلى جبريل السلام.

وهكذا كانت خديجة أول من أسلم من بني البشر، فقادها الرسول إلي النبع الذي تفجر تحت قدم جبريل متوضأ لها ليريها كيف الطهور للصلاة كما أراه جبريل، فتوضأت كما توضأ لها رسول الله عليه الصلاة والسلام، ثم صلى بها رسول الله كما صلى به جبريل فصلت بصلاته .

وكانت خديجة ، فخفف الله بذلك عن نبيه صلى الله عليه وسلم، فكان لا يسمع شيئا مما يكرهه، من رد عليه وتكذيب له، فيحزنه ذلك، الا فرج الله عنه بها إذا رجع إليها، تخفف عنه وتصدقه وتهون عليه أمر الناس .

كانت تضحية خديجة تلك السيدة المثالية ، توحي إلي محمد باحتقار لا حد له لخبث الناس وشرورهم، وكان إيمانها الذي لا تزعزعه الأعاصير يقوي في نفسه الثقة حينما كان المشركون يصدمونه بأنه متقول على الله.

وكان أول من آمن برسالته من الرجال علي بن ابي طالب ، وكان يومئذ ابن عشر سنين ،كان الرسول قد كفله في عام من اعوام القحط ليخفف عن عمه ابي طالب الذي كان كثير العيال .

وحينما رأى علي محمدا وخديجة منتحيين جانبا، ومستغرقين في الصلاة تملكته دهشة عظيمة، ذلك انه لا يرى بجيئه ما يجدانه، وسأل الرسول: ماذا كنتما تؤديان من الشعائر آنفا؟.

فأجاب الرسول: كنا نقيم صلاة الدين القويم، الذي اصطفاه الله واختارني له مبلغا ورسولا، وإني ادعوك اليه يا علي، أدعوك إلي عبادة الله الواحد، الذي لا شريك له، وأدعوك إلي نبذ الأصنام من أمثال اللات والعزى التي لا تملك ضرا ولا نفعا ، ثم تلا الرسول:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ (١)

﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴾ (٢)

﴿ إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ﴾ (٣)

(١) سورة الإخلاص (٢) نهاية سورة الحشر (٣) يس ٨٢

﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ (١)

﴿ لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير ﴾ (٢)

﴿ وأنه هو أضحك وأبكى ۝ وأنه هو أمات وأحيا ﴾ (٣)

﴿ يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ويحيي الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون ﴾ (٤)

﴿ ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله إن الله واسع عليم ﴾ (٥)

﴿ وإليه يرجع الأمر كله ﴾ (٦)

﴿ ذلكم الله ربكم له الملك والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير ﴾ (٧)

[illegible] علي [illegible] به [illegible] مرا حتى حدث ابا طالب وكره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يفشي سره قبل أن يجهر بالدعوة فقال: لا [illegible]

فمضى علي ليلة مضطربة يفكر في الأمر، ولكن الله مبارك وتعالى هداه للإسلام، فأصبح غاديا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلم مطمئنا مغتبطا.

ومنذ ذلك اليوم [illegible] الرسول- إذا حان موعد الصلاة - إلى شعاب مكة يؤدي فرائضه، مستخفيا من [illegible] ومن جميع أعمامه، فيصليان [illegible]

[illegible] أبو طالب عثر عليهما مرة يوما يصليان بنخلة، فقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: يا ابن أخي، ما هذا الذي أراك تدين به ؟ فقال: [illegible] دين الله، ودين ملائكته ورسله، ودين [illegible] إبراهيم بعثني الله به رسولا إلى [illegible] وأنت أحق من بذلت له نصيحته ودعوته إلى الهدى، وأحق من أجابني إلى الله، وأعانني عليه [illegible] أبو طالب: إني لا أستطيع [illegible] فراق دين آبائي وما كانوا عليه، ومع ذلك فإني [illegible] ما بقيت ما يحصنني [illegible] ما يدعو إليه، والله لا يصل إليك أحد بشيء تكرهه [illegible] [illegible] أما إنه لم يدعك إلا إلى خير فالزمه

وسلم بعد ذلك زيد بن حارثة وهو رقيق كان قد أعتقه رسول الله صلى الله عليه وسلم وتبناه وكان يحب الرسول إلى درجة أنه رفض العودة إلى أبيه، حينما جاء [illegible] في طلب ليفديه

بعد ذلك أعلن الإسلام شخصية من كبار الشخصيات المرموقة في مكة، [illegible] به [illegible] الذي أطلق عليه فيما بعد اسم : أبي بكر .

(١) البقرة ٢٥٥ (٢) الأنعام ١٠٣
(٣) النجم ٤٣ ، ٤٤ (٤) الروم ١٩
(٥) البقرة ١١٥ (٦) هود ١٢٣
(٧) فاطر ١٣

كان أبو بكر (١) مع حكيم بن حزام يوماً، إذ جاءت جارية لحكيم وقالت له: إن عمتك خديجة تزعم في هذا اليوم أن زوجها نبي مرسل مثل موسى.

سمع أبو بكر ذلك، وكان يؤمن بصدق محمد وخلاله، وكان قد سمع ورقة من قبل يتحدث عن الرسول صلى الله عليه وسلم ونبوءاته له، فأسرع نحوه، عاطفة قوية – حتى أتى الرسول، وسأله عن حقيقة الخبر، فقص عليه قصته مع مجيء الوحي له بالرسالة فوجد المصطفى من نفس أبي بكر كل مأخذ، فصاح قائلاً: صدقت، بأبي أنت وأمي، وأهل الصدق أنت، أنا أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله.

ولما سمعت خديجة، وكانت في غرفة مجاورة، ما قاله أبو بكر، خرجت وعليها خمار أحمر، فقالت: الحمد لله الذي هداك يا ابن أبي قحافة.

أشاع إسلام أبي بكر في نفس الرسول سروراً عجيباً. وكان أبو بكر صدراً معظماً في قريش على سعة من المال وحسن الوجه، وصاحب منظر أنيق، وكان أنسب قريش لقريش (٢) وأعلم قريش بها وبما كان فيها من خير وشر، وكان من أعلم الناس بتعبير الرؤيا، صادقاً في حديثه، حسن المجالسة وقد اختاره قومه قاضياً في المغارم والديات وحكماً في المفاخرات.

في إيمان حار، أخذ أبو بكر يدعو إلى الله وإلى الإسلام من وثق به من قومه، ويكرس جهده في نشر الإسلام، ويقود أصدقاءه إلى الرسول ليعلمهم الإسلام. وكان النجاح حليف أبي بكر، وكانت ثقة الناس به ترغبهم في أن يتقبلوا – بقبول حسن – ما يدعو إليه، وكان مظهر الدين الجديد، في بساطته وفي عظمته، وفي انسجامه مع ما تتطلع إليه الفطر السليمة، يجعلهم يشعرون بنفور شديد من عبادة الأصنام التي عاشوا عليها طيلة ماضيهم. ومع كل هذا الدين الجديد إنما هو دين جدهم إبراهيم الذي يحملون أثره – بطريقة لا شعورية – في قلوبهم. وكان من السهل عليهم لذلك أن يدينوا به من جديد. (٣)

وكانت لهجة الداعي إليه، تلك اللهجة التي تسمو فوق حدود الإنسانية، وكانت نظرته التي يشع منها الضياء، تخرجهم من الظلمات إلى النور، فيسرعون إلى اعتناق الإسلام بين يديه.

تشرف بالإسلام بهذه الطريقة خمسة عشر رجلاً من أشراف قريش منهم عثمان ابن عفان، و عبد الرحمن بن عوف، و سعد بن أبي وقاص، و الزبير بن العوام، و طلحة بن عبيد الله، و عبيدة بن الحارث، و جعفر بن عبد المطلب.

بجانب إيمان هؤلاء و إسلامهم – الذي كانت له أهمية كبيرة بسبب مركزهم

(١) ذكره القرآن حين قوله تعالى في سورة التوبة "إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا" وفي سورة النور "ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولي القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم" (٢) [illegible] بأنسابهم

(٢) في ذلك يقول الله تعالى في سورة الروم في الآية رقم (٣٠) "فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرت الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون"

الاجتماعي – يجب أن لا ننسى حالة متواضعة مؤثرة، تلك هي حالة حليمة مرضعة الرسول، فبمجرد أن سمعت الناس يتحدثون عن دعوة ابنها من الرضاع – وكانت تؤمن بأن لابنها هذا شأناً – بادرت بسرعة، يرافقها زوجها، لينخرطا في سلك المؤمنين، ومن قبل أسلم كل من يعيش مع الرسول تحت سقف واحد، ومن يدلهم بدالته، وكان في من الحاضنة، وجاريته أم أيمن.

هذه المجموعة الصغيرة من المؤمنين كانت تحيا حياة مليئة بالانفعالات والعواطف حقاً ما أجمل اجتماعهم في عبادة الله مستخفين عن أعين الناس. لقد كانوا يأخذون حذرهم حتى لا يثيروا انتباه المشركين. لقد كان الرسول حتى في منزله نفسه مضطراً للتستر من جيرانه، وحينما كان يعلن التكبير يضع فمه فوق آنية مغروسة في الأرض ليخفض من رنين صوته.

الجهر بالدعوة

في هذه الظروف لا يمكن للدعوة الإسلامية أن تنتشر إلا سراً، وبين الأصدقاء، ولهذا كان تقدم الإسلام في خطواته الأولى تقدماً بطيئاً. ومع ذلك فعلى أثناء ذلك انقطع الوحي، فترة وشعر محمد بأنه لم يعد مخصصاً بإلهام الله بعد، فشق ذلك عليه وأحزنه.

وبينما كان يسير حائراً مطرقاً، وحيداً، في شعب مكة، إذ سمع نداء سماوياً جعله يرفع بصره إلى أعلى، فيرى – في هالة من النور – الملك الذي ظهر له في غار حراء. ولم يسعه أن يحتمل معه بريقه الذي يذهب بالأبصار، فأسرع إلى بيته وطلب أن يلفوه بعباءته حتى يذهب عنه حمى الرعشة وعن عينيه الإعشاء وحينئذ نزلت الآيات الإلهية

بسم الله الرحمن الرحيم

"يا أيها المدثر (–) قم فأنذر (١)"

"وأنذر عشيرتك الأقربين (٢١٤) واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين (٢١٥) فإن عصوك فقل إني بريء مما تعملون (٢١٦) وتوكل على العزيز الرحيم" (٢)

قام الرسول، وفي عينيه بريق النشاط الرائع. إنه إلى ذلك اليوم لم يجرؤ على الجهر برسالته، لما كان يتوقعه من حقد مستثير في نفوس مواطنيه المشركين. ولكنه تلقى من ربه الأعلى الأمر بالجهر، وكان هذا عن أصدقائه [illegible] ترك الانكماش لدى علمه صدق به [illegible] بعضهم مدعوة لا لبس فيها ولا [illegible]، فأمر عليا أن يعد مأدبة يدعو إليها بني عبد المطلب، فصنع طعاماً مكوناً من فخذ شاة ومد (٣)

(١) المدثر ١ – ٢.

(٢) [illegible]

(٣) [illegible] عبد الحميد جودة السحار [illegible]

من بر، وصاع(1) من لبن.

وجاء بنو المطلب، وكانت عدتهم أربعين، من بينهم أبو طالب وحمزة والعباس وأبو لهب.

فقدم لهم الجفنة وقال: كلوا باسم الله. فأكلوا كلهم من الجفنة حتى شبعوا وشربوا كلهم من الصاع حتى نهلوا، مع أن الواحد منهم يأكل الشاة بأكملها، ويشرب وحده جرة من لبن، ولكن الجفنة على صغرها أشبعتهم، واللبن على قلته رواهم، فأخذهم من العجب من ذلك ما أخذهم.

فلما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتكلم، كان أبو لهب قد فطن إلى ما يدور بخلد ابن أخيه من آراء، وكان لا يقرها، فبدره بالكلام وقال: ما رأينا سحرا كسحر اليوم، فبادروا بالانصراف، وكان لكلام أبي لهب صدى في نفوسهم بعد ما رأوا من تلك الجفنة الصغيرة التي أشبعت أربعين رجلا ... وتفرقوا.

حزن الرسول لموقف أبي لهب منه، ذلك الموقف الذي خلا من كل مجاملة فقال لعلي: رأيت ما وصلت إليه غلاظة عمي الذي حال بيني وبين تبليغ الرسالة؟ ومع ذلك فالفرصة لم تفت. اصنع لنا مثل ما صنعت من طعام والشراب، وادع نفس القوم.

وفي الغد، حينما تكامل القوم، بادر الرسول بالحديث قائلا: ما أعلم إنسانا في العرب جاء قومه بأفضل مما جئتكم به، قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة، وقد أمرني ربي أن أدعوكم إليه، فأيكم يجيبني إلى هذا الأمر ويؤازرني عليه، فيكون وصيي ووزيري ويكون أخي؟.

ولم تكن الدعوة – على هذا الوجه – متوقعة، فأخذ المدعوون ينظر بعضهم إلى بعض في دهشة عقدت ألسنتهم، ولكن كراهية شديدة كانت ترتسم على وجوههم وتقوم مقام الإجابة.

أما علي فقد كان يتوقع منهم فرحا غامرا يسودهم بمجرد سماعهم للنبأ العظيم وكان يتوقع منافسة حارة في التشرف في الانضواء تحت لواء هذه الدعوة فلما رأى ما رأى لم يمكنه كظم غيظه فاندفع واقفا –ناسيا ما تفرضه عليه التقاليد لصغر سنه بين هؤلاء الأشراف– وصاح وقد ملأه الحماس: أنا يا رسول الله وزيرك.

ولم يبتسم الرسول لهذه الآمال التي فاه بها هذا الغلام، وإنما وضع يده على كتفه في حنان، وأعلن: ها هو ذا وصيي ووزيري، ها هو ذا أخي.

وحينئذ، لم يعد لدهشة المدعوين حد تقف عنده، بيد أنهم كتموا غيظهم، واستقبلوا هذا الإعلان بعاصفة من الضحك، وصاح أبو لهب بأبي طالب ساخرا: أسمعت ما قال ابن أخيك؟ إنه يأمرك بأن تسمع لابنك وتطيع.. وخرج الجميع ساخرين حانقين، عدا أبا طالب فقد خرج يملأ الحزن جوانحه.

(1) أو الصاع، أربعة أمداد.

لا شك أن هذه تجربة قاسية ألمت بالرسول، ولكنها لم تثبط –لا، ولا قلامة ظفر– من عزيمته إذ أن الوحي من يومئذ لم يفتر عن تعضيده وإرشاده.

القيامة

بدأ محمد يبشر برسالته، وأخذ الوحي يتتابع في سرعة ويلبس أسلوبا رهيبا مخيفا قرب سماعه، حديثا يحدث عن القيامة ويدعو إليها:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿القارعة(1) (1) ما القارعة (2) وما أدراك ما القارعة (3) يوم يكون الناس كالفراش المبثوث (4) وتكون الجبال كالعهن المنفوش﴾(2)

ما موعد هذه القارعة التي سيجزى فيها المسيء على إساءته؟ لقد كان محمد يعتقد أنه وشيك الوقوع، ولذلك ضاعف من نصائحه ووعظه لمواطنيه لينقذهم –قبل قيام الساعة– من الظلمات إلى النور ولكنهم كانوا يجيبونه: «لا تأتينا الساعة»(3).

ويأمر الله على محمد:

«إن الساعة لآتية لا ريب فيها»(4)

﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم﴾(5)

﴿إذا زلزلت الأرض زلزالها (1) وأخرجت الأرض أثقالها (2) وقال الإنسان ما لها (3) يومئذ تحدث أخبارها (4) بأن ربك أوحى لها (5) يومئذ يصدر الناس أشتاتا ليروا أعمالهم (6) فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره (7) ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره (8)﴾(6)

هذه الأنباء المفزعة التي كان يعلنها الرسول –في يقين جازم– كانت تبعث في قلوب الكفار قلقا واضطرابا لكنهم لم يروا أنها قد تحققت، ولما لم يجدوا علامات تدل على

(1) القارعة: [illegible] القيامة التي تقرع القلوب بأهوالها [illegible] القارعة [illegible] يشبهها [illegible] الفراش المبثوث غوغاء الجراد المنتشر، العهن المنفوش: الصوف المنفوش.

(2) القارعة [illegible] (3) سبأ ٣

(4) غافر ٥٩ (5) سورة الحج ١

(6) سورة الزلزلة

قرب وقوعها، أخلدوا إلى ما كانوا فيه من ضلال(١)

وكان الرسول يجهل موعد قيام الساعة إذ: «علمها عند الله»(٢)

ولكنه كان على يقين من عذاب مالهم منه من محيص في هذا العالم، أو في العالم الآخر.

«وإن ما نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب».(٣)

وكان الرسول يضيق ذرعا عندما يتخيل أن مصير مواطنيه من الكفار، ربما كان أسوأ عاقبة من عاد وثمود.

المناوشات الأولى:

أصبح المؤمنون – منذ أن جاهر الرسول بالدعوة – لا يخفون إيمانهم، ولكنهم – ليتجنبوا الاحتكاك الذى لا فائدة فيه بالمشركين – كانوا يذهبون إلى شعاب مكة المقفرة سرا ليؤدوا صلاتهم.

وحدث يوما: أن تجسس عليهم جماعة من المشركين، وعرفوا مكان اجتماعهم، فأخذوا يكيلون لهم السباب والشتائم، ولم يصبر المسلمون على إهانة دينهم، فغضبوا له، وثار القتال بين الفريقين، فأخذ سعد بن أبي وقاص لحى جمل كان ملقى في الصحراء، ورمى به في وجه أحد المشركين بقوة وشدة فسال دمه، وكان هذا أول دم أهرق في الإسلام.

وأراد الرسول أن يتفادى مثل هذه الحوادث، فقرر أن يتخذ من بيت الأرقم مصلى – وكان بيت الأرقم يقع على رأس الصفا، ومع ذلك فقد كان الغيظ يملأ قلوب المشركين، لقد كانوا فيما مضى يعدون [illegible] استهتارا أو سخرية، حينما كان محمد يقتصر على دعوته إلى الإسلام، حتى ولو كان يستعمل معهم [illegible] والتهديد بعذاب من السماء ينزل بهم، ولكنه حينما [illegible] بدوره، يهزأ بأصنامهم التى صنعت من خشب أو من حجر، والتي لا تسمع ولا تبصر ولا تنطق ولا تغني عن أحد شيئا، بلغ بهم الغضب منتهاه، ذلك أن محمدا – بفعله هذا – لم يكن يجرحهم في معتقداتهم فحسب، وإنما كان يؤذيهم في مصالحهم المادية أيضا، خطيرا، إذ أن تلك الأصنام كانت في يد الأشراف مصدر ربح عظيم، وكانت أداة فعالة في السيطرة على الشعب الجاهل.

وكان أبو طالب، من بين القوم الذين مكثوا على إشراكهم، هو الوحيد الذى بقي على حبه لمحمد، رغم سخرية القرشيين الآخرين. ولما رأوا منه ذلك بعثوا إليه بوفد من أكبر الأشراف، بينهم عتبة بن ربيعة، وأبو سفيان بن حرب، وأبو جهل، وكثير

(١) يصور ذلك قوله تعالى في أول سورة البقرة [illegible] عن الكفر وإعراضهم التام عن الآيات [illegible] قوله تعالى في [illegible] سورة الكهف [illegible] وجعلنا قلوبهم في أكنة......

(٢) الأعراف ١٨٧

(٣) الرعد ٤٠

ممن لا يقلون عنهم مكانة. فقالوا لأبي طالب:

يا أبا طالب، إن ابن أخيك قد سب آلهتنا، وعاب ديننا، وسفه أحلامنا وضلل آباءنا فإما تكفه عنا وإما تخلى بيننا وبينه، وإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه، فنكفيكه

فقال لهم أبو طالب قولا رقيقا، وردهم ردا جميلا، فانصرفوا عنه.

ولم يفتر نشاط محمد في الدعوة إلى الإسلام، ولكن عداوة القرشيين ازدادت، واتخذت وجها أخطر وأعظم، فرجع الوفد إلى أبي طالب ليقولوا له: يا أبا طالب إن لك سنا وشرفا ومنزلة فينا، وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا، وإنا والله، لا نصبر على هذا: من شتم آبائنا، وتسفيه أحلامنا، وعيب آلهتنا، حتى تكفه عنا، أو ننازله وإياك، حتى يهلك أحد الفريقين. فعظم عليه فراق قومه، ولم يطب نفسا بإسلام رسول الله، صلى الله عليه وسلم، لهم ولا خذلانه.

وبعث أبو طالب، وهو في حالته النفسية هذه، إلى رسول الله يستدعيه، فلما حضر قص عليه رسالة قريش، ثم قال:

تدبر الأمر، وأبق عليّ وعلى نفسك، ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق.

فأجابه الرسول: يا عم، والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري، على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه، ما تركته.

وظن أن أبا طالب يريد أن يظهره على ما هو فيه من استحالة مناصرته، ووجوب تركه، فاستعبر باكيا ثم قام، فلما ولى، ثارت عواطف أبي طالب، ونادى محمدا، وقال له في حنان: اذهب يابن أخي فقل ما أحببت، فوالله لا أسلمك لمكروه أبدا.

ورأت قريش أن التهديد لا ينال من حب أبي طالب لابن أخيه، فوفدوا إليه وفدهم مرة أخرى ومعه عمارة بن الوليد، وقالوا له:

يا أبا طالب، هذا عمارة بن الوليد: أنهد فتى في قريش وأجمله، فخذه فلك عقله، ونصره، واتخذه ولدا، فهو لك، وأسلم إلينا ابن أخيك، هذا الذى خالف دينك ودين آبائك، وفرق جماعة قومك، وسفه أحلامهم فنقتله، فإنما هو رجل برجل.

فأجابهم أبو طالب قائلا:

والله لبئس ما تسومونني! أتعطونني ابنكم أغذوه لكم، وأعطيكم ابني تقتلوه؟! هذا والله مما لا يكون أبدا.

انصرف الوفد والغيظ يملأ قلوبهم. واقترب موسم الحج، فاجتمع مشركو قريش في دار الوليد بن المغيرة ليتشاوروا في أمر النبي، فقال الوليد:

يا معشر قريش، إنه قد حضر هذا الموسم، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا، فأجمعوا فيه رأيا واحدا، ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضا، قالوا:

– فأنت يا أبا عبد الشمس، فقل، وأقم لنا رأيا نقل به.

- بل أنتم فقولوا أسمع
- نقول: كاهن
- لا، والله، ما هو بكاهن، لقد رأينا الكهان فما هو بزمزمة(١) الكاهن، ولا سجعه.
- فنقول: مجنون.
- ما هو بمجنون. لقد رأينا الجنون وعرفناه فما هو بخنقه، ولا تخالجه ولا وسوسته.
- فنقول: شاعر.
- ما هو بشاعر، لقد عرفنا جميع أنواع الشعر فما هو بالشعر.
- فنقول: ساحر.
- ما هو بساحر لقد رأينا السحار فما هو بنفثهم ولا عقدهم.(٢)

واعترف المشركون في دخيلة نفوسهم بصحة تلك الملاحظات، فكلهم قد أحسوا - في قليل أو كثير - أن قد غزا قلوبهم ذلك الكلام العجيب الصادر من أعماق قلب الرسول، وكلهم كثيرا ما كانوا على وشك الخضوع لتلك الأنغام الآخاذة التي ألهمه إياها السماء، ولم يمنعهم عن الإسلام إلا قوة حبهم لأعراض الدنيا، وعلائقهم وميولهم التي حاربها الدين الجديد حربا شعواء.

غير أنه كان يتحتم عليهم أن يتخذوا قرارا سريعا ليمنعوا - بأي ثمن كان - العرب من الإيمان به. فاتفقوا على أن يدعوا أن محمدا ساحر، جاء بقول هو سحر يفرق بين المرء وأبيه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجه، وبين المرء وعشيرته.

ولما بدأت وفود الحاج تأتي من كل فج عميق، اعترض نفر من الوليد وأعوانه في الطريق المؤدية إلى مكة، ولم يمر بهم أحد إلا حذروه من محمد وسحره. بيد أن الذين تأثروا بتلك التحذيرات، وتخوفوا من السحر العظيم، كانوا قلة بالنسبة للذين أحسوا برغبة قوية في التعرف على هذا الرجل العجيب الذي أقض كلامه مضاجع أشراف مكة. لذا لم يكادوا يرجعون إلى بلادهم حتى جعلوا يقصون ما سمعوا وما شهدوا. ولما رأى القرشيون أنهم بحملتهم هذه قد أذاعوا أمره بين أرجاء الجزيرة، فذاعت شهرته ويتحدث الناس له، اشتعلت جذوة غضبهم، وأخذوا يتحينون كل فرصة لإيذائه. وتجمعوا يوما في حرم الكعبة، واستحث بعضهم بعضا قائلين: لم نصبر أبدا على أحد مثل صبرنا على هذا الرجل.

وفي هذه الآونة أقبل محمد يطوف بالكعبة، فوثبوا عليه وثبة رجل واحد، وأحاطوا به يقولون: أنت الذي تقول كذا وكذا في آلهتنا وآبائنا؟ فأجاب بكل هدوء ورزانة: نعم أنا الذي أقول هذا؟ فرمى عليه واحد بمجمع ردائه محاولا أن يخنقه خنقا، فقام أبو بكر رضي الله عنه دونه وهو يبكي ويقول: أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله. وانتشل

(١) الزمزمة: الكلام الخفي الذي لا يسمع.

(٢) إشارة إلى ما كان يفعل الساحر إذ يعقد خيطا ثم ينفث فيه.

محمدا من يد الرجل. بيد أنه أوذي هو الآخر وتساقط بعض لحيته.

ولم يمتنع الرسول - رغم الخطر الذي هدده في تلك الحادثة - عن العودة إلى الكعبة للصلاة غير مبال بالنظرات الحانقة التي أخذ أعداؤه يرمونه بها. وذهب رجل - بأمر أبي جهل - يبحث عن أمعاء شاة، فأتى بأمعاء دابة مضى على ذبحها أيام كثيرة، ثم رقب الرسول حتى سجد في صلاته، وإذ ذاك رمى بما في يده على عنقه وأكتافه، فاستغرق القوم ضاحكين، حتى انقلبوا على قفاهم تتخبط أجسامهم. أما رسول الله فلم يظهر عليه أي أثر لتلك الإهانة الشنيعة وظل يزاول عبادته، ولم يخلصه من تلك القاذورات إلا ابنته فاطمة التي أقبلت بعد ذلك بقليل، وجعلت تسب هؤلاء الطغاة الذين لا يردعهم أي وازع من شرف أو قرابة، عن فعلة شنيعة مثل هذه.

وإذا ذكرنا أبا جهل وسلوكه المشين تجاه الرسول، فلنذكر أيضا أحد أعمام الرسول، وهو أبو لهب، فقد سجل عليهما التاريخ مواقفهما المخزية الدنيئة. فبينما الرسول يوما يعظ جماعة من أهل مكة على الصفا، وإذا بأبي لهب يقاطعه في صفاقة ووقاحة، قائلا: تبا لك سائر هذا اليوم، ألمثل هذا جمعتنا؟

فأجاب الوحي بالسورة الكريمة:

«تبت يدا أبي لهب وتب ﴿١﴾ ما أغنى عنه ماله وما كسب ﴿٢﴾ سيصلى نارا ذات لهب ﴿٣﴾ وامرأته حمالة الحطب ﴿٤﴾ في جيدها حبل من مسد ﴿٥﴾»(١)

وذاعت تلك السورة سريعا، فزادت أبا لهب غيظا على غيظ، أما زوجه أم جميل التي أشارت الآية ذكرها بتلك الصفات التي بلغت ذلك المبلغ من الصدق، رغم حدتها وخشونتها، فقد كاد الغيظ يمزق صدرها تمزيقا. إنها لم تستطع أن تتحمل تلك النعت، ولكن أليست هي حمالة الحطب التي نثرت الشوك على طريق الرسول؟ أليس لسانها هو الذي أشعل نيران الحقد بحطب النميمة التي كانت تحملها إلى كل مكان؟

ومنذ ذلك اليوم وهذان الزوجان لا يتراجعان أمام أقبح الأعمال، فربما يرميان، كل صباح، بأكوام القاذورات على بيت محمد وأمامه، وكان جارهما.

وأخذت الجمهرة العظمى من أهل مكة - خاضعة من هؤلاء المتعصبين الطغاة أو متحمسة بهم - يسخرون من الرسول، أو يفرون منه. وأصبح الأطفال والرجال الذين لا يستنكر عندهم، يلاحقونه في الشوارع بسخريتهم. ولكنه تحمل الأذى صابرا غير مبال. وماذا يضيره من السخرية؟ إنها دخان في الهواء. لم يكن يهتم، حتى ولا بمعرفة من هو مصدر هذا الأذى، ولم يكن يهمه إلا أمر الدين يأمل في عنفهم الإسلام

الأعمى

كان الرسول منهمكا في الحديث مع بعض أشراف مكة، وقد أوشكوا أن يقتنعوا بحججه، وإذا بابن أم مكتوم، ذلك المسكين الأعمى، قد أتى يطلب - في تواضع - بعض العلم الذي أنزله الله على رسوله. وكان الرسول منهمكا في حديثه مع هؤلاء الأشراف الذين

(١) سورة المسد

[illegible] ، في حرارة ، هدايتهم إلى الإسلام ، وخاف أن تفوته فرصة قد لا تعود أبداً، [illegible] من الأعمى ولم يلتفت إليه إلا قليلا ، فلما أكثر عليه انصرف عنه الرسول عابسا [illegible] ، فانصرف الأعمى حزينا دون أن يظفر بما يريد . ولم يكد ينصرف حتى تملك [illegible] الرسول : ألم يكن في استطاعة هذا الأعمى – وقد استنار قلبه بالإيمان أن يفتح [illegible] خلائق كثيرة غمرت في ظلام الجهل الدامس ؟ ونزل الوحي لائما يلوم الرسول :

﴿ عبس وتولى (١) أن جاءه الأعمى (٢) وما يدريك لعله يزكى (٣) أو يذكر فتنفعه الذكرى (٤) أما من استغنى (٥) فأنت له تصدى (٦) وما عليك ألا يزكى (٧) وأما من جاءك يسعى (٨) وهو يخشى (٩) فأنت عنه تلهى (١٠) كلا إنها تذكرة ﴾ [1]

وبعد ذلك الحادث والرسول لا يفرق بين غني وفقير في رعايته وعنايته ، ولا بين [illegible] وسادة ، ولا بين سوقة وأشراف [2]

وصل غيظ المشركين ذروته العليا عندما رأوا عبيدهم وخدمهم تغريهم بالدين [illegible] ، فكرة الإخاء والمساواة[3] وحينما سمعوا تلك السورة التي تهدد الأغنياء والطغاة الذين يستغلون فقراء الشعب :

﴿ ألهاكم التكاثر (١) حتى زرتم المقابر (٢) كلا سوف تعلمون (٣) ثم كلا سوف تعلمون (٤) كلا لو تعلمون علم اليقين (٥) لترون الجحيم (٦) ثم لترونها عين اليقين (٧) ثم لتسألن يومئذ عن النعيم (٨) ﴾ [4]

والتقى أبو جهل يوما بالرسول على سفح الصفا ، فلم يتمالك نفسه ، وأساء [illegible] رجل في مثل [illegible] ، ورمى الرسول بشتائم بلغت من سفاهة [illegible] بحيث يخجل [illegible] من نطقها ، أما الرسول فلم يحر جوابا كعادته [illegible] مولاة لعبد الله بن جدعان شاهدت ذلك الحادث من نافذة بيت سيدها الذي يقع على مقربة من المكان ، ولم يمض كثير وقت حتى مر بها حمزة عم محمد ، فقصت عليه ما سمعته .

(١) أتى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ابن أم مكتوم ، واسم أبيه عبد الله بن شريح بن مالك بن ربيعة الفهري من عامر بن لؤي ، وعنده صناديد قريش عتبة وشيبة ابنا ربيعة ، وأبو جهل بن هشام ، والعباس بن عبد المطلب ، وأمية بن خلف ، والوليد بن المغيرة ، يدعوهم إلى الإسلام ، رجاء أن يسلم [illegible] فقال يا رسول الله ، أقرئني وعلمني مما علمك الله [illegible] فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم قطعه لكلامه [illegible] صلى الله عليه وسلم يكرمه [illegible] حاجة ؟ واستخلفه على المدينة مرتين (الزمخشري) .

(٢) [illegible]

(٣) لقد حمل الإسلام نظرية المساواة [illegible] القبائل والشعوب ، وهي النظرية التي لم [illegible] على يد الثورة الفرنسية .

وهذا بلال الحبشي أقامه الرسول مؤذن المسلمين ، فكان العرب ، وهم من الشعوب التي تفخر بالأجداد والأنساب ، تسمع به [illegible] إلى الصلاة [illegible] هذا العبد الحبشي [illegible] خاصة بنور الإسلام (ترجمة الأديب [illegible] رشدي رستم) .

(٤) سورة التكاثر .

إسلام حمزة :

وكان حمزة شديد الشكيمة ، سريع الغضب ، عزيزا في قومه ، فلم يكد يسمع خبر الإهانة التي لحقت بابن أخيه حتى فار دمه غيظا ، ولم يقف ، كعادته إذا رجع من القنص – وهو هوايته المحبوبة – ليتحدث من يلاقيهم في طريقه ، بل أسرع متجها نحو الحرم ، ونظر إلى أبي جهل جالسا في قومه فأقبل عليه حتى [illegible] قام على رأسه ، رفع قوسه فضربه بها فشجه شجة منكرة وصاح فيه [illegible] تشتمه ؟ فأنا على دينه [illegible] يقول ، فرد ذلك علي إن استطعت . فقام رجال من بني مخزوم إلى حمزة لينصروا أبا جهل ، إذ كان منهم ، ولكن أبا جهل تملكه الخزي من فعلته التي [illegible] قد والتي لا تليق برجل ذي نسب شريف ، فأوقف قومه قائلا [illegible] فإني والله قد سببت ابن أخيه سبا قبيحا

[illegible] حمزة [illegible] من عناية الله ورحمته في حال غضبه ، [illegible] إسلام [illegible] القوى ، وأصبح من دعائم الدين الجديد الأقوياء المخلصين

واسلم [illegible] ، [illegible] عن أبيه عتبة بن ربيعة الذي كان سيدا في قومه [illegible] أبوه ، [illegible] الأمل في أن يقضي على تلك الانقسامات الداخلية التي أحدثتها تعاليم محمد ، [illegible] في قريش [illegible] في قلب كل أسرة .

واعتزم أن يقوم بمقام المصلح بين الطرفين ، فقال لقومه ، وقد رأى رسول الله جالسا وحده بالقرب من الكعبة .

[illegible] معشر قريش ألا أقوم إلى محمد فأكلمه بالنيابة عنكم ، وأعرض عليه أمورا لعله يقبل بعضها فنعطيه [illegible] ويكف عنا ؟ وكان قد أصابهم اليأس بسبب إسلام حمزة – تلك الشخصية المهيبة التي جرت إلى الإسلام شخصيات أخرى عديدة [illegible] أن [illegible] في الملاينة والسياسة ، فدلوا لعتبة [illegible] أبا الوليد ، قم إليه فكلمه

عروض المشركين على الرسول :

فقام عتبة حتى جلس إلى الرسول ، وقال له ، في أسلوب عاطفي رقيق [illegible] ابن أخي إنك منا حيث قد علمت من الشرف في العشيرة والمكان في النسب ، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم ، فرقت به جماعتهم ، وسفهت به أحلامهم ، وعبت به آلهتهم ودينهم وكفرت به من مضى من آبائهم ، فاسمع مني أعرض عليك أمورا تنظر فيها لعلك تقبل منا بعضها

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم قل يا أبا الوليد أسمع .

قال : يا ابن أخي :

إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا أموالا .

وإن كنت تريد به شرفا سودناك علينا ، حتى لا نقطع أمرا دونك .

وإن كنت تريد ملكا ملكناك علينا .

ـ كان هذا الذى يأتيك رئيا(1) تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى تبرئك منه.

فاختر لنفسك .

وكان رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، يصغى ، فى رزانة وهدوء فقال لعتبة .

ـ قد فرغت يا أبا الوليد ؟.

ـ نعم

ـ فاسمع مني الآن ثم قرأ سورة فصلت وفيها تهديد المشركين بعذاب الجحيم وتبشير المؤمنين بالسعادة فى جنات الله الفسيحة ، وكان عتبة ينصت إليه ملقيا يديه خلف ظهره معتمدا عليهما يسمع منه ، وقد ملكت عليه نفسه تلك الآيات البينات ، [illegible] تارة ، والرحيمة تارة أخرى ، التى تقرع نفسه بمواقع ومقاطع غريبة عليه كل [illegible] وعقدت الدهشة من حركات عتبة فبقى على حالته ساكنا لا يريم (2) ثم انتهى رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، إلى السجدة منها فسجد ثم قال لعتبة

قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت ، فأنت وذاك .

فقام عتبة إلى قومه حائرا مشدوها ، وقد تغير وجهه .

فقالوا له : ما رأيك يا أبا الوليد ؟ .

---

(1) الرئى ما يتراءى للإنسان من الجن

(2) [illegible] سورة فصلت من السور التى تخاطب فى قوة هؤلاء الذين [illegible] الحق ولا يعترفون به ، [illegible] هذه المطالبة فى قوة تتناسب مع عنادهم ، وتبشر الذين رأوا الحق فاتبعوه بمكانة عند الله [illegible] قال الله تعالى

بسم الله الرحمن الرحيم

حم (1) تنزيل من الرحمن الرحيم (2) كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون (3) بشيرا ونذيرا فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون (4) وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه [illegible]

[illegible] فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود [illegible]

[illegible] (الآيات من ٢٩ إلى ٣٢)

[illegible] تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون [illegible] فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدعون (31) نزلا من غفور [illegible]

فقال : ورائى : أنى سمعت قولا والله ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ، ولا بالكهانة ، يا معشر قريش ، أطيعونى ، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه ، فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت منه نبأ ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم ، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم ، وكنتم أسعد الناس به ...

ولكن ماذا تفيد تلك النصائح الحكيمة ، وقد تملك القوم الحقد والحيرة ؟ فصاحوا فى وجهه : سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه فهز كتفيه وتركهم [illegible]

هذا رأيى فيه فاصنعوا ما بدا لكم .

بيد أن كلام عتبة قد أثر فى نفوس المشركين ، فاجتمعوا فى مساء الغد – كعادتهم – فى الحرم ، وقرروا أن يكلموا محمدا مباشرة . وبعثوا فى طلبه فجاءهم مسرعا ، يحسب أن قد فتحت أبصارهم لنور الله . ولكن أمله ذهب أدراج الرياح، إذ أنهم لم يدعوه إلا ليكرروا نفس عروض الأمس ، فأشاح عنهم باشمئزاز . عندئذ غير القوم سلوكهم وقالوا له :

إن كنت تدعى أنك رسول فإنك قد علمت أنه ليس من الناس أحد أضيق بلدا ، ولا أقل ماء ، ولا أشد عيشا منا ، فسل ربك الذى بعثك بما بعثك به فليسير عنا هذه الجبال التى ضيقت علينا ، وليبسط لنا بلادنا ، وليفجر لنا فيها أنهارا كأنهار الشام أو العراق ، وليبعث لنا من مضى من آبائنا ، وليكن فيمن يبعث لنا منهم قصى بن كلاب فإنه كان شيخ صدق ، فنسألهم عما تقول: أحق هو أم باطل ؟ فإن صدقوك وصنعت ما سألناك صدقناك ، وعرفنا به منزلتك من الله ، وأنه بعثك رسولا كما تقول .

فاكتفى محمد بأن يجيبهم قائلا :

ما بهذا بعثت إليكم ، إنما جئت من الله بما بعثنى ، وقد بلغتكم ما أرسلت به إليكم ، فإن تقبلوه فهو حظكم فى الدنيا والآخرة ، وإن تردوه على أصبر لأمر الله تعالى حتى يحكم الله بينى وبينكم .

قالوا : فإن لم تفعل هذا لنا فخذ لنفسك ، سل ربك أن يبعث ملكا يصدقك بما تقول ويراجعنا عنك ، وسله فيجعل لك جنات وقصورا وكنوزا من ذهب وفضة يغنيك عما نراك تبتغى ، فإنك تقوم بالأسواق كما نقوم ، وتلتمس المعاش كما نلتمسه ، حتى نعرف فضلك ومنزلتك من ربك إن كنت رسولا كما تزعم.(1)

قال : ما أنا بفاعل وما أنا بالذى يسأل ربه هذا . وكرر لهم دعوته ثانية .

---

(1) ويبين القرآن تعنت المشركين مع الرسول فيقول

« وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا »

« وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا (90) أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا (91) أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتى بالله والملائكة قبيلا (92) أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه »

قالوا: فأسقط علينا من السماء ، كسفا كما زعمت أن ربك إن شاء فعل ، فإنا لا نؤمن لك إلا أن تفعل.[١]

قال : ذلك إلى الله ، إن شاء أن يفعله بكم فعل . أتطلبون منه المعجزات ؟ أليست المعجزات فيما خلق ولكنكم لا تعقلون ؟ ألا ترون أنه يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ؟

إنه يستطيع أن يأتي بمعجزات خارقة للنظام الطبيعي الذي أوجده ، ولكن كذب [٢] بها الأولون .تأملوا معجزاته التي تتجدد في هذا العالم كل لحظة واقتنعوا بها.

ولما لم يستطع المشركون إفحام محمد عمدوا إلى النضر بن الحارث وكان كثير الأسفار، يحفظ القصص القديمة، فلا يرى محمدا قام يدعوا إلى دينه حتى يجلس

= وفي موضع آخر

.لو ما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين.

ويصور القرآن موقفهم العنيدي فيقول :

« ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون . لقالوا : إنما سكرت أبصارنا ، بل نحن قوم مسحورون ! »

(١) قال عبد الله بن أبي أمية لرسول الله ، وهو ابن عمته : يا محمد ، عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبله منهم ، ثم سألوك لأنفسهم أمورا ليعرفوا بها منزلتك من الله كما تقول ، ويصدقوك ويتبعوك ، فلم تفعل ، ثم سألوك أن تأخذ لنفسك ما يعرفون به فضلك عليهم ، ومنزلتك من الله فلم تفعل ، ثم سألوك أن تعجل لهم بعض ما تخوفهم به من العذاب ، فلم تفعل ، أو كما قال له - فوالله لا أومن بك أبدا حتى تتخذ إلى السماء سلما ، ثم ترقى فيه وأنا أنظر إليك حتى تأتيها ثم تأتي معك أربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول ، وايم الله ، لو فعلت ذلك ما ظننت أني أصدقك .

(٢) قال السهيلي : وذكر ما سأله قومه من الآيات ، وإزالة الجبال عنهم ، وإنزال الملائكة عليه ، وغير ذلك جهلا منهم بحكمة الله تعالى في امتحان الخلق وتعبدهم بتصديق الرسل ، وأن يكون إيمانهم عن نظر وفكر في الأدلة ، فيقع الثواب على حسب ذلك ، ولو كشف الغطاء ، وحصل لهم العلم الضروري ؛ بطلت الحكمة التي من أجلها يكون الثواب والعقاب ، إذ لا يؤجر الإنسان على ما ليس من كسبه كما لا يؤجر على ما خلق فيه من لون وشعر ونحو ذلك ، وإنما أعطاهم من الدليل ما يقتضي النظر فيه العلم الكسبي ، وذلك لا يحصل إلا بفعل من أفعال القلب ، وهو النظر في الدليل ، وفي دلالة المعجزة على صدق الرسول ، وإلا فقد كان قادرا سبحانه أن يأمرهم بكلام يسمعونه ، ويغنيهم عن إرسال الرسل إليهم ولكنه سبحانه قسم الأمر بين الدارين ، فجعل الأمر يعلم في الدنيا بنظر واستدلال وتفكر واعتبار ، لأنها دار تعبد واختبار ، وجعل الأمر يعلم في الآخرة بمعاينة واضطرار لا يستحق به ثواب ولا جزاء ، وإنما يكون الجزاء فيها على ما سبق في الدار الأولى ، حكمة دبرها وقضية أحكمها ، وقد قال الله تعالى : وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون ، يريد فيما قال أهل التأويل أن التكذيب بالآيات نحو ما سألوه من إزالة الجبال عنهم ، وإنزال الملائكة يوجب في حكم الله ألا يلبث الكافرين بها ، وأن يعاجلهم بالنقمة كما فعل بقوم صالح وآل فرعون ، فلو أعطيت قريش ما سألوا من الآيات جاءهم بعد اقتراحهم ، ثم كذبوا لم يمهلوا ، ولكن الله أكرم محمدا في الأمة التي أرسله إليها ، إذ قد سبق في علمه أن يكذب به من قد يكذب ويصدق به من يصدق ، وابتعثه رحمة للعالمين من بر وفاجر ، فأما البر فرحمته إياه في الدنيا والآخرة ، وأما الفاجر فإنهم أمنوا من الخسف والغرق وإرسال حاصب عليهم من السماء كذلك قال بعض أهل التفسير في قوله : وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين مع أنهم لم سألوا ما سألوا من الآيات إلا تعنتا واستهزاء لا على جهة الاسترشاد ودفع الشك فقد رأوا من دلائل النبوة ما فيه شفاء لمن أنصف فقال الله سبحانه : أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب الآية . وفي هذا المعنى قيل

بالقرب منه ويحاول اجتذاب الناس من حوله بقص أحاديث رستم أو اسفنديار ، وقد بلغ من جرأته أن قال : سأنزل مثل ما أنزل الله على نبيه.

وبعث المشركون وفدا إلى أحبار اليهود بالمدينة ، وإلى الأمير حبيب بن مالك، الذي اشتهر بين معاصريه بحكمته، وعلمه، وسلطانه سائلين عن وسيلة تمكنهم من إلصاق تهمة الكذب والشعوذة بمحمد ،ولكن تلك الجهود ذهبت هباء ،وانهارت من نفسها دون ما حاجة إلى معجزة انشقاق القمر - التي يزعمونها- مستندين إلى الآية الكريمة - اقتربت الساعة وانشق القمر. (سورة القمر) فبعضهم يدعي أن حبيبا سأل الرسول أن يأتيه بمعجزة تؤيد كلامه فشق القمر بأمره شقين متساويين،وذهب أحدهما غربا والثاني شرقا،إما علماء الإسلام الموثوق بهم مثل البيضاوي والزمخشري فيرون أن هذا أحد رؤيين . قال البيضاوي وقيل معناه سينشق يوم القيامة

ويؤيد هذا الرأي الآيات التي تليها مباشرة وهي . فتول عنهم يوم يدع الداع إلى شيء نكر ( ) خشعا أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر

وفي الواقع أنا لا نستطيع تصديق المعجزة المزعومة ، لأنها تتنافى ، صراحة ووضوح ، مع الكثير من آيات القرآن فيقول تعالى . وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون .

ما أقل تأثير [illegible] المعجزات فيما مضى من التاريخ ، لقد عبد بنو إسرائيل العجل بعد أن شاهدهم موسى بمعجزاته من لجة البحر ومن طغيان فرعون ، وما كان أهل مكة المشركون ليتأثروا بالمعجزة أكثر من غيرهم من بني البشر ، لأن الطبيعة الإنسانية واحدة

وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها قل إنما الآيات عند الله وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون ( ) ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون ( ) ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون.

معجزة القرآن:

ومع ذلك فقد أتى محمد بمعجزة ، بل المعجزة الوحيدة التي منحت له، ولكنها معجزة أخرست مصاقع المشركين ، وعني بها : آيات القرآن، ولعل القارئ يلاحظ أن معنى « آيات الله » علامات المعجزة.

[illegible] معجزة لأتباعه الذين سبقوا محمدا كانت في الواقع معجزات وقتية وينالها التحريف بفعل الزمن السريع ، بينما نستطيع أن نسمي معجزة الآيات القرآنية بالمعجزة الخالدة ، [illegible] بتأثيرها دائم ومفعولها مستمر ، ومن اليسير على المؤمن في كل زمان وفي كل مكان أن يرى هذه المعجزة بمجرد تلاوة كتاب الله ، وفي هذه المعجزة نجد السبب الشافي للانتشار المدهش الذي أحرزه الإسلام ، ذلك الانتشار الذي لا يدرك سببه الأوربيون ، لأنهم يجهلون القرآن ، أو لأنهم لا يعرفونه إلا من خلال ترجمات لا تمت بالحياة فضلا عن أنها غير دقيقة

إن الجاذبية الساحرة التي يمتاز بها هذا الكتاب، الفريد بين أمهات الكتب العالمية، لا تحتاج منا- نحن المسلمين - إلى تعليل، ذلك أننا نؤمن بأنه كلام الله أنزله على رسوله. ولكن نرى من الطريف أن نورد هنا رأيين لمستشرقين ذاعت شهرتهما عن جدارة، يقول «سفري» وهو أول من ترجم القرآن إلى الفرنسية

«كان محمد عليماً بلغته، وهي لغة لا تجد على ظهر البسيطة ما يصارعها غنى وانسجاماً. إنها، بتركيب ألفاظها، يمكنها أن تتابع الفكر في طيرانه البعيد، وتصفه في دقة دقيقة، وهي بما فيها من نغم موسيقي تحاكي أصوات الحيوانات المختلفة، وخرير المياه المنسابة، وهزيم الرعد، وقصف الرياح

«كان محمد عليماً- كما قلت- بتلك اللغة الأزلية التي تزينت بروائع كثير من الشعر، فاجتهد محمد في أن يحلي تعابيره بكل ما في البلاغة من جمال ومن سحر

«ولقد كان الشعراء في الجزيرة العربية يتنافسون في التعبير لأسمى مكانة، ولقد علق لبيد بن ربيعة، الشاعر المشهور، إحدى قصائده على باب الكعبة وحالت شهرته وقدرته الشعرية دون أن يجري له المنافسون ولم يتقدم أحد ينازعه الجدارة ... وذات يوم علق بجانب قصيدته السورة الثانية من القرآن (وقيل سورة الرحمن والمحسنين) فعجب بها لبيد أيما إعجاب رغم أنه مشرك، واعترف بمجرد قراءة الآيات الأولى، بأنه قد هزم، ولم يلبث أن أسلم.

«وفي ذات يوم سأله المعجبون به عن أشعاره يريدون جمعها في ديوان فأجاب: لم أعد أتذكر شيئاً من شعري، إذ أن روعة الآيات المنزلة لم تترك لغيرها مكاناً في ذاكرتي»

ويقول «ستانلي لين بول»: «إن أسلوب القرآن في كل سورة من سوره لأسلوب أبي ينبض عاطفة وحيوية، إن الألفاظ ألفاظ رجل مخلص للدعوة وإنها لا تزال حتى الآن تحمل طابع الحماس والقوة وهي تذيعها تلك الحرارة التي انبعثت بها ... إنها ألفاظ عربي من قلب إنسان يستحيل أن يكون منافقاً، وهذا القلب هو قلب رجل كان له أخطر الشأن في تاريخ الإنسانية»

إن كان سحر أسلوب القرآن وجمال معانيه، يحدث مثل هذا التأثير في نفوس مثل هؤلاء العلماء الذين لا يمتون إلى العرب ولا إلى المسلمين بصلة، فماذا نرى أن يكون من قوة الحماس الذي يستهوي عرب الحجاز، وهم الذين نزلت الآيات بلغتهم الشعرية الجميلة؟ لا يستطيع أن يكون لنفسه عن ذلك فكرة مقاربة، وإن كانت مصغرة، إلا أنه المسافرون حينما تتاح لكم الفرصة لمشاهدة التأثر الذي يمتلك قلوب قوم يصغون إلى الإمام، وهو يرتل الآيات المقدسة. لقد شاهدتم هؤلاء الأعراب شيباً- وشباناً وصولهم من أسفارهم المجهدة وقد كستهم رمال الصحراء حيث ذاقوا من قسوة أشعتها- يتسابقون إلى المسجد يجذبهم إليه، كمغناطيس، صوت الإمام، فيفضلون الاستماع إلى ترتيله، على الاستسلام إلى نوم هادئ مريح، وفي شهر رمضان يقضون الليل في الإنصات المستغرق- لآيات الله بعد يوم شاق لم يذوقوا فيه طعاماً ولا شراباً.

حقاً إن أعراب عصرنا الذين لم ينالوا أدنى قسط من التعليم لا يدركون دائماً المعنى

الحرفي للألفاظ التي يقرؤها الإمام، بيد أن الموسيقى العذبة والتوقيع المنسجم، كل هذه الأشياء التي تلازم الآيات العجيبة، تجد صداها في طيات قلوبهم، فتحمل إليهم شرحاً قد يكون غير دقيق ولكنه على كل حال يثير الحب في قوة خصبة، وإليه يتحمس القوم، بجوار هذه الآيات التي تنزل صادرة عن تأثر حتى يبدو شرح النحويين والمتفقهين جثة لا حياة فيها

أما عرب الحجاز الذين يدركون أدق معاني اللغة القرآنية التي هي صميم لغتهم الخاصة، والذين أخذوا [illegible] عن مؤسسهم الرسول العبقري، فكانوا لا يسمعون [illegible] إلا وتتملك نفوسهم [illegible] هزة مباغتة، فيظلون في مكانهم، وكأنهم قد سحروا [illegible]، أهذه الآيات الخارقة آتية من محمد، ذلك الأمي الذي لم ينل حظاً من المعرفة، اللهم إلا ما حبته به الطبيعة وما [illegible] به من [illegible] في الشعور؟

كلا [illegible] هذا القرآن لمستحيل أن يصدر عن محمد، وإنه لا مفر من الاعتراف بأن الله تعالى [illegible] هو الذي أملى تلك الآيات البينات، إن الرسول لم يكن مخادعاً، حين قال: «إني [illegible] هو الذي [illegible] القرآن»

لقد كان يؤمن كل الإيمان بمصدره الإلهي فالنوبات الهائلة التي [illegible] سابقة عند مجيء الوحي [illegible] بيه [illegible] لم يكن يعلمه، في لغة جديدة كل الجدة بالنسبة له تختلف كثيراً عن لغته [illegible] هذا الوحي الذي يصيبه [illegible]، ويلزمه بحفظ تلك الآيات دون أن يقدر على [illegible] هذا الوحي، خلال تلك النوبات، لم يكن ليترك لديه أدنى شك في المصدر الإلهي في القرآن

لهذا كله كان [illegible] الرسول بالقرآن، أي بكلام الله، لا حد له، وقد يوحى الله إليه.

«قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين».

ولا عجب في أن نرى النبي الأمي يتحدى الشعراء، ويعترف بهم نحو تكذيبهم به بالكذب إن أتوا بعشر سور من مثله، فقد أمن بعجزهم عن ذلك.[1]

لقد حاول بعض المؤرخين المعاصرين أن يدعوا إلى الشك في ذلك الإخلاص العظيم المؤثر الذي اشتهر به محمد، وحاولوا أن يصوروه في صورة رجل لا مؤهلات لديه [illegible]، [illegible] على المهارة، ورأيهم هذا لا يصدر إلا عن شخص أعمته العصبية، ولا يصدر إلا في زمن يشبه الزمن الذي كانت تقوم فيه محاكم التفتيش، ولقد قضى «كارلايل» في كتابه «الأبطال» على ذلك.

---

[1] [illegible]

لقد [illegible] لا يستطيع [illegible] المجتمع [illegible] عربية في الأرض [illegible] التفاهم مع [illegible] اللغة العربية [illegible] مع الشعوب [illegible] من العصرية في [illegible] الفرنسيين اليوم

وإن لغة القرآن وإن كانت تمتد- في أصولها- إلى عصور بعيدة قديمة، فهي مرنة [illegible] التعبير عن كل ما يجد من المستكشفات والمخترعات الحديثة، دون أن تفقد شيئاً من رونقها وسلامتها

ولعل ما نراه من المولدات التي تستحسنها الجرائد العربية بنقل أصولها الأجنبية، فليس ذلك عن ضرورة وإنما هو نوع من التكاسل والتهاون والتساهل، الذي نجد مثله عندنا معشر الفرنسيين في استخدامنا الاصطلاحات العلمية بالألفاظ الرياضية عن أصولها الإغريقية. (المؤلف)

الفصل الرابع

بسم الله الرحمن الرحيم
لتبلون في أموالكم وأنفسكم

قال رسول الله: «خلق الله الجنة لمن أطاعه، ولو كان عبدا حبشيا، وخلق النار لمن عصاه، ولو كان شريفا قرشيا».

بهذا المبدأ قرر الإسلام المساواة بين جميع الطبقات والأجناس، وبهذا المبدأ اجتذب الإسلام إلى صفوفه كل متواضعي مكة، أما السادة الوثنيون فإنهم كانوا يرون - في غيظ يزداد مع الزمن عبيدهم يعتنقون الإسلام متحمسين طوائف وجماعات، وإذا كان هؤلاء السادة لم يمكنهم أن ينالوا ممن اعتنق الإسلام من غير الأرقاء فإنهم صبوا جام غضبهم على من دخل في الإسلام ممن ملكت أيديهم

هل أتاك حديث أمية بن خلف، وقد علم بإسلام عبده بلال بن حمامة، فلم يكن له من هم إلا النفس المتعجل في إذاقته العذاب ألوانا؟ لقد أحاط عنقه بحبل من ليف النخيل الخشن، وأسلمه إلى أيدي الصبيان الذين لا سبيل للرحمة إلى قلوبهم، فأخذوا يعبثون بجره كحيوان، يجرونه إلى الأمام ويجرونه إلى الوراء، يجرونه يمينا، ويجرونه شمالا، والحبل يحز في عنقه حتى حفر فيه مجرى داميا غير أن بلالا، رغم كل ذلك، لم يبد عليه التأثر فما كان من أمية إلا أن منع عنه الطعام والشراب، وكان يخرجه إذا حميت الظهيرة، فيطرحه على ظهره في بطحاء مكة، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره على هذا الرمل الذي جعلته حرارة الشمس كالجمر، كان يلقى أمية، بلالا، ويقول له: لا تزال هكذا، حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى، ومع كل هذا كان بلال الصبور يكتفي برفع سبابته إلى السماء مكررا «أحد أحد» ليظهر بذلك احتقاره لسيده الذي يلحق به العذاب أن جعل لله شركاء، برغمه، من خشب أو حجارة، وكان تأكيد الأحدية لله تعالى يثير في روعه أنه شهيد الإيمان، ويبعث في نفسه بذلك عذوبة فائقة الوصف، فلا يشعر معها بأليم العذاب.

وشاءت الأقدار أن يمر أبو بكر بالرمضاء، حيث كان يعذب بلال، ويشهد هذا المنظر البشع، فقال، في استنكار:

ألا تخشى عقاب الله يا أمية حينما تذيق هذا المسكين العذاب ألوانا؟ فأجاب، في برود صارخ:

إنك أنت الذي أفسدته، فأنقذه مما ترى،

قال أبو بكر: عندي غلام أسود أقوى منه وأجلد، وهو على دينك، أعطيكه به؟

قال: قبلت هو لك.

فأعطاه أبو بكر غلامه ذلك، وأخذ بلالا فأعتقه، ولم يقتصر كرم أبي بكر رضي الله عنه على ذلك، بل اشترى أيضا ستة من العبيد الذين أسلموا - ما بين رجل وامرأة - ليخلصهم من سادتهم الوثنيين ويعتقهم، ومع ذلك، فقد استمر التعذيب، بل ازداد وحشية، فبنو مخزوم أخذوا عمار بن ياسر وأباه وأمه سمية إلى الرمضاء ليفتنوهم في دينهم، ويعرضوهم لكل ما توحي به غلظتهم الجامحة

كانوا يلبسون عمارا درعا من الحديد في اليوم الصائف، ويطرحونه أرضا، ويستبقونه كذلك معرضا لأشعة الشمس الملتهبة، وكان جسم عمار يحترق كما لو كان معرضا لقطعة من معدن في حالة الانصهار، بيد أن الوثنيين لم يمكنهم بالتعذيب أن يردوه، أو يردوا أبويه عن الإسلام، كما لم يمكنهم أن يردوا بلالا، فأعمى الغيظ أبا جهل وطعن بحربته قلب سمية وقال لها متهكما: إن كنت قد آمنت بمحمد، فما ذلك إلا لأنك عشقته لجماله.

كانت سمية الشهيدة الأولى في الإسلام، وبلغت من الثبات والصبر مبلغا لم يصل إلى مثله بعض المسلمين الآخرين الذين أصابهم الحرمان والعذاب، واشتد بهم الضعف حتى وصل بهم إلى [illegible]، لتذب عن شفاههم - لا عن قلوبهم - ألفاظ الردة التي أعفتهم مما هم فيه، ومن بين [illegible] حتى [illegible] تحت هيبة الخجل والخزي، وسالت دموعهم ندما على ما فعلوا، فنزلت فيهم الآية الكريمة

﴿إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم﴾

امتلأت نفس الرسول حزنا، أمام هذه المآسي التي كان يتحملها ضعاف المسلمين الذين لا يجدون من يحميهم، حقا إن شجاعة المعذبين والشهداء في سبيل الله برهنت على إسلامهم العميق، بيد أنه رأى أن من الخير ألا يستمر هذا البلاء، فنصح الضعفاء ومن لم تدعهم الضرورة إلى البقاء في مكة بالهجرة إلى الحبشة حيث المسيحيون، وحيث التسامح والعدل اللذين اشتهر بهما ملكها النجاشي

هجرة المسلمين إلى الحبشة سنة ٦١٥م:

سافر أول من سافر من المسلمين ستة عشر، من بينهم عثمان بن عفان وزوجته رقية إحدى بنات رسول الله - وفي جنح من الليل، خرج المهاجرون من مكة سيرا على أقدامهم، وحينما وصلوا إلى شاطئ البحر الأحمر، استأجروا فلكا حملهم إلى الشاطئ الآخر، ومن هناك ذهبوا إلى بلاط النجاشي فرحب بهم، وما لبثوا أن لحق بهم غيرهم، فأصبحت الجالية الإسلامية في الحبشة مؤلفة من ثلاثة وثمانين رجلا وثماني عشرة امرأة

ثارت ثورة الوثنيين حينما رأوا أن ضحاياهم تفر من بين أيديهم، واشتعل غيظهم حينما علموا أن من المهاجرين أفرادا من أسرهم، مثل أم حبيبة بنت أبي سفيان، فأرسلوا إلى النجاشي سفيرين هما عمرو بن العاص، وعبد الله بن أبي ربيعة، ومعهما هدايا نفيسة، وكانت غاية السفيرين رد اللاجئين، فصوراهم للنجاشي في صورة ثائرين خطرين، في مقدورهم أن يثيروا الفتنة [illegible]

كان النجاشي قد شاهد عكس ما قالاه، وكانت فضائل المهاجرين قد بعثت في النفس تقديرهم وعطفهم، فلم يكن عنده استعداد لقبول دعوى السفيرين رغم نفاسة الهدايا، فرأى [illegible] الإسلامي، فقد [illegible]

سورة محمد

إنا نريد أن تعلم خبر هؤلاء المصريين، فإننا على علم بهم، إنهم جاءوا ليردوا رعيتك عن دين عيسى، كما حاولوا أن يردوا قريشا عن دين أجدادها، وإذا أردت دليلا على صدقنا فما عليك إلا أن تسألهم عن عقيدتهم في عيسى سيدكم.

أقر النجاشي رأيهم، وسأل أعلم المهاجرين عن عيسى، فأجابه جعفر ابن عم النبي بالآية القرآنية:

- إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم.(1)

هذه الإجابة طمأنت النجاشي. نعم إنها لم تتضمن الاعتراف بألوهية عيسى، بيد أنها على الأقل برهنت على الاحترام العميق الذي تكنه صدور المسلمين نحو عيسى، وأزالت شكوكه من ناحية غايتهم، فصرف المصريين ورد إليهما هديتهما، ولم يجب لهما رجاء.

إسلام عمر بن الخطاب:(2)

أقنع الكفار عمر - وكان جافا غليظا إذا ناقش - بأن في القضاء على محمد إنقاذ لوطنه، فتقلد عمر سيفه واتجه، يتطاير الشرر من عينيه، نحو الصفا حيث يعتقد وجود الرسول، وبينما هو سائر في طريقه، إذ لقيه نعيم الذي كان يسر إسلامه فرقا(3) من قومه، فقال له:

أين تريد يا عمر؟

أريد محمدا، هذا الذي فرق أمر قريش، وحق آلهتنا سوف لا أهدأ حتى أقتله.

فقال له نعيم:

لقد غرتك نفسك يا عمر، أترى بني عبد مناف تاركيك تمشي على الأرض وقد قتلت محمدا؟ ثم أضاف ليحوله عن مشروعه البشع: أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم؟

قال: وأي أهل بيتي؟

أختك فاطمة، وزوجها سعيد بن زيد، فقد أسلما.

عند هذا اتجه غضب عمر وجهة أخرى، وعدا مسرعا نحو مسكن أخته فاطمة، وكان فيه، حينما وصل عمر، المسلم المتحمس خباب ومعه صحيفة فيها سورة طه يقرئهما إياها، فلما سمع دق عمر القوي على الباب، لجأ خباب إلى حجرة مجاورة، وخبأت فاطمة الصحيفة تحت ردائها.

سمع عمر، حينما دنا إلى البيت، قراءة خباب عليهما، فلما دخل قال في صوت خشن:

ما هذه الهينمة(4) التي سمعت؟ قالا له:

ما سمعت شيئا، قال

بلى، لقد أخبرت أنكما تابعتما محمدا على دينه.، ثم لم ينتظر إجابة أو شرحا، بل هجم على ختنه، وطرحه أرضا، وجلس على صدره آخذا بلحيته، فألقت فاطمة بنفسها على أخيها،

(1) سورة النساء (2) إن إسلام عمر كان فتحا، وإن هجرته كانت نصرا، وإن إمارته كانت رحمة
(3) خوفا (4) صوت كلام لا يفهم.

وقامت بمجهود يائس لتكفه عن زوجها وصاحت،

نعم أسلما، وما علمته حق، عند ذلك طار صواب عمر، ولم يتمالك أن لطمها في غلظة على وجهها فشجه، وانقلبت فاطمة الشجاعة غرثى [illegible] ـمها بيد أنها لم تهن ولم تضعف، بل استمرت تمد إليه يديها وتكرر:

نعم، لقد أسلمنا يا عدو الله، نعم آمنا بالله ورسوله [illegible] فاصنع بنا ما تريد.

فما رأى عمر ما بأخته من الدم وأثرت في نفسه [illegible] عنها التي لا تقهر، مع أنها ضعيفة، خجل مما صنع، وطلب في صوت أشرب بالوداعة

أعطيني هذه الصحيفة التي سمعتكم تقرءون [illegible] عمر ما هذا الذي جاء به محمد؟ وقالت له أخته

إنا نخشاك عليها، فقال:

لا تخافي، وحلف لها بآلهته ليردنها [illegible] قرأها [illegible] وزعم أن فاطمة طمعت في إسلامه، فإنها اعترضت قائلة: يا أخي إنك نجس، على شركك [illegible] وإنه لا يمسها إلا الطاهر.

قام عمر في وداعة واغتسل، فأعطته الصحيفة التي بها سورة طه والتي تبدأ:

بسم الله الرحمن الرحيم، طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى إلا تذكرة لمن يخشى،

وما [illegible] قرأ عمر الذي كان كاتبا بليغا الآيات [illegible] حتى قال: ما أحسن هذا الكلام وأكرمه، فلما سمع ذلك خباب خرج إليه فقال له: يا عمر [illegible] لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه، فإني سمعته أمس وهو يقول: اللهم أيد الإسلام [illegible] الحكم بن هشام، أو بعمر بن الخطاب، فقال له عند ذلك عمر

دلني الآن إلى محمد، فإني أريد أن أعتنق الإسلام، أين هو؟

فهب خباب مستبشرا متهللا إلى بيت الأرقم [illegible] الصفا.

(1) [illegible] عند الكلام على تطهير عمر نفسه [illegible] وقول أخته له: لا يمسه إلا المطهرون، والمطهرون في [illegible] التي في سورة عبس، وإنكم، وإن كانوا الملائكة [illegible] فقد تعلق الحكم بصفة [illegible] لأنه جاء بلفظ [illegible] على ما قلناه [illegible] إلى إيجابه من المصحف [illegible] والدارقطني [illegible] عن أبيه [illegible] عن جده [illegible] المتنفس في [illegible]
[illegible]

بينما أصحاب رسول الله يصغون إلى كلامه فتشرق به أرواحهم، إذا بالباب يدق دقا عنيفا، فقام رجل من أصحاب رسول الله فنظر من خلل الباب فرأى عمر بن الخطاب متوشحا سيفه، فرجع إلى رسول الله وهو فزع يخبره الخبر، فقال الرسول وهو هادئ مطمئن

«إيذن له، فإن كان يريد خيرا بذلناه له، وإن كان يريد شرا قتلناه بسيفه».

امتثل الصحابي أمره، ودخل عمر، فنهض إليه رسول الله حتى لقيه في الحجرة فأخذ بحجزته، ثم جبذه جبذة(1) شديدة وقال:

ما جاء بك يابن الخطاب؟ والله ما أرى أن تنتهي حتى ينزل الله بك قارعة. فقال عمر في تواضع ليس من عادته:

يا رسول الله جئتك لأومن بالله وبرسوله، وبما جاء من عند الله، فكبر رسول الله تكبيرة عرف بها أهل البيت من أصحاب الرسول أن عمر قد أسلم، وتفرق الأصحاب شاكرين لله توفيق عمر للإسلام.

لم يكن عمر بالرجل الذي يخفي ويسر إسلامه، فما إن وصل إلى الطريق حتى أوقف أول مار به - وكان جميل بن معمر الجمحي - وقال له

أعلمت يا جميل أني أسلمت ودخلت في دين محمد؟، وكان جميل ثرثارا بالطبيعة، فما إن سمع كلام عمر حتى جر رداءه وعدا حتى إذا كان بباب الكعبة صرخ بأعلى صوته: يا معشر قريش، نبئكم نبأ مريع، إن ابن الخطاب قد صبأ، فقال عمر وكان يتبعه

«كذب، ولكني قد أسلمت، وشهدت أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله».

عند ذلك ثار القرشيون ثورة عنيفة، وهجموا على عمر، فاستقبلهم ثابت الجنان، وما برح يقاتلهم ويقاتلونه حتى قامت الشمس على رءوسهم، فاضطر المحاربون إلى هدنة قصيرة، فقعد عمر وقاموا على رأسه، فقال لهم في حنق وشمم: افعلوا ما بدا لكم فأحلف بالله أن لو قد كنا ثلاثمائة رجل فقط لتركناها لكم أو تركتموها لنا عن الكعبة، ولم يجدوا بعد إلى استرداده من سبيل.

فبينما هم على ذلك إذا أقبل شيخ من قريش عليه حلة حبرة(2)، وقميص موشى، حتى وقف عليهم فقال:

ما شأنكم؟ قالوا

صبأ عمر، فقال

فمه؟ رجل اختار لنفسه أمرا، فماذا تريدون؟ أترون بني عدي بن كعب يسلمون لكم صاحبهم هكذا؟ فتخلوا عنه خوفا من ... لا اقتناعا بمنطق العقل، ولكنهم كانوا ثوبا كشط عنه.

كان رسول الله وحده هو الذي يجرؤ على الصلاة في الكعبة علنا. فلما أسلم عمر، عزم على مشاركته في ذلك، فكان يذهب كل يوم إلى الكعبة ويقف كما كان يقف رسول الله، بين الركن

(1) بحجزته أي بمجمع ردائه، وجذبه وجبذه بمعنى واحد.

(2) ضرب من ثياب اليمن

الذي به الحجر الأسود، والركن الذي يتجه نحو اليمين، وكان يصلي متجها نحو بيت المقدس، مثل الرسول، شجع ذلك كثيرا من المسلمين فجاءوا يصلون بجواره تحت سمع المشركين وبصرهم، وحالت هيبة عمر، الذي استحق بجدارة لقب الفاروق، دون البطش بهم.

نفي بني هاشم إلى الشعب سنة ٦١٦م:

رغم كثرة الوثنيين من قريش، فإنهم اضطروا إلى الاعتراف بأن حالة حزبهم حرجة، وأنهم، إن لم يقوموا بعمل حاسم تجاه تلك الحركة المستمرة الجارفة التي يتبعها كل يوم أنصار جدد، فقد قضى على سيادتهم بين العرب.

فاجتمعوا وتشاوروا، ثم تعاهدوا على قطع كل علاقة تربطهم ببني هاشم وبني المطلب، وإخراجهم من مكة إلى شعب أبي طالب، حتى يسلموا إليهم محمدا ولأجل قطع الطريق أمام كل من تسول له نفسه الإخلال بهذا العهد، كتبوا بذلك صحيفة علقوها في جوف الكعبة.

كانت خطتهم ماهرة: فقد قدروا أن من غير المعقول أن يتضامن من لم يؤمن بمحمد من عشيرته مع من آمن، وأن يتحمل الألم من أجل دعوة لم تصل بعد إلى شغاف قلبه، فإذا حدث هذا وهو حادث لا محال فقد وجدت الفرقة والخلاف بين عشيرة محمد، وهان بذلك أمرهم، أجل غير أن التقدير قدرت خلاف ما قدروا، واتحدت أسرة محمد بني طالب فتضامنت، ولم يشذ منها إلا أبو لهب الذي عميت بصيرته.

ولعلنا نلاحظ من هذا الحادث سببا من الأسباب التي حالت دون اعتناق أبي طالب للإسلام، مع أنه ساعد في جد ونشاط على انتصاره ثم إنه لم ينس تهكم أبي لهب به وقوله:

لم يبق لك إلا التضرع لابنك على عقد امتياره محمد وزيره.

وكانت أنفة أبي طالب تجعله يخشى تندر قريش به.

ولقد قال يوما

لو لم أخش أضحوكة في أفواه القرشيين حينما يرونني أصلي لاعتنقت الإسلام.

غير أنه ما كان ليقيم لهذه الاعتبارات وزنا، لو لم يؤمن بأن حمايته لابن أخيه تفقد أثرها الفعال منذ الساعة التي ينكر بها دين آبائه.

وما إن أعلن التحالف، حتى خرجت عشيرة الرسول من مكة - المسلمون منهم والوثنيون - وتركوا منازلهم المتفرقة في مختلف أحيائها وأقاموا في شعب أبي طالب.

ذاق الذين أخرجوا من ديارهم أشد أنواع الحرمان طيلة عامين، إذا ما لبث زادهم أن نضب، ولم يجدوا سبيلا إلى تجديده.

كانت الأسواق مغلقة في وجوههم، فما يمكن أحدهم ... من يخرجون بشيء من طعام ليقتات به، فإن التجار، خشية مراقبة أبي جهل أو خشية التشنيع عليهم، يريدون في أثمانه أضعافا، حتى يرجع إلى أصحابه - وهم يتضاغون من الجوع - وليس في يده شيء يطعمهم به.

وعملت المروءة بعض الناس على تغذية المنفيين سرا، وكان أحسنهم بلاء في ذلك هشام بن عمرو، فكان يأتي بالبعير، وبنو هاشم وبنو المطلب في الشعب ليلا، قد أوقره طعاما، حتى

... قبل ... ثم الشعب خلع خطامه من رأسه، ثم ضرب على جنبه فيتخلل الشعب عليهم، على ... كي ... وقد وصلت الحالة بمحمد وآله أن كانوا يعيشون من ورق الشجر

أكل الأرضة الصحيفة:

وبينما الكفار في عنادهم رأى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أن الله قد سلط الأرضة على صحيفة قريش، ومحت منها الظلم والقطيعة والبهتان، وتركت كل اسم هو الله وقص رسول ... على عمه، فصدق عمه رؤياه، وأخذ إخوته وذهب إلى حيث يجتمع الكفار، ... هؤلاء حتى ... لما رأوه على وجهه من أثر الحزن ... إليهم خبراً أبى أخيه في حرمة الحرمان؟ لقد كانوا مقتنعين بذلك كل الاقتناع. ثم حدثهم برؤيا ابن أخيه وقال ... إلى صحيفتكم! فإن كانت كما قال ابن أخي فانتهوا عن قطيعتنا، وإن لم ... فيها، وإن كانت كذبا دفعت إليكم ابن أخي ... هذا العرض ... على ... من ... حتى أخيه ... من حمايته لابن أخيه

كانت الصحيفة مختومة بثلاثة أختام، ومنذ أودعت الكعبة لم يرها إنسان، ولم تمسسها يد ... الله ... من المستحيل أن يكون ... الرسول صوابا، ولا ... عليهم علامات الانتصار وهم ... مع أبي طالب إلى الكعبة ... وصلت إليه الصحيفة، ثم ... هي كما قال الرسول! كل ما هو ظلم وشر أكلته الأرضة ولم يبق إلا «باسمك اللهم»

سقط في أيدي ... ولاهم ... وكان أول من خرج منهم أبو جهل محاولا ... من قبول قريش لعرض أبي طالب، فقام في وجهه هشام بن عمرو، وزهير بن أبي أمية، ومطعم بن عدي وغيرهم ممن ضربت بهم في مصاهرتهم وعلاقتهم تلك الصحيفة المشؤومة، التي لم يمضوها إلا مرغمين، وقاموا ممزقين لها ...

... هذا العمل الشاذ الذي لم يوافق عليه إلا عن غير رغبة منه، لم يعد له وجود، وما ... من عهد فهو مرذول يجب أن يلغى

أمام هذه الاحتجاجات الصارخة اضطر أبو جهل للعصر ...

ألغي العهد إذن، ورجع بنو هاشم وبنو عبد المطلب إلى مساكنهم

وفاة أبي طالب وخديجة:

يبدو أن نمو الإسلام أصبح بعد ذلك مأمونا، غير أن ... جاءنا فجأة فمزقت ما كان في الحسبان، أما أولاهما فهي موت أبي طالب حامي الرسول، ... كان لا يمل ولا يسأم وكان قد تجاوز الثمانين.

... رغم ما كانت ... عنه ... الإسلام من ... فإنه لم يعتنقه، ... عند موته ... هاشم ... محمد ... ، فالتهز الرسول الفرصة وقال: ... يا عم ... لأشفع لك بها ... لنفسك؟ فقال: فما تريد مني؟ ... قال ... لا إله إلا الله. فقال: يا ابن أخي ... قد علمت أنك صادق، غير أني أخشى أن أتهم بالخوف عند ما حان حيني، ولولا ذلك ... نصيحتك لأقر عينيك التي ... مطلع حزنك.

وذكر أنه لما تقرب من ... الموت، نظر العباس إليه يحرك شفتيه، فأصغى إليه بأذنه ثم قال: «يا ابن أخي لقد ... عمك الكلمة التي نصحته بها» غير أن مؤرخي السيرة المعتمدين يرفضون هذا الخبر ... يعلم الحقيقة إلا الله

بعد هذه الكارثة ... ثلاثة، أصيب الرسول بكارثة أخرى أدهى وأمر: ماتت خديجة وفقد الرسول رفيقته ...، التي وهبت نفسها له وهو فقير، وآمنت به في حين أعلن الآخرون أنه ساحر، والتي ... إليها ... وأمانيه فتشجعه، والتي واسته في رفق ومودة في ساعات الشدة.

ماتت خديجة أم المؤمنين ... النساء إسلاما، في سن الخامسة والستين رضي الله عنها.

كان لخديجة في نفس الرسول جاذبية قوية لطيفة، فلم يشرك معها غيرها طيلة حياتها، ورغم أنه كان في ... شبابه ... لم يقبل الزواج بأخرى، مع أن التقاليد كانت تسمح بذلك، ومع ... الأسباب من كل ... كانت تمهد له وتغريه به، وإذا كانت قد فارقته فإن ذكراها ... كانت على لسانه، وكان ... عائشة، التي صارت زوج الرسول المفضلة، تجد لذع الغيرة وتحس به في ... ، وتقول

لم تنطو على قلبي الغيرة من أية واحدة من زوجات الرسول سوى خديجة، رغم أني لم أعرفها، ورغم أنها ماتت قبل زواجي بزمن طويل، إلا أن الرسول يردد دائما ذكراها، ويحتفظ ... لصديقات خديجة

... مرة ... أنه لم يوجد في العالم من النساء غير خديجة، فأخذ مباشرة في تعداد فضائلها، وأعلن ... في الجنة بيت من اللؤلؤ ... بما تريد

... عليه ... بنت خويلد، ذات يوم، فعرف في لهجتها وحديثها لهجة خديجة وحديثها، فأثار ذلك في نفسه الشجن، فلم أتمالك نفسي من الغيرة وقلت حانقة: مالك تثير ذكرى عجائز قريش ذوات الأنياب الحمراء، والأسنان الساقطة، والوجه الذي ذهبت نضارته السنون؟ ألم يعوضك ... خيرا منهن؟».

رغم كل هذا، ورغم جمال عائشة وذكائها، وما تمتاز به زوجاته الأخريات من جمال وفطنة، فإنه كان ... عليهن خديجة، ويعدها واحدة من أربع نساء، هن أكمل من وجد على ظهر البسيطة، ما ... الأخريات فهن آسية امرأة فرعون التي أنقذت موسى، ومريم أم عيسى، وفاطمة الزهراء بنت محمد من خديجة.

خروج الرسول إلى الطائف:

... الرسول ... المناصرين، وأصبحت قريش بعد موت حامية النبيل تعلن ما كانت تسر من ... ، فعزم الرسول على نشر الدعوة خارج مكة، ورأى أنه لو وفق في حمل بعض ... خارج مكة على اعتناق دعوته، فإن ... لأنصاره المكيين الذين ... للإسلام حربا يعرض نفسه على المعاونين

توجهت أولى محاولات الرسول من هذا النوع إلى الطائف، وهي بلدة صغيرة شرقي مكة، وعلى بعد اثنين وسبعين ميلا منها تقريبا، وهي مشهورة بعنبها، وتينها، ورمانها، وتمرها، وأزهارها وحدائقها ...، ولما وصل الرسول إليها، ومعه زيد بن حارثة، عمد إلى حيث

يجتمع سادة ثقيف، فمشى إليهم، وكلمهم فيما جاء له من نصرتهم للإسلام، والقيام معه على ما خالفه.

بدأ حديثه يأخذ بأفئدة أغلب الحاضرين، ويؤثر كمانته، في من يصغون إليه، وإذا بثلاثة إخوة من أشراف ثقيف، ممن لهم الرأي المسموع فيها، يقطعون عليه فجأة حديثه، فقال أحدهم مكذبا:

إني أقطع ثياب الكعبة إن كان الله قد أرسلك، وقال الثاني: أما وجد الله أحدا يرسله غيرك؟، وقال الثالث: والله لا أكلمك أبدا، لئن كنت رسول الله كما تقول، لأنت أعظم قدرا من أن أرد عليك، ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغي لي أن أكلمك.

هدمت هذه المعارضة جاذبية حديث رسول الله وسحره، فرأى الرسول ألا رجاء في هذه البلدة الآن، وقام ليعود من حيث أتى.

ولم تتركه ثقيف وشأنه، بل أرادت أن توسعه سبا، فأحدثت الدهماء تصيح به وتصيبه، أثارت عليه سفهاءها وعبيدها، واجتمع عليه الناس وقعدوا له صفين في طريقه، فلما مر بين الصفين جعل لا يرفع رجليه ولا يضعهما إلا رضخوهما بالحجارة، وكان إذا وجد ألم الحجارة قعد على الأرض ليحمي رجليه الداميتين فيأخذون بعضديه ويقيمونه، فإذا مشى عادوا إلى عبثهم المعهود، كل هذا وزيد بن حارثة يقيه بنفسه حتى لقد شج وجهه بحجر كانت قوة صدمته بحيث طرحته أرضا. هكذا سار الرسول في طريقه يسقط مرة ويقوم أخرى، ويجر نفسه جرا ثقيلا أليما بين سخرية الدهماء وعبثهم، وكذلك كان زيد، حتى وصلا في النهاية إلى حائط بستان، وجدا وراءه مأمنا، وهناك سقطا من الإعياء مستظلين بشجرة كرم، ثم دعا الرسول فقال:

«اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، وأنت ربي، إلى من تكلني؟ إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي».

لم يجرؤ سفهاء ثقيف على دخول البستان خلف صاحبيهم، فقد كان يملكه قوم كرماء، ساءهم المنظر الذي شهدوه، فأمروا عبدهم عداسا أن يقتطف من العنب ويحمله في سلة إلى ضيفيهم العابرين.

فلما هدأت حدة آلامهما بسبب الراحة في الظل الوارف، وهدأ ظمأهما بالارتشاف من عصارة عنب الطائف السكرية، قاما واتخذا الطريق إلى مكة.

فكر الرسول في موقف أهل مكة منه عند وصوله، ورأى أن لا مناص من أن يستجير بأحد أصحاب النفوذ، فصار إلى حراء، ثم بعث زيدا إلى الأخنس فلم يجره، فبعثه إلى سهيل فأبى، فبعثه إلى المطعم بن عدي فأجابه إلى ما أراد، ثم تسلح المطعم وأهل بيته، وخرجوا حتى أتوا المسجد، وأتى زيد برسول الله فدخل المسجد وطاف بالبيت سبعا قبل أن يذهب إلى منزله.

الإسراء والمعراج

أثار الإسراء والمعراج كثيرا من المناقشات بين علماء الإسلام، فبعضهم يرى أن ذلك معجزة حصلت فعلا بالروح والجسد في اليقظة، بينما الآخرون يعتمدون على أصح الآثار، من بينها حديث عائشة زوج الرسول المفضلة وبنت أبي بكر، ويرون أن الروح وحدها هي التي أسرى بها وعرج إلى السماء[1] وليس ذلك إلا رؤيا صادقة، كما كان يحصل كثيرا للرسول أثناء نومه.

وفي الليلة السابعة والعشرين من شهر ربيع الأول تلقى جبريل -وهو الموكل بكواكب النور- الأمر من الله تعالى أن يأخذ من ضوء الشمس ليزيد في ضوء القمر، وأن يأخذ من ضوء القمر ليزيد في ضوء النجوم، لتزدهر القبة الزرقاء، وتتلألأ سناء وإشراقا، ثم ينزل إلى محمد فيوقظه من النوم، ويرفعه إليه تعالى مخترقا طبقات السماء السبع، وفي ذلك يقول الرسول: «بينما أنا نائم إذ أتاني جبريل بالبراق[2] — وهي الدابة التي كانت تحمل عليها الأنبياء- لا يماثله حيوان من حيوانات الأرض، فهو بين البغل والحمار، أبيض من البرد[3].

«له وجه إنسان، بيد أنه لا يتكلم، وله جناحان كبيران يرتفع بهما في الهواء، ويشق بهما طبقات الفضاء، أما ذوائبه وذيله ولبانه وشعره فقد كانت محلاة بأنفس الجواهر التي يبلغ لألاؤها من السناء بحيث يصارع لألاء آلاف النجوم، وركبته فحملني مثل لمح البصر من الحرم المكي إلى بيت المقدس، فلما نزلت ربطته حيث كان يربطه الأنبياء، وجاءني رجل يحمل إلي إناءين، في أحدهما خمر، وفي الآخر لبن، فشربت اللبن وتركت الخمر، فقال لي جبريل- الذي رافقني، وحاداني طيلة رحلتي- هديت إلى الفطرة، ولو اخترت الخمر وفضلته على اللبن، لفضلت أمتك الضلال على الهدى».

وبعد أن طاف الرسول بالمسجد الأقصى، صعد على الصخرة التي انحنت تشريفا له، وتمكينا من أن يمتطي البراق، وتابع الرسول، يقوده جبريل مبعوث السماء، رحلته خلال طبقات الفضاء الزرقاء.

---

(1) إن الرأي المشهور، فيما يتعلق بالإسراء والمعراج، أنهما كانا بالروح والجسد، وهو رأي يستدلون عليه بمختلف الأدلة ويعرفه كل من له أدنى إلمام بالسيرة النبوية، ولكن المؤلف اختار رأيا آخر أقل شهرة، وهو مع ذلك قد قيل به.

يقول السهيلي: «وقد ذكر ابن إسحاق عن عائشة ومعاوية أنها -أي مسألة الإسراء- كانت رؤيا حق، وأن عائشة قالت: لم تفقد بدنه، وإنما عرج بروحه تلك الليلة، ويحتج قائل هذا القول بقوله: وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس، ولم يقل الرؤية، وإنما يسمى رؤيا ما كان في النوم في عرف اللغة، ويحتجون أيضا بحديث البخاري عن أنس بن مالك قال: ليلة أسري برسول الله، صلى الله عليه وسلم، من مسجد الكعبة، أنه جاءه ثلاثة نفر، قبل أن يوحى إليه، وهو نائم في المسجد الحرام فقال أولهم: أيهم هو؟ فقال أوسطهم: هو خيرهم، فقال آخرهم: خذوا خيرهم، فكانت تلك الليلة فلم يرهم، حتى أتوه ليلة أخرى، فيما يرى قلبه، وتنام عينه ولا ينام قلبه، وكذلك الأنبياء عليهم السلام تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم، فلم يكلموه، حتى احتملوه، فوضعوه عند بئر زمزم، فتولاه منهم جبريل، الحديث بطوله، وقال في آخره: واستيقظ وهو في المسجد الحرام، وهذا نص لا إشكال فيه، أنها كانت رؤيا صادقة».

ثم ذكر السهيلي الرأي المشهور وأدلته، وبعد ذلك يذكر رأيا ثالثا يراه هو ومالك معه ويرجحه، يقول: وذهبت طائفة ثالثة منهم شيخنا القاضي أبو بكر، رحمه الله، إلى تصديق المقالتين، وتصحيح المذهبين، وأن الإسراء كان مرتين، [illegible] ثم قال: وهذا القول هو الذي يصح، وبه تتفق [illegible] وابن إسحاق، بعد أن ذكر رأي عائشة ومعاوية من جانب، ورأي الجمهور من جانب آخر، قال: والله أعلم [illegible] كل ذلك قد جاءه وعاين فيه ما عاين من أمر الله، على أي حالية كان، نائما أو يقظان، كل ذلك حق وصدق. الروض الأنف [illegible] طبعة ١٩١٤ جـ ١ ص ٢٤٣ وما يليها.

(2) في هذا الحديث الصريح اعتراف بأنها كانت يقظة بالروح والجسد وخاصة ذكر البراق الذي لا يحمل عليه إلا جسم لا روح.

(3) كرات الثلج الصغيرة المتساقطة من السماء أثناء المطر.

ولا يمكننا أن نعرض هنا لكل ما ذكر من وصف المعراج، غير أننا نلاحظ أن بعض المؤلفين، وعلى الأخص الفرس، قد أطلقوا لخيالهم العنان، وبعضهم، مثل ابن سعد، وابن الفداء، اتخذ خطة حكيمة فاقتصروا على رواية هي غاية في البساطة، وسنقتصر نحن هنا على ذكر مقابلة محمد مع الرسل الذين سبقوه، وهم: إبراهيم، وموسى، وعيسى، ثم طوافه بالجنة التي أعدت للمتقين، والتي تعطرت رياضها تشريفا له وتعظيما، ثم رؤيته للنار التي أعدت للكافرين والتي خمد لهيبها عند مروره بها

ثم إن اخترق الرسول السموات السبع حتى سمع صرير الأقلام تكتب في «لوح القدر»، وسمع تسبيح الملائكة وتقديسهم لله تعالى، ثم وصل إلى «سدرة المنتهى» وهنا تركه جبريل قائلا: «هنا حدود المعرفة، وهنا يجب أن أقف، أما أنت يا خير الرسل، وحبيب رب العالمين، فتابع معراجك المبارك، واصعد محاطا بنور من أنوارك».

وتابع المصطفى اختراق الحجب التي تحول دون رؤية الساتر، إلى أن وصل إلى حجاب الوحدة، فرأى ما لا تراه الأعين ولا يخطر على قلب بشر، لم تكن حاسة بصره الجسمانية لتحمل هذا البريق الذي يخطف الأبصار.[1]

فمنح الله عيني قلبه ليمنحه القدرة على مشاهدة هذا الجمال «اللانهائي».

ثم قربه الله من عرشه حتى أصبح «قاب قوسين أو أدنى». [2]

وبعد أن أخبره الله بما سبق أن أخبر به، أعني أصطفاءه لتبليغ الرسالة... ألح عدد الصلاة بخمسين مرة في اليوم والليلة، يؤديها المؤمن اعترافا بفضل مانح النعم، وتقابل مع موسى الذي سأله قائلا: «يا رسول الله، كم فرض الله على أمتك من الصلوات؟»

خمسون صلاة في اليوم والليلة

عد يا خير الخلق إلى إلهنا وسيدنا، فاطلب منه التخفيف، لأن أمتك لا تطيق، ذلك حمل ثقيل على الضعفاء والكسالى من بني الإنسان، وإني قد بلوت بني إسرائيل وخبرتهم.

وعاد محمد إلى رب العالمين، وتكررت عودته إلى أن فرض الله على أمته خمس صلوات فقط في اليوم والليلة

هذا الرمز الذي كان من شأنه تحديد عدد الصلاة نهائيا يدل أيضا على أن الصلاة في العبادة ليست إلا ابتعادا عن روح الإسلام

- «يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفا»[3] سورة النساء، آية ٢٨.

وما حاجة الله إلى صلاة البشر؟

(١) في هذا يجب علينا أن نعرف أن المعراج كان بجسده وروحه... على ذلك ذكر النبي صلى الله عليه وسلم... كل ذلك صريح في أنها كانت بالروح والجسد، وذكرت بعض الأحاديث أنه صلى الله عليه وسلم كان نائما، وأثبتت بعض الأحاديث الأخرى أن الملائكة أيقظته فاستيقظ فلم يكن هناك تعارض

(٢) سورة النجم

(٣) يقول الله تعالى: «يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر» البقرة ١٨٥، «وما جعل عليكم في الدين من حرج» الحج ٧٨.

- «لا تمسحت ربنا سحر ويرقك» سورة طه، آية ١٣٢.

كتب الله الصلاة على عبيده، واقتضت حكمته أن تكون أنفع وأصح ما منحهم من خير، نعم، خمس صلوات في اليوم، تمكن بني البشر من الراحة التامة خمس مرات يوميا، فتحول بينهم وبين الانفعالات والعواطف المثيرة التي تؤدي تارة إلى المغالاة في الفرح، وذلك طريق يؤدي إلى الرذائل، وتارة إلى المغالاة في الحزن، وذلك طريق قد يؤدي إلى جنون اليأس، خمس صلوات يوميا، بما لهن من مقدمات في الطهارة، يلزم الإنسان العمل على نظافة بدنه وصفاء روحه.

أصبح رسول الله، غداة الرؤية، مشرق الوجه من الفرح، ورآه أبو جهل عدوه المبين، فسأله في سخرية:

«يا محمد، هل من نبأ جديد من أنبائك المدهشة التي عودتنا إياها؟»

«نعم، لقد أسري بي ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، ثم عدت إلى مكة».

فصاح أبو جهل: «يا معشر قريش، أسرعوا، هيا أسرعوا، لتسمعوا نبأ محمد العجيب، نبأ رحلته الليلة».

تراكم الناس وتجمعوا، وأخذ رسول الله يعرض عليهم قصة إسرائه.

كان أغلب المجتمعين وثنيين، فحاكوا رئيسهم أبا جهل، وقابلوا القصة ساخرين هازئين، وأخذ البعض يصفق، والبعض يضغط على فوديه بيديه كما لو كان يخشى انفجارا في رأسه من غرابة ما سمع.[1]

أما المؤمنون، فقد تردد بعضهم في التصديق بالخبر، ولم يجرؤ البعض الآخر أمام ما أظهره العامة من سخرية أن يعلن ثقته بما رأى.

وبينما القوم في ضجيجهم واضطرابهم، إذا بأبي جهل يذهب مسرعا إلى أبي بكر ويقول:

«هل أتاك نبأ صاحبك؟: يزعم أنه أسري به الليلة إلى بيت المقدس وصلى فيه ورجع إلى مكة!»، ثم صمت أبو جهل سعيدا بما يتوقع أن يراه على وجه محدثه من اضطراب وغيره.

بيد أن أبا بكر أخلف ظنه وقال، في بساطة: «لئن قال ذلك لقد صدق وأنا به مؤمن، ولئن زعم أنه صعد إلى السماء السابعة، وعاد في ساعة من ليل أو نهار لآمنت بما يقول». هذا الإيمان وضع حدا لسخرية أبي جهل عند بدء ما يقول، ومنح أبو بكر لقب الصديق من أجل ذلك.

هذه الثقة من أبي بكر – وهو من هو – شجعت المسلمين، وعبثا حاول أبو جهل، بعد هذا، أن يبعث الإنكار في نفوسهم، بل لم تزد محاولته إلا إلى تقوية اعتقادهم، فأوحى إليه شيطانه بفكرة لإظهار كذب الرسول، فسأله عن وصف بيت المقدس، ولم يكن محمد قد رآه قبل ليلة الإسراء، فأجاد رسول الله في وصفه وصفا دقيقا محددا، ووافق على صدق وصفه من شهد بيت المقدس من الحاضرين، فخاب فأل أبي جهل، وبدا عليه الاضطراب.

(١) لقد رأينا في هذا التصريح في أنها كانت ... بالروح والجسد، وإلا لما تعجب أحد، فضلا عن هذا التجمهر والدهشة البالغة، وصدق الله إذ قال: «وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس» الإسراء ٦٠.

وما لبث المسلمون، وقد قوي إيمانهم، أن أسرعوا إلى ارتداء ملابس الطهارة الخمس، أعني أداء الصلوات التي حملها إليهم الرسول من السماء.

وفي أواخر سنة الإسراء عاد عثمان بن عفان وزوجته رقية من الحبشة مع بعض المهاجرين، وكان من بينهم مهاجر اسمه سكران، مات عند وصوله إلى مكة، فتزوج الرسول أرملته سودة بنت زمعة، ليكافئها بذلك على تحمسها للإسلام، وعلى صبرها على إيلام المشركين لها، وتحملها مشاق الهجرة في سبيل دينها، وكانت من أوليات المسلمات.

وكذلك رغب رسول الله في الاعتراف لأبي بكر الصديق بتضحيته التي لا تحد في سبيل [illegible] أن يزيد فيما بينهما من صلة، فتزوج بابنته عائشة، في الفترة التي بنى بها بسودة تقريبا، ولم تكن عائشة إذ ذاك في سن الزواج، فقد كانت من تبلغ من العمر عشر سنين تقريبا، ولذلك لم يدخل بها الرسول إلا بعد سنوات عدة، بعد أن هاجر وأقام بالمدينة.

إسلام ستة من أهل يثرب سنة ٦٢٠م:

رغم تصديق أبي بكر البالغ بالإسراء والمعراج، ورغم ما أحدثته الصلوات الخمس في نفوس المسلمين من حرارة وتحمس، فإن أثر قصة الإسراء والمعراج لم يفد الإسلام- من حيث انتشاره- إلا قليلا، بل لقد قدم إلى أعدائه شبه انتصار مكنهم من أن يضاعفوا سخريتهم وتعذيبهم للمسلمين.

أمام هذه الحالة ييأس عظماء الرجال، ولكن محمدا لا يعرف اليأس وإنما يعرف أن الله القادر سوف لا يخذل قط رسوله الذي أوحى إليه:

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ① مَلِكِ النَّاسِ ② إِلَٰهِ النَّاسِ ③ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ④ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ⑤ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ⑥ ﴾ [الناس].

غير أن الرسول انصرف عن دعوة أهل مكة- مؤقتا- إلى الإيمان، متجها إلى العرب الخارجين عن مكة، الذين كانوا يأتون فرادى وجماعات في موسم الحج، وفي الأسواق التي كانت تقام، كان الرسول يتنقل، لا يكل، بين مختلف الجماعات ومن ورائه- لا يكل أيضا- عمه أبو لهب الذي لا يلبث حينما يرى القوم يحيطون بمحمد أن يصيح: «لا تصغوا لهذا الرجل، فإنه إنما يدعوكم إلى أن تطرحوا عبادة اللات والعزى وراء ظهوركم، ليخدعكم بما أتى به من عقيدة غير معقولة يزعم أنه أرسل لنشرها».

هذه الكلمات كانت تثير الريبة والحذر في نفوس العرب، فيبتعدون عن محمد قائلين مثلا: «إن مواطنيك أعلم بك منا، فابدأ بإقناعهم»، أو: «إذا منحك الله النصر، فإن ثمرة انتصارك لا تعود علينا، وإنما تعود على عشيرتك، فلا فائدة ترجى إذا من التحالف معك».

لم يوهنه مثل هذا اللقاء الجاف من عزم الرسول، وما من شخصية عظيمة وصلت إلى مكة إلا وكان الرسول من أسرع الناس إلى لقائها.

وبينما رسول الله عند العقبة، إذ لقي رهطا من العرب وصل حديثا، عدته ستة نفر، فتقدم إليهم في رقته المعتادة سائلا:

من أنتم أيها السادة؟

نفر من الخزرج

أمن موالي يهود يثرب؟

نعم.

أولا تجلسون؟ [illegible] وتلا عليهم القرآن

بلى [illegible] يثرب، كان يهود يثرب

جلس القوم بجواره، فدعاهم [illegible] عز وجل، وعرض [illegible] [illegible] العرب شيء قالوا

سحرهم [illegible] بلاغته وجدة أسلوبه، فأصغوا في انتباه [illegible] [illegible] وسيظهر به سالفكم»

تحت سحره [illegible] وكان يهود أهل كتاب وعلم، فإذا [illegible] [illegible] النبي الذي تهددنا

إن نبيا مبعوثا [illegible] ويفصل عرضه [illegible]

فلما كلم الرسول [illegible] بعضهم إلى بعض قائلين

به اليهود، [illegible] لا نتركهم يسبقون إليه

[illegible] [illegible] وعسى أن يجمعهم

إنا تركنا قومنا [illegible] الأوس والخزرج، وبينهم من العداوة و [illegible] [illegible] إليه من هذا الدين»

الله بك، فسنقدم عليهم وندعوهم إلى أمرك، ونعرض عليهم

فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك».

بيعتا العقبة سنة ٦٢١م:

[illegible] الجدد موعدهم، فبشروا بالإسلام، وأذاعوه [illegible] العام المقبل، وفي

الموسم من [illegible] عشر رجلا، من الخزرج واثنان من [illegible] رسول الله بالعقبة،

فبايعوه، [illegible] بعث الرسول معهم مصعب بن [illegible] [illegible] تفقها في الدين،

ليرشدهم [illegible] لا يعلمون من دينهم

لم يجد الإسلام من العقبات في يثرب مثل ما وجد [illegible] [illegible] المنافع الأدبية من

استعلاء [illegible] حجر عثرة في سبيل [illegible] [illegible] مصعب أن عمله

في يثرب [illegible] يتلوه من القرآن [illegible] [illegible] يؤثر في الناس

بسرعة لا [illegible] الإسلام في يثرب [illegible] [illegible] أرضا جدباء من قبله

[illegible] فيها [illegible] من كل زوج بهيج [illegible] الإسلام بروحه الصافية

الدينية [illegible] على عوامل التفرقة [illegible] [illegible] سكانها الفضائل

الضرورية لانتصاره وسيادته

وما لبث مصعب غير [illegible] حتى لم يعد بيت من [illegible] [illegible] والخزرج إلا ومن بين

أفراده عدد من المؤمنين، [illegible] فخورا بثمرة [illegible] [illegible] مكة، ليعرض الحالة على

محمد، حتى إذا كان موسم الحج حضر إلى مكة مع [illegible] [illegible] من أهل الشرك، خمسة

وسبعون [illegible] من بينهم امر [illegible]

حضر هؤلاء المسلمون، [illegible] فتواعدوا مع [illegible] صلى الله عليه وسلم- عند

العقبة ليلة [illegible] أيام التشريق [illegible] عليه الإقامة [illegible] [illegible] ويعلن له الأمن

[illegible]

[illegible] الآن أحد هؤلاء الحجاج، وهو كعب بن مالك، يقص علينا ما حدث:

[illegible] على ألا نخبر المشركين منا بشيء، فنمنا تلك الليلة مع قومنا في رحالنا، حتى إذا مضى ثلث الليل، خرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله، نتسلل تسلل القطا، مستخفين، حتى [illegible] في الشعب عند العقبة ننتظر الرسول الذي ما لبث أن حضر ومعه العباس بن عبد المطلب، وهو يومئذ على دين قومه إلا أنه أحب، لعاطفته القوية نحو ابن أخيه، أن يحضر أمره [illegible] ويحفظه، كما كان يفعل أبو طالب، من كل شر، فلما جلس الرسول، كان أول متكلم [illegible] عبد المطلب فقال:

[illegible] الأوس والخزرج، إن محمدا منا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا، ممن هو على [illegible] فيه، فهو في عز من قومه، ومنعة في بلده، وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم، واللحوق بكم، [illegible] كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ومانعوه ممن خالفه، فأنتم وما تحملتم، [illegible] ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم فمن الآن فدعوه، فإنه في عز ومنعة من [illegible] وبلده فقلنا بدون تردد:

[illegible] الله لو كان من أنفسنا غير ما ننطق به لقلناه، ولكنا نريد الوفاء والصدق.

ثم [illegible] إلى الرسول قائلين: تكلم يا رسول الله، فخذ لنفسك ولربك ما أحببت. فتلا رسول [illegible] القرآن، وذكر أسس الإسلام، ثم [illegible]:

[illegible] على أن تمنعوني وأتباعي مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم، فبايعناه في تحمس [illegible] فائق.

[illegible] الله أهل الحرب وأهل الحلقة[1]، ورثناها كابرا عن كابر، وقال أبو الهيثم:

يا رسول الله، بيننا وبين الرجال –يعني اليهود– حبالا، وإنا قاطعوها، فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك، ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك، وتدعنا؟!، فابتسم رسول الله وقال مصححا: «إن دمكم [illegible] وشرفكم شرفي، أنا منكم وأنتم مني، أحارب من حاربتم، وأسالم من سالمتم»، ثم [illegible] الله «اخرجوا إلي منكم اثني عشر نقيبا ليكونوا على قومهم بما فيهم». وبعد مشورة أخرجوا [illegible] من الخزرج وثلاثة من الأوس، فلما عرضهم على رسول الله [illegible] قائلا: «أنتم كفلاء على قومكم، ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم على قومهم»، قالوا: نعم.

[illegible] البيعة وأخذ العهد، قام العباس بن عبادة، وقال:

يا [illegible] الأوس والخزرج، هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل؟

[illegible]

[illegible] تبايعونه على حرب الأسود والأحمر من الناس، فإن كنتم ترون أنكم إذا نهكت [illegible] وأشرافكم قتلا، أسلمتموه، فمن الآن، فهو والله إن فعلتم خزي الدنيا والآخرة، وإن كنتم [illegible] أنكم وافون له بما دعوتموه إليه على نهكة الأموال[2]، وقتل الأشراف فخذوه،

---

[1] [illegible]

[2] [illegible]

فهو والله خير الدنيا والآخرة فأجبنا من غير تردد [illegible] الإسلام، فما لنا بذلك إذا نحن وفينا على مصيبة الأموال [illegible] الأشراف، طالما أن ذلك [illegible] يا رسول الله إن نحن وفينا؟.

قال: الجنة، وأنتم فيها خالدون [illegible]

- «والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا [illegible] سرا وعلانية ويدرءون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار (٢٢) جنات عدن يدخلونها [illegible] صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب (٢٣) سلام عليكم [illegible] فنعم عقبى الدار» سورة الرعد، [illegible]

- «وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من [illegible] الأنهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذي رزقنا من قبل وأتوا به متشابها ولهم فيها [illegible] مطهرة وهم فيها خالدون» سورة البقرة، [illegible]

- «وحور عين (٢٢) كأمثال اللؤلؤ المكنون (٢٣) جزاء بما كانوا يعملون [illegible] لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما» سورة الواقعة، آية ٢٢ [illegible]

- «ونزعنا ما في صدورهم من غل تجري من تحتهم الأنهار وقالوا الحمد لله الذي هدانا لهذا» سورة الأعراف، [illegible]

- «وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين (١٣) [illegible] الذين آمنوا كونوا أنصار الله» سورة الصف، آية ١٣، ١٤.

فلما سمع المؤمنون بما لا يخطر على قلب بشر من نعيم [illegible] هذا النعيم الذي أطلعه الرسول في الصورة الوحيدة التي هي في متناول العقل الإنساني [illegible] العاجز الضعيف، أحسوا بالأمل يدب في أرواحهم، فقالوا للرسول:

ابسط يدك، فبسط يده، فكان أول من ضرب عليها أسعد [illegible] [illegible] وتلاه أبو الهيثم، ثم البراء، وتبعهم الباقون، وسموا من ذلك الحين بالأنصار [illegible] وفي القلب فرح، وفي النفس أمل، وعندما بايعنا رسول الله، هممنا بالذهاب للعودة إلى رحالنا [illegible] فإذا صرخة من أعلى العقبة بأبعد صوت [illegible] يا معشر قريش، الحذر، الحذر، إن الأوس والخزرج قد [illegible] على حربكم

أحدث فينا هذا الصوت [illegible] لكن الرسول [illegible] أحد من أحدثنا.

هذا صوت شيطان العقبة، [illegible] صوت إبليس عدو الله، ولم [illegible] يشعروا بشيء مما حدث.

عدنا إلى رحالنا حيث [illegible] يغطون في نوم عميق [illegible] هم الذين كانوا يتهمون أثر

فلما أصبحنا، غدا علينا [illegible] قريش، وأهله [illegible] الرسول في سلاره، وقالوا:

«يامعشر الأوس والخزرج، [illegible] أنكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا، تستخرجونه من بين أظهرنا، وتبايعونه على حربنا

فانبعث من هناك من مشركي قومنا يحلفون بالله، ما كان من هذا شيء، وما علمناه، وقد صدقوا، فما لهم بما كان من علم، وقال عبد الله بن أبي بن سلول لهم:

إن هذا الأمر جسيم، ما كان قومي ليفتاتوا علي بمثل هذا، وما علمته.

انصرف القرشيون وهم على شيء من الاطمئنان، غير أنهم بعد قليل تقابلوا مع أعراب كانوا قد شهدوا مبايعة العقبة، فأكدوا لهم ما نفاه مشركو يثرب، فعادوا مسرعين في طلب القوم، فوجدوهم قد ارتحلوا.

المؤامرة ضد الرسول:

أصبح للرسول بعد هذه البيعة ملجأ أمين في مدينة يثرب، فأمر أتباعه بالهجرة إليها.

ولم يطمئن المشركون إلى هذا الأمر، ورأوا من الخطر عليهم أن يؤلف صحاباهم مع أهل يثرب– تلك المدينة التي تنافس مكة– جماعة واحدة، فعارضوا الهجرة، بكل ما يملكون من وسائل العنف، لذلك لم يتمكن المسلمون من الهجرة إلا فرادى أو جماعات صغيرة متتابعة، وقد سمي هؤلاء، منذ ذلك الحين بالمهاجرين.

أما الرسول، وقد اطمأن إلى مصير المهاجرين، فقد مكث في مكة مع صاحبيه: أبي بكر وعلي، حقيقة أنه لم يكن يجهل ما يحيط به من أخطار، غير أنه– رغم إلحاح أبي بكر– أراد أن يحاول محاولة أخيرة لإقناع بعض مواطنيه باعتناق الإسلام، والهجرة إلى حيث يجدون الأمن والطمأنينة، وذلك قبل أن يغادر مسقط رأسه وقبل أن يضطر إلى الاحتكام إلى السيف، ثم إنه– فضلا عن ذلك– لم ير أن يترك مكانه قبل أن يتلقى الأمر من ربه سبحانه.

وصل الغضب بقريش إلى أقصاه بسبب هجرة المؤمنين، واستولى عليهم القلق، فعزموا على القيام بأمر حاسم، واجتمعوا لذلك في دار الندوة، وهي دار بناها أحد أسلافهم، قصي بن كلاب، في هذه الدار كانت قريش تتشاور في كل أمر جلل، ولم تكن تسمح بحضور الشورى إلا لمن كان من نسل قصي، ويكون قد بلغ من العمر على الأقل أربعين خريفا.

في اللحظة التي بدأ كل ممثل لعشيرته يتأهب لدخول الدار، رأوا شخصا في هيئة شيخ جليل، عليه طيلسان من صوف، يقف بالباب، فسألوه من يكون، وماذا يريد؟

قال: شيخ من أهل نجد، رأيتكم حسنة وجوهكم، طيبة ريحكم، فأحببت أن أجلس إليكم وأسمع كلامكم، وعسى ألا يعدمكم مني رأي أو نصح.

كان سكان نجد بمعزل عن تهمة التحالف مع محمد، فلم يروا مانعا من السماح لهذا الشيخ الجليل بحضور مجلسهم، فدخل معهم، وبدأت المناقشة بين أعضاء الجماعة، وقال قائلهم:

نحن نعلم جميعا ما كان من هذا الرجل ومكائده، وإنا والله ما نأمنه على الوثوب علينا فيمن قد اتبعه من غيرنا فليبد كل منكم– في حرية تامة– ما يرى، وأجمعوا فيه رأيا.

قال أبو البختري: احبسوه في الحديد، وأغلقوا عليه بابا، ثم تربصوا به الموت.

فقال الشيخ النجدي: لا والله، ما هذا لكم برأي والله لو حبستموه كما تقولون ليخرجن أمره من وراء الباب الذي أغلقتم دونه إلى أصحابه، فلأوشكوا أن يثبوا عليكم، فينتزعوه من أيديكم ثم يكاثروكم حتى يغلبوكم على أمركم، ما هذا لكم برأي، فانظروا في غيره.

قال الأسود بن ربيعة: نخرجه من بين أظهرنا، فننفيه من بلادنا، فإذا خرج عنا، فوالله ما نبالي أين يذهب.

فقال الشيخ النجدي: والله ما هذا برأي، ألم تروا حسن حديثه، وحلاوة منطقه، وغلبته على قلوب الرجال بما يأتي به، والله لو فعلتم ذلك ما أمنتم أن يحل على حي من أحياء العرب فيغلب عليهم بذلك من قوله وحديثه حتى يتابعوه عليه، ثم يسير بهم إليكم حتى يطأكم في بلادكم بهم، فيأخذ أمركم من أيديكم، ثم يفعل بكم ما أراد، دبروا فيه رأيا غير هذا.

قال أبو جهل: والله إن لي فيه لرأيا ما أراكم وقعتم عليه بعد.

قالوا: وما هو يا أبا الحكم؟

أرى أن نأخذ من كل قبيلة شابا جلدا، حسيبا في قومه نسيبا، ثم نعطي كل فتى منهم سيفا صارما، ثم يعمدوا إليه، فيضربوه ضربة رجل واحد فيقتلوه، فنستريح منه، فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه بين القبائل جميعا، فلا يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعا، فرضوا منا بالدية فأعطيناها لهم.

قال الشيخ النجدي، الذي لم يكن إلا إبليس في شخصية إنسان: القول ما قال الرجل، هذا هو الرأي، لا رأي غيره.

أقرت الجماعة الغادرة هذا الرأي، واعتقد المشركون– منذ [illegible] أنهم قد تخلصوا من عدوهم، غير أن المشيئة الإلهية أحبطت ظنهم[1] فقد أرسل الله جبريل إلى رسوله يعرفه بمؤامرة دار الندوة، ويأمره بالهجرة ويطلب إليه أن لا يبيت على فراشه الذي كان يبيت عليه.

كان بمنزل الرسول أمانات وضعها عنده المشركون لثقتهم في [illegible] فأبت نفسه الهجرة قبل رد الأمانات إلى أهلها، لذلك دعا علي المخلص الوفي، وكلفه بردها بعد أن أخبره بنبأ دار الندوة، وقال له: نم على فراشي، وتسج ببردي هذا الحضرمي الأخضر، فنم فيه فإنه لن يخلص إليك شيء تكرهه منهم!

مضى الهزيع الأول من الليل والمؤتمرون خلف باب الرسول [illegible] بينه وبين الهرب، وأبو جهل معهم يشعل فيهم نار الحماس والحمية، وكانوا على عهد [illegible] تحريضهم إلا إذا أشرق نور الفجر، حتى لا ينكر أحد مسئوليته متحديا الظلمة [illegible] تكذيبه في دعواه، هكذا قرروا، غير أن من لا ينام كان يلحظ بعين الرعاية رسوله [illegible] بلا عدد.

«إنا جعلنا في أعناقهم أغلالا فهي إلى الأذقان فهم مقمحون، وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون».

وخرج رسول الله وكله ثقة في الله، وإيمان بحمايته، وأخذ حفنة من تراب في يده، فنثرها على رءوس المؤتمرين، وقد رنقت أجفانهم من طول الانتظار، [illegible] من النوم أرسلها الله عليهم فلم يروا شيئا.

أتاهم آت– ممن لم يكن معهم– فقال: من تنتظرون هنا؟

---

(1) وفي هذا يقول الله تعالى «وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك [illegible] ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين» سورة الأنفال [illegible]

محمدا.

إن فيه قد أنقده، ولقد لعب بكم، وخرج من بينكم، ثم ما ترك منكم رجلا إلا وقد وضع على رأسه ترابا، وانطلق لحاجته!!.

وضع كل شخص يده - في رجفة - على رأسه، فإذا عليه تراب، اعتراهم الذهول، ثم أخذوا ينظرون من خصاص الباب، فرأوا عليا على الفراش متسجيا ببرد الرسول، فاطمأنوا، فلم يزالوا مكانهم حتى أصبحوا، حينئذ دفعوا الباب دفعة أتت عليه، وهجموا - مصلتة سيوفهم - على على الذى أيقظته دفعة الباب. فهب واقفا، فلما رأوا بهتوا وصاحوا به: أين رفيقك؟.

لا أدرى.

فلما رأوا أنهم خدعوا قبضوا على علىّ، وسجنوه فى الكعبة، وبعد قليل رأوا من الحماقة أن يثأروا من محمد فى شخص ابن أبى طالب، فأطلقوا سراحه.

الفصل الخامس

بسم الله الرحمن الرحيم

«وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم»

هجرة الرسول إلى المدينة:

هجر المسلمون إلى يثرب فاستأذن أبو بكر رسول الله فى الرحيل، ولكنه قال له: لا تعجل لعل الله يجعل لك صاحبا، وطمع أبو بكر أن يكون رسول الله إنما يعنى نفسه حين قال له ذلك، «ابتاع راحلتين سريعتين لحتبسهما فى داره يطعمهما إعدادا لذلك الرحيل المنتظر.

قالت عائشة :

كان لا يخطئ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأتى بيت أبى بكر أحد طرفى النهار، إما بكرة، وإما عشية، حتى إذا كان اليوم الذى أذن فيه لرسول الله، صلى الله عليه وسلم، فى الهجرة والخروج من مكة، أتانا بالهجرة فى ساعة كان لا يأتى فيها فلما رآه أبو بكر قال إنه لم يأت فى هذه الساعة إلا لأمر حدث، فلما دخل تأخر له عن سريره، فجلس رسول الله، وليس عند أبى بكر إلا أنا وأختى أسماء، فقال رسول الله: أخرج عنى من عندك، فقال:

يا رسول الله إنما هما ابنتاى، وما ذاك، فداك أبى وأمى؟ فقال:

إن الله قد أذن لى فى الخروج والهجرة، فسأله أبو بكر، فى لهفة وتوسل: «الصحبة، يا رسول الله» قال «الصحبة» قالت. فوالله ما شعرت قط قبل ذلك اليوم أن أحدا يبكى من الفرح حتى رأيت أبا بكر يبكى يومئذ، ثم إن أبى أنبأ الرسول بأمر ما أعده للسفر.

وكانت الراحلتان على أتم الاستعداد، فدفعا إلى عبد الله بن أرقط، وكان على الرغم من شركه موضع ثقة أبى بكر المطلقة، وكان على عبد الله بن أرقط أن يرعاهما ثلاثة أيام ثم يأتى بهما ليبتعد بينه وبين أبى بكر إلى غار بجبل ثور، وكان بأسفل مكة، بينه وبينها ساعة ونصف سيرا، ويقع على الطريق المؤدى إلى البحر ثم كان عليه بعدئذ أن يهديهما الطريق حتى يثرب

وخرج المهاجران، خفية، من خوخة لأبى بكر فى ظهر بيته، فسارا على أطراف الأصابع متجهين نحو جبل ثور، كان رسول الله يسير حافيا، فلم تلبث الدماء أن سالت من قدمى الرسول، وقد شجتها الصخور الحادة التى تكسو الطريق الوعر، وفزع أبو بكر لما علم بدماء المصطفى وهى تسيل، فحمله على كاهله حتى فوهة الغار، حيث أجلسه، ثم دخل وحده ليبحث فى سائر الأركان، حتى يستيقن من أن ليس هناك وحوش ضارية، أو زواحف خبيثة، ثم جمع ما كان فى الغار من الأحجار والصخور المؤذية، وحملها فى طرف ثوبه، ورمى بها على جانب الطريق، ثم عمد إلى الجحور التى من شأنها أن تخفى حيات أو حيوانات أخرى شريرة فسدها بخرق من ثيابه، وبعد أن انتهى من توفير كل وسائل الراحة فى الغار، أدخل رسول الله الذى ما لبث أن استغرق فى النوم، مسندا رأسه على فخذ صاحبه.

بيد أنه، بالرغم من كل حذر أبى بكر، تمكنت حية من الاختفاء تحت الرمل الذى كان يكسو الغار، وفى حركة لا شعورية وضع الخليل رجله فوق الزاحفة، فغضبت وأدارت رأسها

حدث تلدغه في كعبه، وأحس أبو بكر بألم مبرح ولكنه لم يحرك ساكنا خوفا من [illegible] الذي كان مستندا إليه.

[illegible] الخبيث كان يسري في عروقه، وبلغ من شدة الألم أن انسرح من عينيه دموعا [illegible] وقع بعضها على خد محمد، فاستلّه من نومه انتشالا، وجعل يسأل حائرا ماذا [illegible]؟ قال: لدغتني حية.

[illegible] روح التضحية قد ملأت قلب أبي بكر حرارة وحماسا، فتغلبت على شر السم الفتاك [illegible] يسري في دمائه، وتفل الرسول على الجرح المسموم ومسحه قليلا، فزال الألم.[1]

[illegible] فقد ثارت ثائرتهم حينما علموا بهجرة محمد وأبي بكر، فبعثوا بمناديين [illegible] مكة والآخر بأعلاها، ينديان بأن قد جعلت مائة ناقة لمن يأتي بالهاربين، وراح [illegible] يتقصون الآثار في كل ناحية.

[illegible] جهل إلى بيت أبي بكر، وطفق يضرب على الباب في غيظ، فخرجت له أسماء [illegible] فقال لها: أين أبوك؟ قالت: لا أدري والله.

[illegible] وكان فاحشا خبيثا، فلطم خدها لطمة قاسية طرح منها قرطها، ثم انصرف ولحق [illegible] الذين يفتشون في جبل ثور.

[illegible] الرسول يدخل الغار حتى شمله الله بعنايته، فأمر بشجرة في قامة الرجل تنمو [illegible] قريبا من الغار، فانتقلت حتى سدت فوهته، وبعث إليه عنكبوتا فجعلت [illegible] بين غصون الشجرة وزوايا الكهف، وأمر بزوج من الحمام معشش في فوهة الغار [illegible] يحصنها.[2]

[illegible] حتى وقف على ذلك حتى هل من كل جانب، هؤلاء الباحثون المنقبون الذين [illegible] الضالة، ولكنهم وقفوا حيارى أمام ذلك الغشاء الرقيق الذي نسجته أضعف [illegible] عرضة للرياح تطوح به أقل نسمة، عندئذ قال أمية بن خلف [illegible] الغار؟ إن عليه لعنكبوتا كان قبل ميلاد محمد، ولو دخل الغار لتمزق ذلك [illegible].

[illegible] أن ما قاله أمية هو الصواب، فكفوا عن ذلك البحث الذي لا يجدي، إلا أن [illegible] في الأمر وقال: والله إني لأحسبه قريبا منا ولكن بعض سحره أخذ على [illegible] فانصرف معهم جميعهم دون أن يفكر أحد في تتبع آثار الأقدام التي تركها [illegible] المكان.

[illegible] كل ذلك يرتعد فرائصه، لا خوفا على حياته بل على حياة رفيقه، وكان [illegible]

[illegible] القصة أن نبين ما في قوة حب أبي بكر للرسول، وقد كان حبا حقيقيا، وكان قلب أبي بكر كله إيمانا [illegible] ولكن القصة لا تريد أن تقول أكثر من ذلك.

[illegible] الشجرة يقول المستشرق درمنجم: إن هذه الأمور الثلاثة هي وحدها المعجزة التي يرويها التاريخ [illegible] نسيج عنكبوت، ووقوف حمامة، ونماء شجرة، هذه هي الأعاجيب الثلاث، ولها كل يوم في [illegible]

يقول: ما أخشى مبيتي، فإنما هي ميتة رجل واحد، أما موتك فهو موت كافة المؤمنين.

لبث الرجلان في الغار زهاء ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ، وكان عبد الله بن أبي بكر يسمع لهما ما يقول الناس فيهم نهاره، ثم يأتيهما إذا أمسى بما يكون في ذلك اليوم من الخبر، وكان عامر بن فهيرة مولى أبي بكر يرعى غنمه بين غنم قريش ثم يريحها عليهما إذا أمسى [illegible] الغار فيروّيهما باللبن واللحم، ثم يرجع بغنمه في الصبح فتمر على آثار عبد الله لتمحوها، حتى إذا أتى اليوم الثالث وسكت عنهما قريش أتاهما ابن أريقط في ميعاده بالراحلتين وراحلة له، [illegible] أسماء فقد أتت بأكياس من الزاد، وتمت عدة الرحيل، فدفع أبو بكر أحسن [illegible] إلى الرسول، وحثه على الإسراع في الركوب فأجاب محمد:

[illegible] إني لا أركب بعيرا ليس لي، فقال أبو بكر: فهي لك يا رسول الله بأبي أنت وأمي [illegible]

لا، ولكن ما الثمن الذي ابتعتها به؟ وتم الاتفاق على شراء الناقة، فركبها الرسول، وامتطى أبو بكر الأخرى وقد ركب في عجزها عامر بن فهيرة الخادم الأمين، أما ابن أريقط فامتطى ناقته وأخذ يدل القافلة الصغيرة في الطريق الغربي ليثرب، ذلك الطريق الذي يحاذي البحر في بعض المواضع.

قصة سراقة:

قال سراقة بن مالك: فبينا أنا جالس في نادي قومي يتحدثون في الحوادث الأخيرة وفي الجعل السخي الذي وعد به من يأتي بمحمد، إذ أقبل رجل من الناحية حتى وقف علينا فقال: إني رأيت ركبة ثلاثة بالساحل، أراهم محمدا وأصحابه، فأومأت إليه بعيني أن اسكت، ثم قلت بصوت مرتفع دون أن أبدي اهتماما: ليسوا بهم، ولكنك رأيت فلانا وفلانا انطلقوا يبغون ضالة لنا.

ومكثت قليلا، ثم قمت إلى منزلي فأمرت جاريتي أن تخرج فرسي خفية إلى بطن الوادي، وأمرت عبدا لي أسود ذا قوة وجرأة أن يسوق بعيرا لي إلى هذا المكان وينتظرني، ثم خرجت من باب خلف البيت، ممسكا متعبي وقد خططت بزج الرمح في الأرض لئلا [illegible] به أحد، وإني فعلت ذلك كله لأفوز بالجعل ولا يشاركني فيه أحد، حتى أتيت بطن الوادي فاستحثثت بعيري وأسرعت به في أثر الهاربين، ومن ورائي العبد يقود الفرس، فلما اقتربت [illegible] امتطيت فرسي وتركت بعيري بين يدي العبد، فأردت أن يسرع في اللحاق بي [illegible] الفرس لم تزل على أحسن حال، لأنها لم تركب، وكانت معروفة بسرعتها، فبالغت في [illegible] ولكنها لم تلبث أن عثرت بي، فوقعت لمنخريها ثم قامت تحمحم، فخررت عنها، فقمد [illegible] بيدي على كنانتي فاستخرجت الأزلام واستقسمت بها فخرج الذي أكره.[1]

وكنت أرجو [illegible] أخذ المائة ناقة، فركبت [illegible] فعصيت الأزلام.

وظللت أستحث الدابة حتى اقتربت بي من [illegible] وسمعت قراءة الرسول [illegible] لا يلتفت لصوت فرسي وأبو بكر يكثر الالتفات وقد تملكه الخوف الشديد

---

(1) كان العرب إذا أرادوا فعلا ضربوا ثلاثة أقداح مكتوب على أحدها: أمرني ربي، وعلى الآخر [illegible] ربي، والثالث غفل، فإن خرج الآمر مضوا على ذلك، وإن خرج الناهي [illegible] عنه، وإن خرج الغفل أجالوها [illegible] حتى الاستقسام بالأزلام طلب معرفة ما قسم لهم

ولم تكن بيني وبينهم إلا مسافة قصيرة، بيد أن فرسي غاصت رجلاها فجأة في الأرض على الرغم من صلابتها في المكان فعثرت من فوقها لساعتي، فرحت أنخسها في حنق وأزجرها لتنهض، ولكنها لم تزد بجهودها إلا إيغالا في الرمال حتى غاصت بطنها، وخرج من مكانها غبار في السماء مثل الدخان، فتملكني الذعر واستقسمت بالأزلام فخرج الذي أكره، فعرفت حين رأيت ذلك أن جانب الله سيحل بي إذا تماديت في غيي، فصحت قائلا «يامحمد إني أطلب منك الأمان، ولأخبرنك بما ينفعك، ولأردن عنك من يتبعك، ولكن ادع الله أن يطلق فرسي».

فرفع محمد يديه إلى السماء قائلا: «اللهم إن كان صادقا فأطلق فرسه»، وعندئذ انفرجت الأرض فانطلقت الفرس فركبتها ولحقت بهم، وعرضت عليهم زادي وسلاحي فرفضا أن يأخذا شيئا من يدي مشرك، وطلبا مني الانصراف، ولكني أيقنت مما رأيت بنور محمد النهائي، فطلبت منه كتابا يكون أمانا بيني وبينه فكتب أبو بكر كتابا أملاه الرسول على قطعة جلد وأخذته، وكان من شأنه أن أنقذ حياتي فيما بعد في غزوة الطائف، ورجعت على أعقابي فأخبرت عبدي وسائر أهل مكة الذين عرفوا غرضي بأني لم أعثر على شيء، وأخذت ألعن تلك الأخبار التي أتى بها البدوي والتي جشمتني تلك الرحلة المتعبة الحمقاء.

وصول الرسول إلى قباء ٢٨ يونية سنة ٦٢٢م

بفضل السرعة العجيبة التي بها تنتشر الأخبار في بلاد العرب لم يلبث مسلمو يثرب أن علموا بهجرة الرسول واعتزامه الإقامة بينهم.

قال أحدهم: كنا نخرج إذا صلينا الصبح إلى ظاهر حرتنا (سهل منبسط تاري الرمال، تتخلله الصخور الحادة، يمتد إلى الجنوب الغربي للمدينة) وكنا ننتظر رسول الله، فوالله ما كنا نبرح حتى تغلب الشمس على الظلال.

وفي يوم من تلك الأيام الحارة رجعنا إلى البيوت بعد انتظار طويل، فإذا برجل من اليهود عرف بحدة بصره يكشف من أعلى أطم[1].

قافلة صغيرة مكونة من قليل من الإبل تحمل أشخاصا قد ارتدوا ثيابا بيضاء، يظهرهم السراب تارة ويخفيهم تارة أخرى، فعرف الرجل في القادمين رسول الله ورفاقه، فاتجه إلى المدينة وصاح بأعلى صوته: يا معشر العرب هذا حظكم الذي تنتظرون.

فاستيقظنا من غفوتنا، وأسرعنا إلى القادمين، فلاقيناهم قد حطوا الرحال في ظل نخلة منفردة غير بعيدة من واحة قباء كان الرسول وأبو بكر يجلسان في ظل هذه النخلة، ولكن أكثرنا لم يكن شاهد الرسول من قبل، وزاد من حيرتنا أن الاثنين كانا في نفس السن، فلم ندر إلى أيهما نتوجه، ولكننا شهدنا بعد قليل يزول عن أحدهما فيقوم الآخر ويظلل صاحبه بردائه، وعندئذ زالت حيرتنا وعرفنا الرسول.

وأقبل بنو عمرو بن عوف بدورهم، وقد تملكهم الفرح، وكانوا يملكون بلدة قباء، فدعوا الضيف العظيم الذي أرسله الله لهم، فنزل النبي على كلثوم بن هدم ونزل أبو بكر على حبيب

---

(١) أطم: المحل المرتفع

بن إساف، بينما أقام باقي المهاجرين في بيت سعد بن خيثمة الذي لم يكن قد تزوج وقتئذ.

التاريخ الهجري:

كانت نهاية هذه الرحلة الشريفة ظهر يوم الاثنين الثاني عشر من شهر ربيع الأول، واشتهرت السنة التي رحل فيها الرسول باسم سنة الهجرة، واتخذها [illegible] بدءا لتاريخهم وهي توافق سنة ٦٢٢م.

[illegible] تعجب، لأول وهلة، لذلك الاختيار، ولكن دهشتنا تزول [illegible] لم يكن في حياة الرسول حادث أعظم شأنا وأجدر [illegible] في ذيوع الإسلام وانتشاره [illegible] للعالم من حادث الهجرة، فلو لبث محمد بمكة، حتى ولو كتب له في النهاية [illegible] على أعدائه، لمكث الإسلام فيها معه، إذ لا شك في [illegible] عرب الجزيرة جميعها كانوا [illegible] الاتحاد ويحاولون منع [illegible] الدين الجديد من اجتياز حدود مكة المكرمة خشية أن يزيد [illegible] الإسلام في عزة قريش، على حين أنه سهل على الرسول، وقد غرس في مكة جذور دعوته [illegible] العدوات، أن يرجع إلى موطنه، بعد أن تشيع له العرب الأخرى.

[illegible] هذا دليل في وضوح على مقدار حكمة الأقدار، وعلى [illegible] عن كشف مساتير العناية الإلهية «وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم»، فلولا [illegible] يؤذه مواطنوه، ولم يخرجه قومه، لما استطاع أن يؤدي رسالته العالمية، [illegible] الإسلام على وجه المعمورة.

وقام الرسول بقباء أيام الثلاثاء والأربعاء والخميس، [illegible] وقد رد ما اؤتمن عليه من ودائع، وقطع الطريق بين مكة والمدينة ماشيا ليل نهار، [illegible] في حرارة، ومسح جراحه بيده المباركة، وأجلسه إلى جانبه [illegible]

ثم عمل الرسول على إنشاء مسجد - هو أول مسجد أقيم [illegible]، وقد أكمله عمار بن ياسر، وقد سمي المسجد باسم مسجد التقوى وفيه نزلت الآية «لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه [illegible] يحبون أن يتطهروا والله يحب المتطهرين» سورة التوبة، آية [illegible].

الرسول يصل إلى يثرب:

ورغم إلحاح بني عمرو [illegible] أرادوا أن يستمر محمد في [illegible] فقد رحل عنهم الرسول في صبيحة يوم الجمعة ممتطيا [illegible] التي ابتاعها من أبي بكر [illegible] بالقصواء، وقد تبعته جموع غفيرة من الناس، [illegible] مترجل وراكب، وتسابق [illegible] الشرف بإمساك خطام [illegible]

وفاجأته ساعة الصلاة وهو يمر بأرض بني سالم بن [illegible] ولأول مرة قام بصلاة جمعة في دار الهجرة [illegible] جموع المؤمنين الذين [illegible] والمتهجدين بصلاة [illegible] إلى المسلمين يخطبهم، ثم اعتلى ناقته ونحل [illegible] المنتصر، يحف به الشعب الذي ثار في نفسه [illegible]

وفوق السطوح [illegible] العذور كأنهم في [illegible] الألوان، طيور جذابة حطت

فرق الصخور، وأخذن يغنين في صوت شجي ساحر، يفصح عن التأثر العميق:

طلع البدر علينا — من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا — ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا — جئت بالأمر المطاع

وكان الرسول أينما سار، سواء في حي بني بياضة، أو بني ساعدة، أو بني الحارث، أو بني عدي، يقابله وفد من أشرافه، ويمسكون بخطام ناقته قائلين: «أقم عندنا يا رسول الله في العدد والعزة والمنعة»

فيقول «خلوا سبيل الناقة ودعوها فإنها مأمورة»، ثم يبتسم في عطف ويقول: «بارك الله فيكم»

وكان قد أرخى الزمام لها فسارت، وقد ارتفع عنقها الطويل فوق جموع المؤمنين، وظل رأسها يلتفت يمنة ويسرة كأنها تبحث بعينيها الواسعتين اللتين تظلهما أهداب طويلة عن المكان الذي حددته العناية الإلهية، وبعد تردد وقت كثير توسطت أرضا خالية وبركت فيها، فلم ينزل عنها الرسول، فوثبت وسارت غير بعيد في تردد وحيرة، ثم التفتت خلفها وقد قوي عزمها فرجعت إلى مبركها وبركت فيه من جديد في شكل واسترخاء، وصوتت دون أن تفتح فاها، فنزل عنها الرسول، قائلا «رب أنزلني منزلا مباركا وأنت خير المنزلين»، وكانت هذه الأرض الخالية مربدا[1] لبني النجار، لا يبعد كثيرا عن بيت أبي أيوب الأنصاري الذي أضاف رسول الله وحمل رحله إلى بيته... ولبث الرسول في ذلك البيت لم تخلص وقتها من مظاهر الحفاوة البالغة، وراح الشبان والعبيد يصيحون في كل حي وفي جميع أرجاء المدينة «جاء محمد، جاء محمد، نزل الرسول بمدينتنا»، ومنذ ذلك اليوم المشهود ويثرب تعرف بمدينة النبي أو بالمدينة المنورة اختصارا

بناء مسجد المدينة:

كان أول ما شغل الرسول عندما قدم المدينة أن يقيم بها مسجدا، وبحث عن أصحاب الأرض التي بركت فيها الناقة فقيل له إنها لأخوين يتيمين هما سهل وسهيل. وقد كانا تحت وصاية معاذ بن عفراء، فسألهما عن الثمن الذي يرغبان فيه، فقالا لا نطلب ثمنا لها إلا ثواب من الله، ولكن الرسول لم يقبل تلك الهبة، وحدد الثمن بعشرة دنانير قدمها أبو بكر الذي كان قد استقدم كل أمواله من مكة.

وشرع المؤمنون في العمل فورا بإرشاد الرسول، فطهروا أرض المربد، وكانت بها أسوار متهدمة، وبعض القبور المهجورة، ونخلة، ثم مهدوا للبناء بتسوية الأرض، ولما أرادوا إقامة الأساس تناول الرسول حجرا كبيرا ليحمله إليه فالتصق الغبار بصدره الشريف، فأراد أصحابه أن يمنعوه، ولكنه قال لأبي بكر:

بل ضع حجرك إلى جانب حجري، ثم أمر عمر أن يضع حجره بجانب حجر أبي بكر، وجاء أشراف المسلمين واحد واحدا، كل يضع حجره في هذا البناء، ولما بلغ ارتفاع البناء

(١) المربد: الموضع الذي يجفف فيه التمر.

الحجري تلك الارتفاع المقدر، جعل المؤمنون يضعون اللبنات اللازمة لإكماله، وظل الرسول على خطته، فجعل يشجع العمال، ويضرب لهم من نفسه مثلا، فيحمل اللبنات في ثوبه، ولاحظ ذات مرة أن أحد العمال يحمل ضعف حمل الرجل فجعل يمسح برأسه في رفق قائلا «للناس أجر ولك أجران».

والتهب الجميع حماسا، وراح البناة ينشدون الشعر الذي يعبر عن شعورهم كي تكون حركاتهم وسرعة عملهم ولما ارتفعت الحيطان إلى سبعة أذرع سقفها المؤمنون بجذوع النخل المغطاة بالسعف والجريد، ثم صبوا فوق ذلك طبقة من الطين تمنع المطر ... العرش من الداخل بجذوع النخيل، وفرشت الأرض بالرمل الناعم.

وبلغ طول البناء مائة ذراع، أما عرضه فيقل عن ذلك قليلا، وفتحت فيه ثلاثة أبواب، عرف أكبرها بباب الرحمة، أما المنبر فكان من جذوع النخيل ... وكانت الخطبة، فما أعظم الفرق بين المسجد الأول الشبيه بمسجد القرية بصحيرة الصحراوية وبين الأبنية السامقة التي لم تلبث أن أقيمت لأداء شعائر الإسلام

وفي الوقت نفسه أقام محمد بناء بيتين من الطين «الحجرات» ملحقين بالمسجد، ليسكن فيهما مع أسرته التي بعث زيدا، مندوبه، في طلبها من مكة، فلما تم بناء هذين المنزلين انتقل إليهما من بيت أبي أيوب، وما لبث أن لحقت به أسرته.

اما المهاجرون فقد أضافهم الأنصار الكرام الذين اقتسموا معهم، فعاد كل منهم فخورا بضيفه الذي بعث القدر به إليه.

وقد تأثر محمد تأثرا عظيما لذلك الاستقبال الأخوي الذي حظي به المهاجرون لدى هؤلاء الأتباع الجدد، ولكن ببصيرته ... إلى ما ينطوي عليه النفوس ... يعمل على توثيق روابط تلك الصداقة المؤثرة، كي تستطيع ... روح التعاون ... لا يدع أن يمسها ... بين المهاجرين الذين ... ويكل شيء ... النبي، وبين الأنصار الذين قووه ونصروه، أليس لكل فريق حقوقه وحججه في ... الأول من عطف الرسول، وبالصدارة في الإسلام وفي سبيل درء تلك الاحتمالات الخطيرة، وفي سبيل تكوين ... الذي جمع بقوة بين المهاجرين والأنصار، اشهر محمد ... الحماس الذي لا تشوبه شائبة، الذي جمع بقوة بين المهاجرين والأنصار ليقرر بينهم أخوة كاملة، وتم له ما أراد فخص بين المهاجرين والأنصار اثنين اثنين، وقال لهم: تآخوا في الله، أخوين أخوين ومنذ ... اليوم أصبح كل مسلم له أخ مكي

ومن العبث أن نحاول المعبر ... عن مقدار ... من الإخلاص ونسمو تلك الأخوة في الله، تلك الأخوة ... لأنها ... تلك العيوب التي تآخت في حب الله لم تعد إلا ... يحقق في صدور ... كل ... يحب لأخيه أكثر مما يحب لنفسه، وقد رأينا في ... أيام الهجرة أن النبي يوصي ... إنما يرثهم دون ... وورثتهم من النسب

ومن بين تلك الأسر الأخوية نذكر، على الأخص، أخوة أبي بكر وخارجة ابن زيد، ثم أخوة عمر وعتبان بن مالك، ثم أخوة عثمان وابن النجار، وأخوة أبي عبيدة وسعد بن معاذ، وقد اعتبر الرسول أن يكون علي بن أبي طالب أخاه، فثبت بذلك هذا التآخي الذي أعلنه في أوائل بعثته. ولكن عليًا كان من المهاجرين، فخشي الرسول أن يغضب الأنصار لأنه لم يختر أخاه منهم، فلما مات أسعد بن زرارة، وكان من نقباء الأنصار شغل الرسول مكانه بحجة أنه منهم، وذلك لأن حالته كان يقطن المدينة

وهكذا بفضل فهمه للنفسية الإنسانية، وبفضل سياسته البارعة، توصل محمد إلى نتيجة عظيمة النجاح. لم يكد يدخل المدينة حتى كف الخزرج والأوس عن حروبهم الداخلية الدامية، كمن عنها وكأنه قد مسهم بعصاه السحرية، فجعل من أهل المدينة إخوة، وكانوا أحزابًا متنافسة

القبلة:

كان الرسول في أول عهده بالرسالة يترك للمؤمنين حرية اختيار قبلتهم في الصلاة وذلك لأن:

«ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله إن الله واسع عليم». سورة البقرة:١١٥.

وبينما الرسول يوشك أن يتم مسجده الأول إذ أحس بمقدار التسامي والجمال الذي سوف يصل إليه المصلون، إذا ما سجهت القلوب كلها نحو وجهة واحدة، فاتحدت النفوس في مثل على واحد بدلًا عن ذلك الاتجاه الواحد، لذا عمد إلى قالب مصنوع من الحجر والطين ووضعه ملاصقًا للحائط الشمالي من المبنى ربه عين القبلة الأولى، وكانت بيت المقدس، ولكنه الوحي أمر بأن تكون القبلة مكة

«قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره».

ومنذ ذلك اليوم، ومكة القبلة الثابتة، لجميع مسلمي العالم.

الأذان:

الصلاة الجامعة هي بلا شك أكثر الصلاة نفعًا، وفيها يسري الإخلاص والتحمس من روح كل مسلم إلى روح جاره، ولقد قال عنها الرسول: إنها تعدل الصلاة المنفردة سبعًا وعشرين مرة. فمن المهم إذن، والأمر كذلك، جمع كل المؤمنين في وقت محدد، خمس مرات في اليوم ولكن كيف يعرفون الوقت المحدد لاجتماعهم؟ لأن أكثرهم متفرقون في كل أنحاء المدينة، فيصل بعضهم مبكرًا، ويصل البعض الآخر متأخرًا، فاجتمع مجلس من رءوس المسلمين للتشاور في الأمر، فنصح بعضهم باستعمال نار تضيء فوق علم وتعمل كإشارة للاجتماع، واقترح بعضهم أن يستعمل بوق كبير، ورأى آخرون أن خير وسيلة هي دق الناقوس، ولكنهم عدلوا عن كل تلك الاقتراحات لأنها كانت تشبها بغيرهم من الفرس أو اليهود أو من المسيحيين.

وبينما هم كذلك إذ أقبل عليهم عبد الله بن زيد فحكى لهم رؤيا رآها في الليلة السابقة: «مر بي رجل عليه ثوبان أخضران، يحمل ناقوسًا في يده، فقلت له: يا عبد الله أتبيع هذا الناقوس؟ قال: وما تصنع؟ قلت: ندعو به إلى الصلاة، قال: أفلا أدلك على خير من ذلك؟ أن تشهد شهادة الإسلام».

وفطن الرسول إلى ما للصوت الإنساني من تأثير يبعث الطمأنينة ويفوق تأثير أجمل الآلات المعدنية، فقال: «إنها لرؤيا حق إن شاء الله، فقم مع بلال فألقها عليه فليؤذن بها، فإنه أندى صوتًا منك».

فقام بلال العبد المحرر يؤدي مهمته، فيجمع للصلاة المسلمين على اختلاف طبقاتهم وأجناسهم، وصعد إلى سطح المسجد فصدح منه بذلك النداء الصادر من أعماق الروح الإسلامية:

«الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمد رسول الله، أشهد أن محمد رسول الله، حي على الصلاة، حي على الصلاة، حي على الفلاح، حي على الفلاح، الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله».

كانت هذه الكلمات خارجة من فم بلال في قوة وانسجام كأنها المياه المعطرة تسيل من إبريق نفيس، وكانت تنتشر في جميع أرجاء المدينة متسللة تدخل المساكن، وكان المؤمنون يأتون سراعًا، أفواجًا أفواجًا، ليتنسموا في لذة، طيب الصلاة المنعش.

ومنذ ذلك الحين من أعلى المنارات المرتفعة الرشيقة في جميع بقاع العالم يدعو المؤمن للصلاة خمس مرات في اليوم.

صوم رمضان:

بعد أن اختار محمد الأذان نداء للصلاة أخذ -وهو في مستهل عهده بالمدينة- في تحديد الفروض الدينية.

فقد كان من عادته أن يصوم ثلاثة أيام من كل شهر، فنزل عليه الوحي بما يأتي:

«شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهر فليصمه ومن كان مريضًا أو على سفر فعدة من أيام أخر يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون

أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم هن لباس لكم وأنتم لباس لهن علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم فالآن باشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ثم أتموا الصيام إلى الليل ولا تباشروهن وأنتم عاكفون في المساجد تلك حدود الله فلا تقربوها كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون». (البقرة ١٨٥ – ١٨٧)

بهذه الآيات فرض صوم رمضان، وكانت نتيجة هذه الفريضة الخير الكثير، ذلك أن الإنسان -وهو مجبول على الأنانية- يبحث عن كل ما يلذ له ماديًا، ويتجنب كل ما من

شأنه أن يكون من حظ الفقراء الضعفاء، وليس هناك من علاج لهذه الأنانية سوى الشعور القوي ببؤس الآخرين من جوع وظمأ.

والمؤمنون– وقد تخففوا من ثقل الطعام، يجتمعون أثناء النهار، فيتروضون بالغذاء الروحي الذي تحمله إليهم صلواتهم، وإن شوقهم إليه لأشد من شوقهم إلى الغذاء العادي.

ومع ذلك فإن الإنسان، في جو المدينة الملتهب، يشعر شعورا قاسيا بهذا الظمأ أثناء أيام الصيف التي لا تكاد تنتهي، وإن بعض المؤمنين– وقد جفت حناجرهم ظمأ– ملتهبون ويوشكون أن يقطعوا صومهم عند منظر الماء البلوري الصافي يسيل من الوادي، ينساب في صوت خافت مغر، ولكنهم ينظرون إلى إخوانهم ذوي العزيمة القوية، فتعود إليهم شجاعتهم، ويواصلون صومهم، وتقوى بهذه [illegible] أواصر الأخوة بينهم، ويستمر المؤمنون متعاونين على هذه الفترة القاسية، على الجوع والظمأ، فيصبحون أكثر استعدادا وأوثق تدربا لمواجهة أشد أعدائهم مراسا من بني البشر.

ويستمر المهاجرون والأنصار على هذا الوضع ثلاثين يوما دون تأفف أو ضجر، بل في حماس متزايد، ثم ها هو ذلكم الهلال يوشك أن يرى فتمتلئ سطوح المنازل وتكتظ الآكام بالمؤمنين لرؤيته، ها هو ذا قرص الشمس الذهبي يختفي وراء الأمواج الزرقاء في آفاق الصحراء البعيدة، فتتطلع الأعين بلهفة باحثة في أعماق السماء الصافية كأنها [illegible] مرد، وفجأة في الثلث الأسفل من القبة الزرقاء يرتسم قوس فضي دقيق [illegible] هلال، فتتنفس الصدور في عمق متنهدة كأن سهاما خفية قد [illegible] إليها صادرة عن هذا القوس.

ولكنه ليس تنهد فرح يصدر عن هؤلاء المؤمنين، بل تنهد أسف على انقضاء شهر الصوم في سرعة سريعة.

إن هذا الصوم تضحية بسيطة تقدم شكرا لمانح النعم، وهذا الاختبار الديني التعبدي ينمي الأرواح ويقوي الأجسام، ولأجل أن يعبر المؤمنون الصحراوات الرهيبة التي تحيط [illegible] لفتح العالم، كي تكون كلمة الله هي العليا، كان لا بد لهم من هذا التمرين الذي يعد هينا بالنسبة لما سيلاقونه من الشدائد في فتوحاتهم ولما قدر المؤمنون نعمة الغذاء [illegible] الحرمان، حق قدرها، فرض الله عليهم زكاة الفطر وهي حق معلوم في مال [illegible] للفقراء.

الزكاة وتحريم الخمر:

ولما كانت تغذية الفقراء يوما واحدا في العام، وذلك عقب الصيام، لا تكفي، فرض [illegible] تعالى زكاة الأموال، وهي جزء مقدر يؤخذ من أموال الأغنياء ويعطى [illegible] بعض المجتمع الحياة لهم.

هذه الزكاة، التي هي أحد أركان الإسلام الخمسة، تجبى على الثروة الثابتة وعلى [illegible]، سواء كان ذلك ذهبا أو فضة أو أنعاما، أو فواكه، أو زروعا فيؤخذ جزء من ذلك يتراوح بين العشر وربع العشر معونة للفقراء كل عام، ويجب أن يعطى في رضى تام [illegible] وتواضع تام.

«يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذي ينفق ماله رئاء[1] الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثله كمثل صفوان[2] عليه تراب فأصابه وابل[3] فتركه صلدا[4] لا يقدرون على شيء مما كسبوا[5] والله لا يهدي القوم الكافرين (٢٦٤) ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله وتثبيتا من أنفسهم كمثل جنة بربوة[6] أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين فإن لم يصبها وابل فطل[7] والله بما تعملون بصير» سورة البقرة ٢٦٤–٢٦٥.

«إن تبدوا الصدقات فنعما هي وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ويكفر عنكم من سيئاتكم والله بما تعملون خبير» سورة البقرة ٢٧١.

«للفقراء الذين أحصروا[8] في سبيل الله لا يستطيعون ضربا في الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافا وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم» سورة البقرة ٢٧٣.

«لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون وما تنفقوا من شيء فإن الله به عليم» سورة آل عمران ٩٢.

«إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم» سورة التوبة ٦٠.

بهذه الآيات فرضت الزكاة، ومعناها الحرفي التطهير، أي تطهير الثروة وجعلها طيبة مقبولة.

ولما كان للخمر تأثير هدام على العالم حرمها الله تحريما باتا[9]، وقد نزل على الرسول – صلى الله عليه وسلم – أولا الآية التالية:

«يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما» سورة البقرة ٢١٩.

عند ذلك ترك بعض المؤمنين استعمال الخمر، ولم يجد الآخرون العزيمة القوية على

---

(١) مراءاة لهم. (٢) حجر أملس. (٣) مطر شديد. (٤) صلب أملس لا شيء عليه.

(٥) عملا، أي لا يجدون له ثوابا في الآخرة كما لا يوجد على الصفوان شيء من التراب الذي كان عليه لذهاب المطر به.

(٦) مكان مرتفع. (٧) مطر خفيف. (٨) حبسوا أنفسهم على الجهاد.

(٩) الخمر: ذلك هو الداء القاتل، وهو أحد الأمراض الاجتماعية الوبيئة في عصرنا الحاضر على حين أن [illegible] الشرع الوحيد الذي أحس بالأثر السيئ الشديد للخمر في النفوس فحاربه حتى حرمه تحريما تاما، وقد فاز في ذلك فوزا كبيرا.

«يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون (٩٠) إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون».

نعم إن من المسلمين من لم يتخل عنها، فهو يخالف الدين في تحريمه الخمر تحريما قاطعا، غير أن الكثيرين من هؤلاء قد تركوها [illegible] وهم لم يفعلوا ذلك إلا [illegible] وربما جاء [illegible] النبي عن الخمر والأمر بالتحريم [illegible] أحدا من المسلمين [illegible] يشربون الخمر قد تركها أو رجع عنها، ولا يخفى أن [illegible] من [illegible] قدر [illegible] كل واحد [illegible] بمكيال [illegible]

كما أن الكنيسة قد [illegible] في هذا [illegible] من مضار الخمر، كما ذكر [illegible] في اعترافات الدكتور [illegible] في كتابه: [illegible] الإسلام

تركهم. فنزل الوحي ثانيا بالإنذار التالي: «يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون» سورة النساء ٤٣

وقد كان علي سببا في نزول هذه الآية، فقد أكثر ذات يوم من الشراب، ولما حان وقت الصلاة قرأ: «يا أيها الكافرون، أعبد ما تعبدون» بدلا أن يقرأ: «قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون».

ثم نزل التحريم صريحا وقاطعا: «يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون» سورة المائدة ٩٠.

«إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون (٩١) وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول» سورة المائدة ٩١-٩٢

بناء الرسول بعائشة:

لقد بلغت عائشة حدا من الظرف والذكاء والثقافة لا يكاد يصدق، ولم يكن الرسول، إذ ذاك، قد دخل بها.

وتحدث عائشة بقصتها فتقول

دعتني أمي ذات يوم، وكنت في أرجوحة ألعب مع صاحباتي، فلبيت دعوتها دون أن أعرف ما تريد، فأخذتني من يدي، تقودني، حتى وقفت بي عند الباب، وإني لأنهج، حتى سكن نفسي، فمسحت وجهي ورأسي بشيء من الماء، ثم أدخلتني الدار، فإذا نسوة من الأنصار في البيت، فقلن: على الخير والبركة، وعلى خير طائر، فأصلحن من شأني، فلم يرعني إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ضحاء».

عداوة اليهود والمشركين:

في مبدأ الإسلام تأثر بعض اليهود بما في الإسلام من روعة، وبما فيه من حجج مستقيمة فأسلموا على يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن هؤلاء العالمان: مخيريق وعبد الله بن سلام.

أما الآخرون فإنهم لما رأوا رسول الله يتجه في صلاته إلى هيكل سليمان جدهم العظيم أرضى ذلك كبرياءهم، واعتقدوا أن معبدهم أسمى بكثير من معبد مكة، واعتقدوا من جراء ذلك أن الجنس اليهودي يتفوق تفوقا عظيما على الجنس العربي.

ولما أمر الله رسوله أن يولي وجهه شطر المسجد الحرام استبد الغيظ بهم مغيظين، ثم إنهم - فضلا عن ذلك - لم يلبثوا أن شعروا بأن مجيء محمد إلى المدينة كان مصدر نكبتهم الاقتصادية، فالعمل يرجع إلى محمد في إعادة السلام والصفاء إلى الأوس والخزرج، وقد كان خلافهم فيما مضى يعتبر من الفرص الطيبة بالنسبة لليهود، على أن هذا الرسول الذي بشرت به كتبهم، والذي كانوا يعلمون عليه أصلا واسمه، والذي يعرفونه إذ ذاك، كما يعرفون أبناءهم، هذا الرسول لم يكن من ذرية آبائهم وأجدادهم إنه ولد إسماعيل

وها هو ذا يحمل سراج الإسلام المنير، فحاولوا، بكل ما أوتوا من وسائل، أن يطفئوا نور الله.

ولكنهم رأوا أنهم أضعف من أن يقفوا أمام قدر الإسلام، فحاولوا أن يثيروا الخلافات بين عرب المدينة، ووجدوا عونا فيما من بعض أشراف المدينة

كان بعض أشراف المدينة يضيق الصدر من أن يه عرب من مبادئ المساواة

وكانوا يعتقدون - في جاهليتهم - أن من الضعة أن يقفوا على قدم المساواة مع من كانوا يحتقرونهم من الفقراء والمساكين

هؤلاء الأعداء الجدد الذين سموا فيما بعد بالمنافقين، كانوا يتظاهرون بالإسلام، ويختلطون بالمسلمين المخلصين فيعرفون أسرارهم، ويبلغونها - فيما بعد - اليهود

والمشركين.

الجهاد:

شعر الرسول حينئذ أنه لا بد من الالتجاء - وفي سرعة - إلى السيف لانتصار الإيمان، وهذا الانتصار الذي لم تتوطد أركانه إلا بعد فتح مكة حيث الكعبة المقدسة عند العرب، ولقد تلقى الرسول الوحي باستعمال السيف في جهاده ضد الوثنيين: «وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين (١٩٠) واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم» البقرة، ١٩٠-١٩١.

تلك هي الآيات التي فرضت الجهاد، والتي أثارت، من جانب المسيحيين عاصفة من النقد.

بيد أن المسيح نفسه، وهو سيدنا وسيد المسيحيين، يقول: «لا تظنوا أني جئت لأنشر السلام على الأرض، إني لم آت لأحمل السلام، وإنما السيف»

إنجيل متى، الإصحاح العاشر، ٣٤.

«إني جئت لألقي النار على الأرض، وماذا أريد من ذلك إلا اشتعالها»

إنجيل لوقا، الإصحاح الثاني عشر، ٤٩.

وإذا كان الجهاد من أجل نصرة الحق على الوثنية، قد أثار أثناء بعض الوقت، الاختلاف في أمر موضوعي جدير، فما ظنك بكلمات عيسى، وهي الآمرة بالاختلاف أمرا، ألم يستتبع تطبيق حرفيته لدى كل الطوائف المسيحية هذه عصور متطاولة؟

«إني جئت لأفرق بين الولد وأبيه، والبنت وأمها، وبين زوجة الابن وأمه».

إنجيل متى، الإصحاح العاشر، ٣٥.

«إن كان أحد يأتي إلي ولا يبغض أباه وأمه، وامرأته وأولاده، وإخوته وأخواته حتى نفسه أيضا، فلا يقدر أن يكون لي تلميذا»

إنجيل لوقا، الإصحاح الرابع عشر، ٢٦.

على أن الجهاد لم يشرع من أجل أعداء الدين فحسب، وإنما شرع أيضا ضد هذا العدو الغادر الذي يحمله الإنسان بين جوانحه، وفي ذلك يقول رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ما معناه: «إن الجهاد حقا هو جهاد النفس».

لقد صبر محمد طويلا، وصبر المؤمنون معه كذلك حقبة طويلة على يد المشركين، الذين أخرجوهم من ديارهم بعد أن أذاقوهم فيها أليم العذاب، فرأى المسلمون - مؤمنين بالغرب - أن لهم الحق في استعمال السيف دفاعا عن أنفسهم

كان موقع المدينة يمكنهم من النصر، ذلك لأنها تسيطر على كل الطرق التي تمر بها القوافل إلى سوريا، وكانت التجارة المورد الوحيد لمكة المحوطة بواد غير ذي زرع، فإذا ما منع المسلمون هذه القوافل فلا بد من أن المجاعة ستسود هذه البلدة الجاحدة وتضطرها إلى الإذعان، حقيقة أن المسلمين لم يكن يلذ لهم إراقة دماء قومهم المكيين، الذين كان يحافظ عليهم، رغم عداوتهم له، والذين كان يود لهم الخير، أملا في أن يهتدوا يوما فيكون منهم الأساس الإسلامي الوطيد.

عندئذ بدأت سلسلة طويلة من السرايا والغزوات، ونعرف منها أن الغزوة كان يقودها الرسول بنفسه، وأن السرية كان يقودها أحد أتباعه، وسنتحدث هنا عن أهم الغزوات فحسب، تاركين كل ما نعتبر أهميته أمرا ثانويا، ومن أجل ذلك سنبدأ مباشرة بغزوة بدر الشهيرة.

غزوة بدر سنة ٢هـ، ٦٢٤م:

ألف المكيون قافلة، غاية في الأهمية، يسير فيها ألف جمل، مثقلة بالتجارة إلى سوريا، حيث تعود محملة بأنفس البضائع وأثمنها، فأتيحت بذلك الفرصة التي كان ينتظرها الرسول.

فلو أن الرسول تمكن من الاستيلاء على هذه القافلة لقضى -في سرعة سريعة- على هؤلاء الذين نفوه، ولتجنب إراقة الدماء، إذ أن حامية القافلة لم تكن تزيد على أربعين رجلا، وهؤلاء، وقد رأوا أنفسهم أنهم أضعف من أن يقاوموا- كانوا يضطرون للتسليم.

ولكنه لم يدرك القافلة، فعزم على أن يعبر عليها في العودة، وترك أحد أتباعه ليرقب الطريق، وذات يوم جاء هذا الشخص يعلن أن القافلة على وشك أن تمر بمحاذاة المدينة سالكة طريقها العادي بين الجبل والبحر.

فندب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- المسلمين إليها دون تفرقة بينهم، ولبى المسلمون النداء، فبلغ عددهم أكثر من ثلثمائة، وكلهم رغبة في أن يذيقوا المشركين مثل ما أذاقوهم من عذاب.

كان في هذه الحملة ثلاثة وسبعون من المهاجرين، ومائتان وأربعون من الأنصار وكانت الإبل يومئذ سبعين بعيرا تحمل الماء والزاد، ويتعقبها القوم، ولم يكن معهم سوى أربعة أفراس، منها فرس لمرثد، يقال له: «السبل»، وفرس الزبير، يسمى «اليعسوب»، وكانوا يقودون هذه الأفراس دون أن يركبوها، وذلك لإعدادها، مستريحة، ليوم النزال، ودفع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- اللواء إلى مصعب العبدري، أما لواء الأنصار فقد حمله سعد بن معاذ.

على أن تهيئة مثل هذا العدد الكبير لا يمكن- للأسف- أن تبقى سرية، ولقد لاحظ المنافقون واليهود كل الخطوات التي قام بها محمد لقد أحصوا عدده، وخمنوا الهدف الذي يسعى للوصول إليه، فأرسلوا رسلهم إلى أبي سفيان رئيس القافلة، ينذرونه بالخطر الذي يتهدده، فأرسل إلى مكة ضمضم بن عمرو الغفاري، وأمره أن يأتي قريشا فيستنفرهم إلى أموالهم، ووعده بجائزة قيمة إذا أسرع، إنقاذا للقافلة.

كان المكيون قد ساهموا جميعا، كل بحسب ثرائه، في تجهيز هذه القافلة التجارية المطمئنة، وكانوا ينتظرون بفارغ الصبر عودتها، ويمنون أنفسهم بالآمال العريضة فيما ستدره عليهم من ربح عظيم، وكانوا يخرجون جماعات في كل ساعة من النهار إلى أبواب مكة، يمدون أعينهم إلى بطون الوادي الذي يشقه طريق سوريا على أمل أن يروا بعض رسل القافلة.

وذات يوم رأوا عن بعد رجلا على ناقته الضامرة السريعة يسير في اتجاههم، وحينما قرب بحيث يميزون منظره ومنظر ناقته، بلغت بهم الدهشة حدا عظيما، كان ذلك الشخص هو ضمضم، قد شق قميصه، وشق أنف بعيره، وقطع أذنيه، وحول رحله، وما إن قرب منهم متعبا مجهدا لاهثا، حتى أخذ يصرخ

يا معشر قريش، اللطيمة اللطيمة [1]

وأسرع القرشيون يحيطون به، تنهال عليه الأسئلة من كل جهة، فما كاد يستفيق حتى قال لهم: «أموالكم مع أبي سفيان، قد عرض لها محمد في أصحابه، لا أرى أن تدركوها، الغوث، الغوث»، فامتلؤوا غيظا وغضبا، لقد كانوا منذ لحظات، يسعدون بالخيال، بنتاجهم بما سيصنعون بمكاسبهم النفيسة، وها هو ذا محمد، الذي كانوا يظنون أنهم قد تخلصوا منه نهائيا، يهددهم بالخراب والدمار.

واجتمع كبراؤهم في سرعة، وقرروا أن يسرعوا في مقاصصة محمد قبل أن تفوت الفرصة، وكان الشعور العام يوحي بهذا الرأي، فقد كان الكل مستعدا لأن يضحي في سبيل إنقاذ القافلة، بالنفس والمال، وتألف جيش بأقصى سرعة، يتكون من تسعمائة وخمسين رجلا يقودون مائة فرس، وسبعمائة جمل، وخرجت حملة المشركين من مكة، فودعتها عاصفة حارة من السلام والدعاء، وكان يتقدم الحملة سرب من الصبايا المغنيات، لامعات كأنهن الشموس، مشرقات الوجه كأنهن الأقمار، يمشين بأعين نجل، ملابسهن موشاة، يكاد ما عليهن من ذهب وزينة يذهب بالأبصار، يغنين بشعر فيه ذم المسلمين، أو ينشدن أشعار الحماسة، ضاربات بالدفوف في لحن منسجم يبعث التحمس في النفس، ويثير العواطف في قلوب المحبين.

وزين الشيطان للمشركين أعمالهم، وأوحى إليهم بأحلام النصر، وماذا على الشيطان لو انهزموا، سوى أن يتركهم ويخزيهم؟

﴿وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه وقال إني بريء منكم إني أرى ما لا ترون إني أخاف الله والله شديد العقاب﴾ [سورة الأنفال/٤٨]

على أن الرسول لم يكن يعلم قط بشأن حملة قريش، وبعد أن ترك في طريقه من يثرب الروحاء سار حتى نزل بالصفراء، ثم بعث بسبس بن الجهني وعدي بن أبي الزغباء إلى بدر يتحسسان له الأخبار، ثم ارتحل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حتى أتى على واد يقال له: ذفران، فنزل به.

وفي الصباح المبكر من الغد ارتحل رسول الله من ذفران، وسار حتى نزل قريبا من بدر، وكان بسبس وعدي قد مضيا حتى نزلا بدرا، فأناخا إلى تل قريب من الماء، فوجدا امرأتين تملآن جرتيهما وتتشاجران حول موضوع مرتفع، إحداهما دائنة والأخرى مدينة، قالت المدينة:

«صبري قليلا غدا أو بعد غد تأتي العير، فأعمل لهم وأقضيك دينك»، وكان على الماء مجدي بن عمرو الجهني، فقال لها: صدقت، ثم خلص بينهما.

سمع ذلك عدي وبسبس فجلسا على بعيريهما، ثم انطلقا حتى أتيا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فأخبراه بما سمعا وكان ذلك مرتقبا لحتفه.

---

(١) أي أدركوا اللطيمة وهي العير التي تحمل الطيب والبز

بيد أنه بعد لحظات أتى إلى الرسول شخص كان النبي قد بعثه بمكة يتحسس الأخبار، أتى يحمل أخباراً مزعجة، أتى ينبئ الرسول بأن المشركين يسرعون الخطا لإنقاذ القافلة.

اهتم محمد بالأمر اهتماما كبيرا، وأخذ يتساءل:

ماذا يكون موقف المسلمين، وقد خرجوا لملاقاة القافلة فحسب، حينما يرون أمامهم قوى هائلة تفوقهم عدة وعددا؟ أيتزعزعون؟ أيفقدون تماسكهم خشية خطر؟

ومع هذه الاحتمالات لم يرد محمد أن يخفى عنهم خطورة الموقف، لذلك جمع رؤساءهم وكاشفهم بحقيقة الأمر، وأخذ يستشيرهم في مقاتلة النفير أو العير؟ وساد الصمت، وانتاب النفوس شئ من التردد.

وإنا لنعترف بأن الأمل في الغنيمة كان يصحب جانبيه وسحر شئ مزعجة في إنزال العقاب بالمشركين وقال أحد الحاضرين:

أإلى مذبحة إذن تقودنا؟

ونزل القرآن في هذا الموقف بزجر قاس:

«وإذ يعدكم اللهُ إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحقَّ الحقَّ بكلماته ويقطع دابر الكافرين» سورة الأنفال ٧.

قام على الفور المقداد بن عمرو، فقال معلنا في قوة:

يا رسول الله، امض لما أراك الله، فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى

«اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون».

ولكن: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون»، والذى بعثك بالحق، لو سرت بنا إلى برك الغماد[1] لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه فباركه الرسول ودعا له بخير.

ثم قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- «أشيروا على أيها الناس»، وإنما يريد الأنصار، لاحتمال أنهم يعتقدون أن بيعة العقبة لا تلزمهم بشئ آخر غير حماية الرسول ما بقى في المدينة.

فلما قال ذلك رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال له سعد بن معاذ وقد أحرجه أن يوضع إخلاص الأنصار موضع الشك: والله لكأنك تريدنا يا رسول الله؟

قال: أجل

قال سعد: فقد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا، على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت، فنحن معك، فوالذى بعثك بالحق، لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا

(١) موضع بناحية اليمن، وقيل مدينة بالحبشة

رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا، إنا لصبر في الحرب، صدق في اللقاء، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك، فسر على بركة الله.

أراح هذا القول الرسول مما كان يخامره من قلق، وسره ذلك ونشطه فأشرق وجهه مضيئا بساطعة من الرضى، وبنور من الإلهام، وكانت عيناه تحدقان في منظر لا يراه غيره، وقال: أبشروا أيها الناس، إني لأرى الموقعة، وقد التحم الفريقان، وها هي تلك فلول الأعداء تولي منهزمة.

تهيأ الكل أنهم على أبواب المعركة، فأخذوا يستعدون لها، في ثقة وفي إيمان.

أما أبو سفيان، فإنه حينما علم بخروج الرسول لملاقاته أخذ حذره وأسرع الخطى، وتقدم الركب، فوصل إلى بدر بعد ذهاب بسبس وعدى مباشرة تقريبا وكان لا يزال مجدى بن عمرو على الماء، فسأله أبو سفيان: هل أحسست أحدا؟ فقال: ما رأيت أحدا أنكره إلا أني قد رأيت راكبين قد أناخا إلى هذا التل، ثم استقيا في شن[1] لهما، ثم انطلقا.

فأتى أبو سفيان مناخهما، فأخذ من أبعار بعيريهما ففته فإذا فيه النوى، فقال: هذه والله علائف يثرب.

فرجع إلى أصحابه سريعا، فضرب وجه عيره عن الطريق، وأخذ بها جهة الساحل، وترك بدرا عن يساره، وانطلق حتى أسرع، وبهذه الطريقة أفلت من جند الإسلام.

ولما اطمأن وأمن أرسل إلى قريش: «إنكم قد خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالكم وأموالكم، فقد نجت، فارجعوا».

فقال أبو جهل - متأثرا بحقده الدفين -: والله لا نرجع حتى نرد بدرا فنقيم عليه ثلاثا فننحر الجزور، ونطعم الطعام، ونسقي الخمر، وتعزف علينا القيان[2] وتسمع بنا العرب، وبمسيرنا وجمعنا، فلا يزالون يهابوننا أبدا بعدها، فامضوا.

ولاءم كلام أبي جهل كبرياء وفخرا، ومال لعابهم لذكر الطيب، وكؤوس الخمر تتوالى مترعة، فوافقوا على رأي رئيسهم، وساروا إلى بدر.

وكان المؤمنون يتجهون إلى بدر أيضا، غير عالمين بما سيكون: أيلتقون بالعير، أم بالنفير، أم بهما معا، فأرسل الرسول عليا والزبير يتعرفان الأخبار، فعثر شابين يحملان من آبار الماء ليملأ السقاء المعلق بكتفيهما، فأتيا بهما إلى معسكر المسلمين، فسألاهما، ورسول الله -صلى الله عليه وسلم- قائم يصلي، فقالا: نحن سقاة قريش، بعثوا بنا نسقيهم من الماء، وكانت الدهشة في جيش المسلمين: أحقا وصل جيش قريش، إلى هذا المكان؟

وبدا لهم أن هذا غير محتمل: ذلك لأنهم كانوا يجهلون ما ترددت به قريش من جمال تحمل نفقاتهم، ومن فرس، فأخذوا قول الشابين على أنه كذب، فضرباهما رجين أن يعترفا بأنهما لأبي سفيان، فلما اشتد بهما ألم الضرب قالا: نحن لأبي سفيان.

(١) الشن: القربة، لهما: لهما

(٢) الجوارى

فلما اعترفا بهذا تركهما علي والزبير، فحزنين لاعتقادهما أنهما نطقا بالحق من بين شفتي الأسيرين.

وركع رسول الله –صلى الله عليه وسلم– وسجد سجدته، ثم سلم، وقال: إذا صدقاكم ضربتموهما وإذا كذباكم تركتموهما، صدقا، والله إنهما لقريش، ثم اتجه إليهما سائلا

– أخبراني عن قريش.

قالا: هم والله وراء هذا الكثيب الذي ترى.

فقال لهما رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: كم القوم؟

قالا: كثير.

قال: ما عدتهم؟

قالا: لا ندري.

قال: كم ينحرون من الإبل كل يوم.

قالا: يوما تسعا ويوما عشرا

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: القوم فيما بين التسعمائة والألف.

ثم قال لهما: فمن فيهم من أشراف قريش؟

فأخذا يذكران ألمع الأسماء في مكة.

فهز رسول الله رأسه في حزن، وأقبل على الناس فقال «هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها».

مهما يكن من أمر فإن المقادير أرادت غير ما أراد المسلمون، لقد خرجوا لمفاجأة قافلة تجارية، لا يصحبها سوى عدد قليل من المحافظين عليها، فإذا بهم يجدون أنفسهم في مواجهة جيش عدو يفوقهم عدة وعددا ثلاث مرات، ومزود بسلاح من الفرسان ...

نتيجة ذلك يجب –مهما كان الثمن– أن يسبق المسلمون إلى آبار بدر، فأخذوا في السير حتى وصلوا إلى أعلى الوادي، وكان الوادي من الجدب بحيث لم يجدوا به قطرة ...

نفد ما كان مع المسلمين من الماء، فلما كان الغد بلغ منهم الظمأ حد اليأس من ... واهتبل الشيطان هذه الفرصة، فوسوس إليهم: «انظروا إلى ما قد كم ... ذلكم الذي ... رسول الله ... هم أولاء الأعداء، لا يحصيهم العد، يحيطون بكم، ولا ... تحرق جوفكم من شدة الظمأ، فيلتهموكم التهام الفريسة السهلة التي لا تجد ... حيلتها، ... وسوسة الشيطان ... نفوسهم

من حسن الحظ أن ... الظمأ في صيام شهر رمضان قوى من صبرهم

في الوقت الذي بلغت فيه الحرارة أشدها، وأرسلت الشمس شعاعها كشواظ من نار، ... بعد العصر، أرسل الله إليهم السحب تتوج القمم والآكام، وتفجرت عن الغيث

المنعش.

نهل المسلمون منه وعلوا وحفروا حفرا صغيرة امتلأت بالماء فغسلوا فيها ثيابهم التي كانت تنضح عرقا وتطهروا للصلاة، ولم تقف فائدة المطر عند ذلك: فقد كان طريقهم في الوادي لينا تغوص فيه الأقدام، فلبد له المطر الأرض، ولم يمنعهم عن السير

«وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان[١] وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام» سورة الأنفال،١١.

وعلى العكس كانت هذه العاصفة، شرا على المشركين فقد أصابهم منها ما لم يقدروا على أن يرتحلوا معه، فقد كانوا في أرض سبخة، وكانت إبلهم تنزلق، وتخر على الأرض، وأرجلها الطويلة ممدودة وأعناقها في صورة تبعث على الضحك، وكانت قوائم الخيل تغوص في الأرض وتعجز عن إخراجها، ويحاول الفارس تخليصها من الأرض فيرتمي عليه الفرس، وساد الاضطراب وعمت الفوضى، وعوق كل ذلك من سيرهم، وأنهك قواهم.

أما المؤمنون، وقد تطهروا وانتعشت نفوسهم، فإنهم قضوا ليلة في هدوء، مريحة، حتى لقد أهملوا الحراسة واثقين كل الثقة فيما أخبر به الرسول من أن الملائكة ستتولى حراستهم، ولكن محمدا بقي متيقظا، مستغرقا في الصلاة.

«إذ يغشيكم النعاس أمنة منه» سورة الأنفال،١١.

وجاءت الساعة التي سيتقرر فيها مصير الإسلام، وكان ذلك يوم الجمعة السابع عشر من شهر رمضان.

وكان الحباب بن المنذر مشهورا بجودة الرأي وإخلاص النصيحة، فخاطب رسول الله قائلا: يا رسول الله، أرأيت هذا المنزل، أمنزلا أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه، ولا نتأخر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ فقال رسول الله: بل هو الرأي والحرب والمكيدة فقال: يا رسول الله، فإن هذا ليس بالمنزل، فانهض بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم فننزله، ثم نغور[٢] ما وراءه من القلب[٣] ثم نبني عليه حوضا فنملؤه ماء، ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون.

فقال رسول الله –صلى الله عليه وسلم– أشرت بالرأي، ثم أخذ رسول الله بهذه النصيحة الخطيرة الخطورة، وتحدد بذلك مكان المعركة: فسيضطر المشركون، بلا شك، إلى الحضور لينازعوا المسلمين على الماء، فليس في الوادي غيره

وقام سعد بن معاذ، فقال: يا نبي الله، ألا نبني لك عريشا[٤] تكون فيه، ونعد عندك

---

(١) وسوسته
(٢) نطمس ونردم.
(٣) الآبار
(٤) ... يستظل به

ركائبك، ثم نلقى عدونا، فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببناه، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا من قومنا، فقد تخلف عنك أقوام، يا نبي الله، ما نحن بأشد لك حبا منهم، ولو ظنوا أنك تلقى حربا ما تخلفوا عنك، يمنعك الله بهم، يناصحونك ويجاهدون معك، فأثنى عليه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- خيرا، ودعا بخير.

وقطع المسلمون غصون الأراك، وألقوا بينها حتى صارت عريشا، غطوه بأعواد الطرفة، فأوى إليه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يرافقه أبو بكر رضي الله عنه، ورأت الطلائع الأولى لفرسان الأعداء، تسير في خيلاء، على مرأى من الرسول، فلما رآهم قال: اللهم هذه قريش، قد أقبلت بخيلائها وفخرها، تحادك (١) وتكذب رسولك، اللهم فنصرك الذي وعدتني، اللهم أحنهم (٢) الغداة. وتجمع المشركون، فبعد جهدهم بالأمس ليتخلصوا من أوحال السبخة التي كانوا بها، ناموا ما بقي من ليلتهم، ثم استيقظوا وقد شعروا بظمأ شديد، وكانت العاصفة من السرعة بحيث لم تملأ الغدران، أما آبار الوادي فقد ردمها المسلمون، فلم يجد المشركون ماء يروي ظمأهم.

اشتد بهم الظمأ، ورأوا الماء السائل منتشرا في الحوض الذي حفره المسلمون، وكاد شعاع الشمس الذي ينعكس عليه يخطف أبصارهم، فأثار ذلك من حفيظتهم، وحرك غرائزهم للانتقام، وأقبل نفر من قريش -معتمدين على سرعة أفراسهم- حتى وردوا الحوض، وفيهم حكيم بن حزام، فأراد المسلمون أن يصوبوا إليهم سهامهم، فقال -صلى الله عليه وسلم- دعوهم، فما شرب منه رجل يومئذ إلا قتل، إلا ما كان من حكيم بن حزام فإنه لم يقتل، ثم أسلم بعد ذلك، فحسن إسلامه. (٣)

أما الأسود المخزومي فقد ركبه كبرياؤه، وأعجب بقوته، فصرخ بحيث يسمعه المسلمون والمشركون قائلا: وحق آلهتنا، وحق اللات والعزى، لأشربن من حوضهم، أو لأهدمنه، أو لأموتن دونه، فلما خرج، خرج إليه حمزة بن عبد المطلب، فلما التقيا ضربه حمزة فأطار قدمه بنصف ساقه، وهو دون الحوض، فوقع على ظهره، ورجله تشخب دما نحو أصحابه، ثم حبا إلى الحوض في مهارة مدهشة، وأسرع نحوه، يريد أن يبر يمينه، ولكن حمزة أدركه فقضى عليه.

وعلى أثر ذلك خرج ثلاثة من أبطال المشركين يدعون المؤمنين إلى المبارزة فردية، وهم: عتبة بن ربيعة، وابنه الوليد بن عتبة، وأخوه شيبة بن ربيعة

(١) تحاربك
(٢) أهلكهم
(٣) كان إذا اجتهد في يمينه قال: والذي نجاني يوم بدر

فأرسل إليهم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عبيدة بن الحارث، وحمزة، وعليا، فأما حمزة فلم يمهل شيبة أن قتله، ثم علي فلم يمهل الوليد أن قتله، واختلف عبيدة وعتبة بينهما ضربتين، كلاهما أثبت (١) صاحبه، فوقعت الضربة في ركبة عبيدة، فأطاحت رجله، وصار مخ ساقه يسيل، فأصبح تحت رحمة عدوه، فكر علي وحمزة فأجهزا على خصمه، ثم احتملا صاحبهما -في رفق- إلى جوار الرسول الذي أسند رأسه ووضعه على فخذه، وأخذ يواسيه، ويبشره بالثواب الذي ينتظره بين أرجاء الفردوس الفسيحة، ولم يلبث عبيدة أن لفظ نفسه الأخير، فكان أول شهيد في الجهاد.

بعد هذه المبارزة الفردية التي صارت الموقف الحربي بين جوانح المحاربين، لا يمكن أن يطول انتظار النزال بين هذين الجمعين، فأخذ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يعدل جيشه كتفا بكتف، في صفوف متلاصقة كالبنيان المرصوص، وأخذ يكبح شكيمة هؤلاء المتهورين، الذين يريدون أن يتقدموا الجمع إلى القتال، فيلاقوا بلا شك مصرعهم دون فائدة تعود على المسلمين من ذلك

من هؤلاء سواد بن غزية، فقد برز من صفه، فضربه رسول الله بقدح (٢) كان بيده، وقال: استو يا سواد.

فقال: يا رسول الله، أوجعتني، وقد بعثك الله بالحق والعدل، فأقدني (٣) فقال رسول الله- اقتص مني.

قال سواد: كيف وقد ضربتني على بطني العريان؟

فكشف له رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عن بطنه، وقال: استقد يا سواد، فاعتنقه سواد فقبل بطنه.

وقال: ما حملك على هذا يا سواد؟

فقال: يا رسول الله حضر ما ترى فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدي جلدك فدعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم بخير وعدل رسول الله صلى الله عليه وسلم الصفوف، وأمر أصحابه أن لا يحملوا حتى يأمرهم، ورجع إلى العريش يرافقه أبو بكر، فدخله، وكان على بابه سعد بن معاذ متوشحا سيفه، وأخذ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يناشد (٤) ربه ما وعده من النصر، ويقول فيما يقول:

اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد، واستغرق في الدعاء والتضرع حتى سقط رداؤه دون أن يشعر، فأعاده أبو بكر، وهو يقول: يا نبي الله بعض مناشدتك ربك، فإنه منجز لك ما وعدك وقد خفق رسول الله -صلى الله عليه وسلم- خفقة وهو في

(١) جرحه جراحة لم يقم معها
(٢) القدح: السهم
(٣) يسأله ويلح عليه
(٤) اقتص لي من نفسك.
(٤) نام نوما يسيرا.

العريش، ثم انتبه فقال: أبشر يا أبا بكر، أتاك نصر الله، هذا جبريل، آخذ بعنان فرس يقوده، على ثناياه النقع[1]

ثم خرج رسول الله – صلى الله عليه وسلم – من العريش، يحرض الناس على القتال مكررا: «سيهزم الجمع ويولون الدبر»، والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرا محتسبا، مقبلا غير مدبر إلا أدخله الله الجنة.

وسمع عمير بن الحمام ذلك وكان في يده تمرات يأكلهن، فرمى بهن، وقال بخ بخ[2] «فما بيني وبين أن أدخل الجنة إلى أن يقتلني هؤلاء؟».. وامتشق سيفه، واقتحم صفوف المشركين مخضبا الأرض بدمائهم، واستمر يقاتل القوم حتى قتل.

وسأل أحد المؤمنين قائلا: يا رسول الله، ما يضحك[3] الرب من عبده؟

قال: رسول الله – غمسه يده في العدو حاسرا[4] فنزع درعا كانت عليه فقذفها، ثم امتشق سيفه يخضبه بدماء العدو.

وأصبح من المستحيل صبر المسلمين، على تلك الحال، فأخذ رسول الله – صلى الله عليه وسلم – حفنة من الحصباء، فاستقبل قريشا بها، ثم قال: شاهت الوجوه. ثم نفحهم بها، وأمر أصحابه فقال: شدوا.

وانقض المسلمون كإعصار هائل على المشركين، وكان للاصطدام ضجيج قد بلغ عنان السماء، وكانت قعقعة السلاح، وصراخ اليائسين، وصياح المنتصرين، كان كل ذلك يردده الصدى من جوانب الوادي، ويرافقه صوت غريب، متقطع كضرب الطبول المضطربة.

حدث رجل من بني غفار قال: أقبلت أنا وابن عم لي حتى أصعدنا في جبل يشرف بنا على بدر، ونحن مشركان، ننتظر الوقعة، على من تدور الدائرة فننتهب مع من ينتهب.

وفجأة، وفي وقت ارتجف فيه المسلمون، رأيت في أعماق الوادي، من وراء جيش الإسلام، عمودا من التراب، يرتفع ويقترب في سرعة عجيبة، ومن خلال شكله الحلزوني كانت تطير وتختفي أشباح غريبة مرعبة، وكأن العمود في سرعته يهدد السحاب، وكأنه حرب عوان أقامتها الأرض في ثورة ضد السماء.

وكان يخرج من هذا العمود أصوات غريبة أيضا، كدت منها أموت فزعا، كان منها صهيل الخيل وقدحها بحوافرها وهي تعدو ضبحا، وكان منها خفق الأجنحة الضخمة، وقرع الطبول، وسمعت صوتا آمرا، ساد كل هذا الضجيج يقول: أقدم، حيزوم[5]

وما هي إلا طرفة عين حتى أصبح هذا الطائر العنيف بجوار المسلمين، وانقض

(١) الغبار

(٢) كلمة تقال لتفخيم الأمر والتعجب منه.

(٣) يرضيه عليه الرضى (٤) لا درع له

(٥) أقدم كلمة تزجر بها الخيل، وحيزوم اسم فرس جبريل عليه السلام.

معهم على صفوف المشركين، ولم [illegible] حط بنا وغمرنا في عتمته الداكنة، فلم أعد أرى رفيقي، وكدت أفقد وعيي من [illegible] وكانت رياح المعركة [illegible] في كل اتجاه، فتشبثت – تشبث المستميت – بأطراف [illegible]، حتى لا أطير معه كذرة من حطام، ولقد تسربت أذني من الصيحات المرتعشة [illegible] فسمعت تقذف بها الأعداء، وأنين الجرحى، وسباب المهزومين [illegible] أبو فهم، وكنت [illegible] أرى في ظلام هذه الموقعة سوى لمعان السيوف ووميض [illegible]، وبريق الحراب.

وسكنت العاصفة فرأيت رفيقي [illegible] على الأرض [illegible]، وقد انشق صدره، وانكشف قناع قلبه، وكانت الجثث [illegible] على الأرض [illegible]، أشبه بجذوع أشجار أطاحت بها الأعاصير، وعلى [illegible] جنود الإسلام [illegible] شعاع الشمس، يكرون وراء الهاربين.

هذا العمود الثائر [illegible] كان أثر لجبريل [illegible] على فرسه حيزوم، يقود ثلاثة آلاف من الملائكة لإغاثة المسلمين، وكان [illegible] من الحراب [illegible] كان لا بد من [illegible] الانتصار، [illegible] بسيوفهم، وأعنت العاصفة المسلمين على [illegible] في وجوه المشركين، وتؤذي [illegible] أفواههم [illegible]، وكان المشركون لا يدرون أين يضربون ولا في أي وجهة يدافعون.

[illegible] المسلمون، فقد كانوا على العكس: يشعرون أن قوتهم [illegible] بدفع العاصفة، وكانت أعينهم المبصرة [illegible] هجوم الأعداء وتجعلهم يضربون في ثبات وإصابة [illegible]، وفضلا عن ذلك كانوا يشعرون بأن قوة خفية [illegible] الطبيعة تضاعف من قوة سواعدهم [illegible] لدرجة أنهم كانوا يشعرون بأنهم يضربون في الهواء إلا أن أسلحتهم كانت تمتد في أعدائهم في سهولة لم تكن تتصور، ولم يشعروا في ذلك بأية مقاومة.

يقول أحد الذين حضروا غزوة بدر: لم أكد أتوعد أحد الرءوس بأني سأحزه بسيفي، حتى رأيته يطير عن كتف عدوي، ويهوي إلى الأرض متدحرجا قبل أن يمسه ذباب سيفي.

قتل في هذه المعركة سبعون من المشركين، ومن هؤلاء كل الذين تعاهدوا على قتل الرسول في مكة، فلم يقتلوهم ولكن [illegible] سورة الأنفال.

وكان من ضمن قتلى المشركين [illegible] وعشرون من أشراف قريش، أمثال عتبة والوليد، وشيبة، و[illegible] بن خلف، [illegible] بن [illegible]، و[illegible] من هؤلاء جميعا قائد الحملة أبو جهل.

كان المسلمون يعلمون أن أبا جهل هو محرك [illegible] المؤمنين [illegible] رسول [illegible]، فأخذوا يبحثون عنه، و[illegible] بن عمرو بن الجموح [illegible] إليه، فضربه ضربة أطارت قدمه بنصف ساقه، واشترك [illegible] بن أبي جهل لإغاثة أبيه [illegible] له، فضرب معاذا على عاتقه فطرح يده التي [illegible] بجلده من جنبه، و[illegible] في القتال فسحبها خلفه، ولكنها بقيت حملا عليه [illegible] معاذ: فلما آذتني [illegible]

سطيت بها عليها حتى طرحتها.

ثم مر بأبي جهل، وهو عقير، فتيان من الأنصار هما ولدا عفراء وهو ... فرسه، فطعناه حتى هوى عن فرسه.

واهتم رسول الله- صلى الله عليه وسلم- بالبحث عن مصير أبي جهل ... يلتمس في القتلى، فذهب عبد الله بن مسعود للبحث عنه فوجده بآخر رمق ... فوضع رجله على عنقه، كما يضع الإنسان رجله على أفعى، ولكن في اللحظة التي ... الله أن يقضي عليه فيها، أخذ أبو جهل بلحيته، وأرسل إلى عينيه نظرات ... الغيظ والعجز، وصرخ في حشرجة: «لقد ارتقيت مرتقى صعبا يا رويعي الغنم».

ولأجل أن يضع ابن مسعود حدا لسباب هذا الملحد احتز رأسه وجاء به ... الله- صلى الله عليه وسلم- وحينما رأى رسول الله رأس عدوه الدامي قال ... إله غيره»، ثم حمد الله، وقال: «هذا فرعون هذه الأمة».

وتحت شعاع الشمس الملتهب بدأت الجثث تنتفخ، واحتدت الوجوه المنتفخة ... وهذه الظاهرة جعلت المسلمين يعتقدون أن المشركين قد صرعهم جند السماء ... احترقوا بلهيب من نار جهنم، وتفقد رسول الله- صلى الله عليه وسلم- ... بين القتلى، أمر بدفن الجثث دون تفرقة بينها.

ولما أمر رسول الله- صلى الله عليه وسلم- بهم أن يلقوا في القليب (١)، أخذ عتبة بن ربيعة، فسحب إلى القليب، فنظر رسول الله- صلى الله عليه وسلم- في وجه ... حذيفة بن عتبة، فإذا هو كئيب قد تغير لونه، فقال: «يا أبا حذيفة، لعلك قد دخلك ... أبيك شيء؟» فقال: «لا والله يا رسول الله، ما شككت في أبي ولا في مصرعه، ولكن كنت أعرف من أبي رأيا وحلما وفضلا، فكنت أرجو أن يهديه ذلك إلى الإسلام، فلما ... أصابه، وذكرت ما مات عليه من الكفر، بعد الذي كنت أرجو له، أحزنني ذلك». ... رسول الله- صلى الله عليه وسلم- بخير وقال له خيرا.

جيء لرسول الله- صلى الله عليه وسلم- بناقته فركبها وذهب إلى القليب ... أن يدفن فيه أربعة وعشرون من أعدائه، فلما وصل إليه نزل عن ناقته، وأخذ ... الموتى، كلا باسمه، يقول:

يا أهل القليب، يا عتبة بن ربيعة، ويا شيبة بن ربيعة، ويا أمية بن خلف ويا ... بن هشام فعدد من كان منهم في القليب، هل وجدتم ما وعد ربكم حقا؟ فإني قد ... ما وعدني ربي حقا.

فقال له عروة: يا رسول الله، أتكلم قوما موتى؟ قال:

والذي نفس محمد بيده، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكنهم لا يستطيعون ... يجيبوني.

---

(١) البئر.

وهكذا، عرفه رسول الله- صلى الله عليه وسلم- أن هؤلاء المشركين وقد أصبح مسكنهم النار، لم يجدوا مناصا من الاعتراف بصحة ما حدثهم به الرسول صلى الله عليه وسلم في حياتهم، وبهذا المعنى يفسر حديث عائشة الذي يشرح هذا الموقف إذ أن القرآن يقول: «فإنك لا تسمع الموتى» سورة الروم ٥٢.

أما المؤمنون فلم يفقدوا سوى أربعة عشر: ستة من المهاجرين، وثمانية من الأنصار. وهؤلاء وقد أصبحوا خالدين على مر الزمن، أول الشهداء الذين استشهدوا في الجهاد.

الإقامة ببدر ثم العودة إلى المدينة:

ومكث رسول الله صلى الله عليه وسلم ببدر ثلاثة أيام يدفن الموتى، ويجمع الغنائم التي أقر على حراستها أحد أفراد بني النجار، ثم ذهب للعودة إلى المدينة، وبعث أمامه زيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة يبشرا أهل المدينة بالانتصار، فوصلا في ساعة حرجة بالنسبة للمسلمين، وقال أسامة بن زيد: أتانا الخبر حين سوينا التراب على رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم التي ماتت إثر مرض أليم، وكانت زوجة عثمان بن عفان، وكان المنافقون واليهود، إذ ذاك، يذيعون الشائعات الخطيرة التي تمس مصالح المسلمين، عن مصير الرسول في بدر، ويتأهبون لمهاجمة أنصاره.

وسرت البشرى في جميع أرجاء المدينة مسرى البرق، فأشاعت القلق في نفوس المنافقين واليهود، والطمأنينة والتحمس في نفوس المؤمنين الذين خرجوا لملاقاة المنتصر زرافات، زرافات، رجالا ونساء وأطفالا، ضاربين على الدفوف، ينشدون بأنشودة الاستقبال التي استقبلوا بها الرسول عند دخوله المدينة أول مرة:

طلع البـــدر علينا	من ثنيـات الوداع
وجب الشـكر علينا	ما دعـا لله داع
أيها المبعـوث فينا	جئت بالأمر المطاع

هذه الغزوة الخالدة، التي لم يكن بها من المحاربين إلا عدد قليل، كانت نتائجها من الأهمية بحيث غيرت وجه العالم، وأصبح وادي بدر مزارا لآلاف من الحجاج كل عام.

يقول الرحالة ابن جبير عن بدر: إن قرية تقوم هناك الآن، محاطة بسياج، وعلى القليب، حيث دفن المشركون، غرست طائفة من أشجار النخيل، وعلى بعد خطوات من هناك، مقابر الشهداء.

وعلى شمال الطريق الآن من الصفراء يمتد جبل الرحمة، حيث نزلت الملائكة من السماء.

أما العريش الذي كان فيه الرسول، فإنه كان- كما يقولون- على حافة جبل من الرمال، يسمى «جبل الطبول»، ويسمع الحاج عادة فيه قرع الطبول التي لا يعرف مصدرها، ولا يدرك سرها، والتي تحيي ذكرى أول انتصار للإسلام.

وكان عدد الأسرى سبعين كعدد الذين قتلوا، وكانوا ينتسبون- في الأغلب- إلى أكبر أسر المشركين، وكان من بينهم اثنان، هما: عقبة والنضر، قد تجاوزا في إيذاء الرسول

كل حد، فحكم عليهما بالإعدام وبعد الحكم.

ولم يكن العباس، عم محمد، قد اعتنق الإسلام، وقد اضطر إلى اتباعه بمكة للتجارة، ثم لحق بالقافلة المهددة، فوجد نفسه في عداد الأسرى، ولم تجد ضخامة جثته وقوته شيئا، إذ أسره ضعيف من الأنصار، فكان ذلك مثار دهشته، وضاق بالحبال التي كانت تربطه وتشد جسمه في قسوة، فأخذ يتنهد، ثم لمحه مؤمن رحيم القلب تذكر كرم العباس وقرابته من النبي فخفف شيئا من قيوده، وعلم محمد بالأمر ولم يكن يرى أن يلقى أقراد أسرته أي نوع من المحاباة، فأمر بتخفيف قيود سائر الأسرى على نحو ما كان بالنسبة إلى العباس.

وبقى أن يبت في مصير كل هؤلاء الأسرى.

ورأى أبو بكر أن تقبل فديتهم، لما بين الغالبين والمغلوبين من أواصر القرابة.

أما عمر في شدته، فكان يرى أن يقضي عليهم جميعا لما تسببوا فيه من اضطهاد للمسلمين وإخراج للرسول من مكة، وسارى عدد الصحابة المنقسمين إلى كل من الرأيين.

فرأى الرسول رأى أبي بكر وأمر باحترام الأسرى الذين، وإن كانوا قد غلبوا على أمرهم، إلا أنهم أظهروا شجاعة وإقداما، وحث الناس على معاملتهم معاملة طيبة، وفك قيودهم، ووزعهم على المسلمين الذين كلفوا بحراستهم، ونفذ هؤلاء المسلمون تعليمات الرسول في دقة، فعاملوا أسراهم أحسن معاملة، حتى إنهم كانوا يؤثرونهم على أنفسهم بالخبز ويكتفون بالتمر.

وقدرت فدية كل أسير حسب ثروته. فكانت فدية العباس عم محمد أكبر فدية، وسرح بعضهم، لفقرهم، دون مقابل، وأضاف محمد إلى ذلك أن طلب من كل أسير يعرف الكتابة والقراءة أن يعلمها لاثنين من أولاد الأنصار قبل أن يطلق سراحه نهائيا

وكان من بين الأسرى أبو العاص بن ربيعة، وهو من وجهاء القوم وأغنيائهم، تزوج زينب بنت الرسول قبل الوحي، وظل على إشراكه، وقد بعثت زينب من مكة فدية له مبلغا من المال وعقدا أهدته إليها أمها خديجة عند زواجها، ورأى محمد العقد الذي كان قد رآه من قبل في عنق زوجه المحببة خديجة، فعرفه، وثارت له في نفسه شجون، فسأل المسلمين إعادة الفدية إلى زينب وإطلاق سراح زوجها.

فلم يعترض أحد على ذلك، فأطلق محمد سراح أبي العاص على شريطة أن يبعث إليه بابنته، لأن المسلمة لا يمكن أن تبقى في ذمة الشرك. وقبل المشرك الشرط وإن لم يكن مستريحا إليه، فعاد إلى مكة وبعث بزينب إلى المدينة، وعلم القرشيون برحيل زينب فتتبعوا خطاها، ولحقها أحدهم فضربها في قسوة، بكعب رمحه، فوقعت من هودجها، ثم وصلت تلك المرأة الحزينة المدينة وكانت حاملا، فماتت بعد قليل من آثار ما لاقته من قسوة المشركين

وغضب الرسول لهذا، فأمر المؤمنين إذا تمكنوا من الرجل الذي كان سببا في موت زينب أن يحرقوه حيا، ثم رجع عن هذا الأمر لأنه رأى أن لله وحده — سبحانه مالك

[illegible] الحق في إحراق الناس في جهنم.

أما أبو العاص فقد أسره المسلمون ثانية وهو يقود قافلة إلى الشام، فأطلقه الرسول مرة [illegible].

وهكذا حاول محمد، في كل مناسبة أن يظهر كرمه بالنسبة إلى الأسرى من قبيلته، وكان نتيجة هذا أن أسلم عدد من أهل مكة، عجبهم [illegible] الأسرى الذين شهدوا عند عودتهم بحسن معاملة المسلمين لهم

ولكن ألم تكن هذه الرحمة بأعداء الله ضارة وخطرة بالنسبة إلى مستقبل الإسلام؟

لقد جاء الوحي يلقى الرسول بسوء العاقبة ويلومه على ما فعل، فحزن محمد حزنا عميقا عندما علم أن رأفته بالأعداء سوف يترتب عليها استشهاد الكثير من المؤمنين، ولم يكن يعتقد في الواقع أن تؤدي هذه الرأفة إلى تجدد القتال

وكانت مشكلة تقسيم الغنائم بعد الانتصار تثير الفتنة بين المسلمين، فقد رأى هؤلاء الذين تبعوا الغنائم أن يحتفظوا بها كلها لأنفسهم، [illegible] قتلوا ولم يشتركوا في العلم وسلب الغرس، فقد طالبوا بنصيبهم، وقالوا [illegible] لولاهم ما استطاع أحد أن يغنم أو يسلب [illegible] جند المؤخرة [illegible]، لولا حرصهم على الإحاطة بالرسول، لقاتلوا وغنموا وسلبوا كالآخرين. وتعالت أصوات القوم وكادت الفتنة تدب بينهم، فجاء الوحي بفصل الخطاب.

[illegible] عن الأنفال، قل الأنفال لله والرسول.

وعاد محمد إلى المدينة، فقسم الأنفال بكل دقة، وقرن [illegible] يأخذ جند المؤخرة نصيبهم منها، وكذلك بعض المؤمنين الذين قعدوا في المدينة لخدمة الإسلام في غياب قائده.

واستطاع محمد [illegible] أن يرضي الجميع، ولم يحتفظ لنفسه إلا بنصيب الجندي البسيط، ولكنه [illegible] أن يكون فيه [illegible] من الغنائم [illegible]

[illegible] لله خمسه وللرسول، ولذي القربى، واليتامى، والمساكين، وابن السبيل.

[illegible] في مكة أن الهزيمة الكبرى التي سببت لهم الكثير من القلق، عائدة، فأعدوا العدة لاستقبالها في [illegible] وأفراح، ولكنهم [illegible] جندهم مغلوبين، فلم يصدقوا في أول الأمر هذه الخسارة العظيمة، لشدة إيمانهم بتفوق جنودهم في العدد والعدة، فلاقوا الهاربين من الجند [illegible] منهم [illegible] خوفه فروا من المعركة قبل انتهائها

ولكن جاء النبأ [illegible] بعد قليل، وانكشف [illegible] أعداء الله عن بأس عميق، [illegible] منظم الحقيقي [illegible] عند ما حكى له أحد الهاربين الأمور العجيبة التي شهدها [illegible] في راية هزيمة قريش، فقد رأى المسلمين يتلقون عونا من [illegible] يمكنهم [illegible] في سحب [illegible]، جندا عجيبا في أثواب بيض، على جياد [illegible] في صفوف أنصار محمد.

وصاح عند ذلك [illegible] من القوم يقال له أبو رفيعة، وكان من خدم العباس عم محمد، مؤكدا أن هؤلاء [illegible] لم يكونوا إلا ملائكة

وغضب أبو لهب [illegible] من خوف القوم من هذا الحديث ومما عنه من التعليقات،

وأخذ بتلابيب الخادم، فصرعه وراح يضربه في وحشية وقوة شديدة، وثارت امرأة العباس بهذا، فصرخت في أبي لهب تعيبه على ضربه الخادم في غيبة السيد، وعلته بقطعة خشب وضربته بها فأدمت رأسه، ولم يغضب القوم لذلك، إذ رأوا أن أبا لهب يستحق ما ناله من عقاب، فقام الرجل يخفي خزيه وسخطه في عقر داره، وكان مريضا فلم يستطع بعد ذلك مقاومة ما ثار في نفسه من ألم وخزي، ففسد دمه واكتسى جسمه ببثور حمراء يقال لها عدسات، ومات من دائه في سبعة أيام.

أما أبو سفيان وامرأته هند فقد آلمهما موت ابنهما حنظلة، وأحفظهما عار الهزيمة، فعرفا بين الناس بتعطشهما للثأر.

واستعمل أبو سفيان سلطته في منع مظاهر الألم والنواح بين أهل مكة، فقد رأى في البكاء والنوح والعويل وقصائد الرثاء أشياء لا تجدي، ورأى أن حزن قومه من شأنه أن يبعث السرور في نفوس أعدائه، فراح يحث الناس على الجد في أمر واحد، ألا وهو طلب الثأر.

وحلف أن يحرم نفسه من النساء والطيب حتى يروي قلبه بثأر عظيم.

وراح نبأ انتصار النبي بين قبائل بلاد العرب كلها، فكان له فيها الأثر الفعال.

كذلك تخطى النبأ البحار، ومشى رسول من محمد بالخبر إلى نجاشي الحبشة وأنبأ المسلمين الذين استجاروا فيما مضى بهذا الملك أن لهم، إذا أرادوا، بالمدينة خصب ومقام، فيه يجاورون نبيهم وأهليهم.

«يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون»

الفصل السادس

بسم الله الرحمن الرحيم

«ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين»

زواج علي:

أصبح علي بن أبي طالب، بفضل إخلاصه المتناهي وشجاعته التي لا تقاوم وحرصه الدقيق على ظاهر السجايا، أحد أبطال الإسلام المشهورين، غير أن فقره الشديد ألزمه بأن يعمل أجيرا عند أحد الملاك من الأنصار، فكان يقضي يومه بين الصلاة وري النخيل، ولم يكن - بأعماله المجيدة - أهلا لتلك الحال المتواضعة، فجدير به أن يحتل مكانة سامية في أعين الناس.

وقد مر به أبو بكر وعثمان يوما وهو يمتح الماء من بئر، فحدثاه عن عمله وذكراه برغبته التي كثيرا ما أبداها في الزواج من فاطمة بنت الرسول فليس [illegible] به أحق الناس بها، فغضب علي وعتب عليهما أن كلماه في هذا الحلم الذي [illegible] لتحقيق [illegible] ذات يده.

لكنهما ألحا عليه أشد الإلحاح، وأكدا له استعدادهما لمعونته، فخلع علي لباس العمل، وأتى دار الرسول حاملا سيفه ودرعه وخفه وكان ذلك كل [illegible]

وطرق الباب، فاستقبله الرسول مرحبا بأحب الناس إليه، ووقف علي أمامه مطأطئ الرأس في حياء، فسأله النبي عن حاجته فتكلم علي ذاكرا أن [illegible] بينهما وعطف عليه عطف الأب على الأبناء حتى كان رجلا وهو اليوم يريد [illegible] به بيت وولد، ورأى الرسول شيئا في هذا طلبا الزواج من ابنته فاطمة، فسأله صلوات الله وسلامه عليه عن المهر، فأجاب علي: أن إعساره معروف، وبه [illegible] حاملا كل ماله: سيفه ودرعه وخفه.

قال رسول الله: إن السيف للإسلام ليس للرسول أن يقبله، أما [illegible] فهي قوة ذراع البطل فلا غنى عنه، ويستطيع أن يبيعه ويأتي بثمنها مهرا لفاطمة.

وفرح علي كل الفرح، وراح يبحث عن شار لدرعه، فابتاعه [illegible] عثمان بثمن لا بأس به، ثم أعادها إليه في ساعته هدية عرس.

وتم الزواج بعد أن قال محمد لعلي: إن الله قد أعطاه فاطمة في [illegible] أن يعطيها له محمد في الأرض.

[illegible] بلال [illegible] كثير من المؤمنين ليسمعوا إلى خطبة [illegible] يخبرهم [illegible] النبي [illegible] أمر بلالا بإحضار لوازم الزواج المتواضعة، [illegible] نصف المهر [illegible] التي لا [illegible] عنها في بيت [illegible] ووسادة من [illegible] لدرعه [illegible] ومصبح، [illegible] في الزبد والدقيق والتمر لوليمة العرس.

ودخلت جماعة من النساء يجهزن الزوجة - تبعا للتقاليد - في [illegible] زوجها فلما رأهن الرسول رجعت به الذاكرة إلى السيدة التي لو كانت [illegible] تركت

غيرها يقوم بهذا العمل، رجعت به الذاكرة إلى السيدة خديجة أم فاطمة، فتملكه حزن شديد، وسالت دموعه غزيرة على خديه، ولما ولت الذكرى بما تحمل من حزن وألم، جعل عليا إلى يمينه وفاطمة إلى يساره ودعا لهما أن يهبهما الله ذرية صالحة تكون عمرا للمسلمين

وقضى الزوجان ثلاثة أيام وثلاث ليال في صلاة وتعبد، ولم يقرب عليٌّ الفتى المفحول زوجته ذات النسب الشريف إلا في الليلة الرابعة، إذ أراد أن يحقق رغبة الرسول في سلالة من الذكور.

ووضعت فاطمة بعد تسعة أشهر ولدا سمي الحسن، ثم جاءت بالحسين بعد مولد الحسن بسنة، فكان نسل الحسن والحسين، ذلك النسل الذي عرف بالشريف نسل محمد خاصة.

زواج الرسول بحفصة وبأم المساكين:

رغبت حفصة بنت عمر -وأرملة خنيس- في الزواج، فلم يتقدم أحد لخطبتها، إذ رأى الناس أنفتها وكبرياءها، ولقد عرضت يدها على أبي بكر ثم على عثمان، فأبيا وغاظ عمر ما لحق بابنته من إهانة، فشكا حاله إلى الرسول، فقال النبي الكريم له إن حفصة سوف تتزوج بخير من عثمان وإن عثمان سوف يتزوج بخير من حفصة، وزوج النبي ابنته أم كلثوم لعثمان بينما تزوج هو من حفصة المتكبرة إكراما لعمر، ولم يمكث طويلا على ذلك حتى بنى بأرملة عبيدة الذي مات شهيدا يوم بدر، وكانت تعبه رحيمة بالفقراء والضعفاء كثيرة الصدقات، وقد لقبت من أجل هذا بأم المساكين.

معركة أحد سنة ٣هـ سنة ٦٢٥م:

رجع أهل مكة من هزيمتهم في بدر، فلم تقر لهم بعدها عين، ولم يهدأ لهم بال، ونظروا نظرة اليأس إلى مستقبلهم، فلقد قطع عليهم الرسول بذلك الغزوة تجارتهم طريق الشام، ولم تعد القوافل تجرؤ على ارتيادها، وبدا لهم أن الخراب والمجاعة أقرب إليهم من حبل الوريد، ومن أجل ذلك عزموا على تخصيص الأرباح الهائلة التي تدرها عليهم قوافلهم التجارية الكبيرة لتجهيز حملة تثأر لقتلاهم وتعيد الأمن لقوافلهم، وجاء لمساعدة أهل مكة الكثيرون من البدو طمعا في الأجر الضخم، وقد استفزتهم قصائد كعب بن الأشرف وأبي العزى الحماسية الملتهبة، فانضموا إلى جيش أبي سفيان.

وكان على رأس ذلك الجيش، المكون من ثلاثة آلاف مقاتل، رجال ممن أصيب أهلهم يوم بدر، كصفوان وعكرمة، كذلك كان هناك خالد بن الوليد البطل المقدام، ولم تكن النساء أقل تحمسا لطلب الثأر، فخرجت هند بنت عتبة زوج أبي سفيان، في عدد من صواحبها، وقد وطدن العزم على سد الطريق في وجه كل جندي يريد الفرار.

انصرف الفلاحون، في السهول الخصبة الممتدة شمال المدينة، إلى الأعمال في حقولهم ورعي قطعانهم في وداعة وهدوء، ولم يدروا أن جند أبي سفيان قد نزلت من شعاب الجبال العربية، حتى باغتتهم بفصل ما اتخذته من حيطة شديدة لإخفاء مسيرهم سريع، ورأى الفلاحون المسالمون الجند، وعلموا أنهم لن يقدروا على مقاومتهم، فولوا

هاربين مسرعين ليفتدوا أنفسهم من الموت المحقق، وليخبروا إخوانهم بقدوم أعداء الله.

ووقف أهل المدينة فوق أسوار حصونهم يشهدون منظرا يتقطع له أكبادهم وأكباد الفلاحين أصحاب الأرض، إذ وقعت إبل المشركين كسرب من الجراد الهائف على الحقول الخضراء، بينما بعض المشاة على الأنعام يذبحونها، والفرسان على العلاة الناضجة يدوسونها، ويبعثرونها، وهم في ذلك إنما يقودهم ازدراء التجار لأعمال الفلاحة.

وراء ذلك الخراب الذي جرى تحت أبصارهم، وجد المؤمنون أنفسهم، في وقت واحد، في أشد حالات العجز والغضب، إذ رأوا السهل الرحب وقد أصبح مجالا لفرسان الأعداء، الذين لا قبل لهم بهم، وكان ملجؤهم الأخير قطعه رسول الله، فالتفوا حوله يستشيرونه، وقد أبدوا استعدادهم لكل تضحية، مهما عظمت، في سبيل إنقاذ حقولهم وزروعهم.

ولقد رأى محمد رؤيا، قال: «إني قد رأيت والله خيرا، رأيت بقرا تذبح، ورأيت في ذباب سيفي ثلما، ورأيت أني أدخلت يدي في درع حصينة، فأولتها بالمدينة. فأما البقر فهي ناس من أصحابي يقتلون، وأما الثلم الذي رأيت في ذباب فهو رجل من أهل بيتي يقتل، فإن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم حيث نزلوا، فإن أقاموا أقاموا بشر مقام، وإن هم دخلوا علينا قاتلناهم فيها».

وكانت تلك الخطة الحربية خطة يعرفها أهل المدينة، غير أنهم، وقد أسلموا وانتصروا في بدر، تغير حالهم، فأصبحوا يرون أنفسهم قوما لا يقهرون، فصفقوا فرحين بتحريض الأعداء لعقولهم، وكذلك كان المؤمنون من الذين لم يشهدوا بدرا يتحرقون شوقا إلى إظهار بسالتهم بدورهم، ولم يكن شيء يهم المؤمن للاستشهاد الذي تهفو نفوسهم متحمسة إليه

ولم يعارض فكرة الهجوم إلا عبد الله بن أبي بن سلول زعيم المنافقين، الذي وجد نفسه لأول مرة يرى رأي الرسول، غير أن محمدا لم يرد أن يقاوم الرغبة الملحة التي أبداها مخلصو المؤمنين، ومن كان يكبت حماستهم، فعزم على الأخذ برأيهم الذي أبدته نفسه في تبصرة وفطنته، فلما صلى العصر بالناس دخل بيته ليرتدي لامته، وأعد الحث عندهم من جانبهم، ثم حاطت جموعهم المحتشدة ببيت الرسول، الذي ما لبث أن خرج لهم مظهرا درعه، لابسا خوذته، متقلدا سيفه ملقيا بترسه على ظهره، وممسكا برمحه، وتذكر المتحمسون حينما كان سيخرجون نبيهم، يصرون في أمرهم، فندموا على ما بدر منهم من تحد في عزمهم من تأثير، فقد زعموا للمصطفى، وقد هيبهم من بدر منهم من معارضته «يا رسول ما استكرهناك... لم يكن لنا، فإن شئت فاقعد»

فأجابهم محمد «ما ينبغي لنبي... إذا لبس لامته أن يضعها حتى يقاتل»

وكان عدد جند المؤمنين يبلغ ألفا من المشاة، غير أنه لم يكن في جيشهم إلا جرس، وقد دفع لواء المهاجرين إلى مصعب بن عمير، وسلم لواء الأوس إلى أسيد، أما لواء الخزرج فكان بيد الحباب

وارتحل الجند قبيل غروب الشمس مولين وجوههم شطر الشمال، ولكنهم ما كانوا يبرحون أسوار المدينة حتى لحقت بهم كتيبة يهودية مؤلفة من ستمائة مقاتل على تمام الأهبة والسلاح، وكانوا من حلفاء عبد الله بن سلول المنافق من اليهود، وجاءوا بإيعاز يعرضون على النبي مساعدتهم، ولكن النبي كان عليما بمكنون سرهم، فخاف خيانتهم، وردهم قائلا: إن الله يغنيه عن مساعدتهم.

واغتاظ عبد الله لرد حلفائه، فقام بين الجند يبذر بذور القلق والشقاق في نفوسهم، ويقول «أطاعهم وعصاني، ما ندري علام نقتل أنفسنا ها هنا أيها الناس»

فانحاز إليه ثلث الجيش الصغير الذي لم يبق منه إلا ما يعرف من السبعمائة رجل، وعاد المنافق راجعا إلى المدينة في المنحرفين، وشيعهم سخرية المسلمين المخلصين.

وفي اليوم التالي، يوم السبت الحادي عشر من شهر شوال، ارتحل الرسول بجنده قبل الشروق، وطلب دليلا يستطيع أن يقود الجند دون أن يراهم العدو في مسالك جبل أحد الذي يرتفع منعزلا وسط السهل، فتقدم أبو خيثمة وبعد بهم في حرة بني حارثة وأموالهم، حتى سلك في مال المربع وكان رجلا منافقا ضرير البصر فلما سمع صوت الرسول ومن معه قام يصيح: «إن كنت رسول الله فإني لا أحل لك أن تدخل حائطي»، ثم مال إلى الأرض، وقبض على حفنة تراب واعتدل قائلا «والله لو علم أني لا أصيب بها غيرك يا محمد لضربت بها وجهك».

فأراد المؤمنون أن يعاقبوا ذلك المنافق على وقاحته، غير أن محمدا منعهم قائلا إن الرجل ليس أعمى البصر فحسب، بل قد عمى قلبه عن الحق أيضا.

وسار المسلمون في ذلك الطريق الملتوي المختفي تحت غصون الأشجار المتشابكة الكثيفة، حتى وصلوا إلى جبل أحد عند بزوغ الشمس، دون أن يثيروا انتباه أعدائهم

وعبأ الرسول العدة للقتال، وجعل الجبل خلف ظهره، فلم يكن ليخشى حركة التفاف من الأعداء، غير أنه - ليزداد اطمئنانا - جعل فوق الجبل خمسين من مهرة الرماة، واستعمل عليهم عبد الله بن جبير، وأمره أمرا قاطعا أن انضح الخيل عنا بالنبل لا يأتونا من خلفنا، إن كانت لنا أو علينا، فاثبت مكانك لا نؤتين من قبلك.

وفي الأثناء ارتفع الصباح من الجانب الآخر للسهل لقد تمكن المؤمنين... ... عليهم أشعة الشمس المشرقة، فأظهرتهم - جنبا - في هالة من نور، فوق ... الصحراوية

... جيش الأعداء، كما قدر الرسول، وعلى ميمنته خالد بن الوليد ... وعلى ميسرته عكرمة بن أبي جهل، على شكل القوس، ليحيطوا بالمسلمين ويبعثرهم ...

... أبو سفيان، قائد المشركين، يقول لبني عبد الدار حاملي اللواء، حاثا على ...: يا بني عبد الدار، إنكم قد وليتم لواءنا يوم بدر، فأصابنا ما قد رأيتم، وإنما يؤتى الناس من قبل راياتهم، إذا زالت زالوا، فإما أن تكونوا لواءنا، وإما أن تخلوا بيننا وبينه فنكفيكموه

ووقعت تلك الإهانة موقعها من بني عبد الدار وأثارت حفيظتهم، ورغبوا يدفعون عن أنفسهم ويعدون أبا سفيان بأنهم سوف يقاتلون أشد القتال، وأقبلت هند بنسوتها تسرع في صواحبها فأحطن بحاملي اللواء، وأنشدن:

ويها بني عبد الدار ويها حماة الأدبار

ضربا بكل بتار

نحن بنات طارق نمشي على النمارق

والدر في المخانق والمسك في المفارق

إن تقبلوا نعانق أو تدبروا نفارق

فراق غير وامق

ولم يكن النبي يألو جهدا في سبيل تشجيع المؤمنين من ذلك أنه رفع سيفا بتارا براقا وهو يمده إليهم «من يأخذ هذا السيف بحقه؟»، فتقدم أبو دجانة قائلا «وما حقه يا رسول الله؟»، قال «أن تضرب به العدو حتى ينحني»، فقال «أنا آخذه بحقه».

وكان أبو دجانة جنديا في الحرب مهابا، فأخذ السيف من يدي محمد واعتصب بعصابة حمراء لم يكن يعتصب بها إلا في أعظم المواقع، ثم سار في صفوف الجند يتبختر، فقال الرسول: «إنها مشية يبغضها الله إلا في مثل هذا الموطن»

وكان من بين الأعداء رجل من أهل المدينة يقال له أبو عامر، وكان قد تنصر فكني عنه بالراهب، واعتقد أنه يستطيع جذب فئة من قومه من الأوس ويرجعهم عن الإسلام، فقام إليهم وصاح فيهم: «يا معشر الأوس أنا أبو عامر»، فأجابوه قائلين: «فلا أنعم الله عليك يا فاسق!»، فرجع الراهب خائبا حانقا بعد أن رجموه بالحجارة لشدة غيظه، وخرج بعده رجل من المشركين على بعير له ضخم، وكان منظره يبعث الخوف والفزع، فدعا المؤمنين للمبارزة، فأحجم عنه الناس، حتى دعا ثلاثا، فقام له الزبير فوثب عليه وثبة الفهد فاستوى معه على البعير وطوقه من عنقه فوقعا معا على الأرض ولم يترك الزبير عدوه إلا وقد ذبحه ... أبو دجانة ... حتى ... يمر على كبح جماح نفسه فاستل سيفه صائحا

أنا الذي عاهدني خليلي ونحن بالسفح لدى النخيل

أن لا أقوم الدهر في الكيول[1] أضرب بسيف الله والرسول

وشاهد المشركون عصابته الحمراء، وكانت الجمرة المشتعلة تسبق جموع الأعداء وتدفع إلى مرجل القتال. وكان أبو دجانة تاجرا، دفعة يأتي في الحروب بالعجائب، فلم يلق أحدا إلا قتله حتى وجد نفسه بغتة أمام ... غريب يحمش الناس حمشا شديدا ومن ورائه زمرة من ضاربات الطبول، فصمد له أبو دجانة، وحمل عليه بسيفه، فسمع منه ولولة وصراخا، فعرف من الصوت أنه امرأة، فأكرم سيف رسول الله أن يضرب به امرأة

---

[1] ... الكيول ... آخر الصفوف

وقد أثار أبو دجانة التحمس للقتال فاحتدم وعم، وقام حمزة فقتل أرطاة حامل لواء القرشيين الذي خر فاغرا فاه، كاشفا عن أسنانه، مكشرا لكشيرة الموت، وسرعان ماتقدم سباع بن عبد العزى الغبشاني، فرفع اللواء داعيا قاتل زميله إلى المبارزة، فما كان من حمزة إلا أن ألحقه بأرطاة، بضربة واحدة قائلا: «هلم إلي يابن مقطعة البظور»، وأراد جبير بن مطعم أن يثأر لعمه طعيمة الذي قتله حمزة يوم بدر، فوعد غلاما له حبشيا يدعى «وحشيا» أن يعتقه إن هو قتل حمزة.

قال وحشي: «وخرجت مع الناس، وكنت رجلا حبشيا أقذف بالحربة قذف الحبشة، قلما أخطئ بها شيئا، فلما التقى الناس، خرجت أنظر حمزة وأتبصره حتى رأيته في عرض الناس مثل الجمل الأورق، يهز الناس بسيفه هزا، ما يقوم له شئ: فوالله إني لأتهيأ له أريده، فأستتر منه بشجرة أو حجر، ليدنو مني، إذ تقدمني إليه سباع بن عبد العزى، فلما قتله حمزة بضربة على رأسه، هززت حربتي، حتى إذا رضيت عنها دفعتها عليه دفعا، في ثنته[1]، حتى خرجت من بين رجليه، وذهب لينوء نحوي فغلب، وتركته وإياها حتى مات، ثم أتيته فأخذت حربتي ثم رجعت إلى المعسكر وقعدت فيه، ولم يكن لي بغيره حاجة وإنما قتلته لأعتق، فلما قدمت مكة أعتقني».

وقتل مصعب بن عمير، حامل لواء المهاجرين دون الرسول، وكان الذي قتله ابن قمئة الليثي، وهو يظن أنه رسول الله، فرجع إلى قومه وقد انتفخ احتيالا، وصاح: «قتلت محمداً».

فرفع علي اللواء الذي سقط من يد مصعب، ولبي دعوة أبي سعد بن أبي طلحة حامل لواء المشركين إلى المبارزة، وكان أبو سعد هذا يسخر من المسلمين قائلا: «يا أصحاب محمد، زعمتم أن قتلاكم في الجنة، وأن قتلانا في النار، كذبتم واللات والعزى، لو تعلمون ذلك حقا، لخرج إليّ بعضكم!».

ولم يدعه عليّ يتم كلامه، إذ أوقعه بضربة واحدة على الأرض محتضرا ورفع ذراعه ليجهز عليه، غير أنه أدبر عنه فجأة، إذ انكشفت سوأته.

واحتدم حول لواء القرشيين قتال عنيف، شرب فيه الكثير من المشركين

(١) الثنة ما بين السرة والعانة من أسفل البطن.

كأس المنون، وأصيب اثنان من حملة الراية، هما مسافع بن طلحة وأخوه الجلاس، وكلاهما بسهم، فتحاملا حتى أتيا أمهما سلافة إحدى صواحب هند، ووضعا رأسيهما في حجرها، وهما يتقيآن سيلا من الدم، فصاحت الأم شاهقة: «يا ابناي من أصابكما؟»، قالا: سمعنا رجلا حين رمانا يقول: «خذها وأنا عاصم بن أبي الأقلح»، فنذرت سلافة إن أمكنها الله من رأس عاصم أن تشرب فيه الخمر.

كان النصر- من غير ما شك- للمسلمين، ولقد وقع لواء القرشيين تحت كومة هائلة من القتلى، فلم يجسر أحد منهم على رفعه، وشرع أعداء الله في الهرب وانقلب حنق هند وصواحبها إلى رعب، فشمرن عن سيقانهن استعدادا للفرار.

وشاهد الرماة عند مضيق الوادي على سفح جبل أحد ذلك المنظر مهللين، غير أنهم لم يستطيعوا صبرا حتى انتهاء المعركة- خشية أن تفوتهم الغنائم- وعبثا حاول أميرهم عبد الله بن جبير أن يوقفهم ويذكرهم بأوامر الرسول المشددة، وواجبهم الذي يقضي بحماية ظهر الجيش، وبأن ذلك لا يتأتى إلا بالصمود في مكانهم، فقد أجابوه غاضبين: «انهزم المشركون، فما مقامنا هاهنا».

وانحدروا إلى الوادي كالسيل الجارف، غير عابئين بأوامر الله ورسوله:

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ﴾ سورة آل عمران، ١٥٢.

كان خالد، ذلك الجندي الداهية الشجاع، على ميمنة القرشيين، وكان قد رأى أول الأمر، استحالة الهجوم على المسلمين من الخلف، ثم رأى غلطتهم الكبرى، فكر بفرسانه على ابن جبير ومن تبقى حوله من رماة قليلين مخلصين لم تغن مقاومتهم شيئا، إذ سحقهم خالد تحت سنابك خيله، ثم انقض من الخلف على المسلمين الذين لم يكن لهم من شغل شاغل إلا السلب والمغانم، وفي هذه الآونة ذاتها تقدمت امرأة مشركة تدعى عمرة بنت علقمة الحارثية، فرفعت لواء أهل مكة الذين غمرهم الخزي من جبنهم إذ نظروا شجاعة تلك المرأة فأقبلوا ثانية إلى الميدان، بينما ارتفع صوت ابن

قمئة، قاتل مصعب، مهللا فوق معمعة القتال: إن محمدا قد قتل.

وانقلب وجه المعركة، فغدا ذلك اليوم يوما عصيبا، بعد أن بدأ بالبشر والأمل، وفزع المسلمون إذ باغتهم المشركون من خلفهم، وحل فيهم الخوف عندما سمعوا الخبر الرهيب، فتشتتوا، وفرت جماعة منهم إلى المدينة، من بينهم عثمان نفسه، ذلك أن اليأس ملأ صدره، ووقع شهيدا في هذا اليوم عدد غير قليل من أجلاء الصحابة وأشرافهم، بينما أحد الأعداء له يرمون وابلا من الحجارة والسهام على الجمع الصغير الذي أحاط بالرسول، فوقع حجر، وقد رماه عتبة بن أبي وقاص، على محمد فكلم شفته وكسر إحدى أسنانه الأمامية، وأصابه حجر آخر في مغفره فانغرست الحلقات في وجنته، وأخرج أبو عبيدة تلك الحلقات التي انغرست في اللحم بأسنانه، فكسر على كل حلقة سنا من أسنانه، ومص مبتهجا الدم الذي سال من جراح المصطفى، فأثار ذلك الإخلاص العميق عطف محمد فقال: «من مس دمه دمي لم تمسه النار، كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم بالدم، وهو يدعوهم إلى ربهم ؟!»، وازدادت المعركة خطرا، ودفع محمد على بغتة منه، فوقع في حفرة عميقة لم يرها، لكن سرعان ما خلصه منها علي وطلحة.

ثم أقبل علي وبصحبته أبو بكر وعمر القتال حرجا بدورهما، فانقضوا على الكافرين الذين ما فتئت جموعهم تزداد، حتى أوشكوا على الإحاطة بالمؤمنين، وفي بعض الأوقات ما كان الرسول يجد من حوله إلا أبا دجانة الذي جعل من جسمه درعا كستها السهام، وأبا طلحة الذي يذود عنه بحجفته الجلدية، وكان أبو طلحة رجلا راميا، شديد الرمي، فكسر في ذلك اليوم ثلاثة أقواس وهو يثنيها، وصار رسول الله يشرف على القوم، ليرى موقع النبل ومجرى المعركة، فيقول له أبو طلحة «يا نبي الله بأبي أنت وأمي، لا تشرف على القوم يصبك سهم من سهامهم نحري دون نحرك» وفي هذه اللحظة رأى سهماً من سهام الأعداء، فحاول أن يثنيه، فجرحت يده ولم يعد يقدر على استعمال قوسه، فاستل سيفه، غير أن الإعياء والكلل كانا قد نالا منه كل منال، حتى كان سلاحه يكاد يفلت من يده لفرط إعيائه، وكانت أم عمارة، وهي امرأة شجاعة من الأنصار، تحمل على ظهرها ماء تسقي به المؤمنين، لتجدد فيهم النشاط، فأمسكت بسيف، وباشرت القتال برجولة وشهامة جنبا إلى جنب مع الرسول حتى وقعت جريحة.

وشاءت ظروف المعركة أن تفرق بين الرسول وبين علي وعمر وأبي بكر، فلما سمع هؤلاء تنادي المشركين بموته وهنت قواهم، وضعفوا، فأصبحوا كأجساد بلا أرواح، وأصبحوا لا يفكرون، حتى في الدفاع عن أنفسهم، فمر بهم أنس بن النضر وهم على ذلك فوبخهم قائلا: ماذا يجلسكم؟ قالوا: «قتل رسول الله»، قال: «فماذا تصنعون بالحياة بعده فموتوا على ما مات عليه رسول الله» وأعطاهم من نفسه قدوة فاستقبل القوم وقاتل فوقع وقد أثخنته الجراح، حتى ما عرفه إلا أخته، عرفته ببنانه.

وبدأت اليقظة وثارت الحمية، فخجل علي وأبو بكر وعمر من تخاذلهم، واقتدوا بأنس، فانقضوا، ومن ورائهم زمرة من المؤمنين، يريدون جمعا غفيرا من الأعداء يتواثب على نفر قليل من المسلمين صمد أمامهم، وفجأة رأى كعب بن مالك النبي من بين هؤلاء الأبطال، وكانت عيناه تزهران من تحت المغفر، فنادى بأعلى صوته: «يا معشر المسلمين، أبشروا هذا رسول الله - صلى الله عليه وسلم !!»، وأثارت تلك الصيحة شجاعة القوم، فأقبل المسلمون من كل صوب يريدون الجهة المشار إليها، فلما أنقذوا الرسول، انقضوا على الأعداء، وقد توقدت فيهم حمية لا تقهر، ففتحوا لأنفسهم طريقا رصفوه بالجثث الدامية حتى مضيق عينين الذي ما كان لهم أن يتركوه، وعلى هذا المكان المنيع انكسر هجوم المشركين، فصاح أبي بن خلف هاتفا: «أي محمد، لا نجوت إن نجوت»!

وأراد القوم أن يرموه بالسهام، فمنعهم الرسول، وتناول حربة من يد الحارث ابن الصمة، وطعن بها أبي بن خلف في عنقه طعنة تدأدأ منها عن فرسه مرارا، وحاول أن يتعلق بذؤابته، لكن عبثا حاول، فوقع على الأرض وفر المشركون عن آخره، إذ كان الإعياء قد نال منهم كل منال.

وانتهى على هذا القتال.

وعثر عليّ على قليل من الماء في فجوة، فملأ منه درقته، وجاء به الرسول ليشرب منه، فوجد له رائحة كريهة فعافه ولم يشرب منه، فاستعمله عليّ في غسل جرح مصطفى الله، ولكن ذلك لم يجد شيئا، إذ لم يكف الدم

عن النبي سيلاً محيطاً، وأخيراً أقبلت فاطمة من المدينة قلقة، وعلى إثرها صواحب لها، فأحرقت قطعة حصير خيزراني، وجعلت رمادها على جراح أبيها فانقطع نزيف الدم.

وفرغ الرسول من تضميد جراحه، فصلى الظهر قاعداً، بسبب ما ناله من الإعياء الشديد وما عاناه من الجراح، وصلى القوم من ورائه قعوداً للسبب نفسه، شاكرين المولى القدير على إنقاذهم رغم عصيانهم.

وكان عدد الموتى في هذا اليوم يساوي عدد الأسرى المشركين يوم بدر، فرأى كثير من المؤمنين في تلك المصادفة الغريبة عقاباً لهم، إذ دعاهم حبهم للدنيا بعد بدر، إلى تسليم هؤلاء الأسرى إلى المشركين طمعاً في المال.

وكانت جثث أولئك الشهداء في حال يرثى لها: لقد طمحت نساء قريش إلى الثأر، فتركن الدفوف، وارتمين على القتلى يمثلن بهم، وقد سبقتهن رئيستهن هند في مضمار الوحشية فاتخذت من آذان الرجال وأنوفهم قلائد وأقراطاً، وأعطت أقراطها وقلائدها وحرمها «وحشياً» ووقفت وكأنها الفهد، على جثة حمزة، فبقرت بطن الشهيد بأظافرها الدامية، وجعت الكبد ولاكتها بين فكيها، بحنق ووحشية، فلم تستطع أن تسيغها، فلفظتها، ثم علت صخرة مشرفة، وولت وجهها شطر جند الإسلام، وصرخت بأعلى صوتها:

نحن جزيناكم بيوم بدر	والحرب بعد الحرب ذات سعر
ما كان من عتبة لي من صبر	ولا أخي وعمه وبكري
شفيت نفسي وقضيت نذري	شفيت وحشي غليل صدري
فشكر وحشي عليّ عمري	حتى ترم أعظمي في قبري

كان أبو سفيان يجوب ميدان القتال أملاً في العثور على جثة محمد، فلقي جثة حمزة على حين أقبل الحليس سيد الأحابيش، فجعل أبو سفيان يضرب في شدق حمزة بزج الرمح قائلاً: ذق عقق.

وقد غضب «الحليس» برغم إشراكه لذلك الفعل الشنيع، فصاح في قومه: «يا بني كنانة، هذا سيد قريش يصنع بابن عمه لحماً ما ترون؟»، فخجل أبو

سفيان من سلوكه، وأوقف الحليس ورجاه قائلاً: «ويحك اكتمها عني فإنها كانت زلة»، ثم اقترب أبو سفيان من المؤمنين حتى صار في استطاعته محادثتهم، وهم متحصنون بسفوح أحد، فصاح بهم: «أمحمد بينكم؟»، فلم يتلق جواباً، فاستنتج أن محمداً قد مات فصاح بأعلى صوته قبل أن ينصرف: «أنعمت فعال، إن الحرب سجال، يوم بيوم بدر، أعل هبل».

فلما سمع الرسول تلك الإسفاف أمر عمر بالرد عليه، فصاح عمر قائلاً: «الله أعلى وأجل!».

فعرف أبو سفيان صوت عمر، فسأله: «انشدك الله يا عمر، أقتلنا محمداً؟»، قال

«اللهم لا، وإنه ليسمع كلامك الآن»، فخاب ظن أبي سفيان فقال: «أنت أصدق عندي من ابن قمئة وأبر»، لقول ابن قمئة لهم: إني قد قتلت محمداً، ثم نادى أبو سفيان:

«إن موعدكم بدر للعام القابل»، فأجاب عمر: «نعم هو بيننا وبينك موعد».

ثم بعث الرسول بعلي في آثار المشركين وقال له: «اخرج في آثار القوم، فانظر ماذا يصنعون، وما يريدون، فإن كانوا قد جنبوا الخيل وامتطوا الإبل، فإنهم يريدون مكة وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل فإنهم يريدون المدينة، والذي نفسي بيده، لئن أرادوها لأسيرن إليهم فيها، ثم لأناجزنهم».

وخرج عليّ، وما لبث أن رجع، وقد رأى القرشيين يجنبون الخيل ويمتطون الإبل مولين شطر مكة.

فاطمأن المؤمنون، وخرجوا لمواراة شهدائهم. وخرج النبي يلتمس عمه حمزة، فوجده ببطن الوادي، قد بقر بطنه، وجدع أنفه وأذناه، فقال حينما رأى ما رأى: «لولا أن تحزن صفية، وتكون سنة من بعدي لتركته حتى يكون في بطون السباع، وحواصل الطير، ولئن أظهرني الله على قريش في موطن من المواطن لأمثلن بثلاثين من رجالهم»، فنزل عليه الوحي:

«وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين».

فلما تلقى الرسول هذا التنبيه، أقلع عن عزمه، ونهى المؤمنين على المثلة بالأعداء ووصلت أخبار خسائر المسلمين إلى المدينة، فجاءت النساء، ومن بينهن صفية بنت عبد المطلب، ليداوين الجرحى، ويبكين الموتى، فلما علم الرسول بمجئ صفية، أمر ابنها الزبير بن العوام بلقائها وإرجاعها، لئلا ترى أخاها وقد شوه وجهه تشوها شنيعا، فأجابت: «ولم؟ وقد بلغني أنه قد مثل بأخي، وذلك في الله، فما أرضانا بما كان من ذلك، لأحتسبن، ولأصبرن إن شاء الله».

وأتت أخاها حمزة، ونظرته نظرة طويلة ثم انصرفت بعد أن صلت صلاة حارة وهي ثابتة الجنان.

عندئذ بدئ في دفن الموتى، فشيع الرسول جثة عمه حمزة، ثم جمع الجثث اثنتين أو ثلاثا في كل ضريح بغير غسلهم كالعادة، وذلك لئلا يرهق المؤمنون، وقال:

«أنا شهيد على هؤلاء، إنه ما من جريح يجرح في الله إلا والله يبعثه يوم القيامة، يدمي جرحه، اللون لون الدم، والريح ريح المسك».

وعلم الرسول أن كثيرا من الناس قد نقلوا موتاهم إلى المدينة ليدفنوهم بها فنهاهم قائلا: «ادفنوهم حيث صرعوا».

ولم تكن لموقعة «أحد» نتائج ضارة بالإسلام كما يتصور بعض الناس.

فإن كان الإسلام قد عانى فيها خسائر أليمة، فقد جنى منها الكثير من الفوائد المعنوية، ولم تنتج الهزيمة إلا من عصيان الجند لتنبيهات الرسول الحكيمة، ثم مخالفة أوامره الصارمة قبيل القتال، فكان هذا إشارة للمؤمنين أن يلتزموا في المستقبل الطاعة التامة لنبيهم، وأن ينفذوا أوامره بكل دقة، حتى في حالة ما إذا افتقد الرسول أو مات وقد نصت على ذلك الآية التي تشير إلى غرة الناس التي أصابت عليا وأبا بكر وعمر: «وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزي الله الشاكرين» سورة آل عمران الآية ١٤٤.

والواقع أن الهزيمة تزيد العزم قوة، والحماسة اشتعالا، إن كان الإيمان صادقا متوقدا:

«وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين» سورة آل عمران، آية ١٦٤.

ولم تعد الرحمة بالمشركين مشروعة، فقد جعلت تمثيلهم الوحشي بالشهداء السبعين ضربا من المستحيل، وكذلك فرقت بين المؤمنين المخلصين والمنافقين من أمثال عبد الله بن أبي بن سلول وأشباهه، وكان الرسول عليما بأخلاق المنافقين، غير أن عامة المسلمين لم يكونوا يدركون مدى غدر هؤلاء ونفاقهم، فظهر لهم ذلك جليا، بعد تحريضهم الخبيث في ساعة الخطر، وقد شهد محمد صلى الله عليه وسلم، بنفسه أحد رغم الهزيمة، على المسلمين، وجعل منه ساحة حراما حرمة ساحة مكة.

زواج محمد بزينب:[1]

أعتق النبي صلى الله عليه وسلم زيد بن حارثة وتبناه، ثم زوجه ابنة عمته: زينب بنت جحش، وأصبح زيد كفرد من أفراد أسرة الرسول: يعامل معاملة الابن الحقيقي جريا على عادة العرب بالنسبة للمتبنى

لم يكن الرسول يفكر في الزواج بزينب، لا قبل زيد ولا بعده، وإلا فأي شئ كان يمنعه من التزوج بها بكرا غضة الإهاب، وقد كان يملك من أمرها كل شئ؟.

على أن زواج زيد بزينب كان بوحي سماوي وأمر نبوي، لأن زينب وأهلها أبوا أن تتزوج بهذا العبد المحرر، ذلك أن العرب يتعصبون للأنساب ويفتخرون بالآباء والأجداد، فامتنعوا، ورأوا أن ذلك عار عليهم، فنزلت الآية الكريمة

---

(١) جارى المؤلف في كتابته عن زواج زينب بعض الروايات [illegible] في المحررة، ولكننا رأينا أن النصوص الصحيحة [illegible] رابة، فعربية [illegible] زواج بتصرف وبهذه المناسبة نذكر أن المؤلف كان يروي بعض الأحاديث عن الرسول [illegible] الصحيحة وهذه الأحاديث أثبتنا أصلها العربي، حسب ما كنا نعثر عليه في كتب السيرة [illegible] حمها بالمعنى إذا لم نعثر على أصلها العربي، أو إذا كان المؤلف نفسه قد تصرف فيها [illegible]

«وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى اللهُ ورسولُه أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالاً مبيناً». الأحزاب الآية ٣٦

وامتثلت زينب أمر الله ورسوله في هذا الزواج، إلا أنها كانت تشعر بأنها شريفة قرشية، وبأن زيدا كان عبدا مملوكا، لذلك كانت تتكبر عليه وتتنفر منه، فشكا ذلك إلى النبي، وأراد غير مرة أن يطلقها، ولكن الرسول كان يقول له: «أمسك عليك زوجك» مع علمه صلى الله عليه وسلم بأن الله سيزوجه بها تشريعا جديدا، وقضاء على عادة تأصلت في نفوس العرب:

هي معاملة المتبنى معاملة الابن الحقيقي.

أراد الله تعالى القضاء على تلك العادة، فنزلت الآيات:

«ما جعل أدعياءكم أبناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحق وهو يهدي السبيل ④ ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم في الدين ومواليكم» سورة الأحزاب، ٤–٥.

وكان من الممكن أن تستمر هذه العادة من الناحية العملية مع زوال الاعتقاد فيها من الناحية النظرية، وكان لابد من عمل حاسم، فنزل:

«ما كان محمدٌ أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليماً»، الأحزاب ٤٠.

وكان زيد قد قضى من زينب وطراً، ولم يعد له بها من حاجة، ولم يعد يحتمل العيش معها فطلقها، فأمر الله الرسول أن يتزوج بها، ولكن الرسول في نفسه كان يخشى على ضعاف الإيمان سوء الظن ومن الكفار الدعاية السيئة فنزلت الآية الكريمة الجامعة:

«وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا وكان أمر الله مفعولا» سورة الأحزاب ٣٧

وتزوج الرسول تنفيذا لحكم الله وقضائه المفروض:

«ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له سنة الله في الذين خلوا من قبل وكان أمرُ الله قدراً مقدوراً» سورة الأحزاب ٣٨.

ولما كان زواجها بالنبي صلى الله عليه وسلم من الله وحده، ولا دخل لأمر آخر فيه كانت تفتخر بذلك وتقول لباقي الزوجات: «إن الله تعالى تولى إنكاحي».

وكان ذلك ابتلاء عظيما، سواء نظرنا إليه بالنسبة لزيد وزينب أولاً، أو بالنسبة إلى النبي صلى الله عليه وسلم ثانيا.

غزوة ذات الرقاع سنة ٤ هـ، سنة ٦٢٦م:

علم الرسول أن بني محارب وبني ثعلبة بنجد، قد أعدوا العدة ليحملوا عليه فعزم على سبقهم والتقدم لمواجهتهم، ولم يستطع لعجلته في الرحيل، أن يجمع إلا القليل من الجمال، فكان نصيب كل ستة من الجنود بعيرا، يتناوبونه بينهم، كل بدوره، فلحق بأرجلهم أذى من أثر الصخور الحادة التي أدمتها وخلعت منها الأظافر، فكان المؤمنون يلفونها برقاع من القماش، ومن ذلك سميت الغزوة بذات الرقاع.

وبعد أن عسكر جند محمد في بطن نخل، وجدوا أنفسهم أمام الأعداء مجتمعين، فثبت الجيشان متواجهين لا يجرؤ أحدهما على البدء بالقتال، ولم يتقدم المؤمنون، إذ كانوا قلة بالنسبة إلى أعدائهم، ولم يتقدم المشركون إذ حل بهم الرعب من جند الإسلام بعد انتصاراتهم المتوالية

وفي هذه الأثناء شرع الرسول صلاة الخوف، فقسم المؤمنين فئتين تتناوبان الصلاة وملاحظة العدو.

وقد أتى الحلفاء ليباغتوا المسلمين، فوجدوهم على أهبة القتال، بل وجدوهم تقدموا يطلبونه، فأخافهم ذلك، وأقلقهم ثبات المسلمين، فأخذوا في التراجع، الجماعة منهم تلو الجماعة، واطلب الحذر الشديد، الذي اتبعه المسلمون في الساعات الأولى إلى مبالغة في الاطمئنان، من ذلك أن القائلة أدركتهم فتفرقوا يستظلون بأشجار الطلح، التي كانت تكسو الوادي، مهملين حراسة أنفسهم، فلاحظ الأمر أعرابي من بني محارب، فتسلل زاحفا حتى وصل إلى مجلس النبي، فاختطف سيفه ذا المقبض الفضي، وكان معلقا بغصون الشجيرة التي ينام في ظلها، وقال للرسول: «دعني أنظر إلى سيفك

هذا، ومس بيده حد السيف ليختبره ثم جعل يهزه فوق رأس النبي صائحا: يا محمد أما تخشى؟ قال: «لا، وما أخاف منك؟!». قال: «أما تخاف وفي يدي السيف؟» فرد النبي بصوت هادئ رزين، مصوبا نظراته إلى الأعرابي: «لا! فإن الله يمنعني منك».

ودهش البدوي لهذا الهدوء في ذلك الموقف، وأحس بقوة إلهية تقبض عليه، وتكاد توقف دقات قلبه، فتصبب على وجهه عرق بارد، وتفككت أنامله القابضة على السيف، وسرعان ما وقع هذا السيف من يده أمام محمد الذي التقطه بهدوء وقال: «والآن، من يمنعك مني؟». فقال الشقي، وقد ملأه الرعب: «كرمك». فتركه الرسول يبتعد، دون أن يطلب منه شيئا، يريد بذلك أن يبين للمشركين كرم الإسلام حتى يقبلوا عليه راغبين، فانصرف الأعرابي إلى قومه، وكان قد وعدهم برأس محمد، فقال حين أتاهم: «لقد رأيت أكرم الناس»، ثم رجع إلى الرسول، فأسلم بين يديه.

غزوة بني المصطلق سنة ٥هـ، ٦٢٧م

تحرك بنو المصطلق بدورهم، وتآمروا على الإسلام، فعقد محمد العزم على ردعهم، فقام إليهم في جيشه، حتى لحقهم في أرضهم بقديد، عند ماء يقال له «المريسيع»، فتقابل الجيشان، واقتتلا، فهزم الله بني المصطلق، وأوقع في يد جند الإسلام غنائم عظيمة، من إبل، وغنم، وسبايا وكان من بين السبايا ابنة سيد بني المصطلق، وكانت فتاة مليحة، تدعى «جويرية»، وقد وقعت في السهم لثابت بن قيس فكاتبته على نفسها بمبلغ من المال كبير يطير عقلها، ثم أتت الرسول، فقالت له: «يا رسول الله أنا جويرية بنت الحرث بن أبي ضرار، سيد قومه، وقد أصابني من البلاء ما لم يخف عليك فجئتك أستعينك على كتابتي».

فقال لها: «أقضي عنك كتابتك وأتزوجك».

فقبلت، وعزم النبي على الزواج منها رغم غيرة عائشة التي رأت من جويرية ملاحة وجمالا.

وفي هذه الأثناء أتى الحارث بفدية ابنته فأعاد محمد جويرية إليه، لكن ليخطبها في الحال ويمهرها أربعمئة درهم، وما إن ذاع خبر ذلك الزواج، حتى قال المؤمنون: «أصهار رسول الله أصهرنا»، وأرسلوا إلى بني المصطلق ما في أيديهم من غنائم وسبايا، فما أعلم امرأة كانت أعظم على قومها من جويرية.

وبينما الجند على ماء المريسيع يسقون دوابهم اللاهثة بعد القتال العنيف، إذا بحادث يوشك أن يوقد الفتنة بين المهاجرين والأنصار:

كان جهجاه يقود فرس عمر بن الخطاب، فزاحم على الماء سنان بن وبر الجهني حليف بني عوف بن خزرج، فغضب سنان، واقتتل الرجلان، فوقعا على الأرض، وصاح سنان: «يا معشر الأنصار!»، وصرخ جهجاه: «يا معشر المهاجرين!»، فتفرق الناس بين الخصمين في الحال، فلم ينتج عن ذلك الحادث شيء مباشرة، لكنه أثار غيظ الناس من الجانبين، وزاد الطين بلة، قول عبد الله بن أبي بن سلول المنافق – وكان قد شاهد الحادث –: «أوقد فعلوها؟! قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا، والله ما أعدنا وجلابيب قريش هذه إلا كما قال الأول: سمن كلبك يأكلك، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل». وسمع ذلك زيد بن أرقم، فمشى به إلى رسول الله، وأخبره الخبر وعنده عمر بن الخطاب الذي انتفض غاضبا وصاح: «يا رسول الله مر به عباد بن بشر فليقتله»، فأجاب الرسول: «كيف يا عمر! إذ تحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه».

ثم قال لعباد: «لا. ولكن أذن بالرحيل».

وكانت الشمس تسطع في كبد السماء، والحر شديد منهك، والساعة لا تناسب الرحيل. غير أن النبي ضرب ناقته على لحم بطنها الناعم ليحثها على السير، فرحل جنده وراءه.

وساروا يومهم هذا حتى أمسوا، وليلهم تلك حتى أصبحوا، ويومهم ذات حتى عودا، وأشد رأى النبي جنده الشداد وقد نال منهم التعب، فراحو يترنحون من الإعياء، فأمر بحط الرحال، فلم يلبثوا أن وجدوا مس الأرض، حتى وقعوا نياما، وقد أرهقتهم مشقات الطرق، فلم يستطيعوا إبداء الغيظ الذي في قلوبهم، والذي كان من شأنه – لولا حكمة النبي – أن يثير بين المسلمين فتنة دامية.

وكان لعبد الله بن أبي المنافق ابن مؤمن مخلص الإيمان يحمل أيضاً اسم عبد الله، فأتى الرسول وقال له: «يا رسول الله، بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أبي بن سلول فيما بلغك عنه، فإن كنت فاعلاً، فمرني به، فأنا أحمل إليك رأسه، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان بها من رجل أبر بوالده مني، وإني لأخشى أن تأمر به غيري فيقتله، فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل أبي يمشي بين الناس فأقتله، فأقتل رجلا مؤمنا بكافر، فأدخل النار».

فهدأ الرسول من روع ذلك المؤمن القوي الإيمان وقال له: «بل نترفق به ونحسن صحبته ما دام معنا».

التيمم:

في هذه الرحلة نزل الوحي بالآيات «يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برءوسكم وأرجلكم إلى الكعبين وإن كنتم جنبا فاطهروا وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون» سورة المائدة ٦

هكذا شرع التيمم الذي يمنع المؤمنون من تناسي فرض الوضوء لأنه أبعد عنهم حجة عدم توافر الماء اللازم، تلك الحجة التي كثيرا ما كانوا يتعللون بها في الصحراء.

حرب الخندق سنة ٥هـ، سنة ٦٢٧:

خرج إلى مكة وفد من قبيلة بني النضير، وبعض المتعصبين من بني وائل، ليعرضوا على القرشيين التحالف معهم ضد محمد، ولحق بهم الأحابيش والغطفانيين من أهل شمالي الحجاز، فدبرت في مكة مؤامرة واسعة النطاق تهدد المدينة من كل جانب.

ولما أحيط النبي علما بأهمية تلك العروة، سهل عليه إقناع المؤمنين بأن النجاة الوحيدة هي في انتظار العدو وراء حصون المدينة.

كانت المدينة محصنة من كل جانب بالسدود والقلاع والبساتين، غير أن الجانب الشمالي كان ضعيفا يعرض للأعداء منفذا يخشى منه هجوم عنيف، فأشار سلمان الفارسي، وكان حديث عهد بالإسلام، على الرسول باتخاذ تدبير مفيد للدفاع، وهو أن يحفر خندقا يحيط بالموقع الضعيف، وكان سلمان قد رأى شيئا من ذلك في بلاده، واقتنع محمد بحجج الفارسي، مما جعله يأمر في الحال بحفر الخندق، فنزل جميع المسلمين إلى ساحة العمل، مؤمنين بصواب رأي نبيهم وبصدق بصيرته، على أن حالهم كان يرثى لها وكانوا يتحملون متاعب كثيرة، فقد هبت عليهم ريح باردة ثلجية، كتلك التي يكثر هبوبها شتاء على تلك الوديان الصحراوية، ذات الإشعاعات الشديدة، فأوشكت أجسامهم أن تتجمد بردا، وقطع الأعداء طرق المئونة عنهم، فأصبح المؤمنون والجوع يعض فيهم ويوشك أن يفل قواهم، لولا إيمانهم الذي كان يبعث فيهم الدفء والقوة، وكان غذاؤهم الوحيد حبات من الشعير المطبوخة في دهن الضأن الذي بدأ يفسد.

وعلى الرغم من ذلك فقد كان الذين يعملون في الخندق يرمون الرمل بمرح واستبشار، فهبط سطح الخندق بسرعة، وقد فاجأتهم صخرة اشتدت على معاولهم، فلم يستطيعوا اقتلاعها، فأخذ محمد قليلا من الماء في فمه ثم نضح به على الكدية داعيا الله القدير، ثم عادوا إلى الحفر فلم تلاق أذرعهم من عائق، إذ ضاعف الإيمان قواهم، الإيمان الذي بعثه الرسول في قلوبهم بعمله هذا، فتفتت الصخرة تحت ضربات المعاول، وانهالت حتى عادت كالكثيب.

ولم يكد المؤمنون ينتهون من حفر الخندق، حتى اختفى السهل تحت مخيم جيش الأعداء المكون من عشرة آلاف رجل من قريش وكنانة وغطفان، وعرب تهامة وعرب نجد، وغيرهم، وتخوف المشركون رغم تفوقهم في العدد، من عاقبة قتال سيد المرسلين، فجعلوا يبحثون عن حلفاء جدد، وخرج عدو الله حيي بن أخطب، حتى أتى كعب بن أسد، أمير قبيلة بني قريظة اليهودية، وكان قد عاهد الرسول رغم عداوته الشديدة له، فضاق كعب بزيارة حيي وصده قائلا: «ويحك يا حيي! إنك امرؤ مشئوم، وإني قد عاهدت محمدا، فلست بناقض ما بيني وبينه، ولم أر منه إلا وفاء وصدقا» فقال حيي: «افتح الباب فما أريد إلا أن أقاسمك في دشيشتك ولن آكل منها

معك»، ففتح له فلم يكد حيي يدخل حتى فاتح مضيفه بموضوع زيارته، وأبان له عن قوة المتحالفين المعسكرين على جبل أحد، ثم أكد له اعتقاده الراسخ في أنهم يستطيعون أن يمحوا من محمد أثرا بعد عين، غير أن كعبا أجاب، ولم يزل مترددا: «جئتني والله بذل الدهر، وبجهام قد أهريق ماؤه، فهو يرعد ويبرق، وليس فيه شيء، ويحك يا حيي! فدعني وما أنا عليه».

فلم يزل حيي بكعب يفتله في الذروة والغارب حتى أغراه بفسخ عقده مع محمد، وعقد معاهدة مع المشركين، فلما انتهى خبر ذلك إلى الرسول، بعث سعد ابن معاذ وسعد بن عبادة وخوات بن جبير لينظروا: أحقا كان ما بلغه؟ فخرجوا حتى أتوا بني قريظة، وذكروهم بميثاقهم، فلم ينالوا منهم سوى هذا الجواب: «من رسول الله؟ لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد».

وكان لهذا الغدر خطره فبنو قريظة كانوا يعلمون تمام العلم أسرار المؤمنين، ونقط الضعف في المدينة.

فقال الرسول ليطمئن أتباعه عند رجوع وفده بالخبر: «الله أكبر! أبشروا يا معشر المسلمين»، يريد بذلك أن بني قريظة سوف يفنون المؤمنين عما قريب بأسلابهم، بعد أن غدروا بهم هذا الغدر القبيح، بيد أن منظر الآلاف العشرة من الرماح البراقة، وقد كست السهل، لم يكن ليطمئن المؤمنين، وقد وقفوا على شرف قلاعهم.

وأخذ المنافقون كعادتهم، يبثون في الناس الرعب بدلا من أن يحثوهم على الثبات، فيقولون: «كان محمد يعدنا أن نملك كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط»، وأخرج الرسول جنده، ليشغلهم عن أحاديث اليأس، وصفهم وراء الخندق، جاعلا ظهورهم إلى جبل سلع، فأتاه بعض الجبناء يستأذنونه في الرجوع قائلين: «إن بيوتنا عورة»، «ويستأذن فريق منهم النبي يقولون إن بيوتنا عورة وما هي بعورة إن يريدون إلا فرارا (١٣) ولو دخلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لآتوها وما تلبثوا بها إلا يسيرا» سورة الأحزاب الآية ١٣، ١٤.

وكان القلق في الواقع عظيما، لكن إيمان المسلمين المخلصين وهدوء الرسول قضيا على هذا القلق، فضلا عن أن الحلفاء كانوا لا يزالوا يحسون بالرعب الذي أحسوا به إزاء القوة الخفية التي لاقوها في كل معركة لهم مع جند الله، وخافوا أن يخاطروا بالهجوم قبل التأكد من أن الدائرة لن تدور عليهم، فقنعوا بالاقتراب من المدينة.

وأقام الناس على هذه الحال بضعا وعشرين ليلة، لم يكن بينهم خلالها من حرب إلا الحصار والرمي بالنبال رميا لم يكن فيه ضرر ولا نفع، وأخيرا حجل فوارس من قريش وكنانة من قعودهم، فتهيئوا للقتال، وخرجوا في كوكبة متقاربة الأفراد، ومالوا على رقاب خيلهم، فأقبلت تعنق بهم حتى اختفوا في هالة من الغبار المظلم. وفجأة توقف السيل الآدمي، فزالت هالة الغبار التي سترت فوارس المشركين، ورآهم الناس قد جمدوا رعبا أمام الخندق العميق، الذي كاد يلتهمهم في جوفه، بينما الخيل، على حافة الهاوية ترتجف سيقانها المتوترة، وأنوفها ترتعد، وأفواهها ملتوية مخضبة بالدماء التي أسالتها جذبة الخطام القوية لإيقافها.

وصاح المشركون: «والله إن هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدها».

ثم توجهوا نحو مكان ضيق من الخندق، وهمزوا خيولهم همزا شديدا فاقتحمته في قفزة هائلة، ونزلت بهم على الناحية الأخرى، فخرج إليهم عليّ يجد في نفر من المسلمين، ووقف بينهم وبين الخندق، فقطع عليهم طريق الهروب.

فتقدم عمرو بن عبدود، وهو فارس يمتاز بقامته الهائلة، وراح يتلفظ بأقبح الشتائم، ويتحدى المؤمنين إلى المبارزة، فاستأذن عليّ بن أبي طالب الرسول في الخروج إليه، فأذن له، وألبسه درعه وعمامته، وشد سيفه، فقام إلى عمرو بن عبدود ووقف أمامه، فاستصغره الفارس الرهيب ورحم شبابه، وقال: «والله ما أحب أن أقتلك لأن أباك كان نديمي».

فأجابه عليّ: «ولكني والله أحب أن أقتلك».

فاغتاظ عمرو لذلك، فنبهه عليّ بن أبي طالب أنه وإن كان قد احتقر ضعف خصمه، فإنه لم ير حرجا في ركوب فرسه أمام خصم مترجل، فنفر عمرو عن فرسه فعقره لئلا يستعين به في القتال ولا في الفرار، ثم لطم وجهه بقبضته وقد جن جنونه أمام سخرية خصم صغير مثل هذا.

ثم وثب على غريمه فضربه ضربة شديدة أصابته فى جسمه إصابة جسيمة بعد أن خرقت ترسه، غير أن عليا تراجع كالبرق وباغت عدوه بوثبة بجانبه بعد هذا الأخير تواريه، إذ استدار ليجابهه، ولم تفت عليا الفرصة، فضرب عدوه ضربة بارعة، جعلت السيف يغوص بأكمله فى صدر عمرو بعد أن قطع أوداجه، وسال الدم غزيرا من الجرح العميق فترنح العملاق ساعة وهو يئن كالسكير ثم خر كاسيا، شاهدا شهقة الموت، بين يدى بطل الإسلام.

وكبر المسلمون لهذا النصر وهللوا، بينما فر باقي المشركين مذعورين، وخيلهم تعدو بهم، غير أن رجلا منهم يقال له عبد الله بن نوفل لم يحسن العَدْوَ فوق الخندق، فوقع فيه بفرسه وانهال عليه وابل من الحجارة، فأنهى الزبير عذابه بضربة سيف شقت جسمه نصفين، ولم يقف السيف إلا على الرحال.

وكانت صفية عمة الرسول فى أعلى حصن حسان بن ثابت، تلاحظ الأعداء، وكان حسان بجانبها، فمر بهما رجل من اليهود يطيف بالحصن، فقالت لحسان: يا حسان، إن هذا اليهودى كما ترى يطيف بالحصن، وإني والله آمنه أن يدل على عورتنا من وراءنا من يهود، وقد شغل عنا رسول الله وأصحابه، فانزل إليه فاقتله، فقال: يغفر الله لك يا بنت عبد المطلب! والله لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا، إنى شاعر ولست بصاحب حرب.

فلما رأت صفية الشجاعة منه ذلك، هزت كتفيها احتقارا، وأخذت عمودا ثم نزلت من الحصن إلى اليهودى، فضربته بالعمود على رأسه حتى قتلته، فلما فرغت منه رجعت إلى الحصن فقالت لحسان: انزل إليه فاسلبه، فإنه لم يمنعنى من سلبه إلا أنه رجل.

ظل الناس أياما على تلك الحال، واقتصر القتال على مناوشات لا أهمية لها، غير أنه إن كان الهجوم من جانب الأعداء لا يخشى، بفضل الخندق الذى أفسد خطط المشركين، فإن المجاعة كانت تهدد بالقضاء على المحاصرين أجمع، فكان القلق عظيما فى صفوف المسلمين.

وفى هذه الأثناء أتى نعيم بن مسعود سيد غطفان رسول الله، فقال له يا

رسول الله، إني قد [illegible] لم يعلم [illegible]

فقال النبى [illegible] واحد [illegible] الحرب خدعة».

فهم نعيم فى [illegible] بنى قريظة، وكان لهم [illegible] فقال [illegible] إياكم، وخاصة [illegible]

قالوا: «صدقت [illegible]

فقال: «إن قريشا [illegible] مثلكم [illegible] وأبناؤكم ونساؤكم [illegible] وغطفان قد جاءوا [illegible] وأبنائهم ونساؤهم [illegible] بلاد [illegible] ذلك لحقوا ببلادهم [illegible] حلا بكم، فلا تقاتلوا مع [illegible] ثقة لكم على أن تقاتلوا محمدا [illegible] حتى [illegible]

صوت واحد: لقد أشرت [illegible]

ثم خرج نعيم حتى أتى [illegible] قريش [illegible] وفراقي محمدا.

قالوا: «نعم» [illegible] نصحا لكم، فاكتموه عني

قالوا «نعم» [illegible] اليهود [illegible] بينهم وبين محمد، وقد [illegible] يقولون [illegible] يرضيك أن نأخذ [illegible] من قريش [illegible] فنعطيكم، فتضرب أعناقهم، ثم [illegible] نستأصلهم؟ فأرسل إليهم أن نعم [illegible] منكم من رجالكم، فلا تدفعوا إليهم [illegible] رجلا [illegible]

ثم أتى عشيرته من غطفان [illegible] النجاح، واقسم القرشيون والغطفانيون [illegible] بالترمو [illegible]

فلما كانت ليلة السبت من شوال سنة خمس، أرسل أبو سفيان بن حرب ورءوس غطفان عكرمة بن أبى جهل فى نفر من قريش وغطفان إلى بنى قريظة ليقولوا لهم: «إنا لسنا بدار مقام، قد هلك الخف والحافر، فاغدوا للقتال حتى نناجز محمداً، ونفرغ مما بيننا وبينه».

فردوا عليهم يقولون: «إن اليوم يوم سبت، وهو لا نعمل فيه شيئاً، ولسنا مع ذلك بالذين نقاتل معكم محمداً حتى تعطونا رهناً من رجالكم، يكونون بأيدينا ثقة لنا، حتى نناجز محمداً، فإننا نخشى إن ضرستم الحرب، واشتد عليكم القتال، أن تشمروا إلى بلادكم، والرجل فى بلدنا، لا طاقة لنا بذلك».

فلما رجع عكرمة إلى قريش وغطفان بذلك الجواب، قالتا: «والله إن الذى حدثكم به نعيم بن مسعود عن بنى قريظة لحق!»، وأرسلوا إلى بنى قريظة برسول آخر، يبين لهم بوضوح أنهم لن يدفعوا إليهم رجلا واحداً من رجالهم، وعندئذ تحقق بنو قريظة، بدورهم، من صحة قول نعيم فتم بذلك فسخ ما عقد بينهم وبين الحلفاء.

فلما جاء نعيم بالخبر إلى النبى، سر منه، ولكنه أراد التحقق من أثره فى صفوف غطفان وقريش، فدعا بحذيفة: «يا حذيفة، اذهب فادخل فى القوم، فانظر ماذا يصنعون، ولا تحدثن شيئا حتى تأتينا».

وفى الظلام الحالك فى تلك الليلة من ليالى الشتاء، تسلل حذيفة وسط خيام الأعداء، الريح الصرصر تقلب القدور، وتطفئ النيران، وتصفر فى الآذان صفيرا مؤلماً، فيرتعد المشركون لها فى ثنايا أثوابهم، وصاح أبو سفيان فى الناس: «يا معشر قريش، لينظر كل امرئ من جليسه».

أى ليحذر بعضهم، ولكن حذيفة حاضر البديهة، فأخذ بيد جليسه المشرك وقال بصوت فيه رنة التهديد: «من أنت؟» على أن يتبرأ، فى أن يسأل بدوره من جليسه.

ولدى انخذال بنى قريظة، وتعذر وجود العلف للخيل والإبل، وأخيرا ما كان فى تلك الليلة المشئومة من اضطراب، إلى سريان اليأس فى قلب أبى سفيان، فدار بينه وبين رءوس قريش، أمام حذيفة المتخفى، حديث قصير انتهى بأن قرروا الرجوع إلى الديار.

وضبط حذيفة علما بما أراد، فرجع إلى قومه، فوجد الرسول قائما يصلى فلما رآه الرسول أشار إليه بالاقتراب، وطرح عليه طرفا من الثوب الذى كان

يصلى عليه ليقيه البرد، وأتم صلاته، ثم أنصت إلى حديث الكشاف الجرئ، وهنأه على ما أحرز من نجاح فى مهمته.

وفى اليوم التالى، كان السهل خاليا من الأعداء فخرج النبى عن الخندق وأرجع جيوشه إلى المدينة قائلا: «الآن نغزوهم ولا يغزوننا».

معاهدة الحديبية سنة٦هـ، ٦٢٨م:

رأى الرسول فيما يرى النائم أنه دخل مكة بين أصحابه، وأنه طاف بمنى فعزم على تحقيق ذلك الحلم الذى عبر عن أعز أمانيه وأمانى سائر المسلمين الذين لم يطوفوا بالحرم منذ الهجرة.

وفى شهر ذى القعدة رحل الرسول فى أربع عشرة مائة حاج، يسوقون أمامهم الهدى: سبعين بدنه، وخرج من المدينة قاصداً مكة، ولكنه أراد أن يبين للناس أنه لم يخرج للحرب، فأمر بنثر الزهور على نحور الهدى، ثم أحرم فى ذى الحليفة، فلبس ثوب الحجاج المكون من الرداء والإزار، الخاليين من الخياطة وامتنع عن كل شئ محظور أثناء الإحرام من اتصال بالنساء واستعمال للعطور، وأرسل شعر الرأس والذقن، وترك أظافره، وامتنع عن أى تشاجر أو قتال، وعن ذبح أية دابة غير الهدى، وقد فعل أصحابه مثلما فعل، ثم جهر محمد بالتلبية: «لبيك اللهم لبيك»، فرددوها جميعا من بعده.

فلما كان بعسفان: جاء إليه بشر بن سفيان الكعبى، وكان قد أرسل إلى مكة عينا، فقال: «يا رسول الله، هذه قريش قد سمعت بخروجك واستنفروا من أطاعهم من الأحابيش، وأجلست ثقيفا معهم، ومعهم النساء والصبيان ليكون أدعى لعدم الفرار، وأخذوا العوذ المطافيل[1]

ليشربوا ويأكلوا، وقد لبسوا جلود النمور، عازمين على القتال حتى الموت، وقد نزلوا الآن بذى طوى يعاهدون الله لا تدخلها عليهم أبدا، وهذا خالد بن الوليد فى خيلهم قد قدموها إلى كراع الغميم».

فنادى الرسول: «هل من رجل يخرج بنا على طريق غير طريقهم التى هم بها؟»، فتقدم رجل من بنى أسلم، وسلك بهم طريقا مجهولا، وكان هذا

(١) العوذ المطافيل: النياق ذوات الأولاد، يريد أنهم خرجوا بذوات الألبان من الإبل ليتزودوا ألبانها، والمطافيل جمع مطفل ذوات الطفل.

الطريق يبدو موحشا لأعينهم: كان يتلوى في شبكة من الشعاب الصعبة بين ربوات صخرية مشقفة. وبين هبوط وصعود وعلى سفوح جبال تكسوها الحجارة الحادة التي تدمى أرجل الحجيج والدواب.

بعد اجتياز مالا حصر له من العقبات، أفضى المؤمنون إلى بطن هواء رملي واسع، بدا لأرجلهم الدامية وكأنه البساط اللين، فحمدوا الرحمن، وصاحوا مع قائدهم الملهم: «نستغفرك اللهم ونتوب إليك»، ثم سلكوا ثنية المرار، وهبطوا حتى وصلوا إلى أسفل جبل الحديبية، الذي يقع جزء منه في الأرض المحرمة، والجزء الآخر في الأرض الحل، وبينه وبين مكة مسير يوم.. في هذا المكان بركت القصواء «ناقة الرسول» فجأة، وأبت القيام، فقال الناس: «خلأت– بركت– الناقة؟»، فأجابهم: «ما خلأت وما هو لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة»، ثم أمر الناس بضرب الخيام.

وتعجب الأعداء إذ لم يلقوا محمدا، بعد أن ظنوا أنهم منه غير بعيدين، لكن سرعان ما علموا باتجاهه الجديد، فرجعوا على أعقابهم مهرولين وبعثوا بفرسانهم يتقدمونهم لحماية طريق مدينتهم، ثم أرسلوا إلى النبي ببديل بن ورقاء الخزاعي في رجال من خزاعة ليستطلعوا قصده، فلما علم بديل من الرسول نفسه أنه لا يريد حربا مع قومه بل جاء حاجا للبيت الحرام، عاد إلى القرشيين بالخبر، ولكنهم تشككوا في صدق خزاعة، إذ كانت تميل إلى محمد، فأرسلوا إليه رسولا آخر يقال له الحليس بن علقمة، فقال الرسول عندما رأى الحليس آتيا: «إن هذا من قوم يتألهون، فابعثوا الهدى في وجهه حتى يراه»، فلما رأى الحليس الهدى الكثير مارا أمامه في عرض الوادي في قلائده وقد حلقت نحور الدواب من حيث تذبح، اكتفى بما رأى ورجع إلى قريش ليخبرهم بما شاهد فقالوا له: «اجلس فإنما أنت أعرابي لا علم لك»، فغضب الحليس وقال: «يامعشر قريش، والله ما على هذا حالفناكم ولا على هذا عاقدناكم، أيصد عن بيت الله من جاء معظما له؟ والذي نفس الحليس بيده لتخلن بين محمد وبين ما جاء له، أو لأنفرن بالأحابيش نفرة رجل واحد».

فهزوا أكتافهم احتقارا، وقالوا: «مه، كف عنا يا حليس حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضى به».

ثم بعثوا إلى النبي بعروة بن مسعود، أحد رءوس ثقيف، ليقوم بالمهمة التي رأوا أن السفيرين الأولين لم يحسنا القيام بها، فاعترض عروة على ذلك قائلا: «يا معشر قريش، إني قد رأيت ما يلقى منكم من تبعثونه إلى محمد إذ جاءكم من التعنيف وسوء الكلام وقد عرفتم أنكم والد وأنى ولد وقد سمعت بالذي نابكم، فجمعت من أطاعني من قومي، ثم جئتكم حتى آسيتكم بنفسي».

قالوا: «صدقت، ما أنت عندنا بمتهم».

فخرج عروة حتى أتى النبي، فجلس بين يديه وقال: «يا محمد، أجمعت أوشاب الناس، ثم جئت بهم إلى بيضتك لتفضها بهم؟ إنها قريش، قد خرجت معها العوذ المطافيل، وقد لبسوا جلود النمور، يعاهدون الله لا تدخلها عليهم عنوة أبدا، وايم الله لكأني بهؤلاء قد انكشفوا عنك غدا».

وعندئذ بان الغضب في عيون الصحابة وقد وقفوا وراء الرسول وأسفل وجوههم مغطى، فانبرى أبو بكر من صفهم، ووقف أمام المشرك صائحا: «امصص بظر اللات! أنحن ننكشف عنه؟».

فسأل عروة: «من هذا يا محمد؟».

قال: «هذا ابن أبي قحافة».

فقال عروة لأبي بكر: «أما والله لولا يد كانت لك عندي لكافأتك بها، ولكن هذه بها».

ثم جعل يقترب من محمد ويتناول لحيته– كما جرت العادة في هذا العصر بين من يتسامرون–، فصاح فيه رجل آخر من الصحابة: «اكفف يدك عن وجه رسول الله قبل أن تقطع دونك».

فقال عروة: «من هذا الفظ الغليظ يا محمد؟».

فتبسم الرسول وقال: «هذا ابن أخيك المغيرة بن شعبة».

فقال عروة لابن أخيه: «أي غدر: وهل غسلت سوأتك إلا بالأمس».

ثم عاد إلى حديثه مع محمد الذي أكرم وفادته، وأكد له أنه ما جاء للحرب.

ورأى عروة أثناء إقامته عند الرسول، ما يحيطه به أصحابه من إجلال: لا يتوضأ إلا ابتدروا وضوءه، ولا يسقط من شعره شئ إلا أخذوه، فلما رجع قال لمن بعثه: «يا معشر قريش، إني قد جئت كسرى في ملكه وقيصر في ملكه، والنجاشي في ملكه، فوالله ما رأيت ملكا في قوم قط مثل محمد في أصحابه، لا يغضون منه حالا ولا جاها كالعهد بأصحاب الملوك، ولقد رأيت قوما لا يسلمونه لشئ، فروا رأيكم».

وأصر القرشيون على أن يبقوا في ضلالهم يعمهون، رغم تأثرهم بذلك القول، فبعثوا بأربعين أو خمسين رجلا منهم ليطيفوا بمعسكر رسول الله، ويصيبوا لهم من أصحابه، وكان المؤمنون على حذر، فكانوا هم الذين أصابوا من المشركين، وأتوا بهم رسول الله، ولكنه لم ير الخروج عن موقفه السلمي، فعفا عنهم وخلى سبيلهم، رغم أنهم استحقوا القتل جزاء هجومهم الغادر.

وأراد الرسول بعد ذلك أن يبعث عمر برسالة إلى أشراف مكة، ولكن عمر امتنع قائلا: «يا رسول الله، إني أخاف على نفسي قريش، وليس بمكة من بني عدي بن كعب أحد يمنعني، وقد عرفت قريش عداوتي إياها، وغلظتي عليها، ولكني أدلك على رجل أعز بها مني هو عثمان بن عفان».

فرأى محمد صواب ذلك القول، فدعا بعثمان بن عفان وبعثه إلى أبي سفيان بن حرب وأشراف قريش، ليخبرهم أنه ما جاء لحرب بل جاء حاجا للبيت معظما لحرمته، فلما بلغ عثمان رسالته إليهم، قالوا له: «إن شئت أن تطوف بالبيت فطف».

فقال: «ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله».

فغضب أهل مكة من تلك الإجابة، واحتبسوه رغم كونه سفيرا.

ولما تأخر عثمان على المؤمنين، استشعروا أنه قد قتل، فنال منهم الغضب نيلا عظيما، حتى قطع الرسول في الأمر، فنادى فيهم: «لا نبرح حتى نناجز القوم».

وأمر عمر أن يصيح بأعلى صوته في المؤمنين: «أيها الناس، البيعة! البيعة! نزل روح القدس، فاخرجوا على اسم الله».

وكان الرسول جالسا في ظل دوحة وارفة الظلال، يتلقى مبايعة المؤمنين المتحمسين، وقد عقدوا العزم على أن يطيعوه طاعة تامة، وإن دعاهم إلى مناجزة أهل البلد الحرام، وكان كل واحد منهم يشد على يده ليبايعه على الموت، وفي هذه الأثناء بلغ الرسول أن الذي ذكر له عن عثمان باطل فبايع لعثمان، فضرب بإحدى يديه على الأخرى.

وأبلغت العيون أهل قريش ما كان من أمر جند المسلمين، فقلقوا وبعثوا بسهيل بن عمرو ليفاوضهم وقالوا له: «ايت محمدا فصالحه، ولا يكن في صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا، فوالله لا تحدث العرب عنا أنه دخل علينا عنوة أبدا».

فأتى سهيل بن عمرو الرسول وأبلغه شروط الصلح، فقبلها رغم مراجعة عمر بن الخطاب الشديدة، وقال: «أنا عبد الله ورسوله، لن أخالف أمره، ولن يضيعني، يا عمر، إني رضيت وتأبى».

فارتبك عمر لذلك -رغم قوة شخصيته- ارتباكا شديدا، حتى جعلت أعضاؤه ترتجف، ونضح من جسمه عرق بارد، ويروى أنه قال: «مازلت أصوم، وأتصدق، وأصلي، وأعتق، مخافة كلامي الذي تكلمت به حتى رجوت أن يكون خيرا».

وقال الرسول بعد ذلك لعلي: «اكتب: باسم الله الرحمن الرحيم».

فقال سهيل: «لا أعرف هذا، ولكن اكتب: باسمك اللهم».

فقال رسول الله: «اكتب: باسمك اللهم، هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو...».

فقال سهيل: «لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك».

فقال النبي: «اكتب: هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو

اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين، يأمن فيهن الناس، ويكف بعضهم عن بعض، على أنه من أتى محمدا من قريش بغير إذن وليه، رده عليهم ومن جاء قريشا ممن مع محمد لم يردوه عليه، وعلى

محمد وأصحابه أن يرجعوا عن مكة [illegible] فلا يدخلوها، وأنه إذا كان عام قابل، يدخلها بأصحابه، فيقيمون [illegible] أيام، ومعهم سلاح الراكب أي السيوف في القرب».

فلما سمع المؤمنون تلك الالتزامات [illegible] أنها ليست في صالحهم، [illegible] في قلق بالغ: «يا رسول الله [illegible]».

فأجاب الرسول باسما: «نعم، إنه من [illegible] منا إليهم فأبعده الله، ومن جاءنا منهم فرددناه، سيجعل الله فرجا [illegible]».

ولم يكد العقد يبرم ويشهد عليه [illegible] المسلمين ورءوس المشركين، حتى [illegible] أبو جندل بن سهيل – وكان قد أسلم [illegible] يرسف في الحديد، فارتمى بين إخوانه في الإسلام فرحبوا به [illegible] عند هذا المشهد فضرب وجه ابنه بغصن ذي أشواك حادة، ثم [illegible] أمام الرسول قائلا: «يا محمد، قد لجت[1] القضية بيني وبينك [illegible] أن يأتيك هذا».

فقال محمد: «صدقت».

فأخذ أبو جندل يصرخ: «يا معشر المسلمين، [illegible] أرد إلى المشركين يفتنونني في ديني؟! انظروا حالي»، وكان جسمه [illegible] الصبور يحمل حقا آثار الضرب المبرح.

فقال له الرسول: «يا أبا جندل، اصبر [illegible] إن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا. إنا [illegible] عقدنا بيننا وبين القوم صلحا، [illegible] على ذلك وأعطونا عهد الله، [illegible] لا نغدر بهم».

وقام الرسول مع ذلك يكلم سهيلا في الأمر طالبا منه تسليم أبي جندل [illegible] كبيرة فرفض سهيل رفضا قاطعا

[illegible] اقترب عمر بدوره من [illegible]، وقال له: «اصبر يا أبا جندل، فإنما هم المشركون، وإنما دم أحدهم [illegible]».

[illegible] يريه السيف ليدفعه إلى قتل [illegible] ولكن أبا جندل لم يكن بالابن [illegible] رغم مالاقاه من أبيه، فأجاب [illegible] [illegible] أنت؟».

(1) [illegible]

قال عمر: «نهانا رسول الله عن قتله وقتل غيره».

فقال: «ما أنت أحق بطاعة رسول الله مني».

ولقد تأثر مكرز بن حفص، وهو ممن صاحب سهيلا من أهل مكة، عندما شاهد ذلك المنظر، فعطف على أبي جندل، وأقسم أن يجيره من أبيه ومعذبيه، ولما رأى المؤمنون صاحبهم يجر جرا نحو مكة أحسوا لذلك بحزن شديد، وانقبضت قلوبهم حتى كادوا يهلكون أسى، وتبدلت حماستهم وآمالهم في تلك الرحلة، فانقلبت يأسا مريرا، وعندما أقبل الرسول نحوهم، يريد إفهامهم أن كل شئ قد انتهى، ويأمرهم بنحر الضحايا، وحلق الرءوس، بدا عليهم وكأنهم لم يعوا شيئا مما يقول.

فدعا محمد باسم الله، ثم نحر بيده أولى الضحايا، وجلس فحلق له خراش بن أمية، وعندئذ فقط ذهب عن المؤمنين ذهولهم وقنوطهم وندموا على تباطئهم في تنفيذ أوامر نبيهم، فقاموا وفعلوا مثل ما فعل من نحر الأضاحي، وحلقوا شعورهم، وبعث الله سبحانه ريحا شديدة حملت في ثناياها الشعر المحلوق فجعلته في ساحة الحرم فاستبشروا بقبول الله عمرتهم.

وكان قد مضى على نزول محمد بالحديبية تسعة عشر يوما أو عشرون يوما، فأمر جنده بالرحيل، وكانوا يأملون، في مكنون سرهم حتى اللحظة الأخيرة، أن يأتيهم أمر بالهجوم، ولكنهم أطاعوا رسولهم في غير تلكؤ، رغم شدة ما يجدونه في نفوسهم، فلما وصلوا إلى المدينة شهدوا فيها مناظر أخرى كالتي رأوها في الحديبية، فكادت أكبادهم تتمزق لولا أن قدر لهم أن تنشرح صدورهم بأن يجدوا الرسول يرفض تسليم المستضعفات من المسلمات اللاتي هربن من مكة إلى المشركين: «أم كلثوم بنت عقبة، وسبيعة بنت الحارث، وغيرهما، إذ جاءه الوحي بأن النساء لا تنطبق عليهن نصوص العقد: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن الله أعلم بإيمانهن فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن وآتوهم ما أنفقوا ولا جناح عليكم أن تنكحوهن إذا آتيتموهن أجورهن ولا تمسكوا بعصم الكوافر واسألوا ما أنفقتم وليسألوا ما أنفقوا ذلكم حكم الله يحكم بينكم والله عليم حكيم﴾ سورة الممتحنة/١٠.

غير أن العقد فيما يتصل بالرجال لم ينقض ولم يمس وكأن أبو بصير قد هرب من أيدي معذبيه – شأنه في ذلك شأن أبي جندل – فسلمه الرسول إلى رجل من بني عامر يرافقه أحد الموالي، أرسلتهما قريش في طلبه إلى المدينة، فأخذاه على مرأى من المسلمين الذين ودوا لو ابتلعتهم الأرض ولم يشاهدوا، مغلولة أيديهم، مثل ذلك المنظر الأليم، وبقي الرسول وحده، وكان يرى ما لا يرون، متفائلا هادئا يبشر المسلم اليائس بعون من الله وفرج قريب.

وجلس الرجال الثلاثة في ذي الحليفة، يستريحون في ظل حائط، فجعل العامري يفخر بما أحرزه في مهمته من نجاح ويظهر نفسه على أنه البطل الذي لا يقهر، واستل سيفه وهزه قائلا: «لأضربن بسيفي هذا في الأوس والخزرج يوما إلى الليل».

فسأله أبو بصير: «أوصارم سيفك هذا يا أخا بني عامر؟ أرنيه».

وأعمى الغرور العامري فلم يحتط لنفسه، وترك لأبي بصير سيفه يختبر حده، فانتزعه هذا الأخير فجأة وهزه فوق رأس المشرك، ثم أطاح به بضربة واحدة، فوقع الرجل جثة هامدة، وملأ الرعب قلب المولى ففر هاربا إلى المدينة يستجير بمحمد.

وقد وصل أبو بصير بعده بقليل، فأناخ بعير العامري، الذي استولى عليه، أمام باب المسجد، ودخل متوشحا سيفه، وقال لرسول الله: «يا رسول الله، وفت ذمتك، وأدى الله عنك، أسلمتني بيد القوم، وقد امتنعت بديني أن أفتن فيه، أو يعبث بي، وهذا سلب العامري: رحله وسيفه، فخمسه».

فقال الرسول: «إنا خمسته رأوني لم أف لهم بالذي عاهدتهم عليه، ولكن شأنك بصاحبك فاذهب حيث شئت».

فلما ودعه أبو بصير ورحل، قال الرسول: «ويل أمه! مسعر حرب ولو كان معه رجال!».

وخرج أبو بصير إلى «العيص» على مقربة من البحر في طريق قوافل قرشيين السائرة إلى الشام، ولم يلبث أن لحق به أبو جندل وسبعون من مسلمين علموا أن الرسول لا يمكن أن يسأل عمن يتحررون بغير معونته

وفروا من أيدي المشركين.

وكان هؤلاء الرجال يصارعون أبا بصير في جرأته وشجاعته، وأقاموا بهذا البلد الذي تكسوه الشجيرات الكثيرة، والذي يسهل فيه نصب المكائد الحربية، وكانوا ينهبون كل قافلة تجرؤ على المخاطرة فيه، وقد اجتذبوا إليهم بنجاحهم في هذا الأمر وبمغانمهم الكثيرة رجالا من عرب غفار وأسلم وجهينة، أسلموا وانتظموا معهم فكونوا جيشا صغيرا للمؤمنين في هذه المنطقة، بلغ عدده ثلاثمائة نفر.

وفهم المؤمنون عندئذ هدوء الرسول واستبشاره ساعة قبول ذلك البند من العقد الذي ينص على رد اللاجئين، والذي ظنه الناس في أول الأمر ضارا بالمسلمين.

وقطعت على أهل مكة كل موارد المؤونة، فهددتهم المجاعة، وأعيتهم الحيلة، فكتبوا إلى الرسول يرجونه في إلغاء الشرط الذي أعجبهم أول الأمر ونال استحسانهم ويطلبون منه أن يحفظ عنهم في المدينة كل من يهرب إليه من مسلمي مكة، وأن يبعث إلى أبي بصير وأصحابه ليقيموا حيث يقيم الرسول.

وأرضاهم الرسول في كل ذلك، فكان له مغنما أن أبان لقريش عن حسن نيته وكرمه، وأن قوى جيشه برجال أشداء كثيرين.

وهكذا بدت رحلة الحديبية أول الأمر غير ذات نتائج كبيرة، ثم إذا هي في حقيقتها عظيمة الشأن، ولقد خصها القرآن بمقام [illegible] تقرب مقام بدر

وأعظم نتائج رحلة الحديبية هي أن المهاجرين والأنصار لم يترددوا في مبايعة الرسول عندما ظن أن الحرم سيهاجم.

وقد أصبح للشجرة التي تلقى الرسول في ظلها البيعة شهرة عظيمة بين المؤمنين بعد موته، فكانوا يحجون إليها ويصلون بجوارها، فقطعها عمر بن الخطاب خشية أن تكون فيما بعد موضع عناية لا تخلو من الشرك.

ونزلت الآيات التالية متممة لفوائد رحلة الحديبية:

لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم

فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا (١٨) ومغانم كثيرة يأخذونها وكان الله عزيزا حكيما سورة الفتح ١٧، ١٩.

الفصل الرابع

بسم الله الرحمن الرحيم

«إنا فتحنا لك فتحا مبينا»

لم يصل محمد قط - إلى اكتساب ثقة اليهود وضمهم إلى صفوفه، رغم كل ما تقدم به إليهم في سبيل إرضائهم، فلم يكن هؤلاء ليعترفوا، كما قلنا، بأن النبي المرتقب سيأتيهم من غير أبناء جنسهم، ثم لم يكونوا ليغفروا لمحمد ما جاء به من إخاء ومساواة في الدين، وإنهاء المنازعات الداخلية، التي كانت قائمة بين أهل المدينة، تلك المنازعات التي طالما استغلوها فيما مضى، فضلا عن أنهم لم ينظروا بعين الرضا إلى انتصارات العرب المسلمين، بل خافوا الوقوع تحت نير حكمهم، لذا كان كل انتصار جديد لجند المسلمين يزيد في غيرتهم، ويدفعهم إلى الغدر، حتى صار عداؤهم للإسلام علنيا، فاقتضى ذلك من اتباع الدين الجديد سلسلة طويلة من الغزوات، نجمعها لزيادة إيضاحها في فصل واحد، مع اختلاف أزمان وقوعها وتباعدها.

غزوة يهود بني قينقاع سنة ٢هـ، ٦٢٤م:

جلست امرأة عربية إلى صائغ من بني قينقاع، فتعرضت لأشنع المجون: إذا عمد يهودي إلى ذيل ثوبها، فعقده إلى ظهرها، دون إثارة انتباهها، فلما اعتدلت واقفة انكشفت سوأتها، أمام يهود الحانوت، الذين انتفضوا ضاحكين على قبح الصور، وغضب أحد العرب الحاضرين فضرب المستهتر بعصاه ضربة ألقته صريعا، وثارت حمية أهل اليهودي، فانقضوا على العربي وأردوه قتيلا، وهرع العرب إلى المكان يطلبون ثأر أخيهم، فوقع الشر بينهم وبين بني قينقاع، وسالت الدماء من الجانبين.

وكان الرسول عليما بأخلاق اليهود وبعدائهم المستحكم للإسلام، فاستغل ذلك الموقف الذي كانوا هم فيه المعتدين ليعرض عليهم اعتناق الدين الجديد، فأبوا في هزء وسخرية، وغضب الرسول، فقال: «يامعشر يهود احذروا من الله مثل ما نزل بقريش من النقمة..»

نهزوا أكتافهم مستهزئين وقالوا: «.....لا يغرنك أنك لقيت قوما لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة، إنا والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس»

فجمع محمد المسلمين، وسيرهم لغزو بني قينقاع الذين ما كادوا يرون جند الله حتى فروا هاربين، مخلفين وراءهم غرورهم وغطرستهم، واعتصموا بقلاعهم في ضواحي المدينة، فتبعهم الرسول وحاصرهم، حتى أرغمهم على الاستسلام المطلق بعد خمسة عشر يوما من المقاومة، ثم أراد أن يعطي اليهود الآخرين مثلا يذهب من رءوسهم فكرة تقليد بني قينقاع، فأمر بذبح أسراه، فقدم إليه عبد الله المنافق حليفهم يستعطفه لهم، فأعرض عنه محمد وصاح فيه مرتين: «دعني»، فوضع عبد الله يده على قلب رسول الله، وضرع إليه قائلا: «لا والله لا أتركك حتى تحسن في موالي... إني والله امرؤ أخشى الدوائر»، وأخيرا قال الرسول: «هم لك».

وهكذا نجا بنو قينقاع بفضل المنافق، ولكنهم أرغموا على الهجرة إلى الشام، وقسمت أموالهم بين المنتصرين.

غزوة يهود بني النضير ٣هـ، ٦٢٥م:

طالب بنو النضير بدية رجلين من بني جديهم. قتلهما أحد عمرو، فخرج الرسول إليهم مستوضحا القضية، وبذل لهم ما أرضاهم، غير أن جحاش بن كعب اليهودي، أراد أن يكيد لمحمد، فصعد مستترا إلى دار تطل على النبي وجماعة من الصحابة، وقد جلسوا في ظل حائط يتجاذبون أطراف الحديث، وأعد ابن جحاش صخرة ضخمة قاصدا رمي الرسول بها وسحقه، وبينما لشقي على وشك تنفيذ خطته، إذ بمحمد قد أتاه إلهام سماوي، فرفع رأسه ناظرا إلى أعلى، ورأى المكيدة فأسرع بالابتعاد عن الحائط جاذبا أصحابه معه.

ولم يكد يرجع إلى المدينة حتى جمع جنوده، وسار فيهم لمعاقبة أولئك الغادرين.

ولما رأى بنو النضير أنهم قد باءوا بالفشل التجأوا إلى قلاعهم، ولكنهم بعد

ستة أيام من المقاومة، أرغموا على مثل ما فعل بنو قينقاع، فاستسلموا صاغرين ضارعين إلى المنتصر، يطلبون منه الرحمة، فعفا عنهم وأجلاهم، ولم يسمح لكل منهم إلا بحمل بعير من أموالهم المنقولة.

غزوة يهود بني قريظة ٥هـ، ٦٢٧م

تشتت شمل الحلفاء بعد فشلهم في غزوة الخندق، فطوى المسلمون السلاح وباتوا يريحون بالنوم أبدانهم المرهقة من أثر السهرات الطويلة، والمتاعب الكثيرة، التي عانوها أيام الحصار، وبينما هم على هذا الحال إذ بصوت المؤذن يوقظهم ويدعوهم إلى صلاة العصر في بني قريظة، وكان ذلك بأمر من الرسول، إذ رأى أن غدر بني قريظة الذين نقضوا ميثاقهم وانقلبوا عليه متحالفين مع أعدائه، لا يمحق إلا صارم العقاب وعاجله، فعسكر في اليوم نفسه عند بئر أبي أمام قلاعهم، وأجبرهم على الاستسلام بعد خمسة عشر يوما من الحصار.

وسعى الأوسيون، حلفاء بني قريظة القدامى، لدى محمد ليعفو عنهم كما عفا عن بني قينقاع ورأى الرسول أن غدر بني قريظة أعظم من غدر بني قينقاع فلم يكن مستريحا إلى العفو عنهم، بيد أنه قال أخيرا للأوسيين: «ألا ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيهم رجل منكم» ؟ قالوا: «بلى» قال: «فذاك إلى سعد بن معاذ».

وكان سعد بن معاذ قد جرح جرحا خطيرا إبان غزوة الخندق إذ أصابه سهم قطع شريان ساعده، فكان قصارى مناه أن يحييه الله حتى يذيق بني قريظة جزاء غدرهم، وكان سعد جسيما ولا يقوى على العراك من شدة ضعفه، فجعل على حمار قد وطئ له بوسادة من أدم، وأسنده اثنان من المؤمنين حتى أتيا به جماعة الأنصار والمهاجرين الذين قاموا له إجلالا قائلين: «يا أبا عمرو إن رسول الله قد ولاك أمر مواليك لتحكم فيهم»، فقال: «عليكم بذلك عهد الله وميثاقه أن الحكم فيهم لما حكمت؟»

قالوا: نعم، – قال سعد: «فإني أحكم فيهم: أن تقتل الرجال، وتقسم الأموال، وتسبى الذراري والنساء».

عندئذ صرف محمد القوم بقوله: «لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة».

وهامت أرواح سبعمائة يهودي جزاء غدرهم المنكر، وقد تحققت بذلك أمنية سعد التي كانت تربطه بالحياة، فانفتح جرحه من جديد، وسال منه كل ما تبقى في جسد المريض من دماء، ومات.

غزوة يهود خيبر سنة ٦هـ، ٦٢٨م:

لم تكن انتصارات المسلمين المتتالية، رغم خطورتها، بضربة قاصمة لشوكة اليهود بالجزيرة، فقد كانوا يملكون بالمدينة، وعلى بعد ستة وتسعين ميلا منها يملكون ولاية خيبر، التي تفوق في الغنى والأهمية كل ما فقدوه، وقد زاد تعطشهم إلى الثأر شدة، واستمرت وقدة الحقد للإسلام في قلوب أهل خيبر بوفود الجماعات تلو الجماعات من اليهود الهاربين إليهم من المدينة، واعتقد أهل خيبر أنهم بمأمن من ضربات المسلمين، فلم يألوا جهدا في سبيل الكيد لهم، ووجدوا في الطريقة التي اتبعها محمد حيال أهل مكة، خير معين للوصول إلى مآربهم، وكانت قبيلة بني غطفان، حليفتهم، تسود البلاد الواقعة بين خيبر والبحر، فتآمروا على قطع السبيل على كل القوافل الخارجة من المدينة في طريق سوريا، وأثر ذلك على حالة المدينة الاقتصادية، ففكر الرسول مرارا في غزوة يهود خيبر، غير أن انشغاله بأمر مكة منعه من تنفيذ فكرته، حتى رجع من الحديبية وقد عقد مع القرشيين هدنة السنين العشر، فأراح ذلك عن كاهله كل هم من ناحيتهم، ونزل عليه الوحي: «لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا» سورة الفتح الآية ١٨.

فاعتقد النبي أن ذلك الوحي لا ينطبق إلا على خيبر، فلم يتردد، وعقد العزم على فتح آخر معقل لليهود في بلاد العرب.

وأسر عبد الله المنافق بالخبر إلى بني غطفان، فهرعوا إلى نجدة حلفائهم اليهود، بيد أنهم ما كادوا يصلون إلى وادي الرجيع حتى بصروا بجند الإسلام، وقد سبقوهم إلى المكان وقطعوا عليهم طريق خيبر، وبينما هم واقفون تغمرهم الدهشة الخائفة، إذ سمعوا خلفهم في أموالهم وأهليهم صوتا، فظنوا أن قوما من المسلمين قد خالفوا إليهم، فانقلبوا مسرعين على أعقابهم

راجعين.

.... واحة تمتد بين تلال الحرة وصخورها السوداء، فكأنها بحيرة من الزمرد، تعلوها جزر صخرية متوجة بقلاع حصينة، هكذا بدت خيبر للرسول، عندما خرج من الممر الضيق، وأشرف عليها، فسأل الله العزيز القدير عونا وتوفيقا.

وأقبل الليل فخيم الجيش ليستريح، وانتظر محمد للهجوم إلى الصباح، ولما انتشرت أشعة الشمس المشرقة فكست أعالي النخيل بلون ذهبي جميل، خرج عمال خيبر من قلاعهم إلى بساتينهم يحملون محافرهم وفؤوسهم، وقد علقوا السلال بأكتافهم، فبصروا بجند المؤمنين الآتين من الحرة، ومعهم الرماح والسيوف المتوهجة في أشعة الشمس، فصاح القوم: «محمد والخميس»[1] وأدبروا هاربين مخلفين المحافر والفؤوس والسلال، فقال الرسول: «الله أكبر، خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين».

كان أول حصن وقع في أيدي المؤمنين، حصن ناعم، وعنده قتل محمود بن مسلمة فقد حارب حتى أعياه الحرب، وثقل عليه السلاح، واشتد الحر فانحاز إلى ظل الحصن، فألقى عليه من إحدى قممه حجر رحى فكسر مغفر الجندي الشجاع، وهشم عظام رأسه ونزل جلد جبينه على عينيه، فأدركه المسلمون، فأتوا به النبي الذي رد الجلد إلى مكانه، وعصب الرأس بعمامة، غير أن تلك الجهود لم تفلح لخطورة الجرح، فلم تلبث روح محمود أن فاضت.

وأظهرت قلاع النطاة صمودا أمام ضربات المسلمين، فلجأ محمد، ليرغم المحاصرين على الاستسلام، إلى قطع أربعمائة من نخيل واحتهم أمام أعينهم، ولكن لم يجد ذلك فتيلا، إذ أصر أهل النطاة على المقاومة، فأوقف ذلك التخريب الذي كانت نفسه لا تستسيغه، إذ كان الرسول يحب النخيل ويراها أشجارا مباركة.

وطال الحصار، ودبت المجاعة في الجيش، ففترت همة الجند، وفي ذات ليلة أسر عمر يهوديا من الأعداء، فأدلى الأسير إلى الرسول بمعلومات نفيسة

---

(١) الخميس: الجيش كله

بعد أن أمنه على حياته:

كان حصن صعب، وهو من قلاع النطاة، يحوي، على ضعف حاميته، في سراديبه آلات حربية كثيرة، فمن مجانيق ودروع ودبابات إلى رماح وخناجر وسيوف، ووعد اليهودي بإرشاد المسلمين إلى باب سري لتلك القلعة، لا علم لأحد به سواه- فقبل محمد العرض واستولى على قلعة صعب بدون عناء، فوجد بها من الآلات ما أعانه على فتح الثغرات في الحصون الأخرى، والاستيلاء عليها، ووجد في هذه الحصون من الزاد والمؤونة الشيء الكثير.

وبينما المسلمون يهجمون على إحدى تلك القلاع، كر الشاعر عامر بن الأكوع وراء عدو، ووجه إليه ضربة سيف عنيفة محاولا بتر ساقه ليوقفه، فطاش السيف، وكان قصيرا، فرجع إليه وكلمه في ركبته كلما شديدا سال منها الدم غزيرا حتى فاضت روح الشاعر، وقد قتل نفسه بيده مجاهدا في سبيل الله.

وبقيت من قلاع خيبر أهمها، وهي قلعة القموص، حيث احتمى كنانة أمير بني النضير، وكان يدافع عنها مرحب البطل الشهير، وقلعة القموص كانت قائمة على قمة تل صخري أملس رأسي الجوانب، محاطة بجدار ضخم مرتفع، وقد اشتهرت بالقوة والمناعة، بيد أن المسلمين بعد عشرة أيام من العمل الشاق، استطاعوا أن يفتحوا ثغرة في الجدار، فتقدم إليها الرسول، وتبعه أصحابه، ولكنهم سرعان ما ارتدوا بعد أن خاضوا من المخاطر الكثير.

وأصاب الرسول وجع شديد ألزمه الفراش يومين، فبعث أبا بكر برايته، فقاتل أشد القتال، ولكنه أرغم على الرجوع، ولم يكن قد فتح الحصن، وتولى عمر الجند مكان أبي بكر، فأتى بالعجب العجاب من الشجاعة والإقدام، ولكنه باء بالفشل كما باء من قبله أبو بكر، فقال محمد عندما أتاه نبأ ذلك الفشل المتوالي: «لأعطين الراية غدا رجلا يحب الله ورسوله، يفتح الله على يديه، ليس بفرار».

وفي الغد اجتمع الصحابة حول الرسول، وقد تلهفوا على معرفة الشخص الذي سيحظى بذلك الشرف العظيم، غير أن محمدا لم يلتفت إليهم، بل بعث

في طلب عليّ، وكان قد ابتعد عن القتال لرمد شديد، فأتى به صديق له وقد عصب عينيه، فقال له الرسول: «خذ هذه الراية، فامض بها حتى يفتح الله عليك». فأجاب علي: «يا رسول الله، إني أرمد كما ترى، ولا أبصر موضع قدمي». فأخذ الرسول برأس علي في حجره، وفتح عينيه وتفل فيهما ثم دلكهما، فزال الالتهاب في الحال، كما زال كل أثر للألم، ألبس الرسول عليا درعه الحديدي وشد إليه سيفه ذا الفقار، وتوجه علي إلى الحصن، فركز تحته الراية البيضاء التي رسمت عليها بالحروف السوداء البارزة شهادتا الإسلام، ثم تأهب للصعود إلى الثغرة، فواجهه الحارث في نفر من اليهود محاولا سد طريق بطل الإسلام، فثبت له علي وقاتله فقتله، فأدبر جند اليهود فارين.

عندئذ خرج مرحب البطل الشهير أخو الحارث، يطلب الثأر، وكان مرحب جد مهيب بقامته الهائلة، ودرعه المزدوج، وسيفه ورمحه ذي الأسنة الثلاث وعمامته السميكة وخوذته التي يعلوها حجر كريم في حجم البيضة، وعينيه اللتين تبرقان كالجواهر، وكان الغرور يملأ صدر «مرحب» فوقف على الثغر يرتجز قائلا:

قد علمت خيبر أني مرحب شاكي السلاح بطل مجرب

أطعن أحيانا وحينا أضرب إذا الليوث أقبلت تحزب

إن حماي للحمى لا يقرب يحجم عن صولتي المجرب

ويقول من يبارز؟

فلم يخف عليّ ولم يضطرب لهذا الغرور، بل تقدم متحديا قائلا:

أنا الذي سمتني أمي حيدره ضرغام آجام وليث قسوره

عند ذلك احمرت وجنة مرحب غاضبا فانقض على غريمه رافعا السيف، فتترس علي، وهوى السيف، فسمع له طنين هائل، حتى ظن الناس أن بطل الإسلام قد قضي نحبه، لكن السيف لاقى الترس، فشقه وانغرس فيه، ولم يترك عليّ لعدوه فسحة من الوقت لانتشال سيفه، بل أمسك عن ترسه، الذي أصبح ولا فائدة منه، ثم حمل على غريمه بضربة قوية كسرت مغفر مرحب، ونفذت إلى عمامته فشقتها وإلى رأسه فهشمتها، وانتثر مخه

على الأرض ولم يتوقف السيف إلا عند ما بلغ الأضراس، فخر العملاق صريعا كالبنيان في هالة من غبار وطنين كالرعد.

فدب الرعب في قلوب جند اليهود، فولوا هاربين، وتتبعهم جنود على الذي خلع باب الحصن الحديدي الثقيل، وتترس به بدلا من ترسه الذي هشم بين يديه، ولم تطل المقاومة، فوقع حصن القموص المنيع في أيدي جند الإسلام

ولم يكد يهود فدك ويهود وادي القرى، وبلادهما تقع على مسيرة بضعة أيام في الشمال، يسمعون بالخبر حتى بعثوا يطلبون السلم، وبالاتفاق مع بني دينهم من أهل خيبر، سرعوا إلى الرسول سائلين أن يتركهم يستثمرون أرضهم، إذ لا أحد سواهم يعلم طرق فلاحتها، ورجوه مقابل ذلك أن يمنحهم نصف الغلات، فقبل محمد عرضهم، على أن يكون للمسلمين حق الرجوع على ذلك العهد إن بدا لهم.

وكانت خيبر أغنى بلاد الحجاز، فكثرت الغنائم وقسمت، فأخذ منها نصفه لسد نفقات الحج المزمع إقامته إلى إبان السنة الجارية، وفرق النصف الثاني بين الجنود، أما الأراضي فقد أخذ منها الرسول ولنسائه نصيبهم، وقسم الباقي، فكان لكل راجل منهم سهم ولكل فارس سهمان وفضلا عن ذلك فقد منح كل صاحب جواد كريم هدية، وذلك لتشجيع تربية الخيل.

اهتمام الرسول بالخيل:

نستطيع أن نعرف من تلك التدابير مدى ماكان يعلقه النبي من الأهمية على الخيل في مصير العرب.

كان العرب ينظرون إلى الجياد كأداة ترف لقلتها، فكان الجندي يركب الجمل، ويسحب وراءه جواده، فلا يمتطيه إلا ساعة المعركة، عند مهاجمة الأعداء ومطاردتهم.

وقد اتم الرسول تدابيره هذه بتنظيم سباق يتبارى فيه الفرسان، ويتنافس أرباب الجياد المتسابقات، وقد بلغ من شأن الخيل، أن جعل الله الجياد عاديات شواهد لبعث الخوف من يوم الدين في قلوب المسلمين إذ قال تعالى: ﴿ والعاديات ضبحا (١) فالموريات قدحا (٢) فالمغيرات صبحا (٣)

فأثرن به نقعا (٤) فوسطن به جمعا (٥) إن الإنسان لربه لكنود (٦) وإنه على ذلك لشهيد (٧) وإنه لحب الخير لشديد (٨) أفلا يعلم إذا بعثر ما في القبور (٩) وحصل ما في الصدور (١٠) إن ربهم بهم يومئذ لخبير (١١) ﴾ العاديات ١ - ١١.

وقد بلغ من كلف «عبد الله بن أبي سرح» أحد أبطال الفرسان في ذلك العهد ووالي مصر فيما بعد، بتلك السورة أن صارت لا تفارق شفتيه وهو وال على مصر ثم وهو يحارب الروم برا وبحرا، ومات وهو يرددها ويرجع الفضل في إيجاد ذلك النوع من الجياد العربية الكريمة التي لا يعرف لها العالم مثيلا إلى تشجيع النبي لأصحاب الخيل، وحثه أربابها على العناية بها ونشرها في جميع أرجاء بلاد العرب.

الشاة المسمومة:

عاد الرسول إلى خيمته عقب صلاة المغرب، فوجد ببابها زينب ابنة الحارث اليهودية زوجة سلام بن مشكم في انتظاره، وقد عمدت إلى شاة فذبحتها وصلتها على نار من أخشاب الرياحين وقدمتها للرسول، فشكرها، فلما انصرفت دعا أصحابه إلى مشاطرته الشاة ذات اللحم الذهبي الشهي، فتناول هو الذراع وانتهش منها وقلده بشر بن البراء فتناول قطعة لحم وانتهش منها وبلعها، ومد الحضور أيديهم إلى الشاة، غير أن الرسول لفظ مضغة ما كاد يلوكه بين أسنانه ومنع أصحابه عن الشاة قائلا: «إن هذا العظم ليخبرني أنه مسموم»، فصاح بشر «والذي أكرمك لقد وجدت ذلك من أكلتي التي أكلت، حين التقمتها، فما منعني أن ألفظها إلا أني كرهت أن أنغص إليك طعامك، فلما أكلت ما في فيك لم أرغب بنفسي عن نفسك».

ولم يكد بشر ينطق بتلك الكلمات، حتى عاد لونه كالطيلسان، ولم يمهله وجعه فوقع على الأرض يتلوى في سكرات الموت، وفي الحال دعا الرسول باليهودية وقال لها: «ما حملك على ما صنعت؟»، قالت: نلت من قومي ما نلت، قتلت أبي وعمي وزوجي، فقلت إن كان نبيا فستخبره الذراع وإن كان ملكا لاسترحنا منه».

فهدأ هذا الجواب من ثائرة الرسول، فأوشك أن يعفو عن اليهودية، ولكن

بشرا كان قد مات وأتى أهله يطلبون الثأر، فدفعها إليهم فصلبوها، وأحرق ما بقي من الشاة المشئومة، وبالرغم من أن محمدا كان قد لفظ اللقمة الخبيثة فقد سرى في جسده السم ووصل إلى أمعائه، فلم يخلص أبدا من آثاره السيئة.

وقد قال في مرضه الأخير بعد ذلك بثلاث سنين مخاطبا أم بشر التي جاءت تستفسر عن صحته: «إن هذا الأوان وجدت فيه انقطاع أبهري[1] من الأكلة التي أكلت مع ابنك بخيبر».

عمرة القضاء سنة ٧هـ، ٦٢٩م:

بينما الحملة في طريق العودة من خيبر بالغنائم الكثيرة، كان مهاجرو الحبشة قد وصلوا كلهم إلى المدينة وعلى رأسهم جعفر بن أبي طالب أخو علي، وقد أفعم ذلك قلب محمد بالسرور، فقبّل جعفرا بين عينيه، وكاد الفرح يملأ جوانحه: «ما أدري بأيهما أنا أشد سرورا، بفتح خيبر أم بقدوم جعفر»، وكان أيضا من بين القادمين أم حبيبة ابنة أبي سفيان، ألد أعداء الرسول، وقد خرجت أم حبيبة مع زوجها عبيد الله بن جحش مهاجرة، فلما استقر بأرض الحبشة تنصر الزوج ومات بمهجره، بينما بقيت الزوجة مخلصة لإسلامها، فأراد الرسول أن يجزيها أجر إخلاصها وأن يستميل إليه عدوا لدودا، فبعث بعمرو بن أمية إلى النجاشي راجيا منه أن يزوجها له، ويرسلها مع بقية المهاجرين، وهكذا كان، فلما وصلت أم حبيبة المدينة، دخلت في ذمة زوجها العظيم.

أما المهاجرون، فقد رأى محمد أن يعطيهم نصيبهم من مغانم خيبر، ووافق الجميع على ذلك، ليعوضوا بذلك عما فقدوه، بسبب هجرهم أوطانهم، وتركهم أموالهم في سبيل دينهم.

وأتى اليوم الذي تسمح فيه معاهدة الحديبية للمسلمين بدخول مكة، لزيارة الأماكن المقدسة، فتأهب الرسول لتحقيق أعز أمانيه ورؤية مسقط رأسه.

(١) الأبهر عرق إذا انقطع مات صاحبه، وهما أبهران يخرجان من القلب ثم يتشعب منهما سائر الشرايين.

وقد أخذ محمد في عمرة القضاء من الأضاحي، ومن الحجاج مثل ما أخذ في رحلة الحديبية، ويمم شطر المدينة المقدسة، فلما وصلت القافلة بطن يأجج، ترك فيه سلاحا كثيرا، من الأسلحة التي كان قد أخذها احتراسا، ووضع على ذلك السلاح أوس بن خولي في مائتين من الجنود، وقال: «لا ندخل عليهم الحرم بالسلاح، ولكن يكون قريبا منا، فإذا رأينا من المشركين الغدر كان السلاح قريبا منا».

وعندما وصل محمد جبل كداء، تسمه خاشعا، ونزل الوادي عند مقبرة الحجون حيث ووريت خديجته الحبيبة، رحمة الله عليها، وأشرف على ديار مكة فانبعث في نفسه ذكريات وآمال، وتملكه حنين لا يوصف، واضطربت نفسه عندما فكر في أن المشركين قد يغدرون به، فيضطر إلى معاقبتهم وتلويث مسقط رأسه بدماء قومه.

فدعا الله أن يحفظ المسلمين من كل شر في البلد الحرام، ولم يزل يردد دعاءه حتى خرج من مكة.

ولم يكد المؤمنون يقتربون من مكة حتى غادرها أشرافها، وقد نال الغضب منهم منالا، لما رأوا من رجوع المهاجرين بالنصر المبين، فراحوا يخفون سخطهم الذي لا جدوى منه في مخيماتهم بالأودية المجاورة، أما سواد أهل مكة، الذين كانوا، ككل الجماعات الشعبية، مدفوعين بغريزة الفضول، فقد احتشدت فئة منهم بجبل قينقاع، وتجمعت فئة أخرى فوق سطح دار الندوة التي تشرف على الكعبة.

وكان يسود كل أحاديثهم الأمل في أن يكون النبي وأصحابه قد أوهنتهم حمى يثرب وأنهكهم صيفها الحار، فيأتون مكة في حالة من الضعف شديدة، ولكن الله أطلع رسوله على أمرهم فقال لأصحابه: «رحم الله امرأ أراهم من نفسه قوة».

وخلت مكة إلا من الجماعة الصغيرة التي احتشدت فوق سطح دار الندوة فكان سهلا على الرسول أن يفتحها، غير أن نفسه الكريمة – التي لا ترضى اقتراف مثل ذلك الغدر – كانت منصرفة إلى الله وكلها خشوع وتقوى، فتقدم ممتطيا ناقته القصواء مسلما خطامها لعبد الله بن رواحة، ومن حوله موكب

[illegible] في جلال صواحي مكة تحت بصر الأعداء، ولم يشرفهم [illegible]، فلما بلغ الموكب الكعبة نزل الرسول والتف بردائه، [illegible] كتفه وذراعه اليمنى، ثم أقبل، والمؤمنون يتبعونه، [illegible] فقضى الطواف، فهرول ثلاثا ليرى المشركين أن [illegible] هؤلاء رؤوسهم وقالوا: «هؤلاء الذين تعوق صحة [illegible] ليس لهم إلا العور المبين، وقضى الرسول ما تبقى [illegible] وجلال رفقا بالمؤمنين أن ينالهم التعب، ومنذ ذلك [illegible] الطواف دائما على مثل ذلك النظام.

[illegible] الطواف، فأمر بلالا بالأذان، فجلجل صوت العيد [illegible] وارتد صداه إلى المشركين، الذين بلغ منهم الغيظ أن [illegible] أبا جهل وأبا لهب، هذين العظيمين فيهم اللذين [illegible] فلم يسمع آذانهما ذلك النداء البغيض إلى قلوبهم، ولما [illegible] أعطى النبي ناقته، وسعى بين الصفا والمروة، فقضى على [illegible] المسلمين من التردد في إتمام تلك الشعيرة بذلك المكان [illegible] الأصنام، ولكن الرسول كان يقصد بأداء تلك الشعائر التي [illegible] نها العرب غاية وطنية سياسية أراد أن يقرنها بغايته [illegible] تقبيله للحجر الأسود بعلامة للميل في العبادة نحو [illegible] مبادئ القرآن تنافيا صريحا- بل إن تقبيله ذاك [illegible] إلا إما إجلالا لتراث سلفه المجيد.

[illegible] أبي شيبه أن الرسول قال مخاطبا الحجر الأسود: إنه يعلم [illegible] ولا ضرر، ثم إنه قبله، وتبعه في ذلك أبو بكر فعمر [illegible] الرسول لما فعلا هذا.

[illegible] في السعي والوضوء ببئر زمزم، الذكرى [illegible] جد العرب إسماعيل وأمه هاجر، التي تركت طفلها [illegible] في ظل شجيرة، إذ لم تقو على حمله في الصحراء [illegible] يكاد يموت من العطش، وسعت إلى قمة تل من التلال [illegible] أو عين ماء، ولكنها لم تجد من ذلك شيئا فعادت [illegible] فصعدت قمة أخرى لنفس الغرض فلم تفلح، فعادت

ونفسها تضطرب من الألم، وعاودت سعيها الشاق المرهق سبع مرات، وظنت، وعقلها يكاد يطير، أنها لن تجد إسماعيل إلا جثة هامدة، ولكنها رأت ابنها الحبيب بعد ذلك يشرب من عين أنبعها الرحمن تحت رجل الطفل المسكين، وسميت تلك العين بزمزم.

لذلك كان على الحجاج أن يقلدوا هاجر فيطوفوا سبعا بالطريق ذي الذكرى الأليمة الذي سلكته بين هذين الربوتين المعروفتين باسم الصفا والمروة، وعليهم أيضا أن يتوضئوا ويشربوا من بئر زمزم.

ونحرت الأضاحي في اليوم التالي بوادي منى تخليدا لذكرى ما فعله إبراهيم، وقسمت لحومها بين الحجاج الذين كانوا قد رجعوا إلى الحل بعد حلق شعورهم، وكانوا في إحرام منذ مرحلة ذو الحليفة.

أما محمد فقد عقد على امرأة مكية تدعى ميمونة، وهو لا يزال في حالة الإحرام لامتياز خاص يرجع إلى كونه رسول الله وكان عمر ميمونة يقرب من الخمسين، وكانت فقيرة معدمة، إلا أن هذا الزواج كان من شأنه أن يجلب للإسلام الكثير من الأشراف، وعلى الأخص العباس عم محمد، وكان العباس وكيلا لميمونة فأعلن زواجها بالرسول، غير أن الزواج لم يتم إلا في طريق الرجوع إلى المدينة.

ووصل الرسول إلى غايته المنشودة، رغم غضب مشركي قريش الذين أبوا أن يشاهدوا عدوهم وهو يقضي عمرته: لقد أعلن بذلك على سائر العرب في شبه الجزيرة أنه ليس في نيته محو تقاليدهم المتوارثة، بل هو يسعى جاهدا في سبيل دعم تلك التقاليد بإرجاعها إلى براءتها الأولى، فكان لعمرة القضاء صدى عظيم، إذ جرت، فورا، كثيرا من ذوي النفوذ إلى الإسلام، ومن أولئك ثلاثة أبطال هم: عثمان بن طلحة، وعمرو بن العاص، وخالد بن الوليد، ثم إنها هيأت العرب الآخرين للإسلام، وشجعتهم على نطق هؤلاء الثلاثة الكبار.

رسل النبي إلى الملوك:

وقد وطد انتصار النبي على اليهود سلطة المسلمين في أغلب شبه الجزيرة، وبقي منها جزء، فكان مصيره المحتوم الوقوع في يد المسلمين

سوريا ... واحد محمد يلتفت إلى الممالك المجاورة: إن الإسلام، الذى
صح يجمع ناسا من مختلف الأجناس، والذى يقول بأن الله يملأ الكون، لم
... يقتصر على بلاد العرب وحدها، بل كان عليه أن يشمل العالم أجمع، إذ
... كتاب الله.

«وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا ولكن أكثر الناس لا يعلمون».
(... آية ٢٨).

... بعث محمد بالرسل إلى أعاظم ملوك المشرق والمغرب مزودين
... يعرض عليهم اعتناق الإسلام دين الله الذى لا إله غيره، وكانت تلك
... مختومة بخاتم كتب عليه فى ثلاثة سطور متصدة من أعلى إلى
... «محمد رسول الله»، مبتدئة باسم الجلالة ومنتهية بمحمد.

... المنذر ملك البحرين، الرسالة فأسلم، وكذلك فعل نائب ملك اليمن،
... المقوقس ملك مصر بالهدايا الثمينة إلى محمد، وكان من بين تلك
... جارية شابة بارعة الجمال يقال لها: مريم القبطية، فتزوجها محمد،
... من بينها أبيض حمار يقال له يعفور وبغلة تدعى دلدل، أما هرقل
... الروم، والنجاشى ملك الحبشة، فقد رد كل منهما على الدعوة
... بتلطف والاحترام، غير أن كسرى ملك الفرس أقسم ليعاقبن
... جرأته، فنزل عليه فى الحال غضب الله، إذ اغتاله ابنه شيرويه،
... ومزق الحارث ابن أبى شمر رسالة النبى، فرأى ملكه يتمزق،
... على ما مزق رسالة محمد، وكان الحارث بن عمير الرسول
... استقبالا مشينا، ثم اغتيل بغتة عند الكرك بالبلقاء بأمر من
... حاكم تلك البلاد التى كانت تخضع للرومان.

... مؤتة سنة ٧هـ، ٦٢٩م

... مصرع الحارث بن عمير، فاشتد عليه، وعزم أن يثأر له ثأرا
... لم يخف عليه ما يعترض ذلك من العقبات.

... المؤمنين فى هذه الحملة أن يقاتلوا فقط عرب سوريا الذين
... الحجاز عددا بل كان عليهم أن يواجهوا أيضا جند الروم التى

تحتل بلاد البلقاء.

جهز الرسول ثلاثة آلاف من الجند وأمر عليهم زيد بن ...، غير أنه
أدرك أن قائد الحملة قد يقتل فى تلك الصراع الذى ... فيه قوى
المحاربين، فعين لهم جعفر بن أبى طالب أميرا إن أصيب ... بن حارثة،
فإن أصيب جعفر فعليهم بعبد الله بن رواحة من بعده فإن ... عبد الله
فليرتضوا رجلا منهم فليجعلوه عليهم.

وحضر هذا المجلس رجل من اليهود فقال: «يا أبا القاسم» وتلك كانت
كنية محمد- إن كنت نبيا يصاب جميع من ذكرت، لأن ...ياء عليهم
الصلاة والسلام من بنى إسرائيل كان الواحد منهم إذ استعمل رجلا على
القوم، وقال: إن أصيب فلان، فإنه يصاب، ثم صار يقول لزيد: «اعهد فلن
ترجع إلى محمد أبدا إن كان نبيا».

فقال زيد بكل بساطة: «أشهد أنه نبى، عندئذ عقد الرسول ...واءه الأبيض
إلى نصل رمح، ودفعه إلى زيد بن حارثة، ثم شيع جند... صدره مملوء
بالحزن والتشاؤم، فلما وصل ثنية الوداع، وقف ليملى ... توصيته
الأخيرة فقال: «أوصيكم بتقوى الله وبمن معكم من المسلمين خيرا، اغزوا
باسم الله، فقاتلوا عدو الله وعدوكم بالشام، وستجدون ... رجالا فى
الصوامع معتزلين فلا تتعرضوا لهم، ولا تقتلوا امرأة ولا صغيرا ولا بصيرا
فانيا، ولا تقطعوا شجرة ولا تهدموا بناء».

وأوصاهم أن يأتوا بثأر عمير فإن أتوه فليدعوا إلى الإسلام قبائل العرب
بسوريا.

وخاف شرحبيل عواقب غدره المنكر فقلق، وعمد إلى ... من العرب
فجمع جندا من بنى لخم وجذام وبلى وبهراء، واستنجد ... قائد هرقل،
فأنجده بجميع القوات الرومانية التى كانت تحت ...

وهكذا جمع شرحبيل ما يربو على مائة ألف من ... قبيل نزول
جيوش المسلمين بمعان، فلما رأى المؤمنون أنفسهم أمام ... تلك القوة
العظيمة، ترددوا وأقاموا على معان ليلتين ينظرون فى أمرهم ... بعضهم:
«نكتب إلى رسول الله، فإما أن يمدنا بالرجال، وإما أن يأمرنا بالرجوع أو

القتال، وقام عبد الله بن رواحة يبعث في الناس روح الإقدام بقوله: «ياقوم إن الذي تكرهون للذي خرجتم له، خرجتم تطلبون الشهادة، إنا لا نقاتل بعدد ولا قوة ولا كثرة، مانقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا، فإنما هي إحدى الحسنيين: إما ظهور، وإما شهادة، فقال الناس: «صدق والله ابن رواحة»، ومضوا غير هائبين لملاقاة العدو، فالتقى الجيشان بمؤتة، وهي قرية صغيرة تقع شمال قلعة كرك.

وانقض المسلمون كالليوث الكاسرة على جيوش الأعداء، فقتلوا زعيمهم مليك ابن زافلة بطعنة رمح، غير أن المشركين ثابوا إلى رشدهم بعد ذهولهم الأول، فلم يلبثوا، بفضل كثرة عددهم، أن كروا على المسلمين وأحاطوا بهم من كل جانب، وتكاثر الناس على زيد بن حارثة فمات شهيدا، فأسرع جعفر إلى رفع اللواء من يدي زيد اللتين ما زالتا تقبضان عليه وهو ميت، وسار على رأس المسلمين كما أمره النبي.

وكان جعفر يمتطي صهوة جواد كريم أشقر، ولكنه حينما رأى خطورة الحال نزل من على مطيته وعقرها خشية أن تقع بموته في أيد المشركين فينتفعوا بها ويقاتلوا عليها المسلمين.

ورفع جعفر الراية الإسلامية، فنشر أجنحتها الكريمة فوق رءوس المؤمنين الذين كروا متحمسين في آثاره، لكن سرعان ما هوى اللواء كما يهوى الصقر الجريح من الجو، إذ قطعت اليد التي كانت تحمله بضربة سيف.

ولم يبال جعفر بآلامه، بل رفع اللواء ثانية بيده اليسرى، فما لبثت إلا قليلا حتى قدت بضربة أخرى، عندئذ مال جعفر إلى الأرض، وقبض على الراية بذراعيه الداميتين، واحتضنها حتى لا تقع، ثم أقبل على العدو غير هياب حتى قتل، وقد اخترقت جسمه تسعون طعنة.

وخلفه عبد الله بن رواحة الذي لم يمكث طويلا حتى قتل، فلما رأى المسلمون الأعداء قد دهموهم من كل صوب، ورأوا موت زعمائهم الثلاثة، تراجعوا وجعلوا ينهزمون، فأوقفهم أرقم بن عامر صائحا. «يقتل الإنسان مقبلا خير من أن يقتل مدبرا»، ثم رفع اللواء ودفعه إلى خالد الذي امتنع أول الأمر قائلا: «أنت أحق به مني إذ كنت ببدر»، لكنه قبل الراية لما رأى من إلحاح الأرقم فأعاد ببسالته وإقدامه الإيمان إلى قلوب المسلمين الذين خجلوا من ضعفهم الطارئ واستطاع خالد، وهو الجندي الباسل والقائد الماهر، أن يخلص بعون الله جيشه من العدو، وأن يعيد التوازن في المعركة بحيث لم يستطع المشركون أن يحرزوا النصر على المسلمين.

ولم تكد شمس اليوم التالي ترسل أشعتها حتى هاجم خالد المشركين ليفاجئهم، ولايمكنهم من استكمال عدتهم بعد فشلهم الأول، ثم لجأ إلى الحيلة ليدخل في روعهم أن عدد رجاله كبير، فجعل مقدمة الجيش ساقة وساقة مقدمة، وميمنته ميسرة وميسرته ميمنة، فظن المشركون أن المسلمين قد أتاهم المدد أثناء الليل، فخافوا واستولى عليهم الرعب، إذ كان كل اعتمادهم على عددهم، ففروا هاربين مشتتين، والمؤمنون من ورائهم يعملون فيهم السيوف، فقتلوهم قتلة لم يقتلها قوم وقد اندقت بيد خالد تسعة سيوف في ذلك اليوم المشهود.

وأطلع الله رسوله على مالاقاه جيشه، فنادى في الناس بالصلاة الجامعة، ثم صعد المنبر وعيناه مغرورقتان وصاح. «أيها الناس، باب خير، باب خير أخبركم عن جيشكم هذا الغازي، إنهم انطلقوا فلقوا العدو، فقتل زيد شهيدا، فاستغفروا له، ثم أخذ الراية جعفر بن أبي طالب، وأثبت قدميه حتى قتل شهيدا ثم أخذ الراية عبدالله بن رواحة، وأثبت قدميه حتى قتل شهيدا، فاستغفروا له، ثم أخذ اللواء خالد بن الوليد، ولم يكن من الأمراء وهو أمر نفسه، ولكنه سيف من سيوف الله فآب بنصره».

وذهب محمد بعد ذلك إلى أسماء بنت عميس زوج جعفر، فمال إلى أطفاله وشجعهم، وذرفت عيناه حتى قطرت لحيته بدمع كالجوهر المتألق، فقالت أسماء: «يا رسول الله، بأبي أنت وأمي، ما يبكيك؟ أبلغك عن جعفر وأصحابه شيء؟» قال: «نعم، أصيبوا هذا اليوم»، فوقعت البائسة، وانهالت على خديها تقطعهما بأظافرها، وصاحت متألمة بائسة، فاجتمع عليها النسوة لما سمعنه من صياحها، وصرخن معها، فملأن البيت بصيحات الحزن واليأس، فأمر الرسول أصحابه بإسكات النساء قائلا ما معناه: إنه يجب عليهن ألا يبكين هكذا على جعفر الذي أثابه الله أحسن الثواب، ثم قال: «فاخلفه اللهم في ذريته بأحسن ما خلفت أحدا من عبادك في ذريته».

وفجأة رفع الرسول رأسه إلى السماء هامسا: «وعليكم السلام ورحمة الله»

فقال الناس: «على من تسلم يا رسول الله؟» قال: «رأيت جعفر بن أبي طالب يطير مع الملائكة في السماء مرفوعا إلى الجنة بجناحين من ياقوت، عوضه الله تعالى بهما عن يديه».

غير أن السهيلي الذي يروي الحديث يضيف «إن الجناحين عبارة عن صفة ملكية وقوة روحانية، أعطيهما جعفر ليقتدر بهما على الطيران، لا أنهما جناحان كجناح الطائر كما يسبق إلى الوهم، ولا يعتبر في ذلك وصفهما بأنهما من ياقوت لكونهما مصبغين بالدم».

وبين حداد المدينة العام، وحزنها الشامل، أمر الرسول بتجهيز طعام لمآتم لأهل الشهداء: لأن من تشبعت نفوسهم بالحزن يشق عليهم التفكير في طهي طعام البطون.

وعندما اقترب الجيش من المدينة، خرج إلى لقائه كل كبير وصغير من أهلها، فأمر النبي الفرسان أن يأخذوا الأطفال بجانبهم على الدواب وحمل هو ابن جعفر، فأقعده أمامه على رحله، وأكد الحقد خبر موت قوادهم، فرأى الناس أن هؤلاء القواد لم ينالوا ثأرهم اللائق، فصاروا يحثون التراب في وجوه الجند، ويسبونهم قائلين: يا فرارون، فررتم من سبيل الله، فأسكت النبي الملأ بقوله: «بل هم الكرارون».

فتح مكة سنة ٧ هـ، ٦٣٠م:

لم يلبث أهل مكة أن نقضوا معاهدة الحديبية، إذ باغتوا ليلا جماعة من مسلمي بني خزاعة في مخيمهم، عند بئر الوتير، فقتلوا منهم عشرين رجلا، وإزاء هذا الاعتداء الأثيم لم يتردد النبي في العزم على مهاجمتهم، وأعد العدة لتسيير الحملة، ولم يشك أهل مكة في أنهم سوف ينالون جزاء غدرهم، فبعثوا بأبي سفيان إلى المدينة نزل عند ابنته أم حبيبة، وهي زوج محمد، وأراد الجلوس على بساط مفروش، فسبقته أم حبيبة إليه فطوته، فقال أبو سفيان غاضبا:

«يابنية ما أدري أرغبت بي على هذا الفراش، أم رغبت به عني؟» فأجابت: «هو فراش رسول الله، وأنت مشرك نجس»، قال: «والله لقد أصابك من بعدي شر».

وفهم أبو سفيان من هذا الاستقبال، أن حبل الرجاء من قبل ابنته قد انقطع، فقام إلى النبي، ولكنه لم يحصل منه على جواب، فتحول يائسا إلى أبي بكر، ثم إلى عمر فعلي، يرجو الواحد منهم بعد الآخر أن يعاونه في تحقيق رغبة أهل مكة، فعاد بالفشل، ويئس كل اليأس، فاعتلى بعيره وقفل راجعا إلى مكة.

وكان قدوم أبي سفيان إلى المدينة عاملا من العوامل التي حثت الرسول على المبادرة بغزو مكة، إذ كشف عن نواياه، فلم يشغله بعد ذلك من شاغل سوى تجهيز حملة لمباغتة مكة قبل أن يحصنها أهلها.

وفي اليوم العاشر من شهر رمضان، استخلف الرسول على المدينة كلثوم الغفاري، وسار إلى مكة في جيش عظيم، انضم إليه في الطريق الكثير من القبائل، فبلغ عدد الرجال عشرة آلاف رجل، وباشر المؤمنون الصيام حتى وصلوا بئر الكديد في وضح النهار، فرأى الرسول أن قد كفى ما كان من امتحان إخلاصهم، وخشي أن يشق العطش والتعب الشديد على جنده فيضعفهم، فدعا بإناء، وأشرف على الناس من فوق ناقته العالية، وشرب جرعة على مشهد من الجند، ليريهم أنه يمكنهم - كما يمكنه - قطع الصيام أثناء السفر، إذ لا يأثموا في فعلهم حرجا، وقد قيل في القرآن «فمن كان منكم مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر» البقرة الآية ١٨٤

ومنذ تلك المرحلة، أخذ الرسول يحث جنده على الإسراع في السير، فوصل إلى مر الظهران على أبواب مكة، قبل أن يعرف القرشيون شيئا عن قوة جند المسلمين، وعن اتجاه سيرهم.

كان العباس عم محمد، قد بقي في مكة، إذ شغلته بها شئونه الخاصة ووظيفة السقاية، ولكنه عندما علم بقدوم المسلمين، خرج في أسرته، فلحق بهم عند الجحفة، وكان العباس صادق الإيمان، لكن ذلك لم يمنعه من التفكير في مصير قومه بمكة، فقلق عليهم وخشي أن يصيبهم شر إن دفع عنادهم محمدا على اقتحام مدينتهم بالقوة.

قال العباس: فجلست على بغلة رسول الله البيضاء، فخرجت عليها حتى

جئت الأراك، فقلت: لعلي أجد بعض الحطابة أو صاحب لبن، أو ذا حاجة يأتي مكة، فيخبرهم بمكان رسول الله ليخرجوا إليه، فيستأمنوه قبل أن يدخلها عنوة، فوالله إني لأسير إذ سمعت كلام أبي سفيان، وبديل بن ورقاء وهما يتراجعان وأبو سفيان يقول: ما رأيت كالليلة نيرانا وعسكرا، وبديل يقول: هذه والله خزاعة، حمشتها الحرب، وأبو سفيان يقول: خزاعة أذل وأقل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها.

فعرفت صوت أبي سفيان فقلت: «يا أبا حنظلة»، فعرف صوتي فقال: «مالك- فداك أبي وأمي- يا أبا الفضل»، فقلت: «والله هذا رسول الله في الناس جاءكم بما لا قبل لكم به»، فقال: «واصباح قريش! والله، فما الحيلة؟ فداك أبي وأمي!»، فقلت: «والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك، فاركب في عجز هذه البغلة، حتى آتي بك رسول الله فأستأمنه لك»، فركب خلفي، ومشى بديل من ورائنا، فجئت به، كلما مررت بنار من نيران المسلمين قالوا: «ومن هذا؟»، فإذا رأوا بغلة رسول الله وأنا عليها قالوا: «عم رسول الله على بغلته»، حتى مررت بنار عمر بن الخطاب فقال: «من هذا؟» وقام إلي فلما رأى أبا سفيان على عجز الدابة قال: «أبو سفيان عدو الله، الحمد لله الذي قد أمكن منك من غير عقد ولا عهد»، ثم خرج يشتد نحو رسول الله، فركضت البغلة فسبقته، فاقتحمت عن البغلة، فدخلت على رسول الله ودخل عليه عمر في إثري فقال: «يا رسول الله هذا أبو سفيان عدو الله، قد أمكن منه من غير عقد ولا عهد، فدعني لأضرب عنقه»، فقلت: «يا رسول الله، إني قد أجرته»، «والله لا يناجيه الليلة رجل دوني»، فلما أكثر عمر في شأنه قلت: «مهلا يا عمر، فوالله لو كان من رجال بني عدي بن كعب ما قلت مثل هذا، ولكنك قد عرفت أنه من رجال بني عبد مناف»، قال: «مهلا يا عباس! فوالله لإسلامك يوم أسلمت كان أحب إلي من إسلام الخطاب لو أسلم»، فقال رسول الله: «اذهب به يا عباس إلى رحلك، فإذا أصبحت فائتني به».

وذهبت به، فلما أصبح غدوت به على رسول الله بعد أن نودي بالصلاة وثاب الناس، ففزع أبو سفيان وقال: «أأمروا في بشيء؟»، قلت: «لا ولكنهم قاموا إلى الصلاة».

ورأى المسلمين يتلقون وضوء رسول الله، ثم رآهم يركعون إذ ركع،

ويسجدون إذ سجد، فقال: «ما رأيت ملكا مثل هذا. لا ملك كسرى! ولا ملك قيصر!»، فلما قضيت الصلاة، قلت: «أدخل عليه كلمه، وتكلمه في قومه، هل عنده من عفو عنهم».

فلما دخل أبو سفيان على رسول الله قال رسول الله: «ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله»، قال: «بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك، وأوصلك، والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى على شيئا بعد»، قال: «ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله؟»، قال: «بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك، وأوصلك، أما هذه والله في النفس حتى الآن منها شيئا، فأرجئها»، فقلت غضبا لأبي سفيان: «ويحك أسلم واشهد أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله قبل أن تضرب عنقك!».

فقال أبو سفيان: «كيف أصنع بالعزى؟» فسمعه عمر من وراء القبة فقال له: «تسلح عليها!» قال «ويحك يا عمر إنك رجل فحش، دعني مع ابن عمي فإياه أكلم»، ثم شهد بشهادة الحق، كذلك فعل صاحبه بديل الذي كان قد لحق بنا، فقلت للنبي: «يا رسول الله إن أبا سفيان يحب الفخر، فاجعل له شيئا».

فقال: «نعم، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن» ثم قال: «احبسه بمضيق الوادي حتى يرى جنود الله تمر»، ففعلت فمرت القبائل كلها من سليم ومزينة ثم غفار ثم كعب فجهينة، فلما مرت أشجع قال أبو سفيان: «هؤلاء كانوا أشد العرب على محمد»، فقلت: «أدخل الله الإسلام قلوبهم فهذا فضل الله»، حتى مر به رسول الله في كتيبته الخضراء، وفيها المهاجرون والأنصار، قال: «ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة والله يا أبا الفضل، لقد أصبح ملك ابن أخيك اليوم عظيما»، فقلت: «يا أبا سفيان إنها النبوة»، ثم قلت له: «النجاة إلى قومك»، حتى إذا أتاهم صرخ بأعلى صوته: «يا معشر قريش، هذا محمد قد جاءكم بما لا قبل لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن»، فقامت إليه زوجته هند وقد غضبت لما رأت من وجوم القوم عند سماع ذلك الحديث، فأخذت

بشاربه لتسكته وصاحت: «اقتلوا الحميت[1] الدسم الأحمس قبح من طليعة قوم».

غير أن أبا سفيان تخلص من مخالب زوجته وقال: «ويحكم لا تغرنكم هذه من أنفسكم، فإنه قد جاءكم بما لا قبل لكم به، ثم قال فخوراً: «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن». فصاح به الملأ من حوله: «قبحك الله، وما تغني دارك عنا». عندئذ أخبرهم بما كان أخفاه عليهم أول الأمر من حذر فقال: «ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن».

دخول الرسول مكة:

وصل الرسول إلى ذي طوى، فوقف دابته وأشرف على مكة التي كان قصارى مناه أن يدخلها دون إراقة دماء عشيرته، فحمد الله القدير الكريم، وطأطأ رأسه حتى مست لحيته مقدم رحله.

ثم عاد إلى جنده فنظمهم وخط لهم الخطة لدخول مكة، فأسند إلى الزبير مهمة الدخول من طريق كداء، وهو بأعلى مكة، وإلى خالد بن الوليد الدخول من أسفل مكة، وإلى أبي عبيدة الدخول من طريق الضواحي الشرقية، أما سعد بن عبادة فقد قر الرأي على أن يدخل من مضيق كدى، ولكنه عندما علم بذلك صاح متحمساً: «اليوم يوم الملحمة تستحل فيه الحرمة»، فأمر محمد علياً بأن يخلفه ويأخذ الراية منه.

ولم يلق الزبير ولا علي ولا أبو عبيدة أدنى مقاومة، فاحتلوا ما كان عليهم احتلاله من مكة دون عناء، أما خالد فلم يكد يصل إلى ضواحي مكة حتى سقط وابل من السهام وقع على جنده فأصاب منهم الكثير، وكانت تلك المكيدة من عمل صفوان بن أمية وعكرمة ... الكمين وراء صخور جبل خندمة، فلم يتردد خالد بل هجم برجاله يريد المكان الذي تحصن فيه الأعداء، فبعث فيهم الرعب، وشتت شملهم، وقتل منهم عدداً كبيراً، وتبع من نجا من الفارين في ... إلى البحر ... فيهم السيف.

ووصل النبي إلى جبل الحجون، فرأى منه لمعان الرماح والسيوف، فدهش وغضب وبعث برجل من الأنصار يستقدم خالداً، فلما جاء خالد عنفه الرسول على أن قاتل وقد نهاه عن ذلك نهياً شديداً.

فأجابه خالد: «هم يا رسول الله بدءونا بالقتال، ورمونا بالنبال، ووضعوا فينا السلاح وقد كففت ما استطعت، ودعوتهم إلى الإسلام فأبوا، حتى لم أجد بداً من أن أقاتلهم فأظفرنا الله عليهم، فهربوا من كل وجه». فقال الرسول حاتماً للحديث ومتأهباً لدخول مكة: «قضى الله أمراً».

وكان الرسول ممتطياً ناقته المفضلة «القصواء»، وقد أركب على عجزها أسامة بن زيد بن حارثة، فركع على رحله وتلا سورة الفتح «إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً وينصرك الله نصراً عزيزاً» سورة الفتح ١-٣.

واعتجر الرسول عمامة سوداء فوق وشاح مخطط بالأحمر على رأسه وترك طرفها يرفل بين كتفيه، ثم يمم راكباً شطر الكعبة ليقضي الطواف، فحيا الحجر الأسود بأن استلمه بطرف محجن، ثم نزل عن راحلته ليغشى البيت، ولكنه تراجع بمجرد الدخول، إذ أبصر الأصنام التي كست به، ووضع أمام لوحة تصور إبراهيم ممسكاً بالأزلام «قاتلهم الله حيث جعلوه شيخاً يستقسم بالأزلام»، وأمر بتمزيق تلك الصورة الآثمة، كما أنه هشم بيده صورة لحمامة منحوتة على الخشب، ثم دخل البيت قائلاً: «الله أكبر».

واتجه إلى الأصنام المحيطة بالحرم، وكان عددها ثلثمائة وستين، فبدأ بالصنم الأكبر صنم هبل، وجعل يضرب في عينيه بمحجنه قائلاً: «جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً»، فخر الصنم لوجهه مهشماً، وجعل الرسول يطوف بالأصنام فيهشمها واحداً واحداً كما هشم هبل، حتى لم يبق قائماً إلا صنم بني خزاعة المصنوع من نحاس وصفر، وكان منصوباً على سطح الحرم، فقال الرسول لعلي: «اجلس» فجلس علي، فصعد رسول الله على منكبيه، ثم قال له: «انهض»، فأحس علي بحمل فوق طاقة البشر -حمل النبوة- يمنعه، رغم حشده لذلك كل قوته، من القيام، فلما رأى النبي ما كان من ضعف على تحمله نزل عنه، ثم جلس بدوره قائلاً له: «اصعد على منكبي واهدم الصنم»، فارتبك علي ووجل، فرفض ولكنه لم يسعه إلا

---

[1] الحميت الزق، نسبته إلى الضخم والدسم والأحمس أيضاً الذي لا خير عنده

الاستلال إزاء إصرار محمد.

قال عليّ: «فلما نهض بي صعدت فوق ظهر الكعبة، وتنحى رسول الله، وخيل إلى حين نهض بي أني لو شئت لنلت أفق السماء، وكان الصنم مؤيدا بأوتاد من حديد، وجعل الرسول يقول: إيه إيه، جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا، فتمكنت من الصنم فقذفته فتكسر».

وعاد الاطمئنان إلى صدور أهل مكة فخرجوا من دورهم ليشاهدوا– وقد صاروا لا ينطقون من الدهشة– هدم آلهتهم العاجزة عن المقاومة، فلما زال كل أثر من آثار الإشراك ولي الرسول وجهه شطر الكعبة قائلا: «لا إله إلا الله وحده، لا شريك له، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده».

ثم التفت إلى أهل مكة وقال: «يا معشر قريش، ما ترون أني فاعل بكم؟» قالوا في قلق: «خيرا، أخ كريم، وابن أخ كريم»، فقال لهم اذهبوا فأنتم الطلقاء.

وقد كانوا أسرى وعبيدا بمقتضى سنن الحرب.

لم يستثن الرسول من ذلك العفو الشامل الكريم إلا أحد عشر رجلا، وست نساء، رأى من سلوكهم ما لا يغتفر، فأمر بإعدامهم حيثما وجدوا، فنفذ ذلك الحكم فورا في أكثرهم، ومن بينهم «الحويرث» الذي أساء معاملة فاطمة بنت الرسول وزوج على عند مغادرتها مكة.

ثم أراد محمد أن يعزز سلطته الجديدة، فعزم أن يعين في الحال صاحبي الوظيفتين العظيمتين بمكة، وهما وظيفتا الحجابة والسقاية، فبعث إلى عثمان ابن طلحة يطلب مفاتيح المسجد، فغضب عثمان، وأغلق الأبواب، ثم أخذ المفاتيح وحملها إلى داره، فما كان من الرسول إلا أن أخذها منه قسرا، وفكر في أن يعطيها عمه العباس، وكان قد أثبته في منصب السقاية، أي أمانة بئر زمزم، فأوحى الله إلى رسوله ألا يفعل، بل يرجع منصب الحجابة إلى صاحبها، فأرسل عليا بالمفاتيح إلى عثمان ليعطيها إياه ويقول له: «يا بن طلحة خذ مفاتيحك والحجابة».

فتأثر عثمان لما رأى من ذلك الكرم الذي لم يكن أهلا له، فقام من ساعته إلى النبي يؤكد له امتنانه وإخلاصه.

وفي هذه الأثناء حـ ء بي الرسول رجلان يبعث منظرهما في القلب العطف والشفقة، كـ ـ قحافة وابنه أبا بكر، وقد ىد ـ ـ المعجور المكفوف تحت حمل سنيه ـــعين، فاتكا على كتف ابنه، فقال الرسول لأبي بكر: «هلا تركت الشيخ في بيته، حتى أكون أنا آتيه فيه» فـ ـر أبو بكر: «هو أحق أن يمشي إليك من ـ مشي إليه أنت»، فأكرم محمد شيخ الأعمى وأجلسه بين يديه، ومسح على صدره، وتقبل مسرورا نبأ إسلامه.

الرسول بالصفا.

ترجه أهل مكة في اليوم التالي إلى الصفا، حيث عاهم الرسول ليأخذ عليهم العهد والميثاق، ولم تكن تبدو عليهم أمارات لمرى التي تبدو عادة، على المنهزمين، فقد اطمأنوا إلى المنتصر حينما سمعوا حديثه وشاهدوا أعماله، ألم يكن قاهرهم من بني جلدتهم؟ ألم يكن مجـ ، مجدا لهم وانتصاره انتصارا لهم وسلطانه سيصبح سلطانا لهم؟ وكان كثيرهم في الحقيقة، رغم عدوانهم لمحمد، يتألم لفراق ذلك المواطن العبقري الذي لقب في شبابه بالأمين، وكان الدى يحنون لذكر شخصيته ذات سحر الغريب وجاذبيته التي لا تقاوم.

وكان أهل مكة، في مكنون سرهم، يتحرقون شوقا إلى اعتناق الإسلام والدخول في غمار تلك الحركة الدينية الحماسية التي أثارها محمد في سائر أنحاء بلاد العرب!! كم تبدو لهم الأصنام الآن حـ ـدرة بعد أن تهشمت وصارت بقاياها تزيد من ضخامة أكوام القمامات المـ ـ خارج مكة.

ووصل الصفا أول ما وصل هؤلاء بعينهم الذين استغلوا فيما مضى حرفات المشركين وعبادتهم للأصنام، حجرية كـ ـ أم خشبية، فقد أرادوا بأسر عنهم ذلك إسدال سـ ـر النسيان على حياتهم ـ لمة، حيث كانوا دعاة ذلك الدين الجاهلي ـــه، وبالرغم مما فرضه محمد على المسلمين من تساو في الخضوع، فقد كـ ـو يفتخرون، سرا، بالانتساب إلى أسر من كانوا في الماضي محل سخريتهم.

أما النبي فلسنا نستطيع تصوير الطرب السامي الذي استولى على نفسه

المثالية، حينما رأى أهله قادمين إليه من كل صوب وقد تفتحت أعينهم للنور، وملأ قلوبهم الندم، بعد أن كانوا للإسلام وللنبي أعداء، وكان محمد يحبهم ويعطف عليهم رغم كل شيء، وجلس عمر أسفل مجلس النبي وتلقى استسلام أهل مكة الذين أقبلوا عليه، الواحد تلو الواحد، فشدوا جميعا على يده، معاهدهم باسم الرسول أن يحميهم من كل اعتداء، فلما انتهى ذلك المشهد الرائع، دار على سفح الجبل مشهد آخر أشد روعة وجمالا، وأكثر هيبة وجلالا: فقد تهدم إلى الأبد سور الأصنام الذي فرق، طوال عشرين سنة، بين القرشيين المهاجرين والقرشيين الذين بقوا بمكة، فتعانق هؤلاء وأولئك الإخوة، الذين كانوا بالأمس أعداء- متحابين متحدين في سبيل الله، وانضم إلى الفريقين فريق ثالث، هو فريق الأنصار من أهل المدينة، تلك المدينة التي كانت فيما مضى منافسة لمكة، فتآخت المدينتان، واتحدتا تحت اسم «الحرمين» المجيد.

ولم يشوه جمال تلك المظاهرة المشهورة، التي تحقق بها ما كان يسعى إليه الرسول من أحلام وآمال سعيا حثيثا، إلا أن بني خزاعة لقوا أحد قاتلي إخوتهم فذبحوه، فاستقدمهم الرسول ولامهم لوما شديدا، ثم أضاف: «يا أيها الناس إن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض، فهي حرام من حرام إلى يوم القيامة، فلايحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دما، ولا يعضد فيها شجرا، لم تحل لأحد كان قبلي، ولا تحل لأحد يكون بعدي، يا معشر خزاعة، ارفعوا أيديكم عن القتل، فقد كثر القتل»، ثم ودى رسول الله ذلك الرجل الذي قتلته خزاعة، وعفا الرسول عمن لم يقتلوا ممن حكم عليهم بالإعدام.

واسترعى نظر محمد، من بين نساء مكة، اللاتي أتين لتأكيد إخلاصهن، امرأة تستتر وراء صواحبها، فعرف فيها رغم تنكرها هند الشرسة زوج أبي سفيان، فصاحت رامية بقناعها: «نعم إني هند، فاعف عني عفا الله عنك!»، فعفا الرسول عنها، رغم ما كان منها يوم أحد من تشويه جثة عمه حمزة، فلما رجعت هند إلى بيتها بعد أن أسلمت، عمدت إلى الصنم الخاص بمنزلها، وجعلت تسبه قائلة: «كنا منك في غرور» ثم انهالت عليه ضربا فهدمته.

وكان عكرمة بن أبي جهل مدبر مكيدة الخندمة لخالد بن الوليد، قد فر

إلى البحر فأتت زوجه أم حكيم الرسول تستأمن له فأمنه، فلحقت به وقد أوشك على الإبحار فأرجعته إلى مكة، وخشي الرسول أن يثأر المسلمون من عكرمة عندما يتذكرون ما نال فتيتهم من عسف وعنت بسبب أبي جهل فقال: «يأتيكم عكرمة مؤمنا لا تسبوه ولا تسبوا أباه، فإن سب الميت يؤذي الحي ولا يلحق الميت».

فتأثر عكرمة من رحابة صدر الرسول وحلمه فصار من جند الله المخلصين المتحمسين.

وقد عفا الرسول كذلك عن وحشي قاتل حمزة بعد أن اعتنق الإسلام، وكان هبار قد تسبب في قتل زينب بنت الرسول بضربة من كعب رمحه، وفر خشية العقاب المستحق، لكنه أسلم وأخلص لدينه، فأتى الرسول مستسلما معتمدا على واسع حلمه، فقال له رسول الله: «يا هبار عفوت عنك وأحسن الله إليك حيث هداك إلى الإسلام، ولكن اذهب ولا ترني وجهك».

وأفاد كذلك من حلم الرسول صفوان، ثاني مدبر مكيدة الخندمة، إذ سأله شهرين للخيار فقال له الرسول: «أنت بالخيار أربعة أشهر».

وكان ابن أبي سرح الوحيد الذي عز المشقة في سبيل الحصول على عفو الرسول الذي غضب عليه غضبا شديدا لارتداده عن الإسلام، وكان ابن أبي سرح عليما بالفروسية والخط، وكان يكتب لرسول الله الوحي فبلغت به الجرأة أن غير من ألفاظ القرآن، وشوه معاني السور، ليسخر من كلام الله، لكن أمره افتضح فهرب إلى مكة، ورجع إلى عبادة الأصنام، فلما فتحت مكة استجار ابن أبي سرح بأخيه من الرضاع عثمان بن عفان، فأجاره وخبأه زمنا، ثم أتى به النبي ليستأمنه، لكن سعيه ذهب هباء، إذ كان الرسول يعرض عنه كلما توسل إليه، وأخيرا لم يجد الرسول سبيلا إلى التخلص من إلحاح عثمان إلا بالعفو، فلما خرج المذنب قال لأصحابه: «أعرضت عنه مرارا ليقوم إليه بعضكم فيضرب عنقه»، قالوا: أفلا أومأت إلينا فقتلناه؟ فأجابهم: «الإيماء خيانة، ليس لنبي أن يومئ».

من هذه الأمثال نستطيع أن نعرف مدى ميل الرسول إلى جذب قومه إليه باللين والإقناع، دون الخروج عن الحزم والشدة بالنسبة إلى ما يتصل

بالإشراك والمشركين، فحصل بالحلم على ما لم يكن ليحصل عليه بالطغيان وسفك الدماء، لقد جذب محمد إليه كل القلوب، فأسرعت نحوه مستسلمة جميع القبائل المجاورة ما عدا قبيلتي ثقيف وهوازن، ومنذ ذلك اليوم لا يحق لإنسان غادر مكة إلى المدينة أن يدعي لقب «مهاجر» إذ أصبح الإسلام وقد دعمت قواعده في مكة والمدينة على حد سواء.

غزوة حنين ٦ شوال سنة ٨هـ ٢٨ يناير سنة ٦٣٠م:

اعتمد الثقفيون والهوازنيون على مناعة مدينتهم: الطائف، وكانوا على ثقة من أنها كفيلة بحمايتهم في حالة الهزيمة، فرفضوا الخضوع للرسول، بل أعدوا العدة لقتاله، فاجتمعوا بوادي أوطاس برئاسة البطلين الشهيرين مالك بن عوف ودريد بن الصمة.

وعلم محمد بما يبيتون له من شر، فبعث بابن أبي الحدرد مستطلعا، فلما وافاه بالمعلومات الدقيقة، عزم على القيام إليهم، وانضم إلى جيش النبي، وكان عدد رجاله عشرة آلاف، ما يربو على الألفين من أهل مكة الذين أسلموا بعد الفتح، فدفعتهم حميتهم إلى إظهار شجاعتهم وإخلاصهم، فزاد ذلك في عظمة جيش المؤمنين، حتى كان من روعته وقوته حينما مر بالصحراء أن ارتفع صوت من رجل يقال إنه من بني بكر هاتفا: «لن نغلب اليوم من قلة».

وقد غضب الرسول إذ سمع ذلك القول الغرير، ولام قائله أشد اللوم، لأن الغرور يوهن العزيمة وينسى الإنسان أن النصر إنما يأتي من لدن الله.

ومر الجند بواد، فبصروا بسدرة خضراء شامخة منعزلة يحيطها المشركون بعبادة خرافية، فينحرون في ظلها الضحايا، ويعلقون بها أسلحتهم، اعتقادا منهم أن لمس الشجرة يمنحهم قوة لا تقاوم، وكانت عقول بعض المسلمين لم تطهر بعد من آثار خرافاتهم القديمة، فرغبوا في أن تكون لهم أيضا شجرة ذات أنواط، ورفعوا إلى الرسول طلبهم، فغضب أشد الغضب، وقال لهم «الله أكبر، قلتم والذي نفس محمد بيده كما قال قوم موسى: أجعل لنا إلها كما لهم آلهة.

إنكم قوم تجهلون، إنها السنن، لتركبن سنن من كان قبلكم.

قال جابر بن عبد الله: «لما استقبلنا وادي حنين، انحدرنا في واد من أودية تهامة أجوف ذي خطوط، كنما ننحدر منه إنحدارا، وكان في عماية الصبح، فخرج علينا القوم، وكانوا كمنوا لنا في شعاب الوادي ومضايقه، وذلك بإشارة دريد بن الصمة، فحملوا علينا حملة رجل واحد، وكانوا رماة، فاستقبلونا بالنبل كأنه جراد منتشر، لا يكاد يسقط لهم سهم، فمر الناس راجعين لا يلوي أحد على أحد، فرجعنا باب المضيق، وقد سده رجل من هوازن على جمل له أحمر، بيده راية سوداء، في رأس رمح له طويل، أمام هوازن وهوازن خلفه، إذ أدرك طعن برمحه، وإذا فاته الناس، رفع رمحه لمن وراءه فاتبعوه.

وعندئذ بدت الهزيمة أقرب من حبل الوريد، وسارع بعض مرافقي الرسول من أعدائه القدامى الذين ما زالوا يحقدون عليه إلى الفرح والابتهاج بحالة المسلمين الخطرة، وصاح أبو سفيان مستقسما بالأزلام التي حملها معه في جعبته: «لا تنتهي هزيمتهم دون البحر»، وقال كلدة بن الحنبل أيضا: «ألا بطل السحر اليوم!»، ولكن صفوان أخاه، ولم يكن أسلم بعد، أسكته بقوله: «اسكت، فض الله فاك، فوالله لئن يربني رجل من قريش أحب إلي من أن يربني رجل من أعراب هوازن».

وبقي الرسول وحده محافظا على اتزانه وسط الفوضى الشاملة، فانحاز في نفر قليل من أصحابه ذات اليمين، وأقام على ربوة صغيرة قائلا: «أنا رسول الله، أنا محمد بن عبد الله، أنا عبد الله ورسوله»، واستحث بغلته راميا بنفسه في حومة القتال، فمنعه أبو بكر وأمسك بخطام البغلة فوقفها، وعندئذ حاول الرسول رد المهاجرين والأنصار إلى القتال، فأمر العباس أن يصيح فيهم: «يا معشر المهاجرين والأنصار، يا معشر أصحاب البيعة تحت الشجرة»، وأطاع العباس، فلما دوى صوته القوي من قمة الربوة حاملا إلى الهاربين نداء الرسول أصابهم حزن عظيم، فثابوا إلى رشدهم وأجابوا: «لبيك، لبيك»، لكن كيف السبيل إلى وقف مثل ذلك السيل الجارف من الدواب الهاربة المتزاحمين بين جانبي المضيق الرأسيين؟ .

لم يأل المؤمنون جهدا في سبيل وقف إبلهم، ولكن عبثا إذ لم تكن الإبل، بل سارت تخب في نفس الاتجاه، وعندئذ أخذ جند الله ترسهم، وعلقوها في أعناقهم، ونزلوا عن إبلهم اللاتي تابعت سيرها، واستلوا سيوفهم، وعادوا إلى القتال من جديد.

وانتصب الرسول على ركابه فرأى ما قرت له عينه، رأى نصر الموقف، ورأى الجند العرمرم يتواثبون إلى حومة الوغى، فصاح: «الآن حمى الوطيس».

وعزم علي، ويصحبه رجل من الأنصار على أن يمضي على ذلك الأعرابي الهوازني، الذي كان يرفع، مختالا، رمحه الطويلة براية سوداء، فأتاه وضرب عرقوبي جمله بسيفه فقطعهما، ووثب الأنصاري على المشرك فضربه ضربة أتت على قدمه بنصف ساقه، فاختلف عن رحله ووقع على الأرض فقضي عليه.

ورأى المشركون هجوم المسلمين المفاجئ، بعد أن ظنوا أنهم قد سحقوهم فنال الرعب منهم منالا عظيما، وهربوا بدورهم مشتتين، وأمر محمد بغلته بالتلبود فلبدت حتى مس بطنها الأرض، وقبض قبضة من التراب، ورمى بها كما رمى يوم بدر في وجه المشركين، فانقلب فرارهم إلى هزيمة منكرة، وكان ذلك التراب قد أعماهم، فتفرق الجند كما تفرقت تلك الذرات المتناهية الصغر.

«لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنودا لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين» سورة التوبة ٢٤ - ٢٥.

وسار المؤمنون في آثار مالك وفلول جيشه معملين فيهم السيوف، فاعتصموا بمدينتهم المحصنة: الطائف، ولم يكن حظ دريد لقائد الثاني للمشركين مثل حظ زميله مالك، فلم ينج مثله، وكان دريد كفيفا عجوزا، يربو عمره على التسعين، لا يقدر على توجيه بعيره، وقد فر من حواليه قومه المذعورون، فوقع الرجل بين يدي غلام يدعى ربيعة بن رفيع، فظن هذا الأخير- عندما رأى الهودج الذي يحمل البطل المقعد الشهير- أنه قد ظفر بجارية، فأناخ الدابة وأزاح أستار الهودج، فإذا أمام عينيه الجاحظتين من الدهشة شيخ كبير، فغضب فضربه بسيفه فلم يغن شيئا، فقال دريد ساخرا: «بئس ما سلحتك أمك، خذ سيفي هذا من مؤخرة الرحل ثم اضرب به وارفع عن العظام واخفض عن الدماغ، فإني كذلك كنت أضرب الرجال» فجرى ربيعة من فشله الأول، فضرب البطل فألقاه على الأرض مقطوع الرأس.

وفي حمية النصر تابع الرسول الهاربين حتى جدران الطائف، وحاول الاستيلاء عليها، ولكنه بعد حصار غير مجد دام عشرين يوما، رأى أن يدع فكرة الهجوم ليستعمل أساليب أخرى قد تكون أبطأ، ولكنها أكيدة الأثر، لذا فإنه بدلا من أن يدعو على أهل الطائف بالغضب الإلهي دعا لهم ربه قائلا: «اللهم اهد ثقيفا وائت بها»، وقفل راجعا إلى مكة رغم ما أظهره الجند من استياء، فأقام بالجعرانة حيث جمعت السبايا والغنائم للتقسيم، وعند ما وصل محمد الجعرانة لاحظ من بين السبايا واحدة، وهي شيماء من قبيلة بني سعد- بطن من بطون هوازن- تدفع عن نفسها الجند الذين يسيئون معاملتها، فصاحت به إذ مر بها: «يا رسول الله إني أختك في الرضاعة»، فقال: «وما علامة ذلك؟»، قالت: «عضة عضضتنيها وأنا متوركتك»، فعرف الرسول العلامة فتأثر وبكى وبسط لها رداءه، فأجلسها عليه وخيرها قائلا: «إن أحببت فعندي محببة مكرمة، وإن أحببت أن أمتعك وترجعي إلى قومك»، فقالت: «بل تمتعني وتردني إلى قومي»، فمتعها رسول الله وردها إلى قومها.

وفي الجعرانة أقبل وفد من هوازن، فقال عنهم شيخهم أبو صرد من بني سعد: «يا رسول الله إنما في الحظائر عماتك وخالاتك وحواضنك اللاتي كن يكفلنك، ولو أنا ملحنا «أرضعنا» للحارث بن أبي شمر أو للنعمان بن المنذر ثم نزل منا بمثل الذي نزلت به، رجونا عطفه وعائدته علينا، وأنت خير المكفولين»، فسألهم الرسول وهو يخفي تأثره وحنينه: «أبناؤكم أحب إليكم أم

أموالكم؟»، قالوا: «يا رسول الله ما كنا نعدل بالأحساب شيئا، فرد علينا نساءنا وأبناءنا فهي أحب إلينا»، فقال الرسول بصوت مرتفع: «أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم»، ولم يكد يقول ذلك حتى صاح المهاجرون والأنصار: «وما كان لنا فهو لرسول الله»، وهكذا رد جميع الأسرى -وكان عددهم يربو على ستة آلاف- إلى وفد هوازن.

ولم يستثن من ذلك إلا أسرة مالك بن عوف، غير أن محمدا أوصى من حولهم بأن يبلغوا مالكا قوله: «...إنه إن أتاني مسلما رددت إليه أهله وماله، وأعطيته مائة من الإبل».

وقبل مالك ذلك، فخرج مستخفيا من الطائف، ثم أسلم فحسن إسلامه حتى استعمله الرسول على من أسلم من هوازن، وكان ذلك أصدق الطرق للقضاء على مقاومة أهل الطائف، إذ أن مالكا -ذلك القائد المجرب المعتز بمنصبه الجديد- شنها شعواء على الثقفيين بفضل جيش متحمس للدين، فكان لا يقدر على سرح إلا اغتنمه، ولا قافلة إلا أخذها، فأجاعهم بين جدران مدينتهم، وأجبرهم على القيام بدورهم إلى الرسول مستعطفين مسلمين.

وكانت المغانم كثيرة: أربعة وعشرين ألفا من الإبل، وأربعين ألفا من رءوس الغنم فعزم محمد على إرجاء التقسيم إلى يوم آخر، بعد أن عانى ما عانى من التعب من جراء مشاكل الأسرى، فامتطى ناقته متأهبا للرحيل، إلا أن جنده كانوا لا يستطيعون صبرا، فتتبعوه بالإلحاح والمضايقة، حتى ألجئوه إلى شجرة، فاختطفوا عنه رداءه فقال: «ردوا علي ردائي أيها الناس، فوالله لو كان لكم بعدد شجر تهامة نعما لقسمته عليكم، ثم ما ألفيتموني بخيلا ولا جبانا ولا كذابا»، ثم قام إلى جنب بعير فأخذ وبرة من سنامه فجعلها بين إصبعيه ثم رفعها ثم قال: «أيها الناس، والله ما لي من فيئكم ولا هذه الوبرة إلا الخمس، والخمس مردود عليكم فأدوا الخياط والمخيط، فمن أخذ شيئا في غير عدل ولو كان إبرة كان على أهله عارا ونارا وشنارا يوم القيامة»، ثم بدأ في تقسيم الغنائم.

وقد عنى الرسول بأن يستميل أعيان مكة تهالكيا إليه ببذل العطايا، فسموا بالمؤلفة قلوبهم، فحصل كل من أبي سفيان وابنه معاوية، وحكيم بن حزام، ونصير بن حارث، وسهيل وعكرمة، وعيينة والأقرع وصفوان على هدية هي خمسون من الإبل، ولكن ذلك أثار غبط بعض الناس، فأظهر ابن مرداس عدم رضاه في قصيدته التي منها:

فأصبح نهبي ونهب العبيـ ـد بين عيينة والأقرع

وما كان حصن ولا حابس يفوقان شيخي في المجمع

فاستقدمه الرسول وقال له: «أنت القائل:

فأصبح نهبي ونهب العبيد بين والأقرع وعيينة».

مبدلا للفظين الأخيرين، غير دار أن ذلك يكسر وزن البيت، وقد قال الله تعالى في كتابه: «وما علمناه الشعر»، فرد أبو بكر مصححا: «بين عيينة والأقرع»، فقال الرسول: «هما واحد»، ثم أمره أن يرضي الشاعر، فيقطع لسانه بالمنح والهبة.

وأتى رسول الله أعرابي من تميم، يدعى ذا الخويصرة، فبلغت به الجرأة أن قال له «لم أرك عدلت»، فغضب رسول الله ثم قال: «ويحك، إذا لم يكن العدل عندي فعند من يكون؟».

فهب عمر صائحا: «يا رسول الله ألا أقتله؟»، فقال محمد بكل بساطة: «لا، دعه»، وقد لجأ الرسول إلى حيل عديدة في سبيل تهدئة الخواطر، وتجنب التحاسد بين أتباعه، وبالرغم من ذلك فقد نفدت الغنائم أو كادت، ولم يبد من الرسول ما يدل على تذكره الأنصار المخلصين، وكان هؤلاء بطبيعة الحال لا يشكون في أنهم سيكونون أول الظافرين، لذا نظروا بأعين يزداد فيها العجب إلى ما يناله القرشيون والأعراب من المغانم دون أن يكون لأنفسهم منها شيء.

وأخيرا لم يبق شيء، فتبادلوا النظرات المريرة، وقالوا: «لقي والله رسول الله قومه»، فسمع ذلك سعد بن عبادة، فنقله إلى الرسول فقال له: «فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة».

فلما اجتمعوا قام إليهم الرسول، وخاطبهم قائلا: «يامعشر الأنصار مقالة

بلغتني عنكم وجدة وجدتموها علي في أنفسكم، ألم آتكم ضلالاً فهداكم الله، وعالة فأغناكم الله، وأعداء فألف الله بين قلوبكم؟»، قالوا بصوت واحد: «بلى، الله ورسوله أمن وأفضل»، قال: «أما والله لو شئتم لقلتم ولصدقتم: أتيتنا مكذباً فصدقناك، ومخذولاً فنصرناك، وطريداً فآويناك، وعائلاً فآسيناك».

فضجت الجماعة محتجة: «لله ولرسوله المن والفضل علينا»، فقال: «أوجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم في لعاعة من الدنيا تألفت بها قوماً ليسلموا ووكلتم إلى إسلامكم، ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله إلى رحالكم؟ فوالذي نفسي بيده، لولا الهجرة لكنت امرأً من الأنصار، ولو سلك الناس شعباً، وسلكت الأنصار شعباً، لسلكت شعب الأنصار، اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار».

ولم يستطع الرسول أن يكتم انفعاله الشديد وهو يلقي تلك الكلمات التي أثارت عواطف القوم، فدمعت عيونهم بدموع الرضا والامتنان حتى اخضلت لحاهم، وقالوا بصوت يقطعه النشيج: «رضينا برسول الله قسماً وحظاً».

الفصل الثامن

وأتموا الحج والعمرة لله

خبر الإفك.

قالت عائشة: «ولما فرغ رسول الله من غزوة بني المصطلق، توجه قافلاً حتى إذا كان قريباً من المدينة نزل منزلاً فبات فيه بعض الليل، ثم أذن في الناس بالرحيل، فارتحل الناس وخرجت لبعض حاجتي، وجاء القوم خلافي: الذين كانوا يرحلون لي البعير، وقد فرغوا من رحلته، فأخذوا الهودج وهم يظنون أني فيه كما كنت أصنع، واحتملوه فشدوه على البعير، ولم يشكوا أني فيه، ثم أخذوا برأس البعير فانطلقوا به، فرجعت إلى المعسكر وما فيه من داع ولا مجيب، قد انطلق الناس، فالتففت في جلبابي، ثم اضطجعت في مكاني، وعرفت أن لو افتقدت لرجع القوم إلي فوالله إني لمضطجعة، إذ مر بي صفوان بن المعطل السلمي، وقد كان تخلف عن المعسكر لبعض حاجته، فلم يبت مع الناس، فرأى سوادي، فأقبل حتى وقف علي، وقد كان يراني قبل أن يضرب علينا الحجاب، فلما رآني قال: «إنا لله وإنا إليه راجعون»، فقمت ثم قرب البعير، واستأخر حتى فركبت، وأخذ برأس البعير، فانطلق سريعاً يطلب الناس حتى لحقنا برسول الله».

واتخذ أهل النفاق من ذلك الحادث مطية لإفكهم وقالوا في عائشة ما قالوا، وأحس محمد بالشك يغزو قلبه، فابتعد عن عائشة رغم احتجاجها وتأكيدها براءتها ورغم تألم صهره أبي بكر لذلك.

ثم أخيراً نزل الوحي على النبي، فجاء بلسماً شافياً لشكوكه، ودواء ناجعاً قاطعاً للظنون، إذ استنكر فيه الله تعالى الإفك وكذب أهله.

ولادة إبراهيم وموته:

في السنة الثامنة للهجرة، وضعت مريم المصرية القبطية ولداً، ففرح الرسول فرحاً عظيماً، لأنه رأى فيه عوضاً عما فقده بموت أبنائه الذكور من خديجة، فوهب جارية لأبي رافع الذي بشره بالمولود، ثم أعلن أن مولد

الطفل من شأنه تحرير الأم.

وحلق شعر المولود في اليوم السابع، ثم نحر الرسول جملين، وتصدق على الفقراء، وجاءت المرضعات يتنافسن، كل تبغي شرف إرضاع ابن رسول الله، الذي سمي بإبراهيم فدفعه الرسول امرأة البراء بن أوس، ووهبها لذلك حديقة نخيل.

فخرجت المرضعة بالوليد إلى بيت، فكان الرسول كثيرا ما ينطلق إليها، ويدخل البيت، فيأخذ ابنه بين يديه. فلا يشبع من تقبيله وشمه، وازداد حبه لمريم القبطية، فاغتاظت منها.

وبات محمد مع مريم ليلة كانت لحفصة بنت عمر، فغضبت حفصة، وراجعته أشد المراجعة، حتى وعدها ألا يقرب مريم بعد ذلك أبدا على أن تكتم حفصة له السر، فأبت عطرسة حفصة الا أن تفشي الأمر وأن تفضي بالقصة إلى عائشة التي غضبت بدورها غضبا شديدا وأثارت غيظ الزوجات الأخر وحقدهن على مريم.

وأضحى البيت يضج بالصياح والمشاحنات والمراجعة، حتى ضاق الرسول بهذا فكف عن مجاملة نسائه، وأبى أن يكون لهن عليه الأمر، فطلق حفصة بعد أن لامها على فعلها أشد اللوم، ثم أخذ على نفسه ألا يقرب زوجاته شهرا.

وتمادت النساء بعض الشيء في المراجعة فيما بينهن كل واحدة تتهم الأخريات بأنهن كن السبب في هجر الرسول لهن، ثم تعاهدن جميعا على أن لا يعدن بعد ذلك إلى مضايقة النبي.

ولكن محمدا أصر على عهده الذي اتخذه، فاعتزل في مشربة له يرقى إليها بسلم من جذوع النخيل، ينام فيها على حصير تنطبع آثارها في جسده، وعلى رأس السلم غلام له أسود يأتيه بالطعام ويحرس المشربة التي أوصد بابها دون كبار الصحابة، وأخيرا، وفي اليوم التاسع والعشرين، فكر الرسول في حزن عمر وأبي بكر لذلة ابنتيهما حفصة وعائشة، فاستردهما، كما استرد جميع زوجاته بعد أن تلا عليهم الآية: «وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير. عسى ربه إن

طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ثيبات وأبكارا» سورة التحريم الآية ٤، ٥.

غير أن الأفراح والآمال التي جاءت بمجيء إبراهيم لم تدم طويلا، فقد فارق الطفل الحياة، في رجب سنة ٩هـ، وسنه لا تربو على سبعة عشر شهرا أمام عيني أبيه اللتين فاضتا بالدموع الغزيرة.

ورأى عبد الرحمن بن عوف تلك الدموع وتذكر منع الرسول الصياح على المحبوب ولطم الخدود في حالة الحداد فقال: «أولم تكن نهيت عن البكاء؟»، قال: «البكاء من الرحمة والصراخ من الشيطان»، وهطلت دموعه غزيرة فقال: «تدمع العين ويحزن القلب، ولا نقول ما يسخط الرب، ولولا أنه وعد صادق، وموعد جامع، فإن الآخر منا يتبع الأول، لوجدنا عليك يا إبراهيم وجدا شديدا ما وجدناه، إنا لله وإنا إليه راجعون».

وغسلت زهيرة أم المرضع، الجسم الصغير، وحمله الفضل بن العباس، وأسامة بن زيد حتى مقبرة البقيع، وأنزلاه في القبر، فلما وارت الأرض ابنه الذي عقد عليه كل تلك الآمال، وقف الرسول على القبر الصغير وصلى عليه، وقال: «يا بني قل: الله ربي، والإسلام ديني، ورسول الله أبي».

وانتفض الناس لذلك المنظر باكين متألمين، وفجأة علت الوجوه صبغة باهتة، كما كست، في آن واحد، أديم الأرض ورمال الصحراء، ووجوه الصخور، واحتجبت السماء اللازوردية بحجاب رصاصي وبهتت الشمس، وتضاءل ضوؤها قليلا قليلا، على أنه لم تحجبها أدنى غمامة، واعترت الطبيعة كلها رعدة خفيفة تلجئه، كرعدة الحمى، فسرع الطير إلى أوكاره الليلية يحتمي بها صائحا جزعا، ثم انطفأت الأشعة الأخيرة التي لا تزال تضيء المكان بنور باهت مخيف، فأسدلت الظلمة ثوبها على الأرض في وضح النهار يتيه بلألأت نجوم مرتجفة في كبد السماء.

وارتاع القوم واضطربوا، وتشتت شمل الناس، فلم يدر أحد أي مذهب يسلك، في انتظار وقوع ذلك الانقلاب الطبيعي وموت إبراهيم، صاح: «يا رسول الله! إن عين الشمس قد غشيتها الدموع فاحتجبت تشاركك حزنك»، فاعتدل الرسول قائما منتصبا على آلامه ليعلن بصوت ثابت لا يتململ: «إن

الشمس والقمر آيتان من آيات الله، يخوف الله بهما عباده، فلا ينكسفان لموت أحد من عباده، ولا لحياته».

غزوة تبوك سنة ٨هـ، ٦٣٠م:

، حرب روم الناصرية وعرب الشام بسالة جند الله في موقعة مؤتة فخابوا وخسروا، فحقدوا على الإسلام الآخذ في التوسع، واشتغلوا بجمع جيش هائل، ليرقعوا بجند الله الصرية الساحقة.

وعلم الرسول بالخبر، فعزم على سبقهم ليكون له الهجوم، ولم يكن ليوحي بليه بتلك المخاطرة إلا إيمانه الراسخ في الحماية الإلهية، فكم كان عليه أن يجمع من آلاف الجنود، كي لا يجرى إلى هزيمة لا تعوض؟ لم يكن الوقع مناسبا لقيام الحملة، إذ عم الجفاف وطالت مدته، فذبل النبات، وقل الحب، ونقص نتاج الأنعام نقصا كبيرا، وعمت المجاعة، فت ذلك في عضد الناس وهمتهم، وزاد الطين بلة لظى الشمس في النصف الثاني من السنة، ولم يكن هناك بعد ذلك ما يبشر بمحصول وافر إلا ما يجنى من لذيذ ثمار الواحة التي ترويها آبار لا تنفد مياهها.

وفي تلك الآونة، التي تطلع فيها المؤمنون إلى استجلاء النعمة الوحيدة التي وهبتها لهم تلك السنة المملوءة بالأحزان، أمر الرسول بإعداد العدة للرحيل، فسرى في قلوب الناس استياء صامت استغله المنافقون المخبرون بإذاعة الأقاويل الغادرة: «أتحسبون جلاد بني الأصفر(أحفاد إسحق الأصفر[1]) كقتال العرب بعضهم بعضا، والله لكأنكم غدا وصولكم أمام العدو المدرع، قد أنهككم جهد الحال والحر والبلد البعيد».

وتأثر المترددون بتلك الحجج التي لم يكن أحد ليناقش في سلامة منطقها لو أنها كانت تتعلق بحرب غير تلك التي يعدها المسلمون في سبيل الله، أما دوو الإيمان الراسخ، فقد ظهرت لهم جليا الصعاب الهائلة التي يلاقونها بسبب نقص الزاد، وقلة عدد الإبل، فقد نفق الكثير منها جوعا، وهزل

( ) قال السهيلي: يقال إن الروم قيل لهم: بنو الأصفر لأن عيصو بن إسحاق كان به صفرة، وهو جدهم

الدفي، وكانت الحروب كلها غير مو... الرحيل، بيد أن المصطفى لم يكن
يأبه بالعوائق، بل لم يكن في سبيل ... يعترف بها، وحتمع جمع من
المنافقين في بيت سويلم اليهودي لـ... ، فبعث الرسول إليهم بطلحة بن
عبيد الله ليحرق دارهم:

«وقالوا لا تنفروا في الحر قل ن... ـهم أشد حرا لو كانوا يفقهون
فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا جز... كانوا يكسبون » سورة التوبة:
٨١، ٨٢.

وعمل الرسول جهد طاقته على ... أتباعه سمو الغاية المنشودة آخذ كل
شخص بميوله وآماله الذاتية، ليثير ... الهمام العام، فقوى عند أناس الأمل
الخاص في سعادة الآخرة، التي تنمو ... ـهم المشبعة بالمثل العليا، ولم يقطع
عند الآخرين الأمل في المكافآت ال... الغنائم واللذات الدنيوية.

وكان الجد بن قيس من ذوي الإ... ـب الشديد بالنساء، فقال للنبي: «أو
تأذن لي ولا تفتني، فوالله لقد عر... قومي أنه ما من رجل أشد إعجابا
بالنساء مني، وإني أخشى إن رأيت ... نساء الأصفر أن لا أصبر». فأعرض
عنه الرسول، ولم يجبه، فعد الجد ... الإعراض وعيا من الرسول بعض
العين، فلم يستطع كتمان فرحه، رغم ... ... ابنه الذي لامه على ذلك، فرماه
الجد بنعاله في وجهه.

هب المؤمنون من رقدتهم، ودبت ... ـهم حماسة، وبرقدت حميتهم، بفضل
نشاط زعيمهم المتواصل، وغدت ال... ـب والتضحيات تزيد من حماستهم
وتقوى من روحهم المعنوية، بدلا أن ... ... من عزمهم، وتقلل من همتهم، أما
الفقراء المقعدون، الذين لم يستطيـ... الالتحاق بالمقاتلين، فقد حزنوا حزنا
شديدا حتى سموا بالبكائين رغم ع... ... عنهم، إذ أنزل على رسوله قوله:
«ليس على الضعفاء ولا على المر... ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون
حرج إذا نصحوا لله ورسوله ما على المحسنين من سبيل والله غفور رحيم
(٩١) ولا على الذين إذا ما أتوك لتحـ... ـم قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولوا
وأعينهم تفيض من الدمع حزنا ألا ... ما ينفقون» سورة التوبة ٩١، ٩٢.

... الرسول لحزن هؤلاء ويأسـ... ... في المسلمين، يستحث كرمهم
و... ... حميتهم، فتنافسوا تنافسا عظـ... في الاستجابة إليه في الحال بالوفير

من المال، ووضع أبو بكر جميع ثروته رهن تصرف الرسول، وزود عثمان بن عفان عشرة آلاف جندي بالسلاح والزاد، وتبارى الناس في الكرم، حتى تجردت النساء من حليها تبرعا بها لجند الله.

أخيرا كون جيش الحملة، فإذا عدد رجاله يتراوح بين الثلاثين والأربعين ألفا، ولم تكن جزيرة العرب قد شاهدت مثله من قبل، وتجمع الجند عند مدخل ثنية الوداع، فرأى المنافقون، إزاء حماسة المؤمنين أن خير ما يفعلون هو أن يخفوا حالهم، وإن كانوا أعدوا العدة للتجمع في مؤخرة الجيش، فلما تحرك تسللوا منه مستترين، الجماعة تلو الجماعة، ليرجعوا إلى المدينة.

ولم يكن الناس ليعجبوا لسلوكهم هذا، غير أن [illegible] الحالة ردت، للأسف، أربعة من مخلصي المسلمين عن واجبهم، وهؤلاء الأربعة هم: الشاعر كعب بن مالك، ومرارة بن ربيع، وهلال بن أمية، وأبو خيثمة، أما هذا الأخير فقد اشتد عليه الحر، وربما، أيضا، الشعور بالعار، فدخل حديقته التي تكتنفها الجدران المنيعة، فرأى فيها تحت سعف النخيل المتشابكة، والغصون التي تحمل، من نخلة إلى نخلة، أعنابها المعلقة بعناقيدها الملتوية، رأى عريشتين من ورق النخيل وجذوعها، قد امتنعت عنهما أشعة الشمس، والظلمة فيهما كالليل المسدل، وقد أضاء في كل منهم وجه حسناء مشرق كالبدر في تمامه.

وقد تساوى ذكاء هاتين الزوجتين الحسنتين وجمالهما، وقد رشتا، بعناية، أرض العريش، فهبت منها ريح عطرية، وعلقتا، بعناية فائقة، في مداخل الهواء قربا يرشح منها الماء والبرد فيصير كالجليد، ثم هيأتا طعاما يشرح طيب ريحه الصدر، ويثير من الشهية المستعصية.

رأى أبو خيثمة كل ذلك، وكان جسده يقطر عرقا، ولباسه يكسوه التراب، فأحس بشعور عظيم من الراحة والسعادة يسري في كيانه، وكاد يلقي بنفسه في أحضان تلك المتعة ويفترش، متكاسلا، سجادا رخيا، لكنه لم يفعل، إذ رأى فجأة خلال ما كان يكسو عينيه مترفقا من الظل ذي الانعكاسات الزمردية صورة خاطفة قاسية: رأى في وسط صحراء حزينة موحشة، لا نهاية لها، وتحت زرقة سماء لا يحجبها غمام، ولظى شمس لا رقة فيها،

قافلة تسير متثاقلة متعبة، قافلة صغيرة من الآدميين [illegible] تختفي تارة وتظهر تارة أخرى بين أمواج الرمال أو الصخور [illegible] الصفراء، هؤلاء الآدميون، إنه يعرفهم، إنهم إخوانه في الإسلام، وعلى رأسهم... المصطفى.

وصاح أبو خيثمة: «رسول الله في الحر، وأبو خيثمة في ظل بارد، وطعام مهيأ، ونساء حسان، ما هذا بالنصف!» ثم قال [illegible] «لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول الله، فهيئا لي [illegible] » ثم قدم ناضحه فارتحله، وأخذ سيفه ورمحه و[illegible]، وخرج [illegible] على ما خلفه وراءه من ماء سلسبيل رقراق، وظل [illegible]، و[illegible] جمال، ليلقي بنفسه في صحراء كالجحيم، متتبعا آثار الجيش، فلحق بهم [illegible] تبوك.

بلاد ثمود

وكانت القافلة قد وصلت إلى تخوم الصحراء [illegible] المحترقة المحيطة بمدائن صالح [illegible] بلاد ثمود، بعد أن اجتازت [illegible] القرى [illegible] واد متسع، يتبدل فيه لون الواحات الخضراء المحيطة بكثير من [illegible] أو الفلاع، بلون المنظر الصحراوي المقفر، فيلقي عليه شعاعا من [illegible] انقبضت قلوب المؤمنين لرؤية تلك البلاد الموحشة فقد كانت بحيرتها [illegible]، لتي خرج لهيب إلهي، فصبغها بصبغة الرماد والفحم الرهيبة، تعرض [illegible] صورة [illegible] من صور غضب الله القدير.

فقد أشرك أهل ثمود في غابر الزمن، و[illegible] واعتزوا بمناعة دورهم المنحوتة من الصخور، وتحدى [illegible]، [illegible] نبيهم صالحا بالسخرية وقد أرسله الله إليهم ليهديهم الطريق المستقيم، [illegible] لهم النبي صحة نبوته لجأ إلى دعاء العلي القدير، ليمده بمعجزة [illegible] يكد يلفظ بالدعاء حتى انشقت صخرة في طنين كطنين [illegible]، وخرجت من الشق ناقة عجيبة هائلة كثيرة الشعر، وحامل من عشرة شهور، فوضعت فصيلا عظيما يشبهها تمام الشبه.

والمعجزات كثيرا ما تعجز عن [illegible] الملحد [illegible]، ولم تكن تلك المعجزة إلا لتزيد من [illegible] أهل ثمود، ولكي [illegible] هؤلاء الزنادقة الأشرار [illegible]

اكتراثهم بها، عزموا على قتل الناقة، فنثروا الأشواك والصفائح الحادة على الجانبين الرئيسيين للممر الضيق الذى اعتادت أن تسلكه كل صباح لترعى فى الخلاء، فلما كان المساء، رجعت الناقة وألقت بنفسها فى ذلك الممر، فمزقت الصفائح جنبيها تمزيقا شديدا، فأرسلت الناقة اللاهثة أنات يقال: إن صداها مازال يتردد فى الوادى– ثم وقعت محتضرة على فوهة الممر، التى عرفت منذ ذلك اليوم بمبرك الناقة.

أما الفصيل فقد جرح أيضا، وسال الدم من جبينه، فابتعد عن أمه قليلا، ليموت بمكان يعرف الآن بالحويرية (١)

ويمتاز بصخرة اتخذت شكل ذلك الفصيل وتشبهه تمام الشبه.

ورأى صالح، بعد ذلك الإثم العظيم أن جهوده كانت عبثا، فدعا بغضب الله على أهل ثمود، فلم يطل انتظار العقاب:

« وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ » سورة الحجر الآية ٨٢

« فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ » سورة الذريات الآية ٤٤، ٤٥

« إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ » سورة القمر الآية ٣١.

وظلت بلاد ثمود مقفرة منذ أن نزل بها العقاب الإلهى فأباد أهلها، وبقيت آثار بيوت الطغاة إلى يومنا هذا بأبوابها الفاغرة التى تشبه حدق عيون عظيمة قد اتسعت رعبا من هول المنظر الذى شاهدته، أما الشقوق التى تصدع البنيان فإنها لتبدو أفواها مضطربة من الهلع، تصيح بمن يجرؤ على المخاطرة بنفسه فى هذا المكان الموحش: «تأملوا فينا غرور الإنسان وعجبه ثم عجزه، أى جهد تكبده أصحابنا لينحتونا، فى قلب الصخر، ثم ليزينونا بالأعمدة الرشيقة، والرسومات البديعة؟ ألم يكن يحق لهم بعد هذا أن يطمئنوا كل الاطمئنان بين أحضاننا، وهى أشد منعة من الدروع؟

«ما أعظم ما كان من ضلالهم! فحل عليهم غضب الله، فاقتلع أيديهم

(١) الحوار ابن الناقة الذى ينفصل عنها.

المقتحمة قبضة اليائس على حيطانها، فأحنتها إلى الأبد حتى نحن كنا نرتجف ارتجافا جنونيا على قواعدنا كأعضاء المحموم الذى تصطك أسنانه اصطكاكا ذا ضجيج، وإن كنا قد نجونا، فلنكون عبرة لمن يجول فى أرضنا الحزينة من المسافرين التائهين!».

... مر جند المؤمنين وسط تلك الكتل الصخرية، ذات الأشكال الغريبة، التى تعلو المحيط الرملى كأنها الجزر الصغيرة، وتعرض بين جوانبها الملساء أبواب أهل ثمود المظلمة، فسجى الرسول ثوبه على رأسه، كى لا يرى آثار الطغيان، وغطى أنفه وفاه كى لا يشم الريح النجس المتصاعد من الأطلال، ثم استحث راحلته ليبتعد عن المكان مسرعا، وخشى الرسول أن يدفع الفضول الشديد جند الإسلام إلى التباطؤ فى السير فأوصاهم أن لا يدخلوا بيوت الذين ظلموا إلا وهم باكون، خوفا أن يصيبهم ما أصاب من قبلهم، فإنه كان يعلم أن تلك العبرات التى تسيل فى مثل تلك الذكريات، تجعل خشية الله تحل محل الفضول، غير أن المسلمين لم يفكروا، وقد تأثروا بغرابة تلك الديار التى بدت كأنها ديار أحياء يفوقون البشر قوة وقدرة، وبذلك السكون الشامل الرهيب السائد على تلك الأرجاء، حيث عاشت أمة فى غابر الزمان عيشة الفسق والغرور، لم يفكروا أمام هذا كله فى الاستطلاع، ولم يدفعهم الفضول إلى التباطؤ، بل كان جل همهم تتبع النبى الملهم والابتعاد عن تلك الأطلال التى حل بها غضب الله.

وكان العطش يستحثهم من جانب آخر على المسير، فلما ظهر لهم، وسط السهل الرملى، بئر ثمود الشهير حيث كانت تستقى الناقة العربية، تشتتوا متنافسين كل يريد البئر ليكون أول من ارتوى، ولم يقدر الرسول على إيقافهم أول الأمر، فاستحث ناقته حتى لحق بهم، وقال لهم بصوت صارم: «لا تشربوا من مائها شيئا، ولا تتوضئوا منه للصلاة، وما كان من عجين عجنتموه فاعلفوه الإبل، ولا تأكلوا منه شيئا، ولا يخرجن أحد منكم الليلة إلا ومعه صاحبه».

ثم أمر بالرحيل غير عابئ بإعياء جنده ولا بعطشهم، كى يزيل كل وسواس من نفوسهم.

وما زال الرسول مسجيا ثوبه على وجهه حتى وصل فوهة ممر «مبرك الناقة» الضيق المخيف، وجنده يتبعونه دون تردد أو شكوى رغم ما ألم بهم من أوجاع وخيبة أمل.

وكان هذا الممر يلقى في النفس إحساسا بالحزن شديدا، ويبعث التشاؤم بما يعرضه من مرتفعات صخرية محيطة بجنبيه، يربو ارتفاعها على مائة وخمسين ذراعا، فشعر المؤمنون بصدورهم تضيق، كأن قد سحقتها الجوانب الشاهقة الارتفاع، المهيمنة عليهم، وكانوا يخشون سماع صدى أنات الناقة العربية.

وما من قوة بشرية تستطيع قمع الرعب الجنوني الذي يستولي على الدواب، فتتملص من الراكبين ومتاعهم وسلاحهم بقفزات شديدة، ثم تولى هاربة بعد أن ترمي بمن يحاولون وقفها وتسحقهم تحت كلاكلها، وتترك الباقين وسط بيداء جدباء مترامية الأطراف، وكان أقل صوت يردده صدى الصخور مكبرا، بحيث يبعث رعدة خفية، فاتبعوا سكونا شاملا، لا شاغل لهم إلا استحثاث دوابهم- وأخيرا خرجوا من الممر المخيف، فتنفس الناس الصعداء، واطمأنت قلوبهم، وظهر لعيونهم مكان خال صالح لحط الرحال.

فلما انتهى المؤمنون من تهيئة مخيمهم، أخبر الرسول: أن ريحا شديدة سوف تهب عليهم الليلة، وأوصاهم قائلا: «من كان له بعير ليشد عقاله، ولا يخرجن أحد منكم الليلة إلا ومعه صاحبه».

وما كادوا يمرون على دوابهم يستوثقون من عقالها، حتى تحققت نبوءة الرسول، فاحتجبت الشمس الغاربة بحجاب باهت، يناقض للحمرة البهية التي تكسوها عادة، فكان بهوتها وانعدام أشعتها مؤذنا بهبوب عاصفة هوجاء.

وفجأة وثب من الأفق ستار قاتم، لف الشمس في ثناياه المتماوجة، وصبغ الأفق بلون القار، وتكاثفت الظلمات، حتى حق لكل حي أن يحسب عينيه قد غشيهما العمى، وانبعثت من أعماق الصحراء جلجلة غريبة تقترب سرعة فدفعة، وتستحيل طنينا يصم الآذان، فكأنه صفير حيات هائلة، يصحبه صياح المردة الشريرة، وارتمى في الآونة نفسها على المخيم إعصار عنيف، اقتلع في مسيره كل ما لم يكن محكم الشد، وحلت محل الظلمات

السوداء ظلمات أخرى صفراء أقتم وأمنع للبصر.

واحتمى المؤمنون بجمالهم التي جعلت ظهورها للعاصفة مرتعدة تلن خوفا، وسجى كل منهم أطراف ثوبه على وجهه من عينيه وسنيه، ليتقي الرمال الثائرة التي تنغرس قاسية في جسده، وكأنها الآلاف من لدغات النحل، فكان الجندي يلتصق بالأرض وينشب أظفاره فيها، أو يتعلق بجسم بعيره خشية أن تحمله الرياح كما تحمل مندوف الصوف.

وبالرغم من هول تلك الساعة، تناسى جنديان أمر النبي المسدد فخرج أحدهما من المخيم ولم يكد يخطو خطوتين حتى وقع، أما الثاني فقد خرج في طلب بعير له ذعر فقطع عقاله وهرب، فاحتملت الرياح صاحبه في ثناياها وكأنه الحجر قد قذف من التل، حتى طرحته على قمة جبل طيئ، فلما أخبر بذلك الرسول صاح: «ألم أنهكم أن يخرج أحد منكم إلا ومعه صاحبه؟».

ثم دعا الرحمن للذي أصيب فشفي، وأما الآخر الذي وقع بجبل طيئ فإن طيئا أهدته لرسول الله حين قدم المدينة.

وأخيرا هدأت العاصفة، بعد أن صبت، عبثا، جام غضبها على جند الله، فهجرتهم إلى أرجاء أخرى من الأرض، ولم يعودوا يشكون منها، بيد أن المراحل السابقة كانت قد أنهكتهم، وجاء لهم نفس بعيد من أن يصبح بدلا من الراحة الشافية وقد امتصت ريح السموم كل ما تبقى في جسمهم من رطب، فتكاثف الدم في أجسادهم، وتعسر سريانه في شرايينهم، وأحدثت ضربات قلوبهم دقا لا يطاق في آذانهم، فماذا كان عساهم أن يصيروا فيما يبقى عليهم قطعه من طريق طويل قبل الوصول إلى أول بئر؟.

لم يكن منظر المكان يشجعهم أو يثبت من عزيمتهم، فهم يحسون بأرجلهم وكأنها تطأ أطلال عالم غريب خربه حريق هائل، وهناك على بعد عظيم كان يحد الأفق خط أسود هو الصحراء المترامية الأطراف، التي تبدو كأنها مكسوة تارة بحلل من الفحم والسناج [1] والرماد، أو بلبس من حديد

(١) أثر دخان السراج في الحائط مثلا.

تجمهر في انصهاره، فكون فقاقيع عظيمة تكسرت فكشف عن شقوق عميقة ذات حواف معدنية حادة كشظايا الزجاج، هناك على الأفق كان يبدو أن الحريق قد أطفئ، أما على طريقهم فقد حسبوا أنه ما زال مشتعلا: إذ كانت الكتل الصخرية ترتفع من كل جانب كأنها، بأشكالها وألوانها، غابة ذات جذوع ضخمة، تهدم جزء منها، وما زال الجزء الباقي مشتعلا، وقد اعوج بعض تلك الأشجار، متخذا أشكالا غاية في الغرابة حتى حسبها المؤمنون شياطين عابسة، هربت من الجحيم، ووقفت على طريق جند الله تلهو بعذابهم.

كانت الألواح الحجرية الملساء، والصخور الحادة البركانية السوداء، تكسو الأرض، إذ انكشف عنها ستار الرمال الناصعة البياض التي تعكس الأشعة عكسا قويا فتشعل تحت كل صخرة، وفي جوف كل فجوة من فجوات التلال الصخرية آلاف النيران الحامية، وحتى في أرجاء السماء اللازوردية، تلون الصفر الملحق، والغمام النادر المار، بلون برتقالي زاه، كأنه انعكاس وهيج لهيب عظيم، وكانت أعمدة الرمال الشامخة تجول وسط كل تلك الأطلال كأنها أعمدة الدخان المتصاعدة من حريق لم يتم إطفاؤه.

وأصبحت عيون المؤمنين وكأنها مشعل متقد بين الجفون بعد أن حرقتها ريح السموم، وحمرتها انكسارات الأشعة الساقطة على التلال، أما أرجلهم التي حرقها حصى الصحراء، فلم تكن تستقر على الأرض الملتهبة إلا في ألم مبرح، وأضحى الرضاب وقد اختلط بذرات الغبار الدقيقة كأنه العجين الكثيف تأبى الحنجرة ابتلاعه، وتوتر الجلد توتر الطبل يحدث ألما كلما مسه شيء وينشق شقوقا بليغة أما الشفاه المتورمة فلم تعد تقوى على الكلام، وقد انتاب بعض الجند الهذيان بسبب العطش، وكان ذلك مؤذنا بالموت، ولكي يرجعوهم إلى الحياة، لم ير أصحابهم بدا من أن ينحروا إبلهم، ويعصروا كروشها، ثم يصبوا السائل الناتج في أفواههم، ويجعلوا أرواثها الرطبة على صدورهم الجافة، وكان الرسول يتألم لآلام أتباعه، لكنه لم يتزعزع أبدا في إيمانه، إذ اعتقد اعتقادا راسخا في أن الله لا يتخلى عن عباده أبدا، وإن أحب الإكثار من امتحانهم، فلم يكف لحظة عن الدعاء.

كم كان النهار طويلا ... وأخيرا بدأت الشمس في الهبوط، وقد كانت، من قبل، كأنها مشدودة إلى السماء بخيوط خفية، واحتجبت في ذلك اليوم كما احتجبت بالأمس، فابتلعت قرصها الأحمر تلك السحابة السوداء التي كانت تنتظره وراء الأفق والتي ارتفعت على زرقة السماء، فصعدت على المعسكر قبة سوداء مهدبة بالماء المتجمد ذي البريق النحاسي، ولم يطل الانتظار حتى انقضت سلسلة البرق متوالية على جوانب الخيمة، فتفرقت قطعا انسابت من بينها قطرات الماء الكبيرة التي أخذت تترى وتتراكم حتى تحولت غيثا هطلا..

كم كان لذيذا ذلك الشعور العظيم بالسعادة الذي أحس به المؤمنون حينما نزل ذلك المطر المبارك عليهم فاخترق ثيابهم، وكان على أجسامهم بردا وسلاما فأسرعوا إلى الغدران الكثيرة التي كونتها مياه السماء في كل فجوة من فجوات الأرض، حينما وقعت على تلك السفوح الجرداء يرتوون.

واستراح المؤمنون وتزودوا بالماء فنشطوا للسفر، واحتملوا متبطين أتعابه، فخرجوا في النهاية سالمين من تلك البلاد التي حل بها غضب الله!.

وصول الرسول إلى تبوك وإقامته بها:

ظهر لأعين الرسول وجنده سهل واسع منبسط، من رمال البراقة، يقطعه خط رفيع أزرق اللون، ولم يطل الانتظار حتى اتضح ذلك الخط الذي أصبح الغاية المنشودة للقافلة، فبانت منه، منتصبة دقيقة، فروع نخيل تبوك فقد كانت تلك واحة تبوك، كيف نصف فرحة الواصل إلى واحة نخيل، بعد أن عانى آلام العطش؟! كيف نصور سروره عندما يتأمل في الماء الرقراق المتماوج في الغدير، بعد أن يتوضأ منه ويرتوي، ثم كيف نصور انشراح صدره وهو يضطجع في ظل النخيل؟ ذلك شيء فوق قدرة البشر!.

كان جند الرسول قد تغلبوا على أشق مرحلة من مراحل مهمتهم إذ انتصروا على العوائق الطبيعية، فنظروا بعين الاستخفاف إلى أسلحة المشركين وإلى ما يمكن أن تقيمه في سبيلهم من عقبات على أنه فصل من الوسائل العجيبة التي تنتشر بها الأخبار في الصحراء، عن الروم الناصرية، وعرب الشام، لم تحضر لمحاربة المسلمين سريعا، بعد أن ... الرسول ونزوله

بتبوك وكانت دهشتهم لذلك شديدة لقد اعتقدوا اعتقاداً راسخاً في أن الرسول إن أقدم على تلك المجازفة فسوف تكون قفار الحجاز مأوى لعظام جنده، ومن أجل ذلك فإنهم رغم تفوقهم في العدد، رأوا أن كل ثبت أمام هؤلاء الأربعين ألفا من المؤمنين الذين نجحوا في مغامرتهم الهائلة، يكون جنونا ينتهي بالهزيمة المنكرة ويحل الخلاف في صفوف جيشهم العظيم، فعت فيها، وولى كل فريق هاربا إلى بلاده، دون أن يجسر على ملاقاة الرسول، فدعم تشتت الحلفاء المحرى سلطة الإسلام أكثر مما كان يدعمها أعظم الانتصارات، ولولا أن شغل محمد بوجوب إتمام رسالته في الحجاز قبل كل شئ لفتح الشام بغير عناء، ولوصل بجنده إلى قلب فلسطين دون مشقة شقة.

وأقام الرسول بتبوك، فجاءه أمراء العرب خاضعين أفواجا، لا من البلاد المجاورة فحسب، بل من أنأى الممالك أيضا، مثل سيناء وسوريا ولم يشذ عن هذا إلا أمير دومة الجندل، وهي بلد كبير على حدود نجد– صحراء حمراء الرمال– إذ اغتر هذا الأمير بنفسه، فأبى الاستسلام، فبعث إليه الرسول بخالد الجبار، فأخضعه في أيام معدودة.

وفي الأسابيع القلائل، التي أراح فيها محمد جيشه، واصل اهتمامه بتنظيم شئون البلاد المفتوحة، وتعليم المسلمين الجدد دينهم الكريم.

ولم يكدر صفو انتصاره ذلك إلا حادث واحد وهو: موت أحد صحابته الأوفياء وكان يلقب بذي النجادين، وأراد الرسول أن يبين للناس مقدار إجلاله لذلك المؤمن المخلص، فساعد بيده حامل الجثة، وأنزلها معه في القبر، حتى إن ابن مسعود، وكان حاضراً، حسد الميت على ذلك الشرف العظيم، فصاح: «يا ليتني كنت صاحب الحفرة».

الرجوع إلى المدينة:

وعاد الرسول بجنده إلى المدينة دون أن يحدث ما يستحق الذكر، فلم يشك الجند من العطش، إذ كان فصل الحر قد مضى، فوصلوا إلى المدينة في أوائل شهر رمضان.

... أيها المنافقون الأشرار، أين تخفون خزيكم في مثل هذا اليوم بين

الهتافات التي تستقبل الجند الأشداء؟، حتى حاولتم أن تأتوا بالحجج، لتقللوا من شأن مأثمكم! إن الرسول لا ينزل مشرفكم بعصبه، فما أنتم له بأهل، وإنما يستحقه أولئك المؤمنون الثلاثة الذين تخلفوا من غير شك ولا نفاق، وبالرغم من تذللهم وندمهم، قضى عليهم بأقسى حكم، إذ أمر المؤمنين بمقاطعتهم، فوجد المذنبون أنفسهم طوال خمسين يوما معزولين تمام العزل عن المؤمنين، الذين هجروهم كهجرهم للمصاب بالطاعون، حتى عفا الله عنهم بعد ما رأى من إخلاصهم في طلب المغفرة:

«وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم» سورة التوبة الآية ١١٨.

كانت غزوة تبوك آخر الغزوات التي قادها الرسول بنفسه، فقد اكتفى في سبيل إخضاع ما تبقى من بلاد العرب– ببعث قواده في عدد من السرايا، كانت جميعها بالنجاح، وإن المقام ليضيق عن سرده.

أما الرسول، فقد أقام بالمدينة حيث شغل بتلقي الاستسلامات الكثيرة التي أثرتها انتصارات الإسلام، وأهم هذه الاستسلامات استسلام أمراء دولة الجندل واليمن وعمان وكذ إمراء الحيرة واليمامة والطائف ونجران إلخ... وكان فوق ذلك يصرف جهوده في تلك الحكومة الشاقة، حكومة العرب الذين اتحدوا لأول مرة في تاريخهم، فكونوا دولة متآخية الأفراد فأبان الرسول في عمله هذا، كمشرع ومصلح، عن براعة توازي على الأقل تقدير براعته كقائد على رأس جنده.

وفي هذه الفترة، مات عبد الله بن أبي بن سلول رئيس المنافقين الشهير وكان قد تاب وندم في آخر أيامه، فضرع إلى محمد يطلب المغفرة، فمنحه محمد عفوا كريما، وبالرغم من اعتراضات عمر العنيد، تمسك الرسول بالصلاة على عدوه الغادر ويدفنه بيديه الشريفتين، ولم يبق في المدينة منافق واحد بعد ذلك الدليل الساطع على تسامح الرسول وتناسيه للخيانة.

أما كعب بن زهير ذلك الشاعر الذي صرف حياته في نظم قصائد لاذعة، يهجو بها الرسول، فقد أتاه وأسلم بين يديه، وتلا عليه قصيدة بمدحه

فيها، فلما وصل إلى البيت الهادي والمحسين وهو:

إن الرسول لنور يستضاء به   مهند من سيوف الله مسلول

عفا عنه محمد، ورمى ببردته على كتفيه، هبة منه له.

وبعد رجوع قواده المنتصرين من سرياتهم، بعث النبي بالمبشرين إلى القبائل التي كانت حديثة عهد بالإسلام، ليمنع أهلها من أن يصلوا الدين الصحيح بتسرب خرافاتهم القديمة إليه.

ومن أهم هؤلاء المبشرين، معاذ بن جبل، الذي بعث إلى اليمن، وقد أراد الرسول أن يبين للناس اهتمامه ببعثة معاذ، فألبسه عمامة، وساعده على ركوب بعيره، وشيعه ماشيا ليدلي إليه بتوصياته الأخيرة، فارتبك معاذ وأراد النزول عن دابته، لكن محمدا منعه، ثم أوصاه وحثه على السير، وودعه وهو يتألم لفراقه.

وفي شهر ذي القعدة بعث الرسول– وكان لا يزال على اهتمامه بما للحج من شأن ديني وسياسي– بأبي بكر إلى مكة لتأدية الحج على رأس ثلثمئة مسلم، فلم يكد أبو بكر يصل إلى ذي الحليفة حتى نزلت على الرسول سورة براءة: «يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء إن الله عليم حكيم» سورة التوبة الآية ٢٨.

وكانت لتلك السورة– وهي الوحيدة في القرآن التي لا تبدأ ببسم الله الرحمن الرحيم– شأن خطير في الحج، إذ أغلقت باب الحرم دون من كان غير مسلم، ومازال ذلك الحظر الشديد إلى الآن يحمي حجاج الإسلام من تجسس الأعداء والأدعياء ومن فضول الأجانب.

وكانت تلك السورة أيضا الضربة القاضية على الإشراك عند العرب: إذ لم يعد أحد منهم يستطيع دخول مكة إلا وقد تبرأ من أصنامه، لذلك كله بعث الرسول بعلي في آثار قافلة الحجاج ليدركها بأقصى سرعة، ويتلو على المؤمنين السورة الحازمة بعد نحر الهدي في وادي منى.

حجة الوداع «ذو الحجة سنة ١٠ هـ، مارس ٦٣٢م»

عزم الرسول في السنة التالية على قيادة الحج إلى مكة بنفسه– فمنذ هجرته إلى المدينة، لم يكن قصد مكة إلا للعمرة، إذ كانت مكة لا تزال مشركة، غير أن الحج الأكبر، وهو من فروض الإسلام الخمس، يحتم زيارة بيت الله كما يحتم زيارة جبل عرفات (وقد سمي هكذا لأن جدينا آدم وحواء، تعارفا عليه بعد طردهما من الجنة).

وكانت رغبة محمد ملحمة في أن يكحل عينيه للمرة الأخيرة برؤية مسقط رأسه، إذ أحس ببقايا السم التي استوطنت شرايينه، تنخر حمية في جسمه، فأيقن بدنو أجله، وأعلن على الناس مشروعه، فأثارت فكرة رؤية رسول الله، وقضاء الحج معه، حماس العرب في جميع أرجاء جزيرتهم، وبلغ عدد الحجاج الذين خرجوا معه من المدينة، أو التقوا به في الطريق، حوالي مائة ألف حاج.

ووصل المؤمنون إلى ذي الحليفة، فأحرم النبي، كما سبق شرحه في فصل الحديبية، وتبعه في ذلك المؤمنون، فارتدوا ثوب الإحرام المكون من قطعتي قماش غير مصبوغ لا خياطة فيهما، تلف إحداهما على الصدر، وتستر الأخرى العورة، أما الرأس والرجلان والذرعان فتبقى عارية، ونادى الرسول ملبيا فردد المؤمنون بصوت واحد من بعد التلبية: «لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك».

وقد حدث في هذه الرحلة حادثان بسيطان، لا نذكرهما إلا لأنهما يبينان ما يجب على الحاج من إخضاع ثورات الغضب والضجر في نفسه: كان بعير صفية زوجة الرسول ثقيل الحمل، بطيء السير، يتأخر عن الركب رغم جهود سائقه، بينما بعير عائشة خفيف الحمل مع خفة مشية، فلما رأى الرسول ذلك، أتى عائشة يحاول إقناعها بإبدال الجملين، وأمر أن يجعل حمل صفية على جمل عائشة، وحمل عائشة على جمل صفية، فلم ترض بذلك عائشة، وصاحت غاضبة: «إنك تزعم أنك رسول، فما لك لا تعدل!»، ولم تكد تلفظ تلك الكلمات حتى لطمها أبو بكر، فلامه محمد فقال: «أما سمعت ما قالت؟»، قال: «دعها فإن المرأة الغيراء لا تعرف أعلى الوادي من أسفله».

ووصل الركب إلى محل يقال له «العرج»، ففقد البعير الذي يحمل زاد الرسول وزاد أبي بكر، فأنب هذا الأخير سائق البعير قائلا: «بعير واحد تضله!» واعترته حدة شديدة، فأخذ يضربه بالسوط.

فقال الرسول ساخرا: «انظروا إلى المحرم ما يصنع! هون عليك يا أبا بكر، فإن الأمر ليس إليك ولا إلينا، وقد كان الغلام حريصا على ألا يضل بعيره».

وسلك الرسول في حجه هذا، عين الطريق الذي سلكه في عمرته، فدخل مكة في وضح النهار، وأناخ ناقته أمام باب الحرم، المعروف بباب السلام، وأبصر بالبيت، فقال: «اللهم زد هذا البيت تشريفاً وتكريماً وتعظيماً وبراً وزد من شرفه وكرمه ممن حجه أو اعتمر تشريفاً وتكريماً وتعظيماً وبراً»، وبعد أن توضأ ثلاثا بدأ بالحجر الأسود فقبله، بينما فاضت عيناه بالبكاء، ثم قضى الطواف والسعي مثلما قضاهما في عمرته.

في اليوم الثامن من ذي الحجة، قام إلى وادي منى، حيث نصبت له خيمة من صوف، فصلى هنالك صلاة العصر، وصلاة المغرب، ثم صلاة العشاء، وفي اليوم التالي، اعتلى ناقته القصواء وسار إلى جبل عرفات بعد صلاة الفجر.

احتشد الناس على سفوح الجبل الصخرية، كما احتشدوا في السهل والشعاب المجاورة، فخطب فيهم الرسول من فوق ناقته التي قادها بنفسه إلى قمة الجبل، ووقفها عليها، ووقف أسفل الرسول ربيعة بن أمية الذي كان يردد كلماته بصوته الجهوري أثناء فترات السكوت المتعمدة لهذا الغرض.

بدأ الرسول بحمد الله والثناء عليه والتعظيم له ثم قال: «أيها الناس، اسمعوا قولي فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبداً.

أيها الناس، إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا، وكحرمة شهركم هذا.

وإنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم، وقد بلغت.

فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها.

وإن كل ربا موضوع [1]، ولكن لكم رءوس أموالكم، لا تظلمون ولا تظلمون.

وقضى الله أنه لا ربا، وأن ربا العباس بن عبد المطلب موضوع كله.

وأن كل دم كان في الجاهلية موضوع، وأن أول دمائكم أضع دم ابن عمي ربيعة ابن الحارث بن عبد المطلب....

أما بعد أيها الناس، فإن الشيطان قد يئس من أن يعبد بأرضكم هذه أبدا، ولكنه إن يطع فيما سوى ذلك فقد رضي به مما تحقرون من أعمالكم، فاحذروه على دينكم.

أيها الناس، إن النسيء زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما، ليواطئوا عدة ماحرم الله، فيحلوا ما حرم الله ويحرموا ما أحل الله.

وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق السموات والأرض، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا منها أربعة حرم، ثلاثة متوالية، ورجب مفرد الذي بين جمادى وشعبان.

أما بعد، أيها الناس، فإن لكم على نسائكم حقا، ولهن عليكم حق، لكم عليهن ألا يوطئن فرشكم أحدا تكرهونه، وعليهن ألا يأتين بفاحشة مبينة، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن في المضاجع، وتضربوهن ضربا غير مبرح، فإن انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف، واستوصوا بالنساء خيرا، فإنهن عندكم عوان [2] لا يملكن لأنفسهن شيئا، وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمات الله.

فاعقلوا أيها الناس قولي، فإني قد بلغت، وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبدا، أمرا بينا: كتاب الله وسنة رسوله.

أيها الناس، اسمعوا قولي واعقلوه تعلمُنّ: أن كل مسلم أخ للمسلم، وأن

---

(١) موضوع: مهدر.
(٢) أسرى أو كالأسرى، والواحدة عانية.

المسلمين إخوة، فلا يحل لامرئ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه، فلا تظلمن أنفسكم.

«اللهم هل بلغت؟».

فأجاب المائة ألف حاج بصوت واحد يفيض إخلاصا وإيمانا صادقا: اللهم نعم

فقال الرسول: اللهم فاشهد.

وفي موضع آخر من عرفات يقال له الصخرات، ويتميز بألواح صخرية كبيرة نزل على الرسول الوحي على حين غرة، فكاد عضد ناقته يندق من ثقل الوحي الذي نفذ إلى قلب صاحبها، فوقعت على ركبتيها.

وها هي ذي كلمات العلي القدير التي نزلت في ذلك اليوم

«الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» سورة المائدة الآية ٣.

جاء ذلك الوحي ختاما لخطبة الرسول التي أثارت عواطف المؤمنين فأيقظ في الناس التحمس المخلص والإخلاص الحار

بيد أن أبا بكر لم يشارك الناس في فرحهم، بل تملكه حزن شديد، ولم يقدر على كبت عبراته، إذ رأى أنه ما دامت نعمة الله قد تمت، فإنها على مجرى السنن الإلهية ستأخذ في النقصان، وعرف أن رسالة محمد قد انتهت، فخشي أنه عن قريب، يتسامى عن هذه الدنيا فيتركها ويختار الرفيق الأعلى.

انسربت أجنحة المساء الزرقاء على الوادي، وعلى سفوح جبل عرفات، وبقي الرسول مشرفا على جموع الحجاج من فوق ناقته العالية، فكانت أشعة الشمس الغاربة الذهبية تضيئه وحده - وكانت عيناه اللتان أفعمتهما حرارة الإيمان تخرج منهما بريق إلهي، ولكن وجهه الذي هزله المرض، كان يبعث في النفس شعورا بأنه رؤيا رائعة ليست من عالمنا توشك أن تزول . ووصل إليه الظلام الصاعد فطواه في ثناياه.

عندئذ انتاب أصحاب الرسول، بعد أن كانوا يهللون لإعلان إكمال الله دينهم، نفس شعور الحزن الذي انتاب أبا بكر، وسرى القلق قليلا قليلا من قلوبهم إلى المؤمنين، فعمر صدر المائة ألف حاج جزع شديد.

وأذن الرسول بالرحيل، غير أنه خاف أن يفضي تزاحم تلك الجموع المحتشدة إلى اختلال النظام، فشد على زمام ناقته السريعة العدو، ولوى عنقها حتى جعل منحرها يمس جنبها، بينما كان هو نفسه يتدحرج على الغارب.

ولم يهدأ يردد: «اطمئنوا في سيركم أيها الناس».

فلما وصل الركب إلى المزدلفة، صلى بها الرسول العشاء ثم الفجر في اليوم التالي، ثم ركب ناقته وبلال يقودها، وأسامة على عجزها رافعا ثوبا يظلله به من الحر، واتجه الرسول شطر وادي منى، ليرمي بحصيات سبع كلا من الأعمدة الثلاثة القائمة هناك والمعروفة بالجمرات، تذكرة للحصيات التي رمى بها إبراهيم الشيطان الذي حاول ثلاثاً أن يفتنه في هذا المكان.

ثم أعتق محمد ثلاثة وستين عبدا، ونحر بيده ثلاثة وستين بعيرا، وأمر عليا أن يفرق لحومها وجلودها على الحجاج صدقة وشكرا لله الذي من عليه بثلاث وستين سنة عمرا، وبعد ذلك حلق رسول الله رأسه الشريف، حلقه معمر بن عبد، بادئا بالشق الأيمن منتهيا بالشق الأيسر، وأخيرا، وبعد أن قام مرة أخرى بالطواف حول الكعبة، وشرب للمرة الأخيرة من ماء زمزم الذي ناوله إياه السقاء عمه العباس في إناء، قفل راجعاً إلى المدينة.

وهكذا أديت الحجة التي عرفت بحجة الوداع، والتي تركت في نفوس المؤمنين أعمق الأثر، إذ علموا أن رسالة محمد قد انتهت، وأصبح ذلك الحج قدوة للحجات التالية، التي تجلب للحرم كل سنة منذ ثلاثة عشر قرنا ما بين مائة وخمسين ألفا، ومائتي ألف من الحجاج، الوافدين من كل فج من فجاج الأرض.

إن كل حج، أيا كان الدين الذي ينتمي إليه، بما فيه من الإيمان الذي ينير كل الوجوه، ليثير في نفس أشد الناس ارتيابا، شعورا بالروعة لا يوصف ولا يتخلص منه إلا بالجهد الجهيد، غير أنه في أكثر هاتيك الحجات قد دخلت

عادات منكرة، محت الشعور بالروعة هذه، وحولته إلى شعور بالكراهية والاشمئزاز.. لا شك في أن الحجاج في مكة شأنهم شأن الحجاج في سائر المواطن الأخرى، عرضة لاستغلال جشع- غير أن لأهل مكة في ذلك العذر: إذ يعيشون وسط أشد الصحراوات جدبا، وليس لهم وسيلة للارتزاق إلا هذه.

والميزة الخاصة التي يمتاز بها حج المسلمين هي عدم وجود تلك المعابد الكثيرة ذوات القباب الصيفة التي تحبس الأرواح، وتقفها في وثبتها إلى الحنق، فتبقيها على الأرض رهن رحمة القسيس.

ويمتاز أيضا بانعدام جيش القديسين العرمرم، الذي تشغل عبادته عن عبادة «الإله الخالد» الذي ينسى عادة في مثل تلك الأوقات- وأخيرا، فالذي يمتاز به الإسلام، انعدام القس، ورجال الدين على اختلاف درجاتهم، الذين يتحاسدون ويتنافسون في اجتذاب الحجاج، والاستيلاء على أمكنة الحج لإرضاء وتمجيد طوائفهم، أو درجات كهنوتهم.

وفي مكة تقام الصلاة بالفضاء الرباعي الفسيح، المحيط بالكعبة، وتحل فيه قبة السماء الأثيرية محل قبة المعابد الحجرية، فتطهر، متطهرة من كل غيومها، مفصحة عن وجهها الأزرق المهيب، للأرواح الملتاعة المشوقة إلى المثل العليا، في مكة لا يعبد إلا الله الواحد الصمد، فإن كان الحجاج يحاولون بعث ذكريات إبراهيم ومحمد، فإنما يكون ذلك ليقووا شعلة إيمانهم، متبعين سنة نبيهم، ولا يصلي المؤمنون أبدا لأولئك الأنبياء كما يصلي المسيحيون لقديسيهم، بل إنهم ليدعون لهم برحمة الله.

وتفتح أبواب الكعبة ليل نهار، فيسارع الحاج إليها يغشى مكة، فإذا ظهرت له الكعبة المكسوة بستار أسود، والتي كان لا يفتأ يذكرها عند اجتياز أهوال الطريق بين الرمال الثائرة، أو الأمواج المتلاطمة أيقظتها العاصفة .. عندئذ يشتد انفعاله، وتثور عواطفه، حتى يود لو خرجت روحه من إهابها في تلك الدقائق من الوجد الروحاني...... ولا يقترب الحاج من الحجر الأسود ليقبله إلا وعيناه تذرفان الدموع، وصدره يختلج ندما، ووجهه يضطرب حياء، ونفسه تضرع إلى الله: «اللهم اغفر لي ذنوبي، واشرح لي صدري، وطهر لي قلبي يا أرحم الراحمين».

وعندما ينادي المؤذنون بالصلاة، يسرع المؤمنون إلى الفضاء الرباعي الفسيح، فيملؤونه وكأنهم البحر تتضارب أمواجه، ولا فرجة فيما بينها متسعا إلا ما يكفي للسجود، ويكبر الإمام، فيرتد المؤمنون تكبيره في زفرة تخرج من كافة الصدور في آن واحد، وتعتري الجموع المحتشدة حركة تموجية، فيحنون رؤوسهم مثل المياه المنسابة على الشاطئ.

ثم يكبر الإمام تكبيرة ثانية، فيخر المؤمنون سجودا، وكأن الأرض قد مادت تحت أرجلهم، جباههم بالأرض، حيث تصبح الأجسام، وكأنها سحقت تحت ثقل الخشوع والشكر والعبادة، كالأشعة تتجه نحو مركز واحد، هو الحرم الذي يبدو كأنه ارتفع بمقدار انخفاض سجدة المصلين، والكساء الحريري الأسود يخفق بأنفاس ريح خفية، يعتقد بعض الناس أنها رفرفة أجنحة الملائكة.

وليس احتشاد الناس على عرفات بأقل روعة من ذلك.

فجبل عرفات المخروطي الشكل، ذو الجوانب الخالية من كل نبت، والتي تبرز فيها الصخور الهائلة، يرتفع وسط واد مقفر، ليس على سفوحه ولا في جواره أي أثر للحياة، بل في كل مكان صورة الخراب، وسكون الموت، غير أنه في كل سنة في التاسع من شهر ذي الحجة، يبدو هذا المكان الكئيب في منظر رائع، يبعث في النفس صورة يوم البعث.

فالأرض والرمال والصخور، تختفي كلها تحت ثوب من الآدميين المرتدين لباس الإحرام الأبيض، حتى يحسبهم الناظر أمواتا بعثوا، فبدأوا في خلع أكفانهم بعد أن دفعوا الصخور التي كانت غطاء أضرحتهم.

موقف من مواقف الحشر حقا، إن جميع أجناس الإنس على تباينها تحتشد في ذلك المكان الذي اعتاد الإقفار، فهناك العرب ذوو العيون النفاذة البصر، والبشرة النحاسية الحمراء، والعثمانيون ذوو الوجوه الصارمة الحازمة، والهنود كالتماثيل المنحوتة ذات البشرة الزيتونية، والبربر ذوو البشرة الوردية والشعر الأشقر، ثم هناك الصوماليون، والسودانيون ذوو البشرة السوداء التي تلمع في ضوء الشمس، فتعكس أشعة قمرية، وهناك الفرس المترفون،

والشراكسة ذوو الجرأة والإقدام، والصينيون ذوو العيون المشدودة، وأهل جاوة ذوو الوجنات البارزة، إلى آخر ما هنالك، فلن ترى في العالم جمعا اجتمع في معرض في آن واحد كل تلك الوجوه الآدمية المختلفة الشبه، وكل تلك اللهجات واللغات المتباينة.

وبعد صلاة العصر، يقوم الخطيب على ناقته المزينة بأحسن زينة، ويعتلي جبل عرفات، فيلقي على الناس خطبة كثيرا ما تقطعها التلبيات: «لبيك اللهم لبيك».

وعندما يهتفون بالتلبية، يحرك الحجاج أطراف ثيابهم البيضاء فوق رءوسهم، فيبدو الجبل وكأنه يضطرب باضطراب الآلاف المؤلفة من الأجنحة الموشكة على الطيران، بينما تسمو إلى السماء وتردد صداها في الصحراء صيحة قوية ترتفع من جنبات الوادي، صيحة يرددها مائتا ألف حاج قد وضعوا جانبا لغاتهم الخاصة، ليتحدوا في لغة واحدة، لغة العرب، لغة الله التي اتخذها لينزل بها على نبيه الكتاب:

لبيك اللهم لبيك».

لقد تآخى هؤلاء جميعا في تلك الساعة العظيمة، تآخوا لغة وقلبا، ونسوا فروق الأجناس، والدرجات والطبقات، نسوا أحقادهم: مذهبية كانت أم سياسية، في عرفات يرجع الإسلام إلى اتحاده الشامل، وحماسته القوية كما كان في أيامه الأولى.

ألا ما أجمله من دواء لجروح أبناء الإسلام، قال الرسول: «مثل المؤمنين في توادهم وتعاطفهم وتراحمهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى».

وفي عرفات لا يخشى الإسلام شيئا من صنوف أعدائه، فيستطيع لم شعثه وإصلاح حاله وتدبير مستقبله وبالرغم مما عاناه الإسلام، فهو اليوم أقوى وأشد حيوية مما كان، هذا هو الشعور الذي يرجع به الحاج إلى بلاده، بعد أن يرى ذلك اليوم العظيم، فضلا عن لقب «حاج» الذي يغبطه عليه الكثيرون.

الفصل التاسع

إنكَ ميتٌ وإنهم ميتون

مرض النبي وموته ربيع الأول

سنة ١١ هـ، يونية ٦٣٢م، بعد الهجرة

قال أبو مويهبة مولى رسول الله: «بعث إلى رسول الله من جوف ليلة من آخر ليالي صفر، فقال: يا أبا مويهبة، إني قد أمرت أن أستغفر لأهل البقيع، فانطلق معي، فانطلقت معه فلما وقف بين أظهرهم قال: «السلام عليكم يا أهل المقابر، ليهن لكم ما أصبحتم فيه مما أصبح الناس فيه، لو تعلمون ما نجاكم الله منه؟ أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم، يتبع آخرها أولها، الآخرة شر من الأولى».

ولم يكد ينتهي حتى أخذته رعدة المحموم، وابتدأته أوجاع الصداع، فرجع متثاقلا إلى أهله.

وقالت عائشة: «لما رجع رسول الله من البقيع، وجدني وأنا أجد صداعا في رأسي، وأنا أقول: «وارأساه»، فقال: «بل أنا وارأساه»، ثم قال: «وما ضرك لو مت فقمت عليك وكفنتك وصليت عليك ودفنتك؟»، فقلت: «والله لكأني بك لو قد فعلت ذلك لقد رجعت إلى بيتي فأعرست فيه ببعض نسائك»، فتبسم رسول الله ونسي للحظة ما به من ألم».

ولم يلبث المرض أن ازداد، فلم يترك له راحة، غير أن الرسول تغلب على آلامه ولم يكف عن تدبير شئون الإسلام، ومستقبله، إذ أحس أن الإسلام سيفقد قائده في القريب العاجل، ورأى محمد أن من شأن الشام أن يكون بمثابة أحد الأبواب الذي ينطلق منه جند الله لفتح العالم، فلم يصرف نظره عنه أبدا، وعزم على تجهيز حملة ثالثة لقتال روم الناصرية، الذين يسيطرون على الشام، وكان الإسلام إذ ذاك غنيا بالأبطال والقواد الحربيين، فظهر بينهم في الحال التنافس جليا في سبيل نيل قيادة تلك الحملة، وانتظر أشهرهم، سواء كانوا من الأنصار أو المهاجرين، في قلق، اليوم الذي يعلن فيه الرسول من بينهم، فاختار الرسول على دهشة من الجميع، شابا صغيرا لا تتجاوز سنه العشرين يدعى أسامة، لكن ذلك الشاب الصغير، كان ابن...

ابن حارثة شهيد مؤتة، وكان الرسول لا يعتمد على براعته وتجاربه، بل على ماكان أسامة يبديه من حماسة وحمية، فى سبيل الأخذ بالثأر من أعداء أبيه فى نفس المكان الذى مات فيه ميتته العظيمة.

وأحفظ هذا الاختيار ظن القوم الذين كانوا يطمعون فى قيادة الحملة، ودار بينهم القيل والقال، وترددوا فى متابعة أسامة تلك المتابعة المطلقة التى هى مفتاح الفوز، إذ رأوا فيه صغر سن وقلة تجارب، وبلغ الرسول الأمر، فقام إليهم وقطع دابر ترددهم بقوله:

«أيها الناس، أنفذوا بعث أسامة، فلعمرى لئن قلتم فى إمارته لقد قلتم فى إمارة أبيه من قبله، وإنه لخليق للإمارة، وإن كان أبوه لخليقا بها».

جاءت تلك الكلمات الصريحة الواضحة التى ألقاها الرسول بصوت الإيمان الملهم بمثابة دواء للتردد والتحاسد، فما كان من أعظم القواد وأشدهم – مثلهم فى ذلك مثل أحقر الجنود وأصغرهم – إلا أن انتظموا تحت لواء القائد الفتى، وتوارى الجند فى ثنية الوداع، فجاشت نفس الرسول بالعواطف. لقد رأى فى ساعة الرحيل، من إيمان جنده العظيم، ما حمله على الاعتقاد أن سوف لا يعوقهم فى طريق النصر عائق، وأن سيل الإسلام الجارف سوف يفيض على العالم فيضان النهر المبارك، فيلقى فيه البذور المثمرة لحضارته الفتية الناشئة، غير أن أسامة لم يلبث أن توقف سيره ورجع على أعقابه إلى المدينة إذ أتته الأخبار المؤلمة عن صحة الرسول.

وفى تلك الأيام، تلقى الرسول رسالة من مسيلمة أمير اليمامة، يدعى فيها الرسالة والنبوة، ويعرض على محمد أن يشاركه فى الأمر مناصفة.

وكان صاحب هذه الرسالة حديث عهد بالإسلام، فلما رأى ما يتمتع به النبى من سلطة وشهرة، أراد فى غروره العظيم، أن يقوم بدوره.

فقال الرسول للذين يحملون رسالة مسيلمة: إنه لولا أن السفراء لا يقتلون لقطع رءوسهم، ثم سلم لهم رسالة باسم محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب يرد فيها عليه بأن الأرض لله، يورثها من يشاء من عباده وأن العاقبة للمتقين.

ولم يطل الانتظار بمسيلمة، والأسود، وهو كذاب آخر، حتى نالا جزاءهما

الصارم، فرأى خطر ادعاء النبوة لمن لم يبعثه الله بها، غير أن مرض الرسول كان يشتد عليه يوما فيوما، فيضعفه، حتى لم يعد يقدر على التنقل إلا بجهد أليم، وكانت عادة الرسول أن يقسم لياليه بين بيوت زوجاته، فلما كان ببيت ميمونة، أحس بآلامه تعاوده، وبمرضه يشتد عليه، فدعا بزوجاته، واستأذنهن فى أن يمرض ببيت عائشة، فأذن له قالت عائشة: «فخرج رسول الله من بيت ميمونة بين الفضل وعلى، عاصبا رأسه، تخط قدماه، حتى دخل بيتى»، ثم غمر رسول الله واشتد عليه وجعه، فقال: «هريقوا على من سبع قرب، لم تحل أوكيتهن، لعلى أعهد إلى الناس»، فأجلسناه، ثم طفقنا نصب عليه من تلك القرب، حتى طفق يقول: «حسبكم»، وقد شعر الرسول بالنشاط والقوة يدبان فيه، بعد الاستحمام، فخرج من باب عائشة المطل على المسجد، يسنده الفضل وعلى ابنا عميه، فصعد على المنبر، وألقى على المؤمنين خطبته المشهورة التى يطلب فيها من كل من آذاه محمد أو أضر به أن يقول ما فى نفسه فيعوضه محمد خيرا، ثم هبط من المنبر ليصلى بالناس صلاة الظهر، ثم صعد إليه ثانية فأعاد ما قال، فقام رجل يطلب رد دين له ثلاثة دراهم على النبى، فأعطاه محمد له وهو يشكر ربه أن أتاح له فرصة التخلص من عار الدين فى الدنيا قبل أن يلقاه فى الآخرة.

ثم ذكر شهداء أحد فأكثر من ذكرهم، واستغفر لهم، واختتم خطبته قائلا: «إن عبدا من عباد الله، خيره الله بين الدنيا وبين ما عنده، فاختار ذلك العبد ما عند الله». ففهمها أبو بكر وعلم أن الرسول يتكلم عن نفسه، ويشير إلى صحبته فبكى وصاح: «نفديك بأنفسنا وأبنائنا»، فأجاب محمد: «أيها الناس بلغنى أنكم تخافون من موت نبيكم، هل خلد نبى قبلى فيمن بعث إليهم، فأخلد فيكم؟ ألا إنى لاحق بربى، وإنكم لاحقون به».

دخل الرسول بيت عائشة بعد ذلك الجهد المضنى، فأغمى عليه، فلما نادى المؤذن للصلاة، اعتدل وطلب ماء ليتوضأ، وليقوم إلى الصلاة، فيؤم القوم، ولكن غماءه عاوده ثلاث مرات فلم يستطع قياما – وأخبر أن المؤمنين ينتظرونه فى المسجد، فبعث ببلال إلى أبى بكر ليؤم القوم مكانه، فلما علم الناس بالخبر بكوا بكاء شديدا.

كانت الحمى كثيرا ما تعترى الرسول، فلما كان يوم الخميس والصحابة

حول مرقده، قال لهم: «ائتوني بدواة وصحيفة، أكتب لكم كتابا لا تضلوا بعده أبدا». فقال عمر: «إن الرسول قد غلبه الوجع وعندكم القرآن، حسبنا كتاب الله».

وكان من بين الحضور فريق لم يتعودوا مراجعة الرسول، فأرادوا تلبية طلبه إذ علموا أنه أمي، فاعتقدوا أن ستحصل معجزة في تلك الساعة الأخيرة، غير أن أتباع عمر عارضوهم، فاختلفوا واختصموا، ولغطوا، فثاب الرسول إلى رشده، وقال له معاتبا: «قوموا عني، لا ينبغي التخاصم في حضرة النبي». وقد اشتد به الأمر، وكان عنده قدح فيه ماء، فصار يدخل يده في القدح، ثم يمسح وجهه الشريف بالماء ويقول: «اللهم أعني على سكرات الموت».

قالت عائشة: «ثم دعا فاطمة ابنته، فسارها بشيء فبكت، ثم دعاها فسارها فضحكت، فسألتها عن ذلك فقالت: أخبرني رسول الله أنه سيقبض في وجعه هذا، فبكيت، ثم أخبرني أني أول أهله لحاقا به فضحكت».

فلما كان يوم الأثنين في اليوم الثاني عشر من شهر ربيع الأول، بينما أبو بكر يصلي بالناس، انفتح باب عائشة المطل على المسجد، وخرج منه الرسول بين علي والفضل، معصوب الرأس تخط قدماه الأرض، فبدر من الناس عند رؤيته هزة وأمل، وفهم أبو بكر أن تلك الحركة أثناء الصلاة لا تحصل إلا لمجيء الرسول، فتراجع ليخلي مكان الإمام، فأمسك الرسول بثوبه، ودفعه إلى مكانه الأول قائلا: «صل بالناس»، ثم جلس إلى يمين أبي بكر أسفل المنبر، وأضاء وجهه فرحاً وحبورا، إذ رأى تقوى الناس وخشوعهم، فلما انتهى المؤمنون من الصلاة، قام فيهم الرسول لآخر مرة خطيبا فقال:

«أيها الناس، سعرت النار وأقبلت الفتن كقطع الليل المظلم، وإني والله ماتمسكون علي شيء، إني والله لم أحل إلا ما أحل القرآن، ولم أحرم إلا ماحرم القرآن».

قال ذلك في صوت لم يوهنه المرض، بل كان من قوته أن سمعه الناس خارج المسجد، ثم اعتمد الرسول على جذع من جذوع المسجد، وصار يحدث أصحابه حديثا مألوفا، ورجع بعد ذلك إلى حجرته، حيث عاودته آلامه

عقب ذلك الجهد الأخير، فكان عليه أشد من ذي قبل، فسجي على وجهه ثوبا أسود، ولكنه لم يقدر خلاله على التنفس فرمى به.

قالت عائشة: «دخل علي عبد الرحمن بن أبي بكر ومعه قضيب من الأراك الأخضر يستن به، فنظر إليه الرسول، فعرفت أنه يريده، فضربته فقصمته، ثم مضغته، فاستن به كأشد ما رأيته يستن تسواكا، ثم وضعه، ووجدت رسول الله يثقل في حجري، فذهبت أنظر في وجهه فإذا بصره قد شخص وهو يقول: «بل الرفيق الأعلى من الجنة»، فقلت: «خيرت فاخترت والذي بعثك بالحق»، ثم وضعت رأسه على وسادة وقمت ألتدم[1] مع النساء وأضرب وجهي».

فلما سمع المؤمنون الصراخ، هرعوا إلى المسجد وقد نال منهم القلق كل منال، كالقطيع التائه في ليلة مظلمة من ليالي الشتاء، ولم يصدقوا موت الرسول، إذ أن موت الرسول، دليلهم ومرشدهم الأعظم في كل أمر وخطب، بدا لهم ضربا من المستحيل: كيف يموت من كانوا يحتضرون عليه ليكون شهيدا لهم يوم الحساب؟، إنه في ظنهم لم يمت، بل صعد إلى السماء كما صعد عيسى من قبله، وصاحوا خلال الباب لمن في البيت محذرين من دفنه وشجعهم عمر بقوله: إن رجالا من المنافقين يزعمون أن رسول الله قد مات، وإن رسول الله، والله، ما مات، ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران، فقد غاب عن قومه أربعين ليلة، ثم رجع إليهم بعد أن قيل: قد مات، والله ليرجعن رسول الله كما رجع موسى، فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم زعموا أن رسول الله قد مات».

وفي هذه الأثناء أقبل أبو بكر على جواده مسرعا، وكان في السنح فبعث إليه من يناديه، فنزل على باب المسجد، فلم يلتفت إلى شيء، بل شق الجموع المحتشدة، ودخل المسجد، فحجرة ابنته عائشة لدى رسول الله، وكان مسجى في ناحية من البيت، عليه برد حبرة، فأقبل حتى كشف عن وجهه، ثم أقبل عليه فقبله وقد ناء تحت حمل آلام عظيمة، ثم بكى قائلا: «بأبي أنت وأمي، أما الموتة التي كتب الله عليك، فقد ذقتها، ثم لن تصيبك بعدها موتة أبدا».

(١) ألتدم: أضرب وجهي بيدي.

ثم رد البرد على وجهه وابتعد عن ذلك المنظر الأليم، وخرج عمر يكلم الناس فقال له: «على رسلك يا عمر، أنصت، فأبى عمر إلا أن يتكلم، فلما رأى الناس أبا بكر أقبلوا عليه، وتركوا عمر، فخطب فيهم أبو بكر فقال: «أيها الناس من كان يعبد محمدا فإن محمد قد مات، ومن كان يعبد الله، فإن الله حى لا يموت»، ثم تلى عليهم:

«وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل، أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم؟» وتلا عليهم أيضا: «إنك ميت وإنهم ميتون».

قال عمر: «فوالله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها، فبهت حتى وقعت على الأرض ما تحملنى قدماى، وعرفت أن رسول الله قد مات».

مبايعة أبو بكر:

كان على المؤمنين قبل التفكير فى دفن الرسول أن يفكروا فى صد الخطر المحدق بالإسلام الذى فقد زعيمه الملهم، فضربتهم الحيرة: لقد مات ذلك الذى ضم تحت لواء التآخى فى الدين أسرا وقبائل فرقت بينها قرون من العداء، فما عسى أن يكون مصير هذا التآخى؟ لم يكن هناك لمقاومة تشتت الشمل إلا حل واحد ألا وهو تعيين خليفة، أى قائد من قواد النبى يخلفه فيواصل مهمته.

لكن ذلك كان من شأنه أن يثير الغيرة بين القبائل، والتنافس بين المهاجرين والأنصار، وقد أعلن كل من الفريقين حقه فى تولى الخلافة، وكان القتال الدموى أقرب من حبل الوريد، فلم يجنبه المسلمون إلا بفضل حزم عمر ونشاطه، إذ أسكت الناس وأبان لهم أن محمدا فى أواخر أيامه كان يعين أبا بكر، رفيقه فى الهجرة، ليصلى بالناس بدله، ولو كان عين أحدا للخلافة لما عين إلا أبا بكر، فطب ذلك الرأى أرامهم.

وفى اليوم التالى نسى المؤمنون ضغائنهم، وأتوا أبا بكر مبايعين.

تشييع الرسول إلى مقره الأخير

فلما حلت تلك المشكلة الخطيرة، تفرغ المؤمنون إلى رسولهم وآلامهم المبرحة لموته، وكانت السنن تحتم عليهم أن يجردوا النبى من ثيابه لغسله،

ولكن احترامهم الشديد لشخصية النبى كان يوعز إليهم من كشف عورته أمر ينافى والإسلام، فكثر الكلام والمراجعة بينهم ، حتى أثقل جهودهم نوم لا يقهر، ولم يبق رجل إلا وذقنه فى صدره، وفجأة أيقظهم صوت من ناحية المتوفى، لا يدرون ما هو، فحل المشكلة التى كانوا بها منشغلين إذ قال: «اغسلوا النبى وعليه ثيابه»، وكان ذلك هو الحل الذى عنه يبحثون فنعدوه فى الحال، ونصب العباس فى الغرفة خيمة من النسيج اليمنى، كى يمنع الناس من رؤية جثة الرسول الكريم، ثم دخل عليه علىّ وأسامة وعباس وابناه وشقران مولى الرسول، وغسلوه بسبعة قرب، من ماء بئر بقباء، وكان محمد يفضل ماءها على كل ماء، فكان العباس وابناه العمل وقثم يقلبان جسم الرسول الكريم وكان أسامة بن زيد وشقران هما اللذان يصبان الماء، بينما علىّ قد أسنده إلى صدره يدلكه من فوق قميصه، وغسل الرسول ثلاث غسلات، واحدة بالماء القراح، وواحدة بالماء والسدر، وواحدة بالماء والكافور، ثم طيبه علىّ والعباس فى موضع سجوده، أى الجبهة والأنف واليدين والركبتين والقدمين وعلى يقول: «بأبى وأمى، ما أطيبك حيا وميتا»، والكل فى عجب من عدم وجود أية علامة من علامات التحلل الكريه الذى يتبع الموت على جثة الرسول، سوى زرقة خفيفة أظافره.

وبدلا من أن يكفن النبى لف فى ثيابه التى كان يرتديها ساعة الموت، أى فى قميصه الذى غسل به فى ثوب له مزدوج من نسيج نجران، وعندئذ سمح على والعباس للملأ بالدخول بعد أن وضعا محمدا على فراشه، وامتلأت الغرفة بالمؤمنين الذين حيوا الرسول بقولهم: «السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته».

ثم اصطفوا للصلاة صفوفا لا يؤمهم أحد، إذ أن الإمام كان أمامهم، رغم ذهاب روحه إلى جوار ربه العلى القدير.

وكان أبو بكر وعمر فى الصف الأول من المصلين، فختما الصلاة بقولهما

«اللهم إنا نشهد أنه قد بلغ ما أنزل إليه، ونصح لأمته، وجاهد فى سبيل الله حتى أعز الله دينه، وتمت كلمته، فاجعلنا إلهنا ممن اتبع القول الذى

أنزل معه، واجمع بيننا وبينه، آمين».

وردد الناس، من ورائهما في خشوع وتأثر: آمين آمين.

وما إن انتهى تجهيز الرسول حتى ظهرت مشكلة جديدة خاصة بدفنه، إذ اختلف الناس على المكان الذي يدفن به، فقال بعضهم بدفنه في المسجد، وقال آخرون بدفنه في البقيع بين قبور أهله، وقال البعض الآخر بدفنه في مكة مسقط رأسه، فأنهى أبو بكر هذا الاختلاف بقوله: «إني سمعت رسول الله يقول: «الأنبياء يدفنون حيث يقبضون»، فرفع الفراش لحفر القبر في نفس المكان الذي كان به الرسول، وتولى الحفر طلحة حفار المدينة، فعمد إلى جوانب الحفرة، وقواها بتسعة قوالب من اللبن، ثم فرش قاعها بثوب أحمر، كان الرسول يغطي به ناقته في أسفاره، فلم يكن لأحد أن يستعمله من بعده، وأخيرا، رفع عليّ وشقران والفضل وقثم، الجثة، وأنزلوها في مقرها الأخير..

ويدعي المغيرة بن شعبة أنه أحدث الناس عهدا برسول الله إذ يقول: «أحدث خاتمي فألقيته في القبر، وقلت إن خاتمي سقط مني. وإنما طرحته لأمس رسول الله فأكون أحدث الناس عهدا به».

وانتهى المؤمنون من دفن نبيهم في منتصف الليلة الفاصلة بين يومي الثلاثاء والأربعاء، فلما نادى بلال في فجر اليوم التالي بالمؤمنين إلى الصلاة، وأراد أن يقول: «لا إله إلا الله محمد رسول الله»، خنق صوته بالعبرات، فلم يقدر على لفظ اسم محمد، وجاوبته المدينة بأسرها كأنها الصدى، بأنة أسى طويلة، ارتفعت إلى السماء من نوافذ الديار....

وإنه منذ اليوم الثاني عشر من ربيع الأول، للعام الحادي عشر الهجري، ٨ يوليو سنة ٦٣٢م، يرقد في هذا المكان الذي فاضت به روحه الشريفة، جثمان ذلك الإنسان السامي، الذي كان على الأقل، لا يقل قدره عن قدر أعظم الأنبياء والملوك، والقواد والمتكلمين والفقهاء والحكماء والفلاسفة، والذي أصبح دينه الآخذ في الانتشار باطراد، يضم اليوم ثلثمائة مليون من الأتباع وعوضا عن قبره المتواضع، يقوم له الآن مسجد رائع فخم يضم حجرته التي توفي بها.

إن زيارة قبر الرسول ليست من فروض الإسلام، ومع ذلك فقليل من الحجاج الذين وصلوا إلى مكة متحملين المشقة والأخطار الخطيرة في سفرهم، من يترددون في تحمل المشقات طيلة اثنى عشر يوما، كلها تعب وعناء، تفصل مكة عن المدينة، حتى يصلوا إلى صاحب القبر العظيم، يحملون إليه حياتهم الحارة النقية.

والعلماء الغربيون أنفسهم قد بدءوا يتحررون من ضلالاتهم العتيقة وراحوا ينصفون مؤسس الإسلام، ومن ذلك ما يقوله جوستاف لوبون: «إذا كانت قيمة الرجال تقدر بعظمة أعمالهم فإنه يكون من المستطاع أن نقول: إن محمدا كان من أعظم الشخصيات التي عرفها التاريخ...»

مولاى صل وسلم دائما أبدا
علي حبيبك خير الخلق كلهم

صورة وصفية للرسول

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم، وسطا بين الطول والقصر، ليس بالطويل البائن ولا بالقصير المتطامن،، قوى الجسم، ضخم الرأس، أبيض مشربا بحمرة، سهل الخد، «ذا وفرة إلى شحمة أذنيه» ليس بالجعد القطط ولا السبط، إذ غضب رئى فى جبهته عرق ينتفخ، أزج الحاجبين، عظيم العينين، أدعج، أهدب، كبير الفم كما ينبغى للخطيب المفوه، أسنانه كالبرد، ولمس يديه الكبيرتين ذاتى الأصابع الطويلة كلمس الحرير الرقيق، بين كتفيه خاتم النبوة «الذى اكتشفه الراهب بحيرا»، بيضاوى الشكل، أحمر اللون، تحيط به شعرات، يمشى فى تؤدة وقورة جليلة، حاضر البديهة دائما، إذ التفت التفت جميعا، لا كالحمقى الذين يديرون برقابهم ويهزون رءوسهم فوق أكتافهم، إذ أشار إلى شئ أشار إليه بجميع يده لا بإصبع أو إصبعين، إذ عجب لشئ حمد الله وأدار كف يده إلى السماء، وهز رأسه وعض على شفتيه، إذ أراد تأكيد شئ قاله ضرب بإبهام يده اليمنى على يده اليسرى المبسوطة، فإن غضب أحمر وجهه ومر بيده على لحيته ووجهه وتنفس الصعداء طويلا، ثم يقول: «توكلت على الله خير وكيل».

وكانت المعانى تتدفق غزيرة من ألفاظه المحكمة الموجزة، التى تعبر عن مراده خير تعبير، أما سحر بيانه فكان شيئا إلهيا، يغزو القلب ويأسر اللب ولا يقوى أحد على مقاومته، وكان الرسول لا يغرق أبدا فى الضحك، فإذا ما اشتد به المرح حجب وجهه بيده.

وكان هادئ الخلق حلم الطبع، لا تكبر فيه ولا خشونة، لا يدعوه أحد إلا أجابه فى الحال، يحب الأطفال ويلاعبهم ويضمهم إلى صدره الكريم، وقد رئى مرارا يصف أولاد عمه العباس ليتسابقوا ويعد الفائز منهم بجائزة، فيتنافسون فى اللحاق بأحضانه والجلوس فى حجره.

وكان يرعى شئون الجميع، سواء فى ذلك الأشراف والعبيد، بعطفه، وقد

روى: أن الناس أغفلوا مرة، خبر موت خادمة فقيرة تعمل فى المسجد، فغضب لذلك غضبا شديدا، وسأل عن المكان الذى دفنت فيه حتى وجده، فجلس يصلى على الميت.

وكان إذ رفع سائل شفتيه إلى أذنه ليكلمه سرا، يميل برأسه إليه حتى ينتهى من حديثه، وإذا صافح زائرا لا يسحب يده من يده حتى يردها الرجل إليه، ومن كلامه صلى الله عليه وسلم: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»

ولم يرفع يده أبدا على امرأة أو على عبد روى أنس، الذى خدم الرسول عشر سنين، أن سيده لم يلمه أبدا على شئ ولم يراجعه فى أمر، وروى أبو ذر: أنه سمع الرسول يوصى بالخدم والعبيد ويدعو إلى معاملتهم كإخوة فى الدين وعدم الإجحاف بهم فى المأكل والملبس.

وروى أعرابى ممن كانوا بحنين أنه كان يلبس نعلين غليظين، فداس عفوا فى هرج المعركة، على قدم الرسول فضربه بسوطه من الألم فبات الأعرابى ليلته مهموما لما بدر منه من إيذاء الرسول، ولما كان الصباح أرسل محمد فى استدعائه فأتاه خائفا حائرا، ولكن النبى طمأنه ووهب له ثمانين نعجة فدية لغضبه وضربه إنسانا، ومنذ ذلك اليوم، وحلم الرسول يسبق دائما ثورته.

وكانت طبيعته محبة وحنانا، إذ تألم صغيرا من افتقاره إلى عطف الأم، وشغل كبيرا بمسائل التربية، وعلاقة الأبناء بالأمهات، وكان يؤكد دائما أن الجنة تحت أقدام الأمهات، وكان إذا سمع بكاء طفل، وهو فى صلاة الجماعة، أسرع فى صلاته من أجل أن يسمح للأم بإسكات طفلها، فقد كان يعلم مقدار تألم الأمهات لبكاء أطفالهن.

ولم تكن فطنته العجيبة، ومعرفته بخفايا النفوس وجواهر الأشياء، لتمنعاه من مشاورة أصحابه فى كل الشئون، ويذكر عن عائشة فى هذا الشأن أنها لم تر إنسانا قط يحب المشاورة كما يحبها محمد.

وكانت أخلاق الكرم تحول بين الرسول والسخرية المبتذلة أو القاسية ولكنه كان مرحا يحب المداعبات التى لا يحرمها الله والتى فيها شئ كبير من الحق إن لم

لكن الحق بعينه، قال يوما لعمته صفية على سبيل المزاح: لا يدخل الجنة عجوز، فبكت السيدة الكريمة، وكانت قد بلغت من العمر سنا كبيرة، عندئذ أضاف الرسول إلى حديثه: إنهن إنما يدخلنها أبكارا أترابا [1] في الثالثة والثلاثين.

وكان، صلوات الله عليه وسلامه، يقول: حبب إلي ثلاث: النساء، والطيب وجعلت قرة عيني في الصلاة.

وقد بلغ من حبه للصلاة أن تورمت قدماه من طول الوقوف لها، لكنه كان يعتبر الإكثار من الصلاة من خصوصياته كرسول لا يسمح لأحد بأن يتبعه في ذلك، وكان يلوم عبد الله بن عامر، إذ بلغه أنه يقوم الليل مصليا ويقضي النهار صائما، وينصحه بعدم الإكثار من ذلك لكي لا يضعف بصره وتذهب قوته، فضلا عن أن لأهله عليه حقا، وأمره أن يصوم ويفطر، وأن يقوم من الليل مصليا، وأن ينام.

وكان محمد يحب النساء، وقد عاب عليه الكثير من الأعداء ذلك.

وحقا كان محمد رجلا بكل ما في الكلمة من معان خلقية ومادية، ورجولته امتازت بالعفة التي لا تتعارض مع أسباب اللذة البريئة المجردة من الدنس وعلى منواله سلك العرب الذين يمتازون حتى أيامنا هذه بالحياء والعفة الحقيقيين من كل تكلف ورياء، لا كحياة المغالين في الدين وعفتهم المصطنعة المدعاة. وإذا كان محمد قد عقد على ثلاث وعشرين زوجة فإنه لم يتصل إلا باثنتي عشرة منهن، أما الأخريات فتزوجهن لأسباب سياسية محضة، إذ كانت كل القبائل ترغب في شرف مصاهرته، وقد كثرت عليه الطلبات في شأن ذلك، ويروى أن عمرة أخت دحية الكلبي ماتت من شدة الفرحة عندما بلغت أن الرسول قبل الزواج بها.

وكان من حبه للنساء، فضلا عن حبه للإنسانية والعدالة، أن عطف عليهن جميعا وحاول في كل مناسبة إنصافهن، فحرم أول ما حرم وأد البنات، تلك العادة القبيحة القاسية التي تحدثنا عنها فيما سبق ثم وضع حدا لتعدد الزوجات، فجعل العدد الأقصى منهن أربعا، وزاد على ذلك أن نصح المؤمنين بالتفكير في الآية.

«فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع، فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة».

(1) الترب: الشبيه والنظير.

ومن أحاديثه: «أبغض الحلال عند الله الطلاق»، وأتبع ذلك بأن منح المرأة حق المطالبة بالطلاق إن لم يوف الرجل بواجبات الزوجية.

وبفضل تشريعاته الحكيمة أصبحت البنت البالغ تستشار قبل زواجها، وأصبح المهر لا يعطى للأب بل للعروس نفسها، وقد وصف أعداء الإسلام تلك السنة الحكيمة بأنها: «شراء للمرأة»، وهم لم يسمعوا، فيما أظن، ذلك الجواب المفحم الذي يمكن أن يرد به المسلمون عليهم حينما يقولون لهم: إن المهر في بعض الأقطار الغربية يدفعه والد البنت إلى رجلها، وفوق ذلك فالمسلم مكلف بسد حاجات البيت دون أن يكون له أي حق في التصرف في مال امرأته.

ومنح الرسول أيضا المرأة حقا في الميراث، وحقها فيه: نصف حق الذكر، وذلك لأن المرأة لا تدفع مهرا كالرجل وليست مكلفة بحاجات البيت.

وكان الرسول يحب الطيب، لأن الطيب يكمل طهارة المؤمن، ولأن رجلا طيب الريح أولى بالاحترام والتكريم من رجل تفوح منه رائحة منفرة، وكان محمد يحب المسك، ويحرق في بيته الصندل والكافور والمسك: ويدهن شعره بالدهون ثم يرسله على أذنيه في أربع خصل، اثنتين من كل ناحية، ويقص لحيته وشاربه بمقص، ويمشطهما بمشط من العاج أو من قشر السلحفاة. ويكتحل، لأن الكحل يقوي البصر وينمي شعر العين، ويستاك كثيرا بسواك من شجرة الأراك يمضغ طرفه فيصبح كفرشة الأسنان.

أما كساؤه فكان عادة يتألف من قميص من القطن قصير الكمين غير سابغ الصدر، ومن بردة من نسج عمان طولها أربع أذرع وعرضها اثنتان، وكان له كذلك بردة يمانية طولها ست أذرع وعرضها ثلاث، كان يرتديها أيام الجمع والأعياد، وكانت له بردة ثالثة حمراء توارثها الخلفاء من بعده، وعمامة سميت بالسحاب آلت إلى صهره علي بن أبي طالب.

وكان النبي يعنى بنفسه عناية تامة، إلى حد أن عرف له نمط من التأنق على غاية من البساطة، ولكن على جانب كبير من الذوق والجمال، وكان ينظر نفسه في المرآة، فإن لم تتيسر نظر في إناء مملوء بالماء الرائق ليتمشط أو ليسوي طيات عمامته التي كان يترك طرفا منها يتدلى بين كتفيه، وهو

ى كل ذلك يريد من حسن منظره البشرى أن يروق الخالق سبحانه وتعالى.

ومع هذا كان يحرم بشدة التغالى فى الملبس، وعلى الخصوص لبس الحرير، حتى لئلا يتيح للأغنياء فرصة التعالى على الفقراء، اللهم إلا إذا دعا لك دعى الضرورة.

وكان عدله ورحمته من الشمول بحيث تناولا الحيوان الأعجم، حتى لقد ال يوما: «بينما رجل يمشى فى يوم شديد الحر، إذا هو بكلب يلهث الثرى ن العطش، فنزع خفه، ثم نزل إلى البئر، فملأ ماء، ثم رقى فسقى الكلب شكر الله له فغفر له».

إن هذه الرحمة، وهذا النور العجيب الذى كان يفيض من شخصية محمد، كانا يجذبان إليه الحيوان، بل حتى الجماد فضلا عن الإنسان، ومن ذلك: أنه عندما رقى المنبر الذى أقيم له فى مسجد المدينة ليخطب، كان هنك الجذع الذى كان يخطب فوقه من قبل، فسمع له حنين إليه، ولم سكت إلا بعد أن مسته أصابعه المباركة.

كان النبى صلى الله عليه وسلم، يقوم بأعماله الخاصة بنفسه: فكان يحلب نه، ويخصف نعله، ويرقع ثوبه، ويطعم إبله، وينصب خيمته، ويمارس ما سواها من الأعمال دون الاستعانة بأحد، وكان يحمل بنفسه ما يشتريه ن السوق، وأراد يوما بعض المؤمنين أن يحمل عنه متاعا فقال له: صاحب الشئ أحق بحمله»، وبهذه القدوة أراد أن يقضى على تلك العادة لتى كان يسير عليها أولئك الأغنياء الذين يشترون مع السلع ما يوقرون به ظهور خدمهم دون أن يبدوا عطفا عليهم.

وكان يتباعد، إلى أقصى حدود التباعد، عن عرض الدنيا وزينتها، وهذا نص ما قاله فى هذا الشأن، رواية عن عائشة رضى الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنى عرض على أن تجعل لى بطحاء مكة ذهبا، فقلت: لا يا رب، أجوع يوما وأشبع يوما، فأما اليوم الذى أجوع فيه فأتضرع إليك وأدعوك، وأما اليوم الذى أشبع فيه فأحمدك وأثنى عليك»، ... «مالى وللدنيا، إنما أنا فى الدنيا كرجل سار فى يوم صائف فاستظل تحت شجرة حتى مال الفئ فتركها ولم يرجع إليها»، وقال: «اللهم أحينى مسكينا وأمتنى مسكينا واحشرنى فى زمرة المساكين».

أما قناعته، صلى الله عليه وسلم، فكانت مضرب الأمثال، روى: أنه لم يجمع بين صنفين من الطعام فى أكلة واحدة إلا نادرا، فإذا أكل اللحم لم يأكل من التمر، وإذا أكل من التمر لم يأكل لم يأكل معه لحما، وكان يحب اللبن لجمعه بين الرى والإشباع، وكثيرا ما كان الشهر يتلو الشهر دون أن توقد نار فى بيوت النبى لخبز أو طبخ، لا طعام له ولأهله ولا شراب خلالها إلا التمر والماء.

وكان عندما ينال الجوع منه، يشد على بطنه حجرا لتخفيف ألم الجوع، ولقد فارق الدنيا دون أن يشبع من طعام قط حتى من خبز الشعير.

وكان يتأى بجسمه، الذى كان أبدا موضع عنايته بالطهارة الدائمة، عن الرقة والترف: فكان ينام غالبا على حصير خشنة، كثيرا ماترى آثارها العاثرة على جسده، كما كانت وسادته حشية من ليف النخل، وكان سريره عباءة تطوى طيتين، ويروى: أن عائشة طوتها ذات ليلة أربع طيات فغضب النبى إذ أحس بوثارتها، وأمر بإعادتها سيرتها الأولى.

وقبل مماته أعتق كل عبيده، وتصدق بما كان له من المال القليل، حيث رأى أنه لا يليق به أن يلقى ربه وفى حوزته شئ من الذهب، ولما لحق بربه لم يوجد فى بيته سوى ثلاثين وزنا من الشعير، كان قد رهن فيها درعه لأحد التجار.

هذه هى أظهر نواحى صورة النبى التى حفظتها الآثار والسنن.

وإن المسلمين ليعتقدون أنها حق لا ريب فيه، بل هم يرونها أشبه ما تكون بما عناه الشاعر:

إنما مثلوا صفاتك للناس كما مثل النجوم الماء.

وقد دنا هذا اللألاء السماوى المتمارج حتى أصبح فى متناول اليد، ولكنه بقى عزيز المنال على من يريد أن يقبض عليه، وكم يبدو هذا اللألاء باهتا إذا ما قورن بالكوكب الأصيل الذى يرسل وهو يلمع فى قمم السماء بوميضه المتألق.

الفصل العاشر

بسم الله الرحمن الرحيم

قل يا قوم إعملوا على مكانتكم أني عامل فسوف تعلمون

وثبة الإسلام:

عندما رفع الله إليه مؤسس الإسلام العبقري، كان هذا الدين القويم قد تم تنظيمه نهائيا، وبكل دقة، حتى في أقل تفاصيله شأنا.

وكانت جنود الله قد أخضعت بلاد العرب كلها، وبدأت في مهاجمة إمبراطورية القياصرة الضخمة بالشام ،وقد أثر القلق الطبيعي المؤقت، عقب موت القائد الملهم، بعض الفتن العارضة، إلا أن الإسلام كان قد بلغ من تماسك بنائه، ومن حرارة إيمان أهله، ما جعله يبهر العالم بوثبته الهائلة التي لا نظن أن لها في سجلات التاريخ مثيلا.

ففي أقل من مائة عام، ورغم قلة عددهم استطاع العرب الأمجاد، وقد اندفعوا، لأول مرة في تاريخهم، خارج حدود جزيرتهم المحرومة من مواهب النعم، أن يسدلوا على أغلب بقاع العالم المتحضر القديم: من الهند إلى الأندلس.

وقد شغلت، في قوة ، هذه القصة المجيدة تفكير أعظم عباقرة عصرنا هذا، أعني نابليون، الذي كان ينظر دائما إلى الإسلام باهتمام ومودة، فيقول عن نفسه في إحدى خطبه المشهورة بمصر: أنه مسلم موحد !!![1] ، ويذكر الإسلام في أواخر أيامه ، فيرى أنه، إذا طرحنا جانبا الظروف العرضية التي تأتي بالعجائب، فلا بد أن يكون في الإسلام سر لا نعلمه، وأن هناك علة أولى مجهولة جعلت الإسلام ينتصر بشكل عجيب على المسيحية، وربما

(١) عن ج. شرفيس: بونابرت والإسلام

كانت هذه العلة الأولى المجهولة أن هؤلاء القوم، الذين وثبوا فجأة من أعماق الصحاري، قد صهرتهم، قبل ذلك، حروب داخلية عنيفة طويلة، تكونت خلالها أخلاق قوية ومواهب عبقرية وحماس لا يقهر ،أو ربما كانت هذه العلة شيئا آخر من هذا القبيل.[1]

ولذلك كان نابليون يعلم أن وراء خمول العالم الإسلامي، في فترة الإنحطاط، حرائق لا مثيل لها من القوة الفعالة الكامنة فحاول ، في مناسبات متعددة، أن يستميل المسلمين إلى جانبه ببعض المعاهدات، وكان يؤمن بأنه إذا وفق في ذلك يستطيع أن يوقظ الإسلام من سباته، وأن يعبر بمعونته وجه الأرض قاطبة.

ولم يكن نابليون مخطئا في ظنه، فقد كانت الحروب الداخلية، حقا، سببا في إظهار سجايا البطولة عند العرب لكنها، إلى جانب ذلك، كانت حجر عثر في سبيل كل تقدم وكل نظام، ولولا نبوة محمد لظل هؤلاء الجنود البواسل إلى آخر الزمن في صحاريهم لا يشغلهم شاغل سوى الفتن المتوارثة.

وجاء الإسلام فوضع حدا للتفاخر بالألقاب والنسب أو الجنس، وجعل من المؤمنين أخوة حقا، ونفخ فيهم روحا جديدة كلها مساواة[2] وتقوى وشاعرية. فمن أروع أعمال البطولة التي استطاع هؤلاء القوم، ذوو النفوس الحماسية والقلوب المنيعة، أن يقوموا بها بعد ذلك !... ولم تكن هذه الكنوز من القوة والحيوية المدخرة، خلال عصور تقضت في الحروب الأهلية الطويلة، هي الذخيرة الوحيدة التي يفضلها دوخ العرب كل هذه الشعوب التي تختلف عنهم كل الاختلاف وتعوقهم – في هذه الفترة– حضارة فقد تراكمت في مخيلاتهم، طوال قرون التأمل بين أحضان الصحارى الشاسعة القاحلة، كنوز أخرى من الأحلام والآمال: أحلام أمة شابة فتية– وإن كانت غير متمدينة – وآمالها. وسوف ترى هذه الأحلام والآمال تفرض فرضا على سائر تلك الشعوب التي كانت ثقافتها شائخة منهوكة.

(١) عن: لاس كازاس (مذكرات سانت هيلين، ج٣، ص ١٨٣)

(٢) في الآثار الإسلامية : إن أكرمكم عند الله أتقاكم – لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى . كلكم لآدم وآدم من تراب . رب أشعث أغبر ... لو أقسم على الله لأبره. يا فاطمة بنت محمد لا أغني عنك من الله شيئا .. الخ

وإذا لنتصح لمن يستريبون في عبقرية العرب بتصفح مجموعة من الرسوم التي تمثل المباني التي خلفوها منثورة في جميع أنحاء البلاد الخاضعة لهم، لا شيء يستلفت النظر مثلما تستلفته وحدة الأسلوب المعماري التي تميز هذه الآثار عن غيرها من آثار العالم. ومع ذلك فهذه المباني المتشابهة نجدها قائمة في الهند والتركستان وفارس وتركيا ومصر وشمال أفريقيا وأسبانيا، الخ... أي في بلاد يختلف بعضها عن بعض تمام الإختلاف، ولها حضارتها ذات الطابع الخاص المتميز الذي لم تستطع حضارة أثينا أو روما، أن تؤثر فيه بشكل جدي.

ولقد أخذ العرب كثيرا عن تلك الدول المنهزمة، ولجأوا في أحوال متعددة إلى إستخدام فنييها، بل عمالها، لإنشاء قصورهم ومساجدهم، ولكنهم كانوا دائما لا يحققون بما أخذوا عنها إلا أحلاما وأفكارا عربية صحيحة...

والأسلوب المعماري العربي نجد طابعه العبقري المبتكر، في أنه دائما يسترشد بفن جديد نشأ مع الإسلام، فن لم يكن له مثيل في الفنون السابقة وكان تحقيقا ماديا لمثل العرب العليا، وإذا صح هذا التعبير. ذلك هو فن الزخرفة الخطية الذي استخدم لتمجيد كلام الله أي آيات القرآن.

وأن هذا الفن الخطي العربي، حتى في حالة اقتصاره على وسائله الخاصة وحدها، لهو من أروع الفنون الزخرفية التي تمخضت عنها مخيلة الإنسان، ولعله الفن الأوحد الذي نستطيع أن نقول عنه دون مغالاة: أن له روحا، فهو كصوت الإنسان يعبر عما في النفس من أفكار، هو لا يستوحي العالم الخارجي - مهما بلغ ذلك العالم من التنظيم والتنسيق - في شيء، وهو بذلك ينتسب إلى الموسيقى، ويبدو وكأنه رمز لمعان تعيش في أعماق القلوب.

أنظر إلى هذه الحروف التي تمتد من اليمين إلى الشمال، في خطوط أفقية سريعة، ثم تدور حول نفسها في تموجات هادئة أو عنيفة، وكأنها في ذلك تسير وفق هوى روح داخلية خفية، ثم ترتفع ثم تتوقف فجأة وتثبت، فخورة، في أشكال مستقيمة متقاطعة... ثم إذا بها تعود إلى الإندفاع في جموح، وتحل ما أنعقد من أشكالها، ويداعب بعضها البعض في مرح لذيذ، فيندفع معها الخيال في أحلام لا نهاية لها.

وليس من الضروري أن يكون الإنسان مستشرقا ممتازا أو خطاطا بارعا ليدرك عمق الدوافع التي أدت بالقلم إلى رسم هذه الخطوط، وليتمتع بالنظر إلى أشكالها المجردة أو بالتأمل في العاطفة القوية التي تظهر في أنحنائاتها، فكل روح فنانة لا بد أن تتصل الأسباب - دون جهد - بينها وبين أسرار هذا الفن.

ولقد سعى فن الزخرفة الخطية العربية - بعد أن أصبح تعبيرا صادقا لمثل الأمة العربية - إلى أن يخضع لاتجاهاته، التي يغلب عليها الطابع الديني، كل من شأنه أن يعين على استكماله ووضعه في الإطار المناسب، مرغما فن العمارة والنظم الزخرفية الأخرى على ترسم أساليبه وأشكاله، ولقد خضعت لسيطرته وسلطانه قبة بيزنطة الكروية الثقيلة، فاتخذت هيئة أشبه ما تكون بهيئة الخوذة العربية، وتحولت إنحناءات رواقها الذي لم يكن فيه شيء من العبقرية، إلى أشكال عربية بالغة الروعة، بينما اتخذت الطوابي الرومانية صور المآذن الانيقة التي ترتفع إلى قمم التجلي.

وأخيرا، فإن النظام الزخرفي الوحيد الذي يشابه الزخرفة الخطية العربية في كونه لا يستوحي الطبيعة، وهو الزخرفة الهندسية - ذلك الفن الذي لم يستطع الإغريق واللاتينيون استخدامه إلا في أشكال ضئيلة لا روح فيها - قد دبت فيه بين أيدي العرب حياة جديدة حقا. وقد أطلق على هذا الفن الزخرفي منذ ذلك الحين إسم له دلالته، أرابيسك (arabesque) وراح يتأسى بفن الزخرفة الخطية العربية، في البحث عن أعجب ما يبهر الفكر من أشكال عبقرية يحار العقل في تشابكها الذي لا نهاية له، وفي تحولاتها المفاجئة.

يا لها من آيات غاليات خلفها لنا الفن الإسلامي! إن الهواة الغربيين يتنازعون اليوم آثار هذا الفن غير مباليين بما ينفقونه في سبيلها، وهم يأملون من وراء ذلك أن تدخل معها في بيوتهم المظلمة بعض انعكاسات الأحلام التي استوحوها الفنانون العرب. وأنه لمجد الإسلام، يتغنى به في هذه الديار ما نشهده فيها من تحف تبلغ الغاية من الدقة والجمال والإشراف. وإذا لنرى الذوق الغربي يتجه الآن إلى اقتناء آيات فن الخط العربي الذي - بنقله لكلام

الله – ينفخ روحا قوية في [illegible] أو صنف الآنية. والغربيون في ذلك يترسمون خطى الأ[illegible] عصر الإسلام الذهبي حيث كانوا، في سبيل الحصول على [illegible] مخطوطة بقلم أحد الخطاطين المشهورين، يبذلون مجهودات [illegible] مقارنتها بتلك التي تبذل في أيامنا هذه، لاقتناء تحف [illegible].

ولكن، أيتها الآيات المقدسة [illegible] أصحابك الجدد وتكبيرين إعجابهم العميق بأشكالك [illegible] ألا تكشفين لهم يوما عن سمو جمال روحك الإسلامية ؟

أثر الحضارة الأوربية في أوربا خلال القرون الوسطى وعصر النهضة :

لقد أدهشت كل تلك العجائب [illegible] أهل أوربا، حتى في أعنف أيام عدائهم للإسلام. وقد نقلوا كثيرا من [illegible] في ميدان الزخرفة والمعمار. ولاشك أن دراسة أكثر عمقا لهذا الموضوع، من شأنها أن تبرهن على أن أوربا قد تأثرت بالفنون العربية [illegible] بالفنون الإغريقية واللاتينية. ولكن مثل هذه الدراسة قد تبعدنا [illegible] الغرض الأساسي من هذا الكتاب. ويكفي هنا – على سبيل المثال [illegible] – بالإشارة إلى المؤرخ (دولور Duloure) الذي يقول إن مهند[illegible] قد عملوا في بدء كنيسة نوتردام بباريس.

أما في ميدان العلوم، فإن أثر [illegible] لم يكن بأقل خصبا، ولا نرى من وسيلة لتوضيح هذا أفضل من نقل رأي الدكتور جوستاف لوبون في ذلك، ونجده في كتابه القيم : حضارة العر[ب].

ويعزى إلى بيكون، على العموم، [illegible] أول من أقام التجربة والملاحظة، اللتين هما أساس المناهج العلمية [illegible] مقام الأستاذ. ولكنه يجب أن نعترف، قبل كل شيء، بأن ذلك [illegible] من عمل العرب وحدهم. ويقول العلامة الشهير همبولد، بعد أن [illegible] ما قام على التجربة والملاحظة هو أرفع درجة في العلوم : أن العرب ارتقوا في علومهم إلى هذه الدرجة[1] التي كان يجهلها القدماء تقريبا.

وكانت دراسة العلوم الرياضية من الدراسات الدائمة لديهم، وقد تقدم علم الجبر بفضلهم حتى إذا قيل إنهم مخترعوه. لقد كان لهم أيضا قصب السبق في تطبيق الجبر على الهندسة، وهم الذين أدخلوا التماس في حساب المثلثات.

وكان علم الفلك يدرس في حماس في مدارس بغداد وسمرقند والقاهرة

---

(١) يقول الدكتور هيكل في كتابه عن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم:

لست مع ذلك أحسب أني أوفيت على الغاية من البحث في حياة محمد، بل لعلي أكون إلى الحق إذا ذكرت أني بدأت هذا البحث بالعربية على الطريقة الحديثة. وقد تأخذ القارئ الدهشة إذا ذكرت ما بين دعوة محمد والطريقة الحديثة، ولكنها حقيقة علمية [illegible] لم يتثبت البحث العلمي تسرب الخطأ إلى ناحية من نواحيها العلمية من شبه قوي. فهذه الطريقة العلمية تقتضيك إذا أردت بحثا أن تمحو من نفسك كل رأي وكل عقيدة سابقة في هذا البحث، وأن تبدأ بالملاحظة والتجربة ثم بالموازنة والترتيب ثم بالاستنباط القائم على هذه المقدمات العلمية. فإن وصلت إلى نتيجة من ذلك كله كانت نتيجة علمية [illegible] بطبيعة الحال للبحث والتمحيص، وهذه الطريقة العلمية هي أسمى ما وصلت إليه الإنسانية في سبيل تحرير الفكر، وما هي دون مع ذلك طريقة محمد وأساس دعوته.

ويعقب فضيلة الأستاذ الأكبر المرحوم الشيخ المراغي على هذا الرأي فيقول:

أما أن هذه الطريقة طريقة القرآن فذلك حق لا ريب فيه، فقد جعل العقل حكما والبرهان أساس العلم، وعاب التقليد وذم المقلدين، وأنب من يتبع الظن وقال : إن الظن لا يغني من الحق شيئا وعاب تقديس ما عليه الآباء، وعرض الدعوة بالحكمة لمن يفهمها. ولم تكن معجزة محمد – صلى الله عليه وسلم – القاهرة إلا في القرآن. وهي معجزة عقلية. وما أبدع قول البوصيري:

لم يمتحنا بما تعيا العقول به ... حرصا علينا فلم نرتب ولم نهم.

وأما أن هذه الطريقة حديثة فهذا ما يحتاج عنه. وقد سبق [illegible] غيره من العلماء في هذا : ذلك لأنها طريقة القرآن كما اعترف هو، ولأنها طريقة علماء سلف المسلمين. أنظر إلى كتب الكلام تراهم يقررون أن أول واجب على المكلف معرفة الله. فيقول آخرون : لا ! إن أول واجب هو الشك. ثم إنه لا طريق للمعرفة إلا البرهان وهو أن كان نوع من أنواع القياس إلا أنه يجب أن تكون مقدماته قطعية حسية، أو منتهية إلى الحس ؛ أو مدركة بالبداهة أو معتمدة على التجربة الكاملة أو الاستقراء التام، على ما هو معروف في المنطق وكل خطأ يتسرب إلى إحدى المقدمات أو إلى شكل التأليف مفسد للبرهان.

وقد جرى الإمام الغزالي على الطريقة نفسها، وقد قرر في [illegible] كتبه أنه جرد نفسه من جميع الآراء، ثم فكر وقدر ورتب ووازن، وقرب وباعد، وعرض الأدلة وهذبها وحللها، ثم اهتدى بعد ذلك كله إلى أن الإسلام حق وإلى ما اهتدى إليه من الآراء. وقد نص هذا نيجابي –

وفاس وطليطلة وقرطبة وغيرها... تلك المدارس التي وصلت إلى اكتشافات عديدة يمكن ايجازها في القائمة التالية : إدخال خطوط التماس في الحسابات الفلكية، ووضع جداول لحركة الكواكب، وتحديد سمت الشمس تحديدا دقيقا وتدرجه وتقدير تقدم الإعتداليين تقديرا صحيحا، وأول تحديد صحيح لمدة السنة. ثم إننا مدينون لهم أيضا بإثبات ما في أكبر خط عرض للقمر من مزوبة عدم الإنتظام، وإستكشاف عدم التساوي القمري الثالث المعبر عنه اليوم بالتغيير.

وكان النصيب الذي أسهم به هؤلاء الرواد الذين يمتازون بالجرأة والإقدام نصيبا ضخما : فمن الناحية العلمية كانت لديهم هذه التحديدات الفلكية الصادقة التي هي أساس للخرائط، كما عملوا على تصحيح الأخطاء الفاحشة التي وقع فيها الإغريق.

أما من ناحية كشف بقاع العالم المجهولة فقد نشروا رسائل في الرحلات تعرف الناس بأقطار العالم المختلفة التي كانت شبه مجهولة من قبل، والتي لم يسبق للأوربيين إرتيادها.

وأننا نجد في خريطة من خرائط الإدريسي ترجع إلى عام ١١٦٠، منابع النيل بين البحيرات الإستوائية الكبرى مرسومة رسما دقيقا، وهي تلك المنابع التي لم يكشفها الأوربيون إلا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

وسجل مكتشفاتهم في ميدان العلوم الطبيعية أعظم من ذلك. والبيان التالي يوضح أهمية هذه المكتشفات.

معلومات عالية في نظريات علم الطبيعة، وخاصة فيما يتعلق بالمسائل الصوتية – احتراع أجهزة إبية من أبدع ما يكون – اكتشاف أعلق الإجسام بأصل علم الكيمياء، مثل الكحول والحامض الكبريتي، وأهم العمليات الأساسية في هذا العلم، كالتقطير – تطبيق الكيمياء في ميداني الصيدلة والصناعات، وخاصة فيما يتعلق بإستخراج المعادن وصناعة الفولاذ، والصباغة وغير ذلك.... – صناعة الورق من الخرق، والإستعاضة به عن رق الغزال وورق البردى والحرير الصيني – ومن المحتمل أنهم أول من استخدم البوصلة في الملاحة ومن المحقق أنهم أدخلوا هذا الإختراع الأساسي في أوربا – وأخيرا، فهم قد إكتشفوا الأسلحة النارية : ففي عام ١٢٠٥ إستخدم الأمير يعقوب المدفعية في حصار مدينة المهدية ؛ وفي عام ١٢٧٣ أستخدمها السلطان ابو سيف في حصار مدينة سجلماسة. وقد حضر كونت دربي وكونت سلسبري الإنجليزيان في حصار مدينة الجزيرة التي دافع عنها العرب بالمدافع، فشاهدوا نتائج استخدام البارود، فنقلا ذلك الإختراع إلى بلادهم فاستخدمه الإنجليز في معركة كريس بعد ذلك بأربع سنوات.

وأما فيما يتعلق بالطب، فقد استوحى العرب، أولا، كتب الإغريق، ثم ساروا بهذا الفن خطوات هامة إلى الإمام.

وتكاد تكون سائر المعارف الطبية في أوربا، خلال عصر النهضة، مأخوذة عن العرب. وأهم ما حققه العرب في ميدان الطب يتعلق بالجراحة ووصف الأمراض، وبالأدوية والصيدلة. وقد إبتكروا وسائل علاجية متعددة، ظهر بعضها في العالم الطبي حديثا بعد أن قضت عليها قرون من النسيان؛ مثال ذلك استخدام الماء البارد للطب للحمى التيفودية.

والطب مدين لهم بكثير من المواد الطبية مثل حبير الشنبر والسنى المكي والرواند والتمر هندي والكافور والكحول والقلي، وغير ذلك... وإننا مدينون لهم بكثير من المستحضرات المستعملة اليوم، مثل الأشربة وصنوف اللعوق واللزق والمراهم والأدهان والماء المقطر، وغير ذلك...

وكذلك الجراحة، كان للعرب الفضل في تقدمها الأول : فكانت مؤلفاتهم

– التقليد، وليكون إيمانه إيمان المستوثق المعتمد على الدليل والبرهان؛ ذلك الإيمان الذي لا يختلف المسلمون في صحته ومجاة صاحبه

وأنت واجد في كتب الكلام في مواضع كثيرة حكاية تجريد النفس عما ألفته من المعتقد، ثم البحث والنظر، فطريق التجريد طريق قديم، وطريق التجربة والإستقراء طريق قديم، والتجربة والإستقراء التام رأينا الملاحظة فليس هناك جديدا عندنا. ولكن هذه الطريقة القديمة بعد أن نسيت في التطبيق العلمي والعملي في الشرق، وبعد أن تفشى التقليد وأهدر العقل، وبعد أن أبرزها الغربيون في ثوب ناصع وأفادوا منها في العلم والعمل، رجعنا نأخذ عنهم ونراها طريقة في العلم جديدة

هذا القانون العلمي في البحث معروف قديما وحديثا ومعرفته سهلة ولكن العمل عسير. ولا يتفاوت الناس كثيرا في معرفة القانون، ولكنهم يتفاوتون جد التفاوت في تطبيق القانون.

من مقدمة للأستاذ المرحوم الشيخ محمد المراغي لكتاب حياة محمد للدكتور هيكل)

هي المراجع الأساسية التي تدرس بالمعاهد الطبية إلى عهد قريب جدا. لقد كانوا – في القرن الحادي عشر الميلادي – يعرفون علاج الماء الذي ينصب في العين (الكاتاركتا) بالتحويل أو استخراج البلورية، ويعرفون كيفية تفتيت الحصاة وعلاج النزيف بصب الماء البارد، كما كانت لهم خبرة باستخدام الكاويات والإحرمة والكي بالنار لتطهير الجراح. وأن التخدير الذي يظن الناس أنه اكتشاف حديث يبدو أن العرب لم يجهلوه، فقد كانوا يوصون باستعمال نبات الزوان – قبل العمليات المؤلمة – لتنويم المريض حتى يفقد الوعي والحساسية.

وكانت لهم أيضا ثقة عظمى في الوسائل الصحية لعلاج الأمراض، وكانوا يعتمدون كثيرا على القوى الطبيعية. الطب النظري، الذي يبدو اليوم وكأنه الكلمة الإخيرة للعلم الحديث، يوافق هذه الفكرة في استدلالاته...

اثر المسلمين في ميدان الفكر

ولعل اثر المسلمين في ميدان الفكر كان أخطر شأنا. فقد دعا عيسى إلى المساواة و الإخوة، أما محمد فوفق إلى تحقيق المساواة والإخوة بين المؤمنين اثناء حياته.

وأنه يكون من الحمق أن نزعم أن الإسلام أثر، مباشرة، في خطط الثورة الفرنسية التي كان رجالها يجهلون معظم ما قام به محمد في سبيل المساواة بين الناس.

ولكننا نستطيع أن نبرهن على أن المحاولات الأولى في السعي إلى تحرير الفكر كانت أثرا منطقيا للمبادىء التي جاء بها محمد : فإلى الفيلسوف المسلم ابن رشد الذي–عاش في أسبانيا من سنة ١١٢٠ إلى سنة ١١٩٨ – يرجع الفضل في إدخال حرية الرأي (التي يجب أن لا نخلط بينها وبين الإلحاد) في أوربا.

وقد عارض ابن رشد وحدة الوجود القديمة والتجسيم المسيحي بعقيدة الإيمان بالله وحده في الإسلام، وقد تحمس أحرار الفكر في العصر الوسيط الأوربي لشروحه لأرسطو، وإن كانت هذه الشروح مصبوغة بصبغة

إسلامية قوية. ويمكن أن نعتبر، بحق، أن التيار الفكري الذي نشأ عن هذا التحمس لابن رشد كان أصل التفكير المنطقي الحديث، فضلا عن كونه أصل الإصلاح الديني.

اثر الأخلاق الإسلامية:

ولم يكن أثر الأخلاق الإسلامية بأقل من ذلك شأنا في أوربا، فقد كان العرب يمتازون، إلى جانب روح التسامح الديني (التي سوف نتحدث عنها فيما بعد) بأخلاق العروسية القوية، وفي ذلك يقول الكاتب الأسباني الكبير بلاسكو ايبانيز في قصته في ظل الكنيسة :

لقد نشأت روح (الفروسية) بين عرب أسبانيا وأخذها عنهم فيما بعد، أهل الشمال زاعمين أنها طبيعة من طبائع الأمم المسيحية.

ولنذكر في هذا الصدد مرة أخرى ملاحظات الدكتور جوستاف لوبون، إذ يقول:

لقد كانت للفروسية العربية أصولها، كما للفروسية المسيحية التي جاءت بعدها ؛ فلم يكن للمرء فارسا إلا إذا تحلى بالخصال العشر التالية: الصلاح، والكرامة، ورقة الشمائل، والقريحة الشعرية، والفصاحة، والقوة، والمهارة في ركوب الخيل، والقدرة على استعمال السيف والرمح والنشاب...

وقد حاصر والي قرطبة، في سنة ١٣٣٩ مدينة طليطلة التي كانت بيد النصارى، فأرسلت إليه الملكة بيرانجير التي كانت فيها، رسولا يبلغه أنه ليس من مروءة فارس كريم رقيق الشمائل أن يحارب إمرأة، فأرتد القائد العربي من فوره، ولم يطلب مقابل ذلك سوى أن يشرف بتحية الملكة.[١]

(١) يقول المؤلف في رسالته أشعة خاصة بنور الإسلام ما يلي:

وقد حفظ لنا التاريخ في سجلاته عن فروسية العرب وروحهم العالية جميع أدلة العظمة الموشاة بالرقة والتهذيب، وقد ذكر منها الكثير ولصف باشا بطرس غالي في كتابه فروسية العرب المتوارثة وهو إن كان قبطيا مسيحيا فإن لأقواله قيمة عظيمة وهي الرد الصحيح على ما جاء به (بيرون) من الإدعاءات والتعصب.

يقول واصف باشا : كان محمد يحب النساء ويحبهن، وقد عمل جهد طاقته لتحرير هن،

«وسجلات تاريخ العرب بإسبانيا حافلة بمثل هذه النوادر التي تبين كيف كانت أخلاق الفروسية هذه دائمة بينهم. ويعترف عالم قوى الإيمان هو بارتليمي سانت هيلير، في صدق وصراحة، بما تدين به الأخلاق الأوربية للعرب، إذ يقول في كتابه عن القرآن: عندما اتصل الأوربيون بالعرب ولقدوا بهم، لأنت العوائد الخشنة لدى أشراف القرون الوسطى القساة، وتطلع أهل الفروسية – دون أن يفقدوا لذلك طبائع الشجاعة والنخوة – إلى عواطف أرق من عواطفهم وأشرف وأليق بالإنسانية. ومن المشكوك فيه أن تكون المسيحية، مهما بلغت تعاليمها من السمو، هي وحدها التي أوحت إليهم بكل هذا.

السبب في إنكار علماء الغرب آثار الإسلام في الحضارة الغربية:

ولعل القارئ يتساءل، والظروف كما ذكرنا، عن السبب في إنكار كل أثر للإسلام لدى علماء يبدو أن روحهم العلمية تخرج بهم عن كل تعصب ديني.

وتفسير ذلك: أن الواقع يشهد بأن حرية الرأي مسألة ظاهرية أكثر منها حقيقية، وأن الإنسان ليس حر التفكير على الإطلاق كما يشاء في مسائل معينة، ثم أن التعصب الموروث لدى المسيحيين ضد الإسلام وأتباعه، قد عاش فيهم دهورا طويلة، حتى أصبح جزءا من كيانهم.

فإذا أضفنا إلى هذا التعصب الديني تعصبا آخر هو أيضا موروث تزيده

= وربما كان ذلك بالقدوة الحسنة التي أعطتها فوق ما هو بالقواعد والتعاليم التي وضعها، وهو يعد بحق من أكبر أنصار المرأة العمليين أن لم يكن عظيم الاحترام والتكريم لهن؛ لم يكن ذلك خاصا منه بروجاته، بل كان ذلك شأنه مع جميع النساء على السواء

فهل نستطيع أن نقول شيئا من هذا عن الكثيرين من رجال الكنيسة؟ وقد كان أحدهم سان بونافنتور يقول إلى تلاميذه: إذا رأيتم امرأة فلا تحسبوا أنكم ترون كائنا بشريا، ولا كائنا وحشيا، وإنما الذي ترون هو الشيطان بذاته والذي تسمعون هو صفير الثعابين

الأجيال المتتالية تمكنا من النهوض بفصل مناهج الدراسات القديمة التي تسير عليها مدارسنا، وهو أن كل العلوم والآداب الماضية يرجع الفضل فيها إلى الإغريق واللاتينيين وحدهم، أدركنا، في يسر، كيف ينكر الناس، عامة، ذلك الأثر العظيم الذي كان للعرب في تاريخ الحضارة الأوربية.

وسوف يبدو دائما لبعض العقول أنه من المهانة أن تدين أوربا المسيحية للمسلمين بإخراجها من ظلمات البربرية والتوحش...

سبب تدهور المسلمين:

ولعلنا بعد هذا نتساءل: لماذا، إذن، وقع المسلمون في مثل هذا التدهور السريع بعد أن ظل الإسلام طوال قرون ثمانية يجعل من إسبانيا الخاضعة له أرفع الأمم العربية حضارة، ويرسل نوره الذي لا يخفت، في أرجاء العالم، من دلهي ويخارى إلى القسطنطينية وفارس؟

السبب الأول نجده في الخروج عن مبادئ المساواة التامة الشاملة التي بذل الرسول كل جهده خلال سني حياته في غرسها، والتي كانت سبب انتصاراته وانتصارات الخلفاء الأول. ولنضرب لذلك مثلا يوضح كيف كانت هذه المبادئ تطبق في شدة بالغة في الصدر الأول للإسلام؟

لطم جبلة، أحد الأمراء الأقوياء المعتدين بأنفسهم، عقب إسلامه، رجلا من البدو، زاحمه في الكعبة، لطمة عنيفة، فأمر الخليفة عمر أن يضرب البدوي الفقير، الأمير جبلة مثلما ضربه. ولم يأبه عمر في حكمه بمكانة المذنب ولا بخطورة إغضاب رجل له من الشأن ما لجبلة، بل رأى أن كرامة الإسلام ومستقبله يقتضيان تطبيق المساواة أمام القانون قبل أي اعتبار آخر.

وبفضل هذه المبادئ القوية التي لا تلين لأحد أن يفخر إلا بما عمل، وأدى التنافس بين المسلمين في سبيل إعلاء كلمة الإسلام إلى ضروب من

المعجزات. ولم يرق إلى مناصب القيادة سوى الجديرين بها ؛ وكان الناس يطيعون قادتهم في كل صغيرة وكبيرة، لأنهم كانوا يحترمونهم ويجلونهم مخلصين.

ولكن للأسف، لم يحافظ المسلمون محافظة كاملة على هذه المبادىء الأساسية لدين محمد إلا لفترة قصيرة. ولقد رأينا التفاخر بالأنساب والقبائل يظهر من جديد بآثاره الهدامة في عهد عثمان ثالث الخلفاء. وأضاع الناس حكمة محمد التي تجلت في وصيته لابنته المحببة فاطمة الزهراء : يا فاطمة بنت محمد أنقذي نفسك من النار فإني لا أغني عنك من الله شيئا. فقد ذهب أناس، هم دون ذلك شأنا، إلى الفخر بآبائهم، إلى احتقار إخوانهم في الإسلام الذين ينتسبون إلى الطبقات المغمورة، وظنوا أنهم معفون، لعراقة أصلهم، من الجهاد في سبيل الله وفي سبيل الرزق، ذلك الجهاد الذي بدونه لا يمكن تحقيق أي تقدم. وبالإضافة إلى ذلك ثارت المنافسات بين الذين يعتمدون في حياتهم على مكانة أجدادهم أكثر مما يعتمدون على أعمالهم الشخصية، وكانت نتيجة ذلك قيام الفتن الأهلية التي تكاد تكون، في عنفها واتصالها، مشابهة لما كان منهم في الجاهلية.

وترتب على ذلك أن تفكك النظام، وظهرت من جديد تلك الفوضى العامة الشاملة، التي كانت تشل أيدي العرب عن كل عمل مجد في عصور ما قبل الإسلام. وفقد المسلمون حب الإستطلاع، وفرقت بينهم وأنهكت قواهم الحروب الداخلية، فلم يستطيعوا، إلا قليلا، أن يقاوموا المسيحيين الذين انتهزوا فرصة هذه الفوضى بين المسلمين، لينظموا أنفسهم وليحلموا بالأخذ بثأرهم.

ولم يكن الإسلام، سواء في ماضيه أو في حاضره، ليصاب بتلك النكبات لو أن المسلمين عملوا دائما بتلك الوصية التي أوصاهم بها الرسول في خطبته : يا أيها الناس إنما المؤمنون إخوة .

أما السبب الثاني في تدهور العالم الإسلامي فهو ناتج عن التخلي عن إحدى المميزات الأساسية للإسلام، وهي التوافق التام بين العقيدة – التي تكاد تكون خالية من كل ما هو غير طبيعي – وبين ضرورات المنطق،

وكان لتلك الميزة في العهد الأول أثر بعيد في تقدم العلوم التي لم تعقها أية معتقدات خرافية، وهذا يكفي لتفسير التطور السريع الذي تطورته الحضارة الإسلامية. لكن الروح الإسلامية العلمية خمد حماسها شيئا فشيئا مكتفية بالنتائج الباهرة التي حصل عليها المسلمون في حمية النشاط الذي كان في القرون الأولى للهجرة. ومنذ ذلك العهد والإسلام وقع تحت رحمة النزعات الخرافية والإشتراكية في الأقطار الحديثة العهد به، فقد حلت عبادة القديسين والشفعاء من الأولياء و الوسطاء ، و المرابطين، تلك العبادة المأخوذة عن المسيحية، والتي حرمها القرآن تحريما قطعيا، محل عبادة العلم، وشلت بخرافاتها الكثيرة التي لا منطق فيها، كل تقدم. وقد حاول الفلاسفة من أمثال ابن رشد أن يقاوموا هذا التيار، ولكن الفرصة كانت قد فاتتهم. ثم إنتشر هذا الداء واستفحل في الناس بقوة، حتى رموا كل مصلح بالخروج عن الدين وطالبوا بتكفيره.

وهذان السببان لتدهور العالم الإسلامي يعتبران من الأسباب القديمة وتظهر فيهما جليا المخالفة الصريحة لتعاليم الدين الصحيح. لكن هنالك على عكس ذلك سبب يرجع إلى القرن التاسع عشر فقط، وقد يبدو أنه ليس فيه خروج عن نص الكتاب المقدس – أن لم يكن عن روحه – ذلك هو الأثر الناتج عن تحريم أخذ الفائدة عن أي مال يقرض لأي سبب كان ذلك [1]

الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس، ذلك بأنهم قالوا : إنما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرم الربا....

وإننا لا نناقش هنا صحة المبدأ، فذلك شيء لا يقبل المناقشة، وأنه، حتى أوائل القرن المنصرم، لم تكن الآثار الضئيلة، بالنسبة إلى المسلمين، المترتبة على استعمال اليهود والمسيحيين للفائدة في البلاد الإسلامية، لتقارن هذا

---

(١) يحاول كثير من الكتاب في العصر الحاضر – مخلصين – أن يوجدوا في التشريع الإسلامي ثغرة ينفذون منها إلى تحليل التعامل مع البنوك زاعمين أن هذا ليس هو الربا الذي حرمه الله، ذلك أن الربا الذي حرمه الإسلام في نظرهم هو الذي حدده القرآن بأنه أضعافا مضاعفة أما التعامل مع البنوك فمن نظام اقتصادي سليم

ولكن الأئمة السابقين جميعا قد حرموا الفائدة مهما ضؤلت قيمتها، مفرقين بين النظام الإسلامي : نظام الإخوة والتعاون والتعاطف، وبين النظام المادي الذي لا يعرف أخوة ولا تعاونا ولا عطفا

المبدأ القرآني الجمة ولكن القرض أصبح اليوم من المقومات الأساسية في كل المشاريع الضخمة، وأصبحت البنوك صاحبة السلطة الحقيقية في العالم، ولذا وجد المسلمون أنفسهم، مؤقتا، يسيرون إلى الإفلاس الإقتصادي والسياسي، بسبب تفسيرهم المبالغ فيه لهذه الآيات.

مستقبل أمة الإسلام :

هذه هي، في رأينا، الأسباب الثلاثة الأولى للتدهور الإسلامي، فهل هذا التدهور لا علاج له ؟ وهل حكم على الثلاثمائة مليون من المسلمين المنتشرين على سطح الكرة الأرضية بأن يظلوا إلى الأبد على هذه الحالة المحزنة التي قسمت لهم بعيدين عن الحضارة الحديثة ؟

أنا لا نرى ذلك.

فبالنسبة إلى السببين الأولين نجد العلاج غير معقد : أنه في الرجوع إلى المبادىء الصحيحة التي جاء بها الرسول.

أما فيما يتعلق بالمسألة الثالثة فحلها في تفسير نص الآيات تفسيرا قد يكون أقل تمسكا بالحرفية، ولكنه لا شك يتمشى مع روح الكتاب في أمانة وقد فهم ذلك المسلمون المستنيرون جيدا، فحرصوا على عدم الخلط بين الإجراءات المالية في البنوك، وبين أعمال الربا الحقيرة التي حرمها النبي.

وأخيرا فأن الجراح التي أصابت الإسلام، خلال نصف القرن الأخير، قد أيقظته من سباته، وأقنعته هزيمته الأخيرة نفسها بضرورة تبني الوسائل العلمية التي يستخدمها أنصاره. وتذكر المسلمون أحاديث الرسول :

- اطلبوا العلم ولو بالصين
- العلم خير من العبادة
- يوزن يوم القيامة مداد العلماء ودم الشهداء، فيرجح مداد العلماء على دم الشهداء.

ولقد قام مصلحون عباقرة من أمثال الشيخ محمد عبده برسم السبيل الذي يجب على المسلمين أن يسيروا فيه، مبرهنين على أنه يمكن التوفيق بين

محمد وبين مقتضيات الحضارة الحديثة. ولم يمض طويلا وقت حتى ذهب الكثير من الشباب في سائر البلاد الإسلامية إلى التنعم على الطريقة الأوربية في سهولة تكيف عجيبة، دون أن يفقدوا شيئا من عناصر قوميتهم الأصيلة. وسوف نرى عما قريب العديد من المسلمين يحتلون مكانهم في العالم الحديث، ولا يهابون أن ينافسوا رجال الغرب في ميدان الحضارة العصرية[1]

لقد اعترض على امكانية هذه النهضة الإسلامية بأنه يقف في سبيلها عقبات قوية هي :

عقيدة القضاء والقدر.

والتعصب.

وتعدد الزوجات.

عقيدة القضاء والقدر :

فلنعرض سريعا لهذه المسائل : هل عقيدة القضاء والقدر الإسلامية يمكن أن تتفق مع الجهاد الصحيح في سبيل التقدم ؟

اذا كنا نجد بعض الوجاهة في شيء من النقد الموجه إلى المسلمين في هذا المجال، فلأن بعض المسلمين من امثال اتباع المرابطين، يسيئون فهم التوكل، وعلى أي حال فلم يكن لهذا التوكل الإثر البالغ فيه الذي يراد إلصاقه به. والإسلام ليس فيه من التوكل أكثر مما في مذهب أفكار فعل العزيمة الشخصية والقول بالإسباب الخارجية (determinisme). بل القضاء والقدر فيه يكون أقل خطورة منه في المسيحية لو اتبع المسيحيون حرفية تعاليم الإنجيل الذي يقول :

ولذا أقول لكم : لا يقلقكم أنه تبحثوا عن الجهة التي تجدون فيها ما تأكلون وما تشربون لاستبقاء حياتكم، ولا الجهة التي تجدون فيها الثياب لكساء أجسادكم (أنجيل متى : ٥ : ١٨ و٦ : ٢٥).

(١) حذفنا من هنا بضعة سطور تاريخية لم تعد لها قيمة تذكر بعد مرور كل هذه السنين على تأليف الكتاب

كيف يقول : أن عقيدة القضاء والقدر تشل كل عمل عند المسلمين، والرسول كان أنشط الناس وأكثرهم مثابرة وجهادا، والإسلام هو الدين الوحيد الذي جاء، عقب نشأته مباشرة، بالفتوح العجيبة والحضارة السامية العظيمة؟.. أن كلمة اسلام تعني الرضاء بأوامر الله، أي بما لا يمكن لأي قوة إنسانية أن تحول دونه، ولكن ليس ذلك من معانيها الخضوع للأمور التي يبدو أنها يمكن أن يغير مجراها العمل والإقدام ﴿قل يا قوم اعملوا على مكانتكم﴾.. فهذه العقيدة إذن بعيدة كل البعد عن أن تكون مصدر ضعف. أنها على العكس من ذلك مصدر قوة نفسية لا تضارع بالنسبة إلى المسلم تعينه على احتمال المحن والشدائد(١)

التعصب :

ونعرض بعد ذلك لموضوع التعصب، فنتساءل : ألا يعوق تقدم المسلمين وعلاقاتهم بالمتحضرين من أبناء الأديان الأخرى، تعصب هؤلاء المتحضرين العنيف الذي لا هوادة فيه، والذي هم يرمون به المسلمين؟

والمسألة هنا، هي قبل كل شيء : أن نعرف ما إذا لم يكن هذا التعصب عند المسلمين أسطورة من تلك الأساطير التي لا تحصى، والتي أذاعها بين الناس أعداء الإسلام في القرون الوسطى.

وفيما يلي بعض الوقائع، اخترناها من بين عدد من أمثالها، نسردها هنا ليتمكن القارىء من الحكم في هذا حكما صحيحا.

يروى ابن جرير نقلا عن ابن عباس : أن رجلا من بني سالم بن عوف يقال له الحصين، وله ولدان مسيحيان ، وهو مسلم، سأل الرسول فيما إذا كان يجب عليه اكراه ولديه على اعتناق الإسلام، وهما يرفضان كل دين غير المسيحية، فأنزل الله تعالى الآية الكريمة: لا اكراه في الدين .

وعندما جاء رسل نجران المسيحيون المدينة ليفاوضوا النبي منحهم نصف مسجده ليؤدوا صلاتهم فيه.

(١) فإذا قضيتم الصلاة . الآية. يا أيها الذين النبي حرض المؤمنين على القتال... يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين الآية. فإما تثقفنهم في الحرب . وفي الحديث «اليد العليا خير من اليد السفلى» «ولأن يأخذ أحدكم حبلا» .

وقام محمد يوما لجنازة، فقيل له... أنها جنازة يهودي، فقال : أليست هي نسمة؟.

وهو القائل : من آذى ظلما يهوديا أو نصرانيا كنت خصمه يوم القيامة .قد يدوم الملك على الكفر ولكنه لا يدوم على الظلم .

والمسلمون على عكس ما يعتقده الكثيرون، لم يستخدموا القوة أبدا، خارج حدود الحجاز – أي الأرض الحرام والمنطقة المحيطة بها – لاكراه غيرهم على الإسلام.

وأن وجود المسيحيين في اسبانيا لدليل واضح على ذلك، فلقد ظلوا آمنين على دينهم طوال القرون الثمانية التي ملك فيها المسلمون بلادهم، وكان لبعضهم مناصب رفيعة في بلاط خلفاء قرطبة.

ثم إذا بهؤلاء المسيحيين أنفسهم يصبحون أصحاب السلطان في هذه البلاد، فكان أول هم لهم أن يقضوا قضاء تاما على المسلمين، وقد ألحقوا بهم أيضا اليهود الذين عاشوا فترة آمنة هانئة تحت حكم المسلمين.

وفي كتابه... رحلة دينية في الشرق يشيد الأب ميشون بالحقيقة في صبحته الصادقة . أنه لمن المحزن بالنسبة إلى الدول المسيحية أن يكون المسلمون هم الذين علموها مبدىء التسامح الديني الذي هو الناموس الأكبر للرحمة والإحسان بين الأمم !(١)

وقد يعارض قوم فيذكرون مذابح الأرمن، ويتساءلون : ما القول فيها ؟ والرد على ذلك أن المسلمين الحقيقيين يستنكرون كل شيء من هذا القبيل ما لم تدع إليه الفتن والمؤامرات، تماما كما يستنكر المسيحيون الحقيقيون اليوم مذابح جميع المسلمين في اسبانيا.

والواقع أن مذابح الأرمن لم تكن قط لأسباب دينية، ذلك لأن أتباع دين محمد لم يخطر ببالهم قط أن يعتدوا بأنصار توركويمادا ، فيخيروا الأرمن بين ترك مسيحية إلى الإسلام، وبين أن يحرقوا أحياء .وعلى أي حال، فالمسلمون لا يحسون في أنفسهم أي ميل لرد الناس عن دينهم . وليس لهم مبشرون حقيقيون .وإنما كان الإسلام هو الدين الذي يجذب إليه أكثر الناس

(١) نقلا عن الكونت دي كاستري في كتابه عن الإسلام

في افريقيا وفي آسيا في عصرنا هذا، فذلك – كما لاحظه ملاحظة صحيحة المسيو أ. بوردو – يرجع إلى نوع من الإمتصاص المعنوي [1]

وأن القدوة الحسنة التي لاتقترن بمحاولة التبشير المتعصبة، لهي أقوى أثراً في النفوس التقية من مضايقات القسس المبشرين. لقد اضطر العالم دوزي – رغم تعصبه ضد الإسلام – إلى الإعتراف بأن الكثير من المسيحيين اللذين كانوا في اسبانيا اعتنقوا الإسلام عن عقيدة.

والقاعدة التي يجري عليها المسلم، في علاقاته بأصحاب الديانات الأخرى، هي تلك التي حددها القرآن في الآية التالية: لكم دينكم ولي دين. وكيف لا يكون المسلم متسامحاً، وهو يجل الأنبياء الذين يجلهم اليهود والنصارى! فموسى بالنسبة إليه كليم الله وعيسى روح الله يجب تبجيلهما كما يبجل محمد حبيب الله: لا نفرق بين أحد من رسله.

ولن يجرؤ مسلم قط على التفوه بأقل بادرة في حق عيسى. وكذلك لن يقبل أن يدع أحداً يتفوه بمثل هذا في حضرته، حتى وإن كان من يحدثه من هؤلاء المسيحيين الأصليين الذين يريدون أن يجعلوا من عيسى المسئول عن الأخطاء الكهنوتية، وسب المسيح لا شك يعتبر سباً للإسلام الذي يأمر باحترامه. ولقد اتيح لنا أن نشهد حادثاً عجيباً هو أن قاضياً مسيحياً حكم على رجل مسلم لضربه يهودياً بدرت منه أمامه أقوال نابية الإسفاف في شأن ولادة عيسى.

ولنقارن الآن بين موقف الإجلال هذا الذي يقفه المسلمون من عيسى وبين ما صنعه الأوربيون من سيرة محمد:

ففي العصور الوسطى كان الرهبان يصورونه تارة في صورة صنم وتارة في صورة سكير مدمن... الخ.

ولو أننا أردنا أن نثبت هنا كل ما تمخضت عنه قديماً مخيلات أعداء محمد الخصبة لما انتهينا إلى حد.

لم يكن المستشرقون الأول بأقل عنفاً في مهاجمته من هؤلاء:

(1) عن: أ. بوردو (العرب في افريقية الوسطى).

والعالم جانييه، في القرن الثامن عشر، يعيب على القس المراكشي والدكتور بريدو، إسفافهما المتحيز ضد محمد، ولكنه فيما بعد يسف أكثر من إسفافهما، ويصف محمداً بأبعد الأوصاف عن سيرته. ومع هذا فالعالم جانييه يزعم أنه معتدل كل الإعتدال في حكمه.

ومن زمن بعيد وأعداء الإسلام يلحقون الأذى بأصحاب محمد أيضاً. وقد ألف بعضهم تلك الإسطورة الدائعة التي تقول بأن الخليفة عمر أحرق الإسكندرية، ولم يكن غرضهم من ذلك إلا أن يجعلوا الناس تنسى العمل الوحشي الذي قام به الكاردينال كسيمينيس من احراق دور الكتب البديعة التي كانت للمسلمين باسبانيا. وهم في زعمهم هذا يبدون استخفافاً لا حد له بوقائع التاريخ: ذلك أن مكاتب الإسكندرية قد خربت قبل مجيء الإسلام بقرون متعددة، وأولى هذه المكاتب هي مكتبة البروخيوم التي كانت تحتوي على اربعمائة ألف مجلد، وقد احرقت أثناء الحرب التي نشبت بين قيصر والإسكندريين! وثاني المكاتب هي مكتبة السرابيوم التي ضمت في يوم من الأيام مائتي ألف مجلد أوصى بها لها أنطونيوس، وقد نهبت هذه المكتبة وخربت تماماً في عهد ثيودوريوس.

وقد أشات هذه الخرافات السخيفة تتلاشى في أيامنا هذه، على أننا نحصل مع فيها من تعصب صريح على تلك الدسائس الخبيثة التي يريد بعض الكتاب الذين لم يتخلصوا بعد من طبائع القرون الوسطى المسيحية، أن يذيعوها – تحت ستار من العلم الإستشراق الظاهري – في حق رجل من الرجال الذين يشرف بهم أكثر من غيرهم تاريخ الإنسانية نفسه.

وقد يسأل سائل: ألا ينتهي الأمر بالمسلمين، بعد أن تبنوا حضارة المسيحيين إلى أن يتدينوا كذلك بالمسيحية؟ ويكفينا للاجابة عن هذا السؤال أن نورد رأي كاتب صريح في اعترافه بالواقع رغم تمسكه الشديد بدينه، ذلك الكاتب هو الكونت دي كاستر، الذي يقول في مؤلف له ممتاز عن الإسلام:

الإسلام هو الدين الذي لا تجد فيه مرتدين... ومن العسير، بل من المحال أن نتصور صورة دقيقة للحال النفسية التي يكون عليها المسلم إذا ما

حاول احد المسيحيين أن يقنعه باعتناق المسيحية. لعلنا نجد صورة مقاربة شيئا ما لهذا، واذا ما تخيلنا احساسات وشعور رجل مسيحي مستنير يحاول احد الوثنيين أن يجذبه إلى اعتناق خرافاته المرذولة [1]

العلة في بغض المسيحيين للاسلام :

فما عسى أن تكون علة ذلك البغض الذي يلاحق به المسيحيون الإسلام، حتى في عصرنا هذا، عصر التسامح – ولا نريد أن نقول : عصر عدم المبالاة بالدين – في حين أن الإسلام يقدم لهم الكثير من الأدلة التي تؤكد احترام عيسى وتبجيله ؟!

هل يكون ذلك لأن الإسلام كانت نشأته في آسيا؟

ولكن، ألم تكن المسيحية، في جوهرها، ديانة آسيوية قبل أن يخلصها بولس القديس من اليهودية ؟ وقال عيسى نفسه : لم ارسل إلا إلى خراف اسرائيل الضالة (أنجيل متى ١٥ -٢٤).

وهل العلة في العقيدة نفسها؟ ولكن عقيدة الإسلام تكاد تكون مماثلة لعقائد بعض الفرق البروتستانتية التي تأثرت بالإسلام فاحتذت حذوه...

أو هل سبب ذلك يرجع إلى الآثار التي خلفتها الحروب الصليبية في النفوس؟

ذلك أمر لا شك فيه ؛ فرغم مضي زمن طويل على هذه الحروب، نجدها لا تزال تفعل فعلها المشئوم في نفوس الكثير من الجهلاء.

ولكن هذا الأمر وحده، ليس بكاف لتفسير ما حكم به على الإسلام في أوربا من نفي وتحريم.

فعلينا اذن أن نبحث عن تعليل آخر، وسوف تتبين جلية الأمر، إذا ما

(١) عن الكونت هنري دي كاستر (الإسلام)

تأملنا المثل الذي تقدمه لنا ديانة أخرى، تقابل حتما في أوربا بمثل ما يقابل به الإسلام من النفور والاضطهاد.

تلك هي ديانة فرقة المورمون وهي من الفرق البروتستانتية. وقد أظهر أصحابها العجب العجاب من قوة العزيمة والذكاء والمثابرة، فأحالت الصحراء، ذات الأرض الملحة الكئيبة التي قطنت بها، إلى بلد خصب زاهر، وكان على اهل أوربا وأمريكا جميعا أن يشيدوا بهذا العمل النافع لحضارة الإنسانية ويبدوا استحسانهم له. ولكن سائر شيع المسيحية، على العكس من هذا، تناست أحقادها الخاصة لتتألب على المورمون، يجمعها في هذا شعور متماثل من الكره لهم.

فماذا كان الجرم الذي اقترفه هؤلاء المورمون ؟

لم يكن لهم من جرم إلا أنهم – كالمسلمين – يستحلون تعدد الزوجات.

ومفتاح هذا السر إذن هو : تعدد الزوجات !

وأن في ذلك لإنذار للأمم الإسلامية بأنها لن تحصل قط، على حق الدخول في زمرة الأمم المتحضرة، ما لم تتنكر لمبدأ تعدد الزوجات !...

تعدد الزوجات :

ولن نخاطر هنا محاولين الدفاع [1] عن عادة يحمل عليها الناس بمثل

(١) لقد دافع المؤلف دفاعا مجيدا عن مبدأ تعدد الزوجات في رسالته القيمة اشعة خاصة بنور الإسلام ونحن ننقل دفاعه الرائع فيما يلي :

مسايرة الطبيعة :

لا يتمرد الإسلام على الطبيعة التي لا تغلب، إنما هو يساير قوانينها ويزامل ازمانها، بخلاف ما تفعل الكنيسة من مصادمة الطبيعة ومصادمتها في كثير من شئون الحياة : مثل ذلك الفرض الذي تفرضه على ابنائها الذين ينتحلون الرهبنة، فهم لا يتزوجون، أما يعيشون عزبا.

وعلى أن الإسلام لا يكفيه أن يساير الطبيعة، وأن لا يتمرد عليها، وأنما هو يحمل على نواميسها ما يجعلها اكثر قبولا وسهل تطبيقها، في اصلاح وتنظيم ورضا ميسور مشكور، حتى لقد سمي القرآن كذلك : بالهدى لأنه المرشد إلى اقوم مسالك الحياة، لانه الدال على أحسن مقاصد الخير.

والأمثلة عديدة لا تحصى، ولكنا نقتصر منها بأشهرها، وهو التسامح في سبيل تعدد الزوجات : وهو الموضوع الذي صادف النقد الواسع، والذي جلب للإسلام في عصره

هذه الشدة، لكننا نقتصر على عرض بعض الملاحظات :

" فالواقع يشهد بأن تعدد الزوجات شيء ذائع في سائر ارجاء العالم، وسوف يظل موجودا ما وجد العالم، مهما تشدد القوانين في تحريمه.

ولكن المسألة الوحيدة هي معرفة ما إذا كان من الأفضل أن يشرع هذا

= اهل العرب مثالب جمة، ومطاعن كثيرة.

ومما لا شك فيه أن التوحيد في الزوجة هو المثل الأعلى، ولكن ما العمل ؛ وهذا الأمر يعارض الطبيعة، ويصادم الحقائق ؛ بل هو المحال الذي يستحيل تنفيذه. لم يكن للاسلام امام الأمر الواقع، وهو دين اليسر، إلا أنه يستبين اقرب أنواع العلاج، فلا يحكم فيه حكما قاطعا ولا يأمر به امرا باتا.

والذي فعله الإسلام أول كل شيء أنه أنقص عدد الزوجات الشرعيات، وقد كان عند العرب الأقدمين مباحا دون قيد، ثم اشار بعد ذلك بالتوحيد في الزوجة في قوله تعالى:

وإن خفتم أن لا تعدلوا فواحدة .

واى رجل في الوجود يستطيع أن يعدل بين زوجاته المتعددات ؟ ولذ كان التعدد بهذا الشرط مستحيل التنفيذ، ولكن أنظر كيف وضعه الإسلام ووضعا هو غاية في الرقة واللباقة والتمشي مع الحكمة.

ثم أنظر هل حمى أن الديانة المسيحية بتحريمها الجبري لفردية الزوجة والتوحيد فيها وتشديدها في تطبيق ذلك، قد منعت تعدد الزوجات ؟ وهل يستطيع شخص أن يقول ذلك دون أن يأخذه الضحك مأخذه ؟

والا فهؤلاء ملوك فرنسا.

– دع عنك الإفراد – الذين كانت لهم الزوجات المتعددات والنساء الكثيرات ؛ وفي الوقت نفسه، لهم من الكنيسة كل تعظيم وإكرام. إن تعدد الزوجات قانون طبيعي، وسيبقى ما بقي العالم، ولذلك فإن ما فعلته المسيحية لم يأت بالغرض الذي ارادته فانعكست الآية معها، وصرنا نشهد الإغراء بجميع أنواعه، وكان مثلها في ذلك مثل الشجرة المعروفة التي حرمت ثمارها فكان التحريم اغراء.

على أن نظرية التوحيد في الزوجة، وهي النظرية الآخذة بها المسيحية ظاهرة تنطوى تحتها سيئات متعددة ظهرت على الأخص في ثلاث نتائج واقعية شديدة الخطر جسيمة البلاء تلك هي (الدعارة والعوانس من النساء والابناء غير الشرعيين)

وأن هذه الامراض الإجتماعية ذات السيئات الإخلاقية لم تكن تعرف في البلاد التي طبقت فيها الشريعة الإسلامية تمام التطبيق وإنما دخلتها وأنتشرت فيها بعد الإحتكاك بالمدنية الغربية ومن الأمثلة القائمة على ذلك بما كان من أمر وادي ميزاب حيث تسكن القبيلة التي بهذا الاسم في بلاد الجزائر فإنه لم تدخلها الدعارة الا بعد ضمها الى فرنسا عام ١٨٨٣ وقد وصل بها الحال اليوم أن أربع بغايا من مجموع كله سبع بغايا قد ابتليت بهذا الداء الوبيل =

المبدا ويحدد، ام أن يظل نوعا من النفاق المستتر لا شيء يقف امامه ويحد من جماحه.

وقد لاحظ جميع الرحالة الغربيين – ونخص منهم بالذكر جيرار دى نيرفال و الليدى مورجان – أن تعدد الزوجات عند المسلمين، وهم يعترفون بهذا المبدأ اقل إنتشارا منه عند المسيحيين الذين يزعمون أنهم يحرمون الزواج بأكثر من واحدة. وليس ذلك بالأمر الغريب على الفطرة البشرية : فالمسيحيون يجدون لذة الثمرة المحرمة عند خروجهم على مبدئهم في هذا.

ولكن هل تعدد الزوجات، حقيقة، امر يصح أن نعلق عليه كبير اهتمام في عصرنا هذا ؟ أن مقتضيات الحياة الحديثة – ولندع جانبا كل الظروف الإخرى – تجعل من العسير جدا وجود تعدد الزوجات في المدن الكبيرة وسوف يزول هذا الأمر بين المسلمين الذين يأخذون باسباب الحضارة الحديثة خلال فترة قصيرة ؛ واذا كان مبدأ التعدد سوف يبقى، فلن نجده مطبقا إلا في

= ومما نرويه من هذا القبيل : ما جاء في كتاب الإسلام تأليف شتمر دومولان أنه عندما غادر الدكتور ماڤروكورداتو الإستانة ١٨٠٧ إلى برلين لدراسة الطب لم يكن في العاصمة العثمانية كلها بيت واحد للدعارة، كما لم يعرف فيها داء الزهرى (وهو المسمى المعروف في الشرق بالمرض الإفرنكي) ، فلما عاد الدكتور بعد اربع سنين اى سنة ١٨٣١ تبدل الحال غير الحال، وفي ذلك يقول الصدر الاعظم الكبير رشيد باشا في حسرة موجعة ؛ أننا نرسل ابنائنا إلى أوربا ليتعلموا المدنيه الإفرنكية. فيعودون إلينا مرضى بالداء الإفرنكي.

على انه من جهة أخرى نرى ان الطلاق قد يخفف بعض الشيء من مضرار هذا التعنت في القصر على زوجة واحدة ولكن من جهة ثانية نرى أن الطلاق مسألة من السيئات ايضا، ماذا ؟ الن اي الاوربية قد خلا [illegible] من بعض السيئات ؟

على أن الكنيسة قد اساءت كذلك في مسألة الطلاق بمثل ما اساءت في امر التوحيد في الزوجة [illegible] بمخالفتها ايضا لنواميس الطبيعة

انظر هل اشد من الحكم على زوجين شابين لم يستطيعا لجنسهما صبرا، وقد خاب ظنهما في الزواج، ولم يترك السعادة [illegible] من [illegible]، هل اشد من الحكم عليهما بأن يظلا متصلين يعيشه أمهما في عذاب ونكد وشقاء ؟ ! كذلك إذا كان احدهما عاقرا، أو كان عبر كفء لزميله، هل [illegible] حرم لاحد من أن يبني نفسه [illegible] [illegible] يفجع به عائلته من جديد ؟ !

[illegible] في صدد الطلاق لا نعرف حكمة التشريع الإسلامي، وهو يرى السوء في فوضى الطلاق، فيسمع النبي الكريم يقول : ابغض الحلال إلى الله الطلاق .

قلب البادية حيث تضطر الناس إليه ظروف الحياة التي لا مفر منها.

ومع ذلك فإننا نتساءل : هل في زوال تعدد الزوجات فائدة أخلاقية ؟

إن هذا أمر مشكوك فيه: فالدعارة التي تندر في أكثر الأقطار الإسلامية سوف تتفشى فيها وتنشر آثارها المخربة. وكذلك سوف يظهر في بلاد الإسلام داء لم تعرفه من قبل، ذلك هو عزوبة النساء التي تنتشر بآثارها المفسدة في البلاد المقصورة فيها الزواج على واحدة، وقد ظهر ذلك فيها بنسبة مفزعة، وخاصة عقب فترات الحروب.

كتب شارل دوماس عن المسلمين، في إحدى دراساته حول مستقبل المستعمرات الفرنسية : أن جنسا لا يمكن أن يتحرر قط إذا قضى على نصفه (يعني النساء) بالرق الأبدي .

الحجاب :

فهل المسلمات حقيقة قد قدر لهن حال من الذلة يرثى لها إلى هذه الدرجة؟ لا شك أن الحجاب وشبه الحبس في البيت المفروضين على المرأة المسلمة، يبدو لعين المرأة الأوربية المغالية في التحرر، أنه من مظاهر الرق البالغ القسوة، فتظهر عطفها على المسلمات وترثى لحالهن، ولكنها لو علمت بما تسره هاتيك المسلمات من مشاعر وأفكار، لعجبت أن رأت نفسها هي الأخرى محل عطف من جانبهن ورثاء، لا موضوع حسد كما كانت تظن. ومن ناحية أخرى فإن التحجب ولزوم البيت ليسا على أي حال من الفروض الدينية بالنسبة إلى المسلمات : فنصوص القرآن (سورة الأحزاب :٥٣، ٥٥) التي تتخذ حجة في ذلك تنطبق فقط على نساء النبي ولا تتعلق بسائر نساء المسلمين، كما توحي بذلك ترجمة كازيميرسكي الخاطئة للآية ٥٥ من سورة الأحزاب.

لذلك فإن مثل هذه التقاليد التي دخلت على الإسلام بعد موت محمد بسنين عديدة، كانت محل نقد شديد من جانب المدافعين عن حقوق المرأة.

ولنذكر من بين هؤلاء :

قاسم (بك) أمين بكتابه تحرير المرأة .

والزهاوي شاعر بغداد برسالته المشهورة عن الحجاب، التي يشيد فيها بفضل المرأة ويعتمد على الآية ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف... في مطالبته بالتحرير الكامل للنساء.

وأخيرا السيدة ملك حفني ناصف التي نشرت، بعد استئذان أبيها - أحد علماء الأزهر القدماء - قصيدة تحتج فيها بأن رفع الحجاب، إذا كانت المرأة فاضلة، ليس بشيء ذي ضرر؛ أما إذا كانت نيتها سيئة فلن يجدي معها أي حجاب.

ومن المحتمل أن نشهد عاجلا أو آجلا زوال عادة التحجب في الشرق في الوقت نفسه الذي تحاول بعض الأوربيات المتأنقات ادخال موضة النقاب التركي في المجتمع الغربي. وبهذا تخلع زهرة الجمال الإسلامي ذلك الثوب اللطيف الذي كان يحفظها من الأعين. ولكن ألن تأسف النساء الشرقيات على السحر الخفي الذي كان يسبغه عليهن النقاب ؟ وهل يحدث فيما يجدنه من الازدهار تحت أضواء المدينة القاسية ما يعوضهن عن ذلك ؟ أننا نخشى أن تخرج الشرقية إلى الحياة العصرية، وعيناها مبهورتان بأحلام الحريم فيتنابها الرعب لما تشهده لدى أخواتها الغربيات، اللائي يسعين للعيش ويناضلن في دنيا الرجل، من أمثلة الشقاء والبؤس الكثيرة. ولكننا لا نريد أن نصدر حكمنا في هذه المسألة الشائكة (١) وعلى أي حال فإن أهمية مثل هذه الإصلاحات وإمكانها يختلفان اختلافا كاملا، حسب البلاد التي تهمنا، ولذلك فإن من المحال أن تؤدي بنا مناقشة المسألة إلى وضع قاعدة شاملة.

ولكننا، مع ترددنا في إصدار حكم في الإصلاحات التي عرضناها، نعترف صراحة بدون قيد، بأن تعليم المرأة ضرورة بالغة الأهمية بالنسبة إلى مستقبل الإسلام.

والتعليم ليس له علاقة بالتقاليد والعادات التي عرضناها آنفا، وهو يساير

(١) لم يصدر المؤلف حكما في هذه المسألة ولكن ما أورده إنما كان لإظهار مرونة الإسلام ومسايرته لمختلف الأزمان، ولقد قال مرة أحد كبار المفكرين أن معنى الحجاب في الإسلام هو أن تحتجب المرأة عن مواطن الريب

كل المسيرة جميع تعاليم الدين، وقد كان في عصر ازدهر الإسلام يفيض على المسلمات، وكانت ثقافتهن حينذاك أرفع من ثقافة الأوربيات دون جدال

والواقع أن التعليم في الشرق لم يتأثر كلية مثلما تأثر في بعض أقطار المغرب ...

ومنذ بضع سنين، والكثير من المسلمات يشغلن أوقات فراغهن في خدورهن بالتعلم وقد بدأ مستواهن الثقافي يرتفع عامة.

وعلى التعليم وحده يجب أن يعتمد التطور الاجتماعي، في الميادين التي فيها ضروريا، على أن يقدر ويوجه بحيث لا تكون له آثار غير محمودة في نظام الأسرة (١)

---

(١) وكثيرا ما يخلط الكتاب بين الحديث عن تعليم المرأة والحديث عن مسألة الحجاب، ويبين المؤلف أن لا صلة بين الحديث في هذه وتلك

خاتمة

الإسلام والعصر الحديث :

فإذا ما فصل في مسألتي تعدد الزوجات وتحرير المرأة، (وهما المسألتان الوحيدتان اللتان يجد نقد الناقدين فيهما ظاهرا من الحق) ، بدأ الإسلام على حقيقته : دين يتمشى في روحه تماما مع أحدث الاحتياجات والأفكار العصرية ، حتى أن رجلا من الإنجليز هو أورالد ويرث كتب يقول : إني تبينت أنني أدين بدين الإسلام دون شعور مني بذلك ، كما تبين المسيو جوردان ، أنه يتحدث النثر دون علم منه بذلك ، أما جرت ، فإنه بعد أن درس أصول الإسلام أعلن : إذا كان الإسلام هو هذا ، أفلا نكون جميعا مسلمين ؟!

وبعد مدة يسيرة من الزمن سيكون من حق الإسلام المطالبة بحقه في الحضارة الحديثة ، لأن الأساطير الصبيانية المفتراة عليها من عهد الحروب الصليبية إلى الآن لم يبق أحد يجرؤ على التسليم بها .

المسلمون ومساعدة فرنسا :

وبينما نحن نصل في كتابنا إلى هذا الحد إذا بأوربة تفاجأ بأعظم حرب عرفها التاريخ متفجرة في قلبها ، ونشاهد ألوفا من جنود المسلمين من سلالة غزاة مدينة بواتييه ، قد أغاروا من جديد على فرنسا كلها .

ولكنهم لم يأتوا هذه المرة فاتحين كما جاء آباؤهم الغزاة ، بل جاءوا أصدقاء وإخوان سلام ، دعاهم حلفاؤهم إلى مشاركتهم في الجهاد الذي يتوقف عليه مصير الحضارة فأخلصوا في الدفاع عن الحضارة إخلاصا أثار إعجاب حلفائهم وكل من وصلته أخبار بسالتهم ، وبهذا غرسوا الإسلام إلى الأبد في قلب أوربا بأمجد طريقة وأشرفها ، أعني بذلك قبورهم : الكثيرة التي تغطي أرض فرنسا .

وأوربا اليوم أرضها تحوي عددا من أتباع النبي محمد ، وهم بعد أن أدوا

مثل هذه الخدمات للحضارة يشق عليهم أن يحرموا من شئ استشهد الكثير منهم فى سبيل الدفاع عنه . وليس من المعقول أن تكون خدماتهم الجليلة للحضارة والمحافظة عليها ، وأسوتهم الحسنة التى أنتهت بتفهم الناس لحقيقة الإسلام وبساطته البديعة بإزالة الكثير من الإتهامات التى كانت للناس فيما مضى – لا تحدث فى بعض نفوس الإوربيين أفكارا جديدة عن الإسلام ليس فيها إفتراؤهم السابق .

تطلع اوربا إلى الروحانية :

وكثير من ذوى العقول المستنيرة بعد أن أفاقوا من غفلتهم ، وبعد أن عرفوا إخفاق المذهب القائل بأن العقل يستقل بالمعرفة ، يسعى جاهدا لتعرف الهداية .

وأن مذهب الحدس الذى يتهافتون عليه ، خلف حامل لوائه المسيو برجسون الشهير ، وهوعبارة عن رد فعل واضح لمذهب استقلال العقل بالمعرفة ، او بتعبير ادق : هو رد فعل لعجز مذهب استقلال العقل بالمعرفة .

وقدد جدد هذا المفكر ، فى قلوب الناس النهمين فى الإيمان ، آمالا كان يبدو أنها أنتهت الى غير رجعة ، فهو يؤمن فى خلود الروح . وبذلك تكون الحياة ليست مشتبكا عظيما لقوى عمياء ، وأن العقل وسيلة فقط من وسائل المعرفة . ومع تاكيده بكل هذا لم يزد على أن بعث افكارا طال عليها العهد وابرزها بطريقة يسهل فهمها ، واختار الوقت المناسب الذى يساعدها على أن تهيئ عناصر دين جديد ، يشعر كثير من الناس بشدة حاجتهم اليه . (أنظر كتاب حقائق الحياة لجوستاف لوبون) . أن حركة هذا الفيلسوف لا تقاوم ، وخصوصا بعد دماء كثيرة سفكت بعد فتن عظيمة ، وسنشهد اذن مجهود الديانات القديمة والحديثة وهى تعمل جاهدة لاحتكار هذه الحركة لفائدتها ، ولكن المذهب القائل بإستقلال العقل بالمعرفة ، وحتى فى حال أنهزامه ، لن تكون ثمرته اقل : وسوف يقيم عقله كاداء بين العقل والعقائد التى تتصادم معه تصادما عنيفا .

ومن جهة اخرى ، الا ينبغى لنا أن نحسب حساب النزعات الصوفية

العاطفية الشاعرية ؟ اليست تلك النزاعات عللا جوهرية فى وجود كل دين ؟ واذا اردنا تلخيص الإمر فى جملة واحدة ، فلا نستطيع أن نقول : أن الزم لزوميات الدين العصرى هى تلك التى يتميز بها الإصلاح الدينى المتطرف من توحيد يكسوه ثوب رائع من الشاعرية ؟

وحينئذ يكون الإسلام قد توافرت فيه شروط الدين الحنيف الذى يتوقون اليه ، اذا تجرد من الزبد الذى طغى خلال جريانه . وقد نشات جماعات صغيرة من الإوربيين الداخلين فى الإسلام من أنجلترا وامريكا ، احداها ، وهى التى يديرها المستر كويلم ، تقيم فى ليفربول ، منذ عدة سنوات ، واشتهرت بأن معظم من دخلوا الإسلام فيها من النساء . ولقد كان إسلام عضو بارز فى إنجلترا ، وهو اللورد هدلى الذى تبعه فى الإسلام بعض وجهاء لوندرة واعيانها وقع فى النفوس ، وتنشر الجماعة الإسلامية مجلة شهرية تدعى المجلة الإسلامية التى اسسها هذا الرجل العالى القدر ، نقتبس منها ردها على السؤال الذى كثيرا ما يرد وهو : لماذا اسلم بعض الإنكليز وغيرهم من الأوربيين ؟

ذلك لأنهم كانوا يلتمسون عقيدة سهلة معقولة عملية فى جوهرها ، لأننا نتبجح معاشر الإنجليز ، بأننا اكثر اهل الإرض تشبثا بالعمل . عقيدة تكون ملائمة لاحوال الشعوب جميعا واعمالهم وعاداتهم . عقيدة دينية صحيحة يقف المخلوق بها امام الخالق بدون أن يكون بينهما وسيط (شلدريك) .

من مميزات الإسلام :

وهناك شيء مهم ، وهو إنتفاء الواسطة بين العبد وربه ، وهذا هو الذى وجدته العقول العملية فى الإسلام ، لخلوه من الإسرار وعبادة القديسين ، ولاحاجة به الى الهياكل والمعابد لأن الأرض كلها مسجد لله ، وفوق ذلك قد يجد بعض اهل مذهب الإعتقاد بالله دون غيره من المصريين المتحيرين فى التعبير عما يخالج نفوسهم من التطلع ، قد يجدون فى الإسلام المذهب

التي للاعتقاد بالله فيجدون فيه ابدع واسمى اعمال العبادة وما يمكن أن يتخيله من معنى الفاظ الدعاء . ثم تزيدك شاهد اخر ، وهو قول شرقيس : الإسلام يحقق ابلغ معنى لفضيلة الإيثار على النفس باقل بحث فيها من الوجهة النظرية . وقد حصل فى فرنسا وفى بلاد اخرى من اوربا وافريقيا واسيا دخول اشخاص فى الإسلام فرادى ، وربما كان ذلك مصداقا لهذا الحديث النبوى الذى معناه "قد يزيد الله هذا الدين بالغرباء منه" [1]

ومن مميزات الإسلام الأصلية ملاءمته لجميع الأجناس البشرية ، فلم يكن العرب وحدهم الذين اتبعوا الإسلام ، بل كان من ضمنهم من هو من فارس كسلمان الفارسى ، وبعضهم من النصارى كورقة [2] وبعضهم من اليهود كمخيريق وعبد الله بن سلام ، وبعضهم من الأحباش كبلال وغيرهم، وجاء فى القرآن الكريم : «وما ارسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا» «السورة ٢٤ الإية ٢٧» .

فدين الرسول محمد عليه السلام ، قد اكد ، من الساعة الأولى لظهوره ، وفى حياة النبى عليه السلام ، أنه دين عام صالح لكل زمان ومكان، ولذا كان صالحا بالضرورة لكل جنس كان صالحا بالضرورة لكل عقل ، اذ هو دين الفطرة ، والفطرة لا تختلف فى إنسان عن اخر . وهو لكل هذا صالح لكل من درجات الحضارة ، وهو على ما فيه من تسامح وبساطة ، سواء بالنظر لمذهب المعتزلة ، او بالنظر لمذهب الصوفية ، يؤدى للعالم هداية وتوفيقا ، سواء فى ذلك الأوربى المتحضر والزنجى الأسود ، من غير أن يعوق حرية الفكر عن أحدهما ، ثم يزيد على ذلك بالنسبة للزنجى إنتشاله من عبادة الأوثان .

ثم هو لا يعوق الرجل العملى الذى يرى حياته فى العمل ويعتبر الوقت من ذهب ، كالرجل الإنجليزى ، وكذلك لا يعوق الرجل الصوفى والشرقى

(١) يعلق الإستاذ عبد العزيز محمد على هذا القول بقوله : لا يعرف حديث بهذا المعنى ، بل الإسلام صلة ورحمة بين جميع المسلمين مهما اختلفت اجناسهم وتباعدت اوطانهم (إنما المؤمنون اخوة)

(٢) ورقة كان على اتم استعداد للاسلام لو امر الرسول بالدعوة حال وجوده .

المتأمل فى بدائع الصنع ، ويأخذ بيد الغربى المأخوذ بسحر الفن والخيال . وليس هذا فحسب ، بل هو يستولى على لب الطبيب العصرى ايضا ، بما فيه من الطهارة المتكررة فى اليوم والليلة ، وتناسق حركات المصلى فى الركوع والسجود ، بما فيها من نماء للجسم وإفادة للصحة الجسمية والنفسية.

وعلى هذا فليس من الجرأة إذن ، أن نظن أنه إذا هدأت الزوبعة المروعة القائمة ضد الإسلام ، وضمن هو الإحترام لكل الشعوب والديانات ، أنه سيرى مستقبلا حافلا بأعظم الآمال وأعلاها شأنا .

فإذا ما دخل فى الحضارة الأوربية بفضل اشتراكه العظيم فى الحوادث فسيتضح سناه الحقيقى ، وستعرف الإمم المختلفة حقيقته التى حجبت عنهم زمنا ، وسيمد الكل يده لمحالفته ، متنافسين فى ذلك ، لأن قيمته قد خبروها ، وعرفوا ما يسكن فيه من وسائل القوة التى لا حد لها ولا نفاذ ... ولو نهض اتباع محمد عليه السلام وافاقوا من سباتهم العميق لرجع لهم عزهم السالف وتاريخهم المجيد وصاروا أمة لا تعرف الجور فى معاملتها لكل رعاياها ، لا فرق بين مسلم ومسيحى ويهودى ، وتبوءوا مكانهم الذى يليق بمجدهم أن شاء الله .

عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين

عاديتم منهم مودة ، والله قدير والله غفور رحيم

تم تاليف هذا الكتاب فى بلدة بوسعادة ، فى اليوم السابع والعشرين من شهر رمضان عام ١٣٣٤ للهجرة (٢٨ يوليو ١٩١٦ مسيحية) .

اللهم كن رءوفا بمؤلفيه . ولا تؤاخذهما على تلك الجرأة الطائشة التى دفعتهما – فى سعيهما الى الخير – الى محاولة تناول موضوع واسع كهذا ، مع ضآلة معلوماتهما .

ويا عليم اغفر لهما ما عسى أن يكونا قد وقعا فيه – بسبب جهلهما – من أخطاء فى سيرة جليلة كسيرة رسولك سيدنا محمد خاتم النبيين .

صلوات الله عليه وبركاته ...

وعلى آله وصحبه ...

آمين .

إتيين دينيه ، سليمان بن ابراهيم

الفهرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة عن حياة ناصر الدين وآرائه	٧
مقدمة المؤلف	٤٧
الفصل الأول	
الأذان . أداء الصلاة . أوقات الصلاة . وصف مكة . الكعبة والحجر الأسود . عين زمزم . زواج عبد الله أبى النبى .	٥١
الفصل الثانى	
مولد النبى . طفولته فى بادية بنى سعد . محمد والملكان . موت آمنة . أول سفرة إلى سوريا . محمد والراهب . الرحلة الثانية إلى سوريا . حديث بنيان الكعبة ووضع الحجر الأسود .	٥٨
الفصل الثالث	
عزلة محمد . محمد لم يؤلف القرآن . الرؤيا الصادقة . الوحى . المسلمون الأول . الجهر بالدعوة . القيامة . المناوشات الأولى . الأعمى . إسلام حمزة . عروض المشركين على الرسول . معجزة القرآن . الصد عن سماع القرآن	٧٣
الفصل الرابع	
هجرة المسلمين . إسلام عمر بن الخطاب . نفى بنى هاشم إلى الشعب . أكل الأرضة الصحيفة . وفاة أبى طالب وخديجة . خروج الرسول إلى الطائف . الإسراء والمعراج . إسلام ستة من أهل يثرب . بيعتا العقبة . المؤامرة ضد الرسول . .	٩٨

الموضوع	الصفحة
الفصل الخامس	
هجرة الرسول إلى المدينة . قصة سراقة . وصول الرسول إلى قباء . التاريخ الهجرى . الرسول يصل إلى يثرب . بناء مسجد المدينة . القبلة . الأذان . صوم رمضان . الزكاة وتحريم الخمر . زواج الرسول بعائشة . عودة اليهود والمشركين . الجهاد . غزوة بدر الإقامة ببدر ثم العودة إلى المدينة	١١٢
الفصل السادس	
زواج على . زواج الرسول بحفصة وبأم المساكين . معركة أحد . زواج محمد بزينب . غزوة ذات الرقاع . غزوة بنى المصطلق . التيمم . حرب الخندق . معاهدة الحديبية . .	١٤٥
الفصل السابع	
غزوة يهود بنى قينقاع . غزوة يهود بنى النضير . غزوة يهود بنى قريظة . غزوة يهود خيبر . اهتمام الرسول بالخيل . الشاة المسمومة . عمرة القضاء . رسل النبى إلى الملوك . غزوة مؤتة . فتح مكة . دخول الرسول مكة . الرسول بالصفا . غزوة حنين	١٧٩
الفصل الثامن	
خبر الإفك . غزوة تبوك . بلاد ثمود . وصول الرسول إلى تبوك وإقامته بها . الرجوع إلى المدينة . حجة الوداع . .	٢١٢
الفصل التاسع	
مرض النبى وموته . مبايعة أبى بكر . تشييع الرسول إلى مقره الأخير . صورة وصفية الرسول .	٢٢٧

الموضوع	الصفحة
الفصل العاشر	
وثبة الإسلام . أثر الحضارة الإسلامية فى أوربا . أثر المسلمين فى ميدان الفكر . أثر الأخلاق الإسلامية . السبب فى إنكار علماء الغرب آثار الإسلام فى الحضارة الغربية . سبب تدهور المسلمين . مستقبل الإسلام . عقيدة القضاء والقدر . التعصب . العلة فى بغض المسيحيين للإسلام . تعدد الزوجات . الحجاب .	٢٥٢
خاتمة : الإسلام والعصر الحديث . المسلمون وساعدة فرنسا . تطلع أوربا إلى الروحانية . من مميزات الإسلام .	٢٧٩

AL-MOSTAFA.COM